ثورات الربيع العربي

نظرة من الداخل ، وعامل ثقافة التشيع

د. صلاح جواد شُبّر



دار روافد

ثورات الربيع العربي

النظر من الداخل

عامل ثقافة التشيع



الإهداء

انت يا جنين العقل...... (الثقافة).....

منهم من وجدوكِ... ولكنهم فقدوكِ

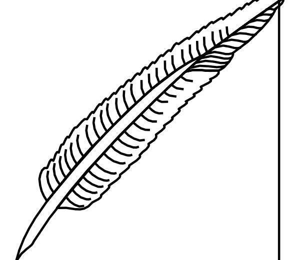
ومنهم من فقدوكِ... ولكنهم وجدوكِ

ومنهم من فقدوكِ... ولم يجدوكِ

لكل منهم أهدي كتابي هذا.... بالصفات، لا بالمذهب...

كما أهديه الى أبي الشهيد الخطيب (الجواد شبر) رائد ثقافة (الوجد الجنائزي).....

صلاح




بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة



إنّ ثورات الربيع العربي التي انطلقت في عام 2011 بعد واقعة حرق (بوعزيزي) نفسه في تونس، وانتشارها في دول العالم العربي بالتحديد، أمر لم يكن من السهل تفسير مسبباته العميقة. مع أنه من السهل أن ندرك عمومية الدوافع، وهي التسلط وغياب مفاهيم الإنسان والقبلية وتهميش المواطن وغيرها ممن فسرّها كل من حاول التطرق إلى الحدث.

فكلّ ما قيل عن الربيع العربي صحيح، ولكنه صحيح بنسبة، كما هو الطبيب الذي يحاول تشخيص مرض متعدّد الأسباب، مثل مرض السكري فإنه لا يخطئ في تشخيصه مع ضرورة الاعتراف بقصوره عن احتواء كلّ مسبباته. وهذا الأمر لا ينطبق فقط على عالم الثورات والتغيرات الاجتماعية، وإنما ينطبق على عالم الطب وعالم النبات وعالم قوانين الميكانيكيا والحرارة وغيرها من مظاهر حركة الحياة.

فالابتعاد عن التفسير بوحدانية العامل أمر أصبح من الأساليب القديمة في التحليل. وما ينطبق على التحليل المتعدد في تفسير الظاهرة، ينطبق كذلك على إلزاميّة توفر عنصر التخصص في التحليل والتفسير، فتشخيص المرض من النواحي المرضية (Medicine) والدوائية (Pharmacology) والوراثية (Genetic) والانتشارية

(Epidemiology) والمناعية (Immunology) وغيرها من فروع دراسة طبيعة المرض يتطلب متخصصين في كل علم من تلك العلوم التي ذكرتها ، وبغير التخصصات تلك والاعتماد على الطبيب العام فإنه بالتأكيد قد يتم معالجة المرض ولكنه يبقى ناقصاً واحتمال عودته وانتشاره ثانية أمر وارد وبنسبة كبرى .

فالثورات والتغيرات الاجتماعية تتطلب متخصصين في علوم وجوانب المجتمع وحركته وتوجهاته، والتي من الخطأ أن يدّعي المدّعي الديني (Theology) على سبيل المثال قدرته على تفهم مسيرة الجانب النفسي (Psychology) لذلك المجتمع ، فالتخصص الديني وتأثير عامل الدين على مجتمع ما اختصاص، والجانب السيكولوجي للمجتمع اختصاص آخر، كما هو اختصاص العامل الوراثي، والعامل الاجتماعي والعامل الجغرافي وغيرها من عوامل كثيرة أخرى يجب دراستها أو تناولها إذا بادرنا إلى تشريح الحدث الثوري بروح علمية محايدة .

نعلم كلنا ، ويشاركنا المتخصصون السياسيون والدينيون بأن حدث الربيع العربي قد تمّ تفسيره من خلال أهم منطوقين، وهما المنطوق الكلاسيكي القديم التابع إلى مسيرة عالم التهميش والاضطهاد وسلب حقّ المواطن . والمنطوق الثاني هو العامل الجديد وهو العامل الديني الذي بدأت مدرسته تدخل عالم التحليلات ما بعد عام 1979، وبالتحديد بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران من ذلك العام، والتي فتحت كوة إلى أولئك المحللين كي ينبروا إلى تفسير الأحداث والتغيرات باستعمال آلة الدين في التحليل .

وكلاهما بالتأكيد له حظ من التفسير والتحليل، وكلاهما صائب، ولكنها تحليلات مبتورة وناقصة بلحاظ عجزه عن تقدير النتائج في مطابقتها للتوقعات. فضلاً عن استعمال عامل (القياس المنطقي) (Syllogenus) كأداة من أدوات البحث، وهي الآلة التي يجب إلغاءها من مسار التحليل الاجتماعي، حتى وإن كانت تنطبق على الجانب الفقهي الإسلامي في استخراج ما عجز عنه العقل للحصول على النتيجة.

وهنا لنا من الشجاعة أن نعترف نحن العرب بعجزنا عن استنباط أداة لاكتشاف التغيرات الاجتماعية وكذلك تفسيرها بعد حدوثها. ولعله أيضا من الإنصاف أن نعذر أنفسنا في القول بحداثة الموضوع الثوري في المحيط العربي....... فالمجتمع العربي ومنذ تأسيسه، ولنقل بعد وفاة النبي ﷺ في عام 11 هجرية لم يمارس عمل ثوري جماهيري، ولم يقود ثورة شعبية بالمنطوق الشعبي المعروف إلّا اللهم الثورة المسماة (الفتنة الكبرى) على عثمان الخليفة في عام 35 هجرية. أما ما عدا ذلك فلم يكن هنالك خلال تقريباً خمسة عشر قرناً من الزمن من ثورة شعبية تنطبق عليها مواصفات ثورات الربيع العربي في عام 2011.

أختلف أو لا أختلف مع الآخرين، فلكلينا الحق في الاختلاف، ولكنني وللسهولة أقول بصدقية المقابل وخطأ رأيي حتى حين الانتهاء من قراءة هذا الكتاب، عندها يمكن لي أن أقول بقدرتنا في التوصل إلى قاعدة مشتركة فيما بيننا في تفسير الحدث.

والثورات الكبرى في التأريخ التي تنطبق عليها مصطلحات الثورات

الاجتماعية الشعبية هي الفرنسية أولاً في عام 1789، والبلشفية ثانياً في عالم 1917، والإيرانية ثالثاً عام 1979، مع أنني أظلم الثورة البولونية وكل دول المعسكر الشرقي وكذلك ثورات نيكاراغوا المميزة في أمريكا الجنوبية، أما الربيع العربي وثورته فهي سيدتهم وخصوصاً الثورة المصرية، ولو كانت تلك الثورات قد جاءت فرضاً فيما بعد لكانوا عيال على ثورات الربيع العربي والمصرية بالتحديد.

وما تم تقريره في تبرير غياب الاختصاص في تفسير الثورات تم تفعيله تماماً في فشل القدرة على اكتشافها في المحيط العربي، ذلك منذ كما ذكرت فترة وفاة الرسول، فقد حكمت الدول تلك الشعوب العربية أو المختلطة بأميتها بطريقة ربما تعتبر من أقسى ما تم التعامل مع الإنسان كمخلوق. في الوقت الذي لم يكن العرب (الشعوب) يمتلكون من نظرية اجتماعية أو تجربة تاريخية في صنع ثورة اجتماعية. وهذا عائد لأسباب أهمها هو عامل (البداوة) الحضاري الذي له سياقاته في تعامل الشعوب مع حكامها استورثته منذ عصر بداية قريش 450 ق. م. ثم تحوّل إلى كيان متداخل مع مفاهيم الدين الجديد الإسلام فيما بعد، فتحول إلى تركيبة واحدة من الصعب جدا أن يتم تقرير أين هو حد الإسلام، وأين هو حد البداوة وثقافة قريش. وهنا تحوّلت التركيبة إلى تشريع تم على أساسه وضع أسس العلاقة التي تحكم السلطة بالمحكومين، والتي على ضوئها بنيت المدارس الإسلامية العقائدية والفكرية أسسها وفقهها التي تدور حول مفهوم مهم وهو: متى يقتل (الكافر)...؟ والكافر هنا مصطلح واسع جداً ومطاط، ويشمل على كل من اعترض على الحاكم سواء أكان ذلك

الاعتراض شخصياً أو علمياً، أو سياسياً، أو فقهياً. . . . . فالكفر هو العنوان الكبير الذي تدور حوله المدارس الإسلامية التي انطلقت في ذلك الوقت مثل الأشاعرة والمعتزلة والخوارج والمرجئة والإسماعيلية والزيدية من جهة ومقابلها كذلك مدرسة آل البيت (التشيع) (الإمامية).

وهنا تحوّل الأمر الاجتماعي إلى أمر تشريعي، مع أن الحركة الاجتماعية متغيرة والدين بأحكامه ثابت، ولا يمكن قياس الثابت على المتغير. . . . فكل ما تعلق بأمور الحكم والحاكم والدولة هو إرث ديني محكوم بقوانين تشريعية وضعت على مدى القرون الماضية حتى القرن السادس الهجري وربما آخر من تكلم في ذلك هو العلامة الكبير الغزالي (ت 505 هج) المصادف 1111 م. مع أن هنالك الكثير ممن صب رأيه في تناول هذا الموضوع ولكنها تدور معظمها في رأي المتقدمين من مدرسة عقيدة الأشاعرة التي حكمت الدول إلى حين سقوط الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى.

بالتأكيد لم تنته مسيرة استمرار الحكم بسقوط اسم العثمانيين بل انبرت دول أخرى توزعت على محيط العالم العربي تمتلك ذات الأدوات، مع التخفيف في تعرف (الكافر) أو تأجيل تعريفه ولكن بصورة فيها الكثير من عوامل التجميل باعتبار أن فقه (العامة) (مدرسة التسنن) هو فقه (معصوم) (Falliable) من الصعوبة التطرق له وإلّا لحق تعريف الكافر بصاحب تلك المحاولة.

إنه لمن الصعوبة أن نعتقد بانفصال الفكر الموروث الديني عن فكر الدول العربية القائمة ما بعد زوال الدولة العثمانية وإلى الآن بشيء ما

في نظرية الحكم، بل من السذاجة أن نرسم خط التحول من خلال حقبة ما يمسى بالدولة العربية الحديثة. إنه ذات الآليات مع الاختلاف في الطرق بشكل يبدو للآخرين بحداثة التطبيق.

فخلال القرون منذ ذلك الوقت، وإلى أن نضجت الثورات الربيعية العربية كان هنالك أكثر من تداخل شاركت فيه عوامل كثرة جداً بعضها جغرافية وبعضها وراثية وبعضها علمية تكنولوجية وبعضها أممية وبعضها كذلك دينية في تغيير شكل المجتمع وشكل تركيبته ونوعية استجاباته إلى أن تحوّلت كل تلك المفاهيم في أن تكون علماً أو حدثاً موافقاً إلى ما فسره علماء متابعة تفسير الأحداث الاجتماعية الغربيين في استنباط مصطلح (الثقافة) (Culture)، وهو أحدث ما تم التوصل إليه (كآلة بحثية) في تفسير حركة التغيير الاجتماعية.

هذه الآلة مشابهة إلى أية آله علمية مهمة في اكتشاف عدة تغيرات لمرض ما في داخل الجسم الإنساني، فلم يعد اليوم نجد هنالك جهاز علمي لفحص الدم، وجهاز علمي لفحص كيمياء الكبد، وجهاز آخر لفحص ميكانيكية الغدد الصماء، وجهاز آخر لفحص مجريات عمل القلب، وآخر لعمل الرئة، وآخر للحوافز العصبية، وما إلى ذلك من أجهزة كانت في السابق كلها تعمل بانفصال عن الآخر إلى الحين الذي تم الآن وضع كل تلك الميكانيكيات في جهاز واحد يقدم نتيجة واحدة، بعد تفاعل كل تلك الأرقام وعملها وتأثير أحدهما على الآخر. . . فالثقافة هي ذلك الجهاز الجديد الذي تستعمله مراكز اكتشاف الأمراض وصحة الإنسان في الدول المتقدمة.

كما تمكن الغرب من اكتشاف ذلك الجهاز الطبي المتطور، فإنه اكتشف الآلة الأخرى المتعلقة بحركة الثقافة للمجتمع، وتمكن بتلك الآلة التخصصية من رصد التغيرات المحتملة ورصد الاستجابات في حالة العلاج، إلى أن آل الأمر الاجتماعي إلى علم كما هو علم اكتشاف المرض، والذي على أثرها كان له أن يساير تغيرات الشعوب وتوقعات الثورات والانتفاضات التي تنطلق من رحم تلك التغيرات.

في هذا الكتاب تابعنا مسيرة النهج العلمي في دراسة العوامل المؤثرة في مجتمع ما، ثم أحلناها إلى الجهاز الجديد المتطور (الثقافة) لمعرفة تأثير كل عامل من عوامل التأثير على الآخر حتى توصلنا إلى النظرية التي افترضناها في أن عامل (ثقافة آل البيت) أو كما سميناها (ثقافة التشيع) هي النتيجة التي يمكن من خلالها تفسير مسيرة الربيع العربي فضلاً عن القدرة على توقع انطلاقه في أماكن أخرى.

بالتأكيد هنالك أمران مهمان أتمنى على القارئ إدراكهما أو مساعدتي في التمسك بهما في أثناء المرور بقراءة فصول الكتاب، أولهما هو مصطلح (ثقافة التشيع) الذي لا يعني (مذهب التشيع)، فهو قد يشمله ولكنه لا يعنيه بالكامل، فالثقافة هي (كل)، والمذهب هو (جزء)، وما ينطبق على المذهب بالتأكيد ينطبق على مصطلحات أو مؤثرات أخرى كالدين في اصطلاحه. النقطة الثانية هي أن المنطلق من البحث هو (نظرية) وهذه النظرية محاولة أوليّة قد يمكن نفيها أو إثباتها من خلال ذات الوسائل البحثية، وفي كلتي الحالتين فإنني شخصياً وخصوصاً في احتمال نفيها، سيكون من دواعي سعادتي إزاحة عامل

ضاغط (الثقافة) عن مسيرة آليات البحث، لكي لا نتطرق له في مستقبل البحث باعتبار أن (سلبية) النتيجة هي (إيجابية) البحث.

فالحصول على نتيجة بحثية سالبة أمر لا يختلف في أهميته عن أن تكون النتيجة إيجابية، كما هو التوصل إلى أن مسبب مرض شلل الأطفال ليس بكتيريا. . . وهذه النتيجة ترفع مجال البحث لهذا المرض من محيط البكتريولوجيين إلى محيط علماء (الفيروسات).

وهنا تحوّلت كامل منهجية البحث إلى ساحة أخرى، وأجهزة أخرى مختلفة لحّد ما عن منهجية الافتراض الأول.

إنه ليسعدني أن يصب الباحث العربي جهده في اكتشاف ما يمكن اكتشافه في مسلسل التغيرات الاجتماعية سواء أكانت على مستوى الربيع العربي أم غيره، كما يسعدني في أن أرى ما افترضته في (شيعية ثقافة المجتمعات) التي تم تغييرها في أحداث الربيع العربي غير وارد من المنطوق العلمي البحثي، بل هو عامل آخر، كما كان قد سطره من تناول تفسير الحدث بالعامل الديني، أو عامل الاستجابة الإنسانية لممارسة الاضطهاد أو سلب الحق، أو العامل النفعي، أو القومي أو غيرها.

فكل من تلك النتائج في الواقع تصب في ذات المنحى الذي ارتأيت أن أقحم نفسي، فيما وجدت فيه من مجال مساعد في إثراء العقلية العربية والعقلية الباحثة عن مستقبل أفضل لأجيال شعوب لم تزل تعيش ضمن حضارة البداوة ممارسةً، مع إلباسها برقع التقدم مظهراً.

أقدم لقارئي العزيز باكورة إصداراتي المتعلقة بالثقافة الإنسانية والتي أتوسل إلى الله أن يعينني في المواصلة على سبر هذا الجانب البحثي المهم في إصدارات أخرى تجد طريقها إلى العقل العربي المتعطش للحقيقة العلمية، وليس لي في هذا المسعى إلّا أن اسأله من قادر أن أكون قد اقتربت بشيء ما من شطآن الحقيقة قبل أن أفكر في لجّتها.

يعذرني القارئ حتماً في تجنبي التطرق إلى الجوانب الدينية أو السياسية أو الوطنية أو المذهبية في تناول تفسير الموضوع، وهو ما ربما يثير حفيظة أصحاب الأفكار الأخرى وخصوصاً الدينية منها، التي ترى في ذلك ظلماً للمبادئ التي بنيت عليها تلك الأفكار.

أقول ذلك بلحاظ أنني أبداً لن أقصد ذلك مع اعترافي بقصور جوانب واسعة من تفرعات الموضوع لما له من سعة وشمولية لكل مفهوم من مفاهيم المجتمع والحياة والعلم. والعقل الواحد دوماً يكون عاجزاً أمام متغيرات متعددة وفي وقت واحد.

وأخيراً، لي على القارئ حق عدم القفز إلى النتيجة بجهتيها ما لم يتم البحث عقلاً في مسلسل الآليات، فالنظرية لو تحوّلت إلى حالة تبضيعية فإنه من الصعب رؤية الهدف.

صلاح جواد شبر
المستشار في وزارة الصحة العراقية
salah.shubber@yahoo.com, Facebook: Salah Shubber



الفصل الأول

أول حدث تأريخي على مدى

أربعة عشر قرناً من الزمن





باكورة ربيع براغ: كتب الكثير عن ظاهرة ما سموه بالربيع العربي وهي الأحداث التي انطلقت في عام 2011 وبقيت تتفاعل في المنطقة العربية وربما الإسلامية على وجه العموم، وكانت النسخة العربية اشد وأعمق في شكل الربيع وفي طبيعة تركيبته. ومع أننا لا نوافق مع من اخترع المصطلح المقارب بالشكل الربيعي الذي يعطي الأمل إلى الناس وإلى الشعوب في أنه ليس هو جو العنف الذي يمثله الخريف، ولا حر الصيف الحارق الذي تمثله السياسة كما هو (الصيف الهندي)[1] أو شتاء كندا[2]. فهو المفهوم الذي أطلق قبلاً على الربيع الأوروبي في عام 1848، وكذلك على أقرب ربيع إلى تأريخنا وهو (ربيع براغ) الذي قاده (دوبتشك) (ت 1992)[3] بعد أن فكر في أن

---

(1) مصطلح سياسي أصله كما يقول البعلبكي في قاموسه: هو نوبة من الطقس المشمس تحدث في شهر تشرين الأول وأوائل شهر تشرين الثاني في الولايات المتحدة وبريطانيا، كما يستخدم هذا المصطلح للدلالة على النوبة المبكرة من الطقس المشمس التي تحدث في شهر أيلول.

(2) مصطلح يطلق على الجو الواقعي في البرودة.

(3) عُيّن في 1968 أميناً عاماً للحزب. بعد أحداث ربيع براغ استقال دوبتشيك من زعامة الحزب الشيوعي عام 1969، عين سفيراً في تركيا، عام 1970 حتى 1986 عين في دائرة الغابات. بعد انهيار الأنظمة الشيوعية في عام 1989، أُعيد له الاعتبار، فتسلم رئاسة البرلمان التشكوسلوفاكي، وبعد انفصال سلوفاكيا عن التشيك عام 1991، =

ينهج في حكمه بطريقة أقرب منها إلى الوسطية فيما بين الشيوعية الفكرية الإيديولوجية وبين الفكر الاشتراكي الذي تدعو إليه أمم أوروبا الغربية وخصوصاً بريطانيا وفرنسا وألمانيا، فهو لم يكن انقلاب على الشيوعية كما هي التصورات التي قيل فيها وكما جرى في بولونيا عام 1989 والتي سميت بوقتها (الثورة المخملية).

هذه التنغيمة هي عبارة عن مسيرة لا يفهم منها إلّا من خلال المنطوق السياسي، ذلك هو الخروج عن إطار التوليتارية الحزبية السوفيتية الشيوعية والتوجه إلى التحرّر في عالم الفكر فيما يتعلق بالسياسة والتجارة والصحافة. فالإيديولوجية السوفيتية هي في الواقع خليط من السياسة والدين والتأريخ. فالكل أرثوذوكس تابعون إلى ذات الكنيسة الشرقية التي كانت في يوم ما تحت سيطرة القسطنطينية.

فقد تحوّل ربيع براغ بسرعة كبيرة إلى خريف غاضب لم يتمكن من الصمود مادياً إلّا أياماً معدودة في وجه القوة السوفيتية العسكرية، مع أن المواجهة لم تحصل أصلاً بسبب سطوة وكثافة قوات (حلف وارشو) التي دخلت في صيف 1968 من شهر أغسطس العشرين منه. . . كانت التسمية غير موفقة في العرف العام العربي مع أنها كانت اسم ذو دلالة بالنسبة إلى الغربيين الذين تمكنوا بسهولة من فهم أحداث الدول العربية من خلال استعمال أداة القياس (Syllogenus) والتي كانت تعني (الإصلاح) أكثر مما تعني (الثورة) أو الرفض.

= تسلم دوبتشيك رئاسة الحزب الاشتراكي السلوفاكي. في 1992 توفى بتعرضه لحادث سيارة.

انعطاف خطير: ومع أن الأحداث في مجملها كانت عملية انقلابية بكل ما في الكلمة من معنى، وهو ربما أول حدث على مدى ألف وخمسمائة عام ومنذ سنة 11 هجرية (أي بخلافة الصديق) تصطدم به النخب الحاكمة أو القوى التي تحمل فلسفة (مدرسة الخلافة)[1]، ومع أنني على علم بأن التعميم الذي قدمته تواً قد يغضب الكثير من الإيديولوجيين والسياسيين وبعض الوطنيين، باعتبار أن هنالك كماً هائلاً من الثورات التي انطلقت في خلال القرون الأربعة عشر، ومنذ تأريخ استلام الصديق لمقاليد الحكم وإلى الآن، وربما أقربها لنا وقبل تأريخ الربيع العربي بقليل هي الثورة الإسلامية الإيرانية. هذا إذا كان الحديث يدور بيننا وبين الإسلاميين. وذات الشيء يعترض السياسيون والوطنيون على تلك العمومية وممن اعتبر ثورات التحرّر من الاستعمار رمزاً كبيراً في أسبقيته على الربيع العربي، وهنا لا أحب أن أتوجه إلى مناقشة تلك الاعتراضات بقدر قولي لهم بأنني سأكون عند حسن ظنهم في تناول كل تلك المظاهر الثورية عندما نأتي لها تباعاً.

(1) (مدرسة الخلافة) هي النظرية الفكرية والفقهية التي وضعت على أساسها قواعد الحكم في فترة الدول التي حكمت منذ انتقال النبي إلى بارئه وإلى حين فترة الألفية الثالثة في العقد الثاني منه. وقد كان منظروها من الناحية الفكرية قد برزوا في القرن الثاني الهجري واستندوا على مسيرة الشيخين بصورة رئيسية كسنة في وضع أسس تلك المدرسة من الناحية العلمية والتشريعية. وقد كتب بتلك النظرية الكثير من الشخصيات الإسلامية قديماً منهم الأشعري أبو الحسن (ت 327) وكذلك الغزالي الإمام (ت505) في كتابه الاقتصاد في الاعتقاد، وغيرهم كثيرون تجد كامل البحوث في ذلك في المقال: الاستيلاء على السلطة بالقوة بين النظرية والواقع، للكاتب د. ستار الفهداوي، المنشور في مجلة كلية الشريعة، الجامعة العراقية، بغداد العدد الخامس (ب) السنة الثالثة، 2013.

فلم يكن حدث الربيع العربي شيئاً عادياً في حياة الشعوب التي أرغب في أن أسميها العربية أو ربما الإسلامية وقد أبدّل المصطلحات أحياناً، ولكنها تبقى تعني نفس المفهوم في العرف السردي أو التوثيقي. بل كان الحدث أكبر كثيراً من عقل المواطن العربي العادي وحتى المثقف، فهو حدث لن تتمكن أيٌ من الشرائح الاجتماعية أن تدعي انتسابها إليه، أو أنه جاء رداً على مفهوم فكري قومي أو ديني أو سياسي، فهو حدث هجين (Hybrids) شاءت الأقدار أن يبرز في عالم تكنولوجيا (التهجين) (Hybridization) التي تنتقل ما بين البيولوجيا والوراثة والطب والعلوم الأخرى الصناعية.

ويمكن لنا أن نقول فيه بأن أب الثورات العربية أو أب الربيع العربي لم يتمّ تحديده بعد، أو لم يُشخّص، فهو مجهول ومطلوب من السلطات إلقاء القبض عليه وتقديمه إلى المساءلة لمعرفة واقعية الأب هذا، فالتهجين هي عملية لا تختلف بشيء ما عن التقاء ما يمثل الذكر وما يمثل الأنثى مع تدخل الإنسان في البحث عن أفضل النوعيات التي يرغب بها لإضافة الفائدة على حياته، وذلك من خلال تغيير نوعية كلي أو أحد الأبوين[1]. وهذا معناه بأنه من الصعوبة لفكرة أو توجه إيديولوجي الادعاء بانتماء هذا الهجين له، وخصوصاً الإيديولوجيين الإسلاميين الذين ما فتئوا في تصريحاتهم ادعاء الربيع العربي بأنه ناتج طبيعي للفكرة الإسلامية، وأنه ليس هجيناً بل هو مولود كان قد بقي في

(1) فقد يقال سيارة هجينة تلك التي تعمل بالكهرباء والبنزين، ويقال حنطة أو ذرة مهجنة، وكذلك حيوان مهجن ونفس الشيء عن علم الأجنة في الإنسان.

رحم أمه بقدرة قادر إلى أن ولد في ذلك الظرف[1]، بالتأكيد لهؤلاء رأيهم الذي ليس لنا مناقشته باعتبار أن الدلائل الاجتماعية من الصعوبة إثباتها على طريقة الدلالات الرقمية العلمية أو البيولوجية، فكل قول مهما كان اقترابه أو ابتعاده عن واقع الطبيعة من الصعب نقضه إلّا من خلال لغة التوثيق والأرقام، وهذا معناه بأن الجانب التاريخي والجانب الثقافي أمر ليس له من ثوابت يمكن الاستدلال عليها في صحة أو خطأ الرأي[2].

(1) هو رأي فقهي يلتزم به أكثر من مذهب: فقد روى أبن جريج عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت: يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحول ظل المغزل، ذكره الدارقطني. وقالت جميلة بنت سعد - أخت عبيد بن سعد، وعن الليث بن سعد - إن أكثره ثلاث سنين. وعن الشافعي أربع سنين، وروي عن مالك في إحدى روايتيه، والمشهور عنه خمس سنين، وروي عنه لا حدّ له، ولو زاد على العشرة الأعوام، وهي الرواية الثالثة عنه، وعن الزهري ست وسبع، قال أبو عمر: ومن الصحابة من يجعله إلى سبع، والشافعي: مدة الغاية منها أربع سنين، والكوفيون يقولون: سنتان لا غير...... (بالتأكيد العلم ينفي كل ذلك جملة وتفصيلاً).

(2) يكاد أن يكون من المستحيل إثبات صحة أو عدم صحة الروايات التاريخية التي تمتلئ بها كتبنا من أقاويل وأحاديث وروايات وما إلى ذلك، وقد يمكن السؤال عن استحالة نفي كل ذلك لأنّ الدين كله قائم على تلك الروايات والأحاديث فكيف يمكن للجيل الإسلامي أن يواصل مستقبله وهو في انقطاع عن ماضية..؟ وهو ذات الشيء الذي عانته الديانات الأخرى المسيحية واليهودية. الجواب هو أن الديانتين الإبراهيميتين حاولتا ولازالتا تحاولان أن تُفعّلا آليات علوم أخرى في إثبات أو نفي الروايات الدينية أو التاريخية، وهي علوم الاريكيولوجي والانثروبولوجي والابستمولوجي وغيرها من العلوم التي يتم الاستعانة بها في تقرير صحة الماضي بقدر ما. كما هو في ذات الوقت يتدخل العقل الإنساني إلى جانب تلك الوسائل، والتي في الحقيقة هي فروع من إبداعاته، ولكنها آليات مبرمجة لها القدرة على تحديد نوعية الماضي ودرجة اقترابه من الصحة خصوصاً العلم الأول وهو علم الآثار الذي يعتبر حجة متقدمة في الدلائل.

فقد نجد هنالك صعوبة كبرى في تمكن الجيل الإسلامي ولحين الزمن الحالي في يومنا هذا التثبت من حقيقة الجسور الفكرية والثقافية والروائية المتسلسلة والمتفقة مع منطق العقل. وهذا تماماً ما يعيشه جيل اليوم بعد أن اصطدم بتراث لم يثبت علمياً ومنطقياً من خلال أدوات العقل[1]، فنضطر عندئذ أن نلتجئ إلى وسيلة أخرى سُميّت القياس (Syllogenus)، وأحياناً الاستقراء (Induction) وأحياناً الاستحسان، والإجماع، وما إلى ذلك من وسائل مهمة استعان بها الإنسان أملاً منه في تطوير قدرات الوصل إلى حقائق المشاهدات التاريخية والعلمية.

السببية وتفرعاتها: ومهما قيل عن سببيّة الربيع العربي وجذوره فهو عمل ناقص من الناحية العلمية الرقمية بل هو تحليل كما يحلل العلماء ظاهرة بيولوجية أو اجتماعية أو تاريخية ولكنها ومن خلال تجميع أكبر عدد من تلك الشواهد تستوضح الصورة بالشكل الذي يبدو أمام عقل البشر بأنها صورة فعلية أو قريبة من الواقع.

فالربيع العربي مع أنه حركة كبرى ضخمة كانت قد انطلقت من

---

(1) هنالك الكثير من المدارس الإسلامية لا ترى من سلطان للعقل على جانب الرواية باعتبار أن العقل ليس دوماً ما يمكن الركون إليه في تقرير الحقائق، وهو قول لا يمكن نفيه ولا واقعيته، فالعقل الإنساني قاصر في أمور كثيرة عن إدراك ماهية الحقيقة سواء أكان ذلك في العلم البيولوجي أو العلم الشرعي أو التاريخي. وهنا تم الاستعانة بأكثر من قرينة في التوصل إلى الحقائق التي غالباً ما تبقى في تطور لا يمكن الوصول إلى كلياتها مائة بالمائة لأنّ الحقيقة في حركة دائمة، وهذا معناه هو أن الإنسان عليه أن يبقى في صراع مع نفسه من أجل الوصول إلى أكبر نسبة من تلك الحقيقة.

مسببات، الكثير منها اقتصادية أو سياسية أو شخصية أو دينية، ولكنها تبقى تبحث وتحتاج إلى قدرات بحثية إضافية كما هو البحث في مرض مهم للإنسان، مثل شلل الأطفال الذي حتى وإن تم التخلص منه تماماً في العالم فإنه يجب المواصلة على الاستمرار في البحث وعدم التوقف في سبر أغوار الجانب الانتشاري (Epidemiology) أو الجانب الجيني (Genology) أو الجانب المناعي (Immunology) أو غيرها من جوانب ذلك المرض.

وهذا التطور في ملاحقة التغيرات التي تحدث في المرض أو في الجرثومة يعتبر جزءاً مهماً من عملية منع مستقبل الإصابة به، حتى وكما ذكرت بأن العالم صار خالياً منه تماماً وهذا لسبب بسيط هو: أن الجرثومة المسببة للمرض (الفيروس) لا زالت حية وموجودة في الكثير من الأماكن التي يقترب منها الإنسان. وهذا من الناحية العلمية مهم جداً في سبيل تطوير الجانب البحثي الذي يعمل على توسع القدرة العقلية والإبداعية للإنسان الذي يتطور مستقبلاً ليس باتجاه هذا المرض بالتحديد، بل في حالة وجود احتمالات أمراض أخرى لم يكن للإنسان قد أتم معرفتها.

لم يتمكن الغربيون وهم سادة البحث من أن يناقشوا الموضوع (الربيع العربي) من الناحية التجريدية، وأن يدرسوا الظاهرة بصورة بعيدة عن الانفعال. . . تلك الظاهرة التي كانت (تسانومي) العرب.

فقد أثبتت الدراسات الكبرى بأن العرب هم من أقل الشعوب التي تتبنى مبدأ الثورة في التخلص من الحكام سواء أكان الحاكم مسلماً أو

غير مسلم، فظهور هكذا ربيع في المحيط العربي يعتبر غريباً كما هو ظاهرة سقوط الجليد في خط الاستواء أو ما شابه. وكأن طاعة الحكام أمر متأصل مزمن (Chronic) وعلاج الظاهرة المزمنة مرضية كانت أم اجتماعية أو نفسية تحتاج إلى استراتيجية معينة للتعامل والتخلص منها، حيث أن ذلك يعتمد على مسارين من التفاعل أحدهما خارجي والآخر داخلي.

فكانت المفاجئة تلك أن ألزمت الغرب في تفسير آليات انطلاق الربيع العربي من خلال مشابهته مع الدول الأخرى التي سقطت فيها الأنظمة أو أحداث الربيع كما هي دول أوروبا الشرقية أو جمهوريات الاتحاد السوفيتي التي انفصلت في أعوام التسعينيات من القرن الماضي. أو حتى أحداث أمريكا الجنوبية بدولها وطريقة تعاملها مع الفكرة الجديدة.

ومع أننا لسنا في معرض التقليل من القدرات التحليلية التي اتحفتنا في تفسير ذلك الحدث التاريخي، فإنه في ذات الوقت لم تتمكن آليات تفسير الحدث من أن تقدم كامل التحليل وهو أمر طبيعي في المسار العلمي في أن يعجز الإنسان على تفسير حدث ما في يقع خارج مجال تخصصه التاريخي، أو البيولوجي أو الطبي أو ما شابه، أيضاً كما هو المفترض في أن القدرة التشخيصية لمرض مهم وخطير يجب أن تتم من خلال مجموعة من الأخصائيين وليس من قبل أخصائي واحد، باعتبار أن المرض له أكثر من جانب يجب الإلمام به.....

وما أريد أن أشير له هنا هو أن التخصص مطلوب وأنه أمر علمي،

وهو باب من أبواب التوسع في دراسة الأحداث أو الظواهر الاجتماعية أو الحياتية. وهنا فالغربي في تحليله إلى الربيع العربي يتطرق إلى تجربته مع الديمقراطية من خلال الشواهد التي عاشها منذ أيام الثورة الفرنسية عام 1789 وإلى ربما ثورات ما بعد انحسار الاتحاد السوفيتي.

الأصولية الإسلامية... انحسار أم تمسك...؟: فقد تلاوم المثقفون العرب فيما بينهم في عجز قدرتهم على توقع مسيرة الربيع العربي، بل أن الكثير منهم كان لا يرى للوجود الثقافي العربي (أعني الثقافة هنا بعكس الجهل) من تأثير على مجرى الأحداث، وإنما كان التوجه الأصولي الديني السياسي هو سيد الموقف.

فهل من الصحيح القول بأنّ الربيع العربي كان نتاج عمل الأصولية الإسلامية، وأن المثقفين (بالعموم) كانوا الجزء المغفل لتهيئة المستلزمات لذلك الربيع..؟ هذا القول هو ما يتغنى به الآن كل الإسلاميين السياسيين بدلالة أن الربيع العربي قد آل به الأمر أن يقع بيد الإسلاميين طوعاً أم كرهاً.... فهل أن الربيع العربي هو ربيع أصولي أرادت الأصولية الدينية السياسية أن تضع له عنواناً مختلفاً لتجنب الهجوم عليها في هذا الوقت...؟[1]. فالأصولية الدينية حاذقة جداً في نقل الصورة إلى عقل المواطن من خلال الانتقال من الحاضر إلى الغيب إلى الماضي بطريقة تخلط الأحداث في ذهن المواطن إلى الدرجة التي تبدو له بأن الربيع العربي هو من صنع الإسلاميين

(1) الانتفاضات العربية على ضوء فلسفة التاريخ، هاشم صالح.

السياسيين الأصوليين. فعندما يعجز الإسلامي عن تقديم تبرير لتفسيراته فإنه يستعمل عالم الغيب ولغة الميتافيزيقيا في التفسير، في الوقت الذي يعتبر المواطن العربي بأن التفسير الغيبي هو أقوى حجة من التفسير الإنساني، لأنه يربطه مباشرة بما يصدر عن مالك عالم الغيب.

وحار المثقفون العرب وباتوا يترددون في مواجهة جماهيرهم لما لحقهم من انتكاسة في معرفة وتقدير وتفسير الحدث الربيعي العربي. . . . . . بالتأكيد لم يكن المثقف العربي يعيش بين جماهيره وهي سمة عامة تشابهه فيها شخصية العالم الديني، فكلاهما يعيش في برج عاجي، ويتوقع من المواطن العربي أن يأتيه صاغراً لكي يقدم أمامه فروض الطاعة ويستشيره بما يعانيه في مشاكله اليومية الفكرية. فلم ير أحد منا محمد أركون، أو الطيب تيزيني، أو علي حرب، أو حسن حنفي، أو عبد الله العروي، أو هشام جعيط، أو صادق جلال العظم، أو محمد عابد الجابري، أو ناصيف نصار، أو جورج طرابيشي، أو رضوان السيد، أو محمد جابر الأنصاري يقود تظاهرة أو يشارك في مهمة شبابية مقاومة للسلطة في خطاب ويواجه عنفها، ما عدا ربما الشخصية المعروفة سعد الدين إبراهيم الذي يعتبر أهم منظّر ومشارك ومنذ زمن ليس بقريب لانتفاضات شعبية كبرى، كذلك شارك أيضاً في الساحات عبد الوهاب المسيري، وبالإضافة إلى قادة كفاية مثل البرادعي مع أنه شخصية علمية أقرب منها إلى الشخصية الاجتماعية.

والمشكلة الكبرى التي تواجه المواطن العربي هو أن الواقع العربي قد حاصر المثقف منذ ربما تأريخ الحرب العالمية الأولى في زاوية،

هذه الزاوية شارك المجتمع وشاركت السلطة في صنعها، تلك هي (نظرية العامل الواحد) حيث كانت وحدانيتها قبل ذلك في قوميتها ثم في دينها. فاعتقد المثقف وجوب انطلاقه في مخاطبة الأمة من منظاري القومية أو الدين، وأن اطلالته على مشاكل المجتمع يجب أن تكون من خلال هاتين النافذتين السحريتين لكي يتمكن من علاج واقع التخلف الفكري والعلمي والسياسي والاجتماعي.

وبذلك بقي مثقفونا يدورون في فلك القومية أولاً ثم الدين ثانية. ولو كان أو قُدّر للربيع العربي أن ينطلق مثلاً فيما قبل عام 1967 لكان الذين اختطفوا السلطة هم القوميون، وهو الذي حدث فيما بعد عام 2011 عندما كانت الموجة الدينية وخصوصاً الأصولية هي سيدة الساحة، وبانطلاق الربيع العربي لم يكن هنالك من جهة لها القدرة على قيادة النتيجة إلّا الخط الأصولي أو الخط الديني المسيس. فليس هنالك من دلالة أكبر من فشل الخط الأصولي فيما بعد استلامه زمام المبادرة في قيادة الحكم، وهذا معناه بأن الأصوليين الدينيين كانوا على ذات الدرجة من تخلف التوقع لنجاح الثورة شأنهم كشأن المثقف العربي. ولكن الفرق هو أن الأصوليين هم قوة ساحقة، بينما كان المثقفون هم نخبة.

وهنا علينا أن نعترف وبمرارة بأن الوضع الذي وصلت إليه الحالة فيما بعد نجاح الربيع العربي في الأقطار الأربعة تابع بالأساس إلى تخلف المجتمع بالدرجة الأولى وليس إلى الأصوليين الإسلاميين، فالأصولي الإسلامي وجد أمر جاهز أمامه جاءه على طبق من ذهب،

فهل من المعقول رفض ما جادت به السماء من نعمة الحكم والسلطة والمال والحيازة والتسري. . .؟، فالمجتمع هو من يجب أن يدفع الثمن، المجتمع الذي أعنيه كل المجتمع ومن ضمنهم المثقفون والأصوليون أنفسهم هم من المستفيدين. فالسنة التاريخية التي ستعمل قانونها سوف لا تستثنيهم أي لا تستثني حتى الذين حاولوا العلاج بطريقتهم.

عليّ هنا أن أقرر حقيقتين مهمتين قبل الانتقال إلى النقطة الأخرى، أولهما هو أن دور المثقف دور تراكمي لا يمكن رؤيته في بناء مسيرة ثورة، ففولتير وجان جاك روسو وديكارت كانت مساهماتهم غير مرئية في صناعة الثورة الفرنسية ولكن ليس هنالك من يختلف على دورهم الأساس الذي لولاهم لما كانت الثورة.

فمساهمة المثقف العربي في مسيرة ثورة الربيع العربي كانت حتمية، بل هي مما شارك في صناعة العقل العربي إما من خلال تكنولوجيا، أو إعلام، أو طريقة معارضة أو ما إلى ذلك. ومن الخطل الاعتقاد بهامشيتهم كلهم سواء أكانوا يساريين أو قوميين أو دينيين، مع أن الدينيين غالبا ما يكونوا أبعد ما يمكن عن حداثة الثقافة. ولكن مساهماتهم كبيرة حتى وإن لم يدركها المجتمع الآن، بل لعله يأتي اليوم الذي يتحسس المجتمع دورهم في الثورة.

النقطة الثانية هو أهمية تبني مفهوم بعد النظر في قدرة الحركات الجماهيرية على تغيير شرائح فكرية كانت ترى بأن فكرها هو الذي صنع الثورة، وأنها ليست معنيّة بالتغيير، وأقصد من ذلك الفكر الديني

الذي كانت الحركات الأصولية ترى فيه بأنه متقدم على الأفكار الأخرى، وهذا معناه بأنه أي (الفرقة الناجية) هو الذي يغير، وليس من يقع عليه التغيير، وأن الآخرين هم من يجب أن يستمعوا إليه، وليس العكس، وأن كل أولئك الجماهير ما هم إلّا كما يعبر عنها همج رعاع ينعقون مع كل ناعق. . . . !!!!. . . فقد غيّرت أحداث الربيع العربي مفاهيم مهمة في عقلية الأصوليين، مثل: مفهوم الديمقراطية التي كانت في السابق عبارة عن صورة لتفسير كلمة الكفر، وكذلك مصطلح الحرية التي كانت تعني بالنسبة لهم هو التحلل، وكذلك مصطلح الأمة التي كانت تعني في قاموسهم هو التحجر، ومصطلح الدستور الذي كان يعني لهم الجاهلية، ومصطلح السلمية الذي يعني في منهجهم الجبن، أو التحزب الذي يعني البدعة، أو مصطلح الأكثرية البرلمانية أو الشعبية والتي كانت تعني بالنسبة لهم مطابقة لمصطلح الظلال وهكذا. . . . . فالتغيير قد دخل حتى في عقلية التركيبات الايكولوجية التي كانت تعتقد بأنها ممنّعة أمام التغيير والحداثة. . . . هذا أولاً. . . . .

ثانياً: إن مفاهيم الثورة هي مفاهيم داخلية تنبع ليس من خلال طرق أكاديمية أو دراسية، وإنما هي مفاهيم تنطلق بصورة فطرية من داخله، كما يعبر عنها ديكارت (الضمير) الذي يولد مع الإنسان متكاملاً. وليس هنالك من له القدرة على تحويل الضمير إلى لا ضمير. . . . . فأفكار الثورة والانتفاضة والتغيير تنطلق من داخل الإنسان، وليس من خلال كتب أو قراءة. وهو أمر كما يقول العرفانيون مشابه للأخلاق التي هي أمر داخلي، وما الخارج المرئي من السلوك الأخلاقي إلّا المظهر أما الجوهر فهو الذي ينمو داخليا.

فالأخلاق، والرفض السلمي الثوري، هما ذات المفهوم باسمين مختلفين. فمن يدعو إلى الأخلاق يعني أنه يعني التغيير الثوري السلمي، ومن يدعو إلى المواجهة العنيفة فهو فاقد لعنصر أخلاقي داخلي. فليس من الصحيح الاعتقاد بأن الأخلاق أو التغيير الاجتماعي أو الثورة السلمية أو التخلص من الظلم أو التهميش هو من اختصاص قيادة معينة دينية كانت أم شعبية، بل أن الأخلاق هي أمر داخلي متأصل في ذات البشر وفي تركيبته وفي عمق خلقه. فحتى لو غابت كل القيادات الإسمية من ساحات الإنسان فسيبقى دوماً عامل التحفيز الداخلي وعامل الضمير وحركة السلم الأخلاقية الكبرى فاعلية وبطاقة كامنة كبرى يصعب أحياناً رؤيتها. هذا المفهوم من الصعوبة أن تتفهمه الأصوليات الدينية، لأن مفهوم الأخلاق ومفهوم الضمير مختلف كما وصل إليهم من خلال الأدبيات الدينية التي نقلتها الروايات الخاطئة إليهم.

فمهما حاول الإسلام السياسي، أو التوجه القومي أن يفسر الحدث الربيعي العربي بما لديهم من قدرات وخلفيات نابعة من ذات تخصصهم فإنهم قاصرون عن ذلك... سببه عدم تطابق الفرضيات مع النتائج، وهذا ما يدعوهم إلى الاعتراف بقصورهم الشمولي في تفهم أحداث التأريخ وأحداث الإنسان وعدم قدرتهم على مواكبة المفهوم الأعم الكبير وهو مفهوم (ثقافة الأمة) التي نتحدث عنها في هذا الكتاب.

إنه لأمر حتمي اختلاف الواقع العربي عن دول العالم الأخرى، هذا مع أن الاختلاف لا يخص فقط الدول العربية، بل أن لكل دولة من الدول من وضع خاص لا يمكن تطبيقه على وضع أية دولة أخرى، وهذا لا يشمل فقط جانب التحليل، وإنما يشمل أيضاً عملية الدمقرطة

والتحول وبناء الدولة وكل ما هو متعلق بهذا الجانب.... وبسبب ذلك الاختلاف المميّز كانت النتيجة مختلفة إلى الدرجة التي أصبح من العسير على المحللين أن يتفهموا السر وراء بقاء الدول العربية في الصف الأول في عداد الديكتاتوريات والتأخر الحضاري على مستوى الحكم والتنمية في العالم. والنتيجة هنا محكومة بالمقدمات، ومن الصعوبة معالجة مرض بدون تفهم أسباب (Agents) التغيرات حتى البيولوجية منها.

بالتأكيد يتشابه العرب في تحليلهم لظاهرة الديكتاتورية المتأصلة مع كل من تناولها من المحللين بمختلف طبقاتهم وجذور ثقافتهم. فلعل أصالة ديكتاتوريتنا تعتبر من أقدم ما أنتجه العقل الإنساني خلال أزمنة لم تكن مرتبطة بالقرون الحالية فقط، وإنما منذ عهد بعيد يضرب أطنابه في عمق التأريخ ومنذ زمن ما قبل العرب البائدة[1]. حيث تأصلت الديكتاتورية في كل مراحل التغيير الديموغرافي أو الفكري أو الديني أو غيرها، فبقيت حالة الديكتاتورية متجذرة بشكل تكاد تكون هي ذاتها منذ ذلك الوقت وإلى اليوم ثلاثة آلاف سنة تقريباً.

لنستعرض الواقع بشكل متدرج على ضوء تلك الحقيقة:

- زمن قريش منذ قصي وإلى البعثة 450 - 622 ميلادية.
- دولة النبي في المدينة 622 - 633 م. أي 11 هجرية.

(1) العرب البائدة هي فترة الانقطاع الحضاري ما بين عصور إبراهيم الخليل وبين ظهور قريش، وهم الأقوام الذين أبيدوا، والتي جاء ذكرهم في القرآن: كطسم وجرهم والعماليق وغيرهم (المفصل في تأريخ العرب، الجزء الأول، د. جواد علي).

- الخلافة الراشدة من حادثة السقيفة 11 هجرية إلى مقتل علي 41 هجرية.
- الأموية 41 - 132 هجرية.
- العباسية البغدادية 132- 656 هجرية.
- العباسية المصرية 656- 916 هجرية.
- العثمانية 916- 1325 المصادف 1912 م.
- عصر الاستعمار 1914 هجرية، إلى نهاية الحرب الباردة 1996.
- عصر العولمة 1996 إلى 2003 ميلادية سقوط بغداد.
- عصر الربيع العربي 2003 إلى 2011.
- عصر الانتقال الديمقراطي 2011 وإلى الآن.

هذه هي المراحل الرئيسية في التأريخ مع دولها التي حكمت باسم الإسلام كما رواها المؤرخون. مع أننا لا نتفق كثيراً مع طبيعة التقسيم ومع طبيعة التسميات التي أطلقت على نوعية تلك الدول، وهي من أهم وأخطر ما اقترفته أيدي كتاب التأريخ والرواة وعلماء الفقه. فالتسمية مهمة جداً لحالة الشيء، ومن الخطأ تسمية اليورانيوم ببلوتونيوم باعتبار أن الثاني هو نتاج الأول. نفس الشيء ينطبق على شكل العلاقة بين الدين والفرد، وبين الفرد ونسبه العشائري. فلكل اسم من تلك الأسماء معنى له في الذهن، ومن الصعوبة أن أنقل معنى معين باسم آخر(1) لأنّ الحالة

(1) ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

العقلية للمعنى مرتبطة بالاسم. فهنالك الكثير من الدول التي حكمت تحت ذات الاسم مع اختلاف المسمى.. منها على سبيل العموم لا الحصر:

البويهيون، الحمدانيون، السلاجقة، الخرفان البيض والخرفان السود، الخوارزمية، الطولونية، الاخشيدية، الموحدون، المرابطون، الأدارسة، الصفيريون، الإيلخانيون، القرامطة، الفاطميون، المماليك، المشعشعون، الفاطميون، المزيديون، الهرمزيون، الصفويون، المحرباتيون، الهوتيكياتيون، القاجاريون، الزنديون، البهلويون، الجلائريون، الزيديون، الأباضيون، الصفاريون... الخ من مسميات يصعب حصرها في هذا المقال.

تشترك كل تلك الدول التي طالت تقريباً معظم زمن العرب عند الغوص بشكل علمي بعيد عن الجانب الايديولوجي للخلفية التي يتحلى بها المحلل في مظاهر مهمة وهي النقاط التي يجب أن يتوجه لها المحلل السياسي في معرفة جذور حالة التأصل الديكتاتوري في البلدان العربية.

ولكن قبل الخوض في هذا البعد والغوص في أعماقه تثار أمامنا عدة أسئلة: منها:

1 - هل هو واقع اتفاق الغربيين وغيرهم على أن الدول العربية تمثل أقدم وأعتى ديكتاتورية، أم أن الأمر لا يتعدى أكثر من حرب فكرية ضد الإسلام والعرب كما هي الحرب ضد السامية..؟.

2 - هل التحليل التاريخي له علاقة بواقع الحالة الديكتاتورية المتأصلة...؟ أم أنه ترف فكري ليس إلّا..؟.

3 - وهل من الممكن أن تعتبر جذور التأريخ القديم ثلاثة آلاف سنة أو أكثر في أن تكون قرينة أو مادة تحليلية لواقع الموضوع مثار البحث. . . . ؟.

4 - ولأنّ ذلك انطبق على العرب فلماذا لم ينطبق على الشعوب التي تقترب في خلفياتها مثل الفرس والترك واليونان. . . . . ؟.

5 - ثم أخيرا من أعطى للحالة الغربية (الديمقراطية) منزلة العلو لكي تعتبر في العرف الإنساني بأنها الأفضل مما لدى ما يمتلكه العرب من حضارة أو دين. . ؟





الفصل الثاني

مسيرة الشعوب





ثقافة الإنسان.. مصطلح العقل: تبتدئ الحضارات كما يراها علماء التأريخ الإنساني من البدايات (الفطرية) (Innate) أي الأساسيات اللازمة للحياة، وهي ما يُعبّر عنه قرآنياً (كان الناس أمة واحدة) وهي الحالة (البدوية)[1] التي تمر بها البشرية أجمعها في بداية زحفها نحو التطور الحضاري من أجل استيعاب حياة الإنسان وحاجاته. وقد تشكلت دول العالم المتقدم على ركيزة الابتعاد قدر الإمكان عن (البداوة) التي تعتبر في العرف الإنساني متناقضة مع التقدم وفي مفاهيم المشاركة في خيرات الطبيعة. وبقدر ما تمتلك الحضارة من قدرة التحلل من تلك الصفات لدى الفرد فإن العلاقات التي تحكم أعضاء المجتمع أو الوطن تميل إلى الإيجابية في نتائجها بما يحقق توزيع حاجات الحياة إلى الآخرين، وبالعكس كلما اقتربت المجتمعات أو التجأت اعتزازاً بتلك المبادئ كلما تلكّأ توزيع الثروات إلى عموم الأفراد.

وهنا نلاحظ بأن الحضارات العالمية التي تصارعت على مدى

---

(1) هنا لا نعني من البداوة إلّا جانبها اللغوي وليس الحضاري وهو كذلك قول القرآن: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ [الحج: 25].

التأريخ الذي تمّ كتابته لنقل أربعة آلاف سنة من الآن، فإننا نراها قد تصارعت من أجل إفرازات حالة الاستئثار التي تمتلكها الحالة البدائية (البداوة). وكذلك جاءت الأديان من أجل تشذيب تلك النفسية الإنسانية بنفس الاتجاه، وهو انتزاع روح وإفرازات البداوة من المواطن، كذلك نلاحظ هذه الحقيقة في مسعى الدول التي اختلفت في تصنيفاتها إلى دول ديمقراطية ودول ديكتاتورية، وكلها تدور في ذات الفلك في توزيع الثروة والحاجة التي تنتجها الطبيعة ما بين الأفراد بشكل أقرب إلى العدل منه إلى الإجحاف.

فالديمقراطية في حقيقتها ليس إلّا حالة من حالات الإنسان يدركها أولاً بعقله وبسلوكه ثم تنتقل إلى المجتمع ومن بعدها إلى واقع الدولة، فالديمقراطية لا تطبق بقانون ولا بمرسوم ولا بقرار حكومي، وإنما هي حالة اعتقادية يمارسها أفراد المجتمعات داخلياً أولاً ومن ثم ينعكس على سلوكياتهم وعلاقاتهم وطريقة نظرتهم إلى الآخرين ممن يعيشون في ذات المحيط. علماء الانثروبولوجي[1] يسمون تلك الحالة (بالحالة الثقافية) وهو المصطلح الحديث الذي ربما لم نجد له في اللغة العربية من مرادف[2] فهو مصطلح غربي (Culture) تُرجم إلى العربية بمصطلح

(1) علم الانثروبولوجي هو علم سلوك الانسان، كما أنه يشمل أيضاً: علمُ الإنسان وأعماله وسلوكه، علمُ الجماعات البشرية وسلوكها وإنتاجها، علمُ الإنسان من حيث هو كائنٌ طبيعي واجتماعي وحضاري. علمُ الحضارات والمجتمعات البشرية، وكذلك من أقسامه هو الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

(2) (الثقافة) في اللغة العربية تعني بعكس الجهل أو ربما العلم والتعليم وما إلى ذلك فقد يقال شخص مثقف أي أن له إلمام بالعلوم والمعرفة، وهي قد تكون اسم وقد تكون مصدر.

(الثقافة) استعارةً وليس معنىً، وكما نتذكر كيف تطرقت قبل قليل إلى فكرة (الأسماء) التي علّمها الباري إلى آدم وأهميتها في نقل المفهوم التطبيقي إلى العقل الانساني. فالعرب لم يضعوا لذلك المصطلح ولحدّ الآن من معنى متحرك كما فعل الغربيون الذين طوّروا المفهوم بشكل كبير ونتج على ضوء ذلك المصطلح (الاسم) مع تفرعات علمية كبيرة ضخمة أثرت العلم، وأثرت عقل الإنسان بالعموم[1] بحيث صار المصطلح يعني مفهومين: وهنا سأحاول أن أختصرهما وأن أوفق في نقل المفهوم واضحا إلى القارئ:

المفهوم الأول: عملي وهو القدرة على تحويل ما اختزن في عقل الناس أو الأمة أو المجتمع من تراث تأريخي، ديني، وراثي، لغوي. . الخ، والتي نسميها تجارب (رمزية) لها قدرة متحركة خلّاقة باتجاه خدمة حاجات أفراد ذلك التجمع.

ولنقرّب المعنى بشكل أكثر بساطة ونمثلها بالكومبيوتر الذي هو في الواقع عبارة عن مخزن لرموز يتمكن بها الإنسان أو المشغّل من أن يحوّل تلك الرموز الجامدة إلى حالة فعل في استخراج حل معادلة أو تصميم بناية أو ما إلى ذلك. فالثقافة هي الكومبيوتر في هذا المثال للتبسيط. وهنا يمكن لنا أن نتبين أن العملية هي ذات مرحلتين جمع وتوجيه.

(1) علم الثقافة الانثروبولوجية الثقافي، علم الثقافة الآثارية، علم الثقافة الاجتماعية، علم الثقافة البيولوجية، علم الثقافة اللغوية، علم ثقافة الشعوب. . . الخ، ولكل علم من رواد وعلماء وبحوث كثيرة جداً، يراجع في ذلك:

http://en.wikipedia.org/wiki/Culture

المفهوم الثاني: تصنيفي (Taxonomy) لتكوينات المجتمعات أو الدول أو الديانات التي توصف من خلال خبراتهم، والتي تتميز بصفات يطلق عليها (ثقافة) مثلما نقول (ثقافة) إسلامية أو ثقافة (مسيحية) أو ثقافة جنوب أمريكية أو ثقافة هندية، أو ثقافة بدوية. وهذه المصطلحات لا تعني سلوكاً معيناً (دين، اجتماع، سلوك ذاتي) وإنما تعني محصلة كل سلوكيات أفراد ذلك المجتمع وتصنيفه بل تسميته بأنه ذو ثقافة معينة.

وممكن أن نصف ثقافة الغربي أو الأوروبي بأنها ثقافة مسيحية مع أنه قد يكون ملحداً كما هو جارلس دكنز (ت 1870) أو مثلاً نعوم تشومسكي يهودي الدين وجودي العقيدة في الوقت الذي لنا أن نقول عنه بأنه مسيحي الثقافة، ذات الشيء ينطبق على شخصية عقائدية مثل مالك بن نبي (ت 1973) أن نقول عنه بأنه غربي الثقافة، أو أن نطلق على المجتمع التونسي بأنه فرنسي الثقافة، أو على شخصية البوسنيين بأنهم مسلمو الثقافة مع أنهم لا يصلون ولا يصومون.

وهنا تحوّل المفهوم إلى مصنّف (على وزن مفعل) مهم في علم التفسير الإنساني لظواهر المجتمعات ولطبيعة استجاباتهم وتفاعلاتهم من كل مظاهر الحياة، فانتقل المصطلح من جانب التفسير العام التصنيفي إلى جانب البحث الاجتماعي أو النفسي أو العلم الإداري أو شؤون علوم الإنسان.

حضارة البداوة: كل المجتمعات في العالم تمتلك (ثقافة) بالمعنى (السلوكي) بل (ثقافات) مهما كانت تلك المجتمعات بدائية أو بعيدة

عن الحضارة، لأنّ (الثقافة) السلوك لا يرتبط بالحضارة ارتباطا عضوياً، بل أنه يرتبط بواقع السلوك والتصرفات لأفراد المجتمع، فقد نقول عن قريش بأنها تمتلك ثقافة (الرق) ونقول عن شخصيات الخلفاء بأنهم يمتلكون ثقافة (الإقصاء) وهكذا، وهو لا يعني بأن الثقافة هي (دين) أو أن الدين حاجز ثقافي أو بالعكس، بل أن الدين مفردة من مفردات تفسير حالة المجتمع. فقد أكون متديناً ولكنني أؤمن بثقافة القتل أو أكون قاتلاً ولكنني أؤمن بثقافة (العدل)، فالمصطلح هو تفسيري عبارة عن حصيلة كبرى من سلوكيات المجتمع.

إن المجتمع العربي هو مجتمع بدوي، والبدوي هو مصطلح مرتبط بالصحراء، وكما نعلم بأن الصحراء العربية هي أكبر صحراء في العالم. فالارتباط الصحراوي بالبداوة يكاد يكون متأصلاً، ولا يمكن لنا أن نرفع من مستوى البدوي إلّا بعد ن نُبعده عن المحيط الجغرافي الصحراء. وهذا المحيط أضفى على العرب أن يكونوا سادة البداوة في العالم (ليس هو ذنبهم بالتأكيد)، كما أنه ليس انتقاص منهم باعتبار أن البداوة أولاً حالة مفروضة، ثانياً حالة أولية لكل حضارة، كما هو الإقطاع إلى فكرة المجتمع الصناعي الذي يعتقد به ماركس (ت1883)، فالمجتمع الإقطاعي مرحلة أساسية في التطور.

نعم تتحول حالة البداوة والإقطاع إلى حالة سلبية إذا لم يطاوعا فكرة التطور البشري من انتقال العقل من حالة إلى حالة أخرى أكثر تطوراً كما هو فكرة أن أرفض استعمال الكومبيوتر بحجة اعتزازي بعقلي الإنساني في التعويض عنه بآلة جامدة، أو أن أترك قدرات الطاقة

التي ابتدعها العقل الإنساني كالنووية والهيدروجينية بحجة أنه هنالك ما هو أسهل منها وهو الوقود العادي.

فالمعارضة الطبيعية للتطور العقلي ولمرحلة الانتقال إلى تفسير (الرموز) وبعد أن تحوّلت إلى خبرات هو ما يمكن أن يعاب عليه. وهذا لا ينطبق فقط على مستوى الفرد، بل أنه أمر تشترك به كل التجمعات الإنسانية التي ترفض التغيير حتى وإن كان التغيير في صالح الفرد أو الجماعة.

التغيير مهمة من...؟: هنا من المهم أن نتوقف قليلاً لكي نتفهم مسيرة العقل والنفسية الإنسانية في الأسباب الكامنة وراء الرفض أو التطور أو كما نسميه (التعلم)، أو الانتقال من حالة إلى حالة أخرى، فقد تجد أن هذه الصفة تتضخم وتكبر في شعوب، بينما تجدها أقل رفضاً في شعوب أخرى، فالشعوب العربية عموماً في طبيعتها تقاوم عملية التغيير على مستوى الفرد، وأيضاً على مستوى الجماعة. فيشترك في الوقوف ضد عملية التغيير أو الانتقال من حالة إلى حالة أخرى معظم مكونات المجتمع، وهي حالة قلّما تجدها في مجتمعات أخرى، مع تفهمنا في أن القيام بعملية التغيير يتصدى له المتضررون من واقع التركيبة الاجتماعية القائمة مثل الفقراء والمحرومين والطبقات التي تعيش على الكفاف، والتي هي عموم المجتمع غالباً، باعتبار أن الثروة والقوة دوماً بيد الأقلية، في معظم الأحيان تكون أقلية تتبرقع بالمثل ومتعلقاته كالدين مثلاً، أو تعقد حلفاً مع الثيولوجيا المنتشرة في ذلك الوسط[1] سواء أكانت تلك تمثلها شخصيات أم أفكار.

(1) ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22].

ولكن العربي في مسيرة تأريخه الطويل ومنذ كما قلنا أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، وخلال فترة العرب البائدة لم يتمكن من أن يغيّر نفسه أو أن ينقل شكل تعامله مع مبدأ الصحراء (البداوة) إلى مبدأ الأفكار أو مبادئ السماء بالشيء الذي يُذكر مقارنة بالأقوام التي كانت تعيش إلى جنبه من العبرانيين أو الفراعنة أو مثلاً الآشوريين أو الغساسنة وغيرهم من الأمم التي كانت أحياناً جزءً من الواقع العربي وأحياناً إلى جواره.

فقد وصل التأريخ في زمن ولادة الرسول إلى حالة من الفكر كانت هي ذاتها في زمن ما قبل ذلك التأريخ عندما كان العرب يسمون بالإسماعيليين نسبة إلى إسماعيل بن إبراهيم النبي. . . . . في ذلك الوقت كانت تطلق كلمة (الأعارب) أو ما شابة كما جاء في النصوص الدينية التي ذُكرت في الكتب السماوية أو في كتابات الكثير من تلك الحضارات، أي أن العرب خسروا من تأريخهم أكثر من ثلاثة آلاف سنة من خلال جمود حركة الإنسان في تطوير قدراته وإمكانياته. فالعرب في العد الحسابي للعمر الثقافي هم شعب متأخر بذلك القدر من السنين أو ما شابه.

وأكرر القول في طبيعية ظاهرة رفض التغيير والاعتراف بأنها ظاهرة عامة في المجتمعات العالمية، ولكن أن تكون بتلك الحدّة من الإصرار فهو أمر أقلق الكثير من علماء الانثروبولوجيا وعلماء الأجناس وغيرهم في طريقة تفسيرهم للتأريخ العربي، مع أنهم عموماً - أي أولئك العلماء - يتحاشون الاقتراب من نظرية (الأعراق) (Racism Theory) لأنّ تلك النظرية تحمل في طيّاتها تمايزاً عنصرياً كما أقرتها المحافل

الدولية وخصوصاً بعد أربعينيات القرن الماضي، خصوصاً بعدما حكمت النظرية العرقية الآرية تفوق أرومتها على بقيّة الأعراق في العالم، وبعد أن حوكم صاحب النظرية (Alfred Ernst Rosenberg) (ت 1946) في محاكم نورمبرغ وأصدر عليه الحكم بالإعدام بسبب تبنيه لهذا الفكر في ألمانيا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. وهو الشخصية العلمية التي كانت تعتقد - ليس من منطلق التعصب - في أن العنصر الآري هو أنقى وأفضل الأعراق. ودعا إلى تكثير هذا العرق بشكل ما من خلال التخلص من الآخرين[1].

ولذلك فإن البحث العلمي والاركيولوجي في أسباب الجذور الوراثية لعقلية الرفض والتغيير التي طغت على التأريخ العربي عموماً توقف بسبب الخوف من الاتهام بالعنصرية، باعتبار أن العرب واليهود هم شعب (سامي) وهو ابن نوح[2]، مع أن الشواهد التي وصلتنا من التأريخ تصدح بأن هذه الفئة من الشعوب وخصوصاً الشعوب الإسماعيلية كانوا يتميزون بصفات أهمها هو العناد ورفض التغيير، ولذلك وبسبب هذا العامل - كما يعتقد - أباد الله الكثير من الأقوام

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Alfred_Rosenberg.

(2) لفظة أطلقها (أوغست لوديك شلوزر) في عام 1781 م على مجموع شعوب منطقة الشرق الأدنى القديم من واقع دراسة قام بها الباحث للغات المنطقة. حيث نتج عن دراسته القول بتواجد وحدة عنصرية مشتركة تجمع شعوب المنطقة وذلك من خلال تعرّفه على أن معظم شعوب المنطقة تجمعهم لغة واحدة أطلق عليها اللغة السامية. ومنها سُميّ شعوب المنطقة بالساميين وعرفوا أيضاً بـ (الرس السامي) و(الجنس السامي) أو السامية (Semites)، وعلى كلٍ فإن تلك اللفظة وكما يرى كثير من الباحثين اتخذت من التوراة التي سَمَّتْ أحد أبناء نوحٍ بسام.

مثل العماليق، وعاد، وثمود، والرّس، المؤتفكة وغيرهم من تلك التي تم ذكر بعضهم في القرآن، وبعضهم لم يذكرها.

بالتأكيد صفة رفض التغيير من خلال مقاومة اتباع رسالات السماء هو عنوان وإشارة كبرى على الحالة السلوكية التي نتحدث عنها. بينما لم نجد ذلك في شعوب أو أعراق أخرى مثل العرق الصيني (الهون) بشتى تنوعاتها والعرق الجرماني والعرق الأسود وغيرها[1].

فعندما نقترب مثلاً من اليهود[2] الذين هم أقرب نسباً إلى العرب

(1) الناس في العالم ينقسمون إلى أجناس، وجماعات متميزة بيولوجياً، وأن الأجناس تختلف في قدرتها على تطوير الحياة الاجتماعية وتنميتها، وأن نوعية الحياة لدى أي شعب من الشعوب هي مؤشر على قدراتها البيولوجية-العرقية، وفي ضوء ذلك تتبلور الفروق بين الشعوب، كما تفسر التغيرات الاجتماعية التي تظهر لدى هذه الشعوب، سواء التغيرات السلبية أو الإيجابية التي تفسر بظهور أشكال من التفوق الكامن في شعب من الشعوب. وتقوم تلك النظرية على فرضية سادت في مجتمعات قديمة وهي تلك الخاصة بتفوق طبقات داخل المجتمع على طبقات أخرى، وارتباط هذا التفوق بالخصائص البيولوجية، وظهرت هذه الفكرة في الحضارة اليونانية التي ظهر فيها الاعتقاد بأن هناك أناساً ولدوا ليحكموا وآخرين كرعية. ولقد لعب العالم الفرنسي الشهير (دي جوبيون Arthur de Gobineau) (ت 1882) دوراً في ترويج هذه الفكرة من خلال بحثه عن تفاوت السلالات البشرية الذي ربط فيه بين تفوق شعب على آخر أو انحطاطه. ومن المتغيرات البيولوجية التي يتم التركيز عليها: أثر التفاوت الوراثي على التغير الاجتماعي، أثر التفاوت بين الأفراد في الذكاء والإمكانات الجسمية والنفسية.

(2) اليهود اليوم هم (قبيلة) اسمها (بني إسرائيل) فهم (قوم) أي (Nation) كما هم العرب قوم أيضاً، ولفظة اليهود تطلق أيضاً بالإضافة إلى الإشارة بأنهم قوم، فهم دين أيضاً أسمه (الديانة اليهودية) (Judaism)، وإسرائيل اليوم وباعتراف الأمم المتحدة بها كانت منطلقة في ذلك من أنهم (أمة) أو (قوم) أو (Nation) وليس باعتبارهم (ديانة) أو إيديولوجية. لأنّ الأمم المتحدة تقر بأن تسمية الدولة يجب أن تكون هنالك قومية كما =

باعتبارهم أولاد إسحاق والعرب أولاد إسماعيل، فإننا نجد الشيء ذاته في نوعية التشنج الوراثي أمام التغيير في سلوكهم. . . . وقد تم التعبير على تلك الصفة المتأصلة جينياً فيهم من خلال إقدامهم على قتل المغيرين وهم الأنبياء. . . . ويبدو بأن الرد الإلهي على فعلتهم تلك هو أن تركهم في (التيه) (Diaspora) أو التشتت، بينما كان الرد السماوي على العرب هو الإبادة[1]، والفرق ما بين القومين هو أن اليهود قتلوا أنبياء[2]. مع أنه لم يُعرف عدد أولئك الأنبياء المقتولين، ولكن القرآن يخبرنا بالأمر في آيات عديدة، أما أبناء عمومتهم فقد تفننوا في قتل عترة الأنبياء.

ولو تابعنا القوميات الأخرى التي سبقت العرب في تأريخهم فإننا سوف لن نجد فعل القتل لأنبياء أو أوصياء في العنصر الهيليني الذي اعتنق المسيحية طواعية بعد أن أثّرت أم الملك قسطنطين على ولدها[3]، وليس من خلال حرب، باعتبار أن الخلفيّة للهيلينيين

= هي القوميات التي استقلت بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وكونوا دول في أوروبا مثل البوسنة والسلاف والتشيك والصرب والألبان وغيرها.

(1) لم تشر الدراسات الغربية أو البحوث الجيولوجية المعتمد عليها في تناول موضوع العرب (البائدة) أو (المنقرضة) بشيء عن جوانب الإبادة أو الانقراض لأنّ المصطلحين يعنيان نوعاً من العملية المشابهة لانقراض جنس نباتي أو حيواني كما نقول بأن الديناصور انقرض بسبب عوامل طبيعية بيئية وليس بسبب غضب رباني، ولذلك فلم نجد في أدبيات علم الآثار إشارة إلى مصطلح الانقراض، بل يشار إلى أولئك العرب بأنهم القوم الذين تحطموا (Destroyed) لا غير.

(2) ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 155].

(3) وكانت أمه هيلانة امرأة صالحة أخذت بدين المسيح لاثنتين وعشرين سنة، وجاءت =

اليونانيين هو الفلسفة أو لغة العقل والحكمة[1] وهي نزعة عقلية تميل إلى التغيير والنظر إلى المستقبل.

توازن المجتمعات: بالتأكيد هنا وفي هذا الفصل ليس لنا أن نقول بنظرية (العناد العربي) وأنه جانب وراثي متأصل، مع أن هنالك الكثير من الأحاديث والروايات والآيات تشير إلى ذلك بطريق أو بآخر، ولكننا لا نريد أن نخوض في هذا الموضوع الشائك والذي يحتاج لإثباته إلى بحث علمي موسع يشمل الجانب الجيني من خلال مشروع ضخم جداً قد يحتاج ما لا يقل عن خمسين سنة للتوصل في الجواب على هذا السؤال[2]. ولكننا لا ننفيه وعدم النفي هو مرحلة ثالثة غير

= إلى مكان الصليب فوقفت عليه وترحمت وسألت عن الخشبة التي صلب عليها بزعمهم، فأخبرت بما فعل اليهود فيها، وأنهم دفنوها وجعلوا مكانها مطرحاً للقمامة، فاستعظمت ذلك واستخرجت تلك الخشبة التي صلب عليها، وقيل من علامتها أن يمسها ذو العاهة فيعافى لوقته. فطهّرتها وطيّبتها وغشّتها بالذهب والحرير ورفعتها عندها للتبرك بها، وأمرت ببناء كنيسة هائلة بمكان الخشبة، تزعم أنها قبره وهي التي تسمى لهذا العهد قمامة.

(1) كان منهم فلاسفة كبار أهمهم هم: سقراط (399 ق.م.)، أفلاطون (347 ق.م.)، أرسطو (322 ق. م.).

(2) أشار القرآن إلى سلالة الأنبياء وراثياً بأنهم عبارة عن نوع من البشر تدخلت اليد الربانية ربما من خلال الوراثة في أن لا تختلط أنسابهم مع أنساب المجتمعات العربية التي جاءت بعد إبراهيم، والتي على ضوئها كان للمشيئة الإلهية في أن تتمكن تلك القدرات من أن تقوم بعملية التغيير وعملية التأثير على واقع العرب ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 124] وهنا كلمة (جاعلك) هي سر الآية والتي من الممكن أن يتابعها من أراد الاستزادة في هذا الجانب المهم الذي لم يتمكن الباحثون وإلى الآن من حل ألغازه الكبرى.

مرحلتي القبول والرفض، وسنتطرق إلى هذا الأمر في بحث كتاب منفصل في المستقبل إذا وفقنا إليه.

بالمقابل وبالقدر الذي يستفحل العناد لدى المجتمع أو الفرد فإن هنالك ردود فعل لذلك العناد قد تظهر على مستوى السلوك، أو على مستوى الفكر، لأنّ الحالة الفكرية للمجتمعات هي حالة متوازنة، ومن الصعب أن ندرك أو نتوقع في أن يكون هنالك قطب فكري واحد في أي مجتمع على الأرض مهما كان ذلك المجتمع متسقاً أو مستقيماً ومتوازناً أو مثالياً، مع الفرق في أننا نمتلك أحياناً وسائل لتقدير قوة القطب المعاكس، وأحياناً نعجز عنه باعتباره أمراً داخلياً من الصعوبة لنا في أن ندخل إلى عقل الإنسان لاكتشافه أو معرفته. . . . وهذه الظاهرة ليست مختصة في زمن العرب القدامى فحسب، وإنما هو أمر تشترك به كل مجتمعات الإنسان، وهو ما يعبر عنها القرآن بمصطلح (الدفع)[1] وهي حالة ديناميكية (Dynamic) متحركة على الدوام كما هي الإلكترونات حول نواة الذرة. . . وبمجرد أن تتحول أي حالة فكرية اجتماعية إلى حالة الجمود أو الثبات (Static) فإن الأشياء ستتغير، وكذلك سيقود ذلك إلى تغيّر الحياة، وتحول البشر إلى نوعيّة أخرى (لفسدت الأرض) وهو ما لا يريده الله في قوله (ولكن الله ذو فضل).

تتحرك القوتان المتصارعتان بشكل أوتوماتيكي في المواجهة الحتميّة كما هي الالكترونات التي تنجذب طبيعياً إلى النواة التي تعتبر

(1) ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251].

في العرف العلمي بأنها النقيض لها مع اعترافنا بأن هنالك من الالكترونات أكثر تطرفاً من الأخرى في الانفلات خارج إطار العملية التوافقية الطبيعية التي سنتها الطبيعة، وهنا وبانطلاق تلك الإلكترونات تتبرعم قوة جديدة (إرهابية) طرف غير محسوب في معادلة الصراع، وهذه البرعمة الجديدة على الطبيعة ستتمكن من أن تخلق لها ما يوازيها في العمل لكي تتحول إلى حالة الاستقرار (Static)، وإلّا فإن تلك الالكترونات تتحول إلى قوة شريرة لدمار الإنسان.

فليس من الصعب علينا إدراك أهمية عنصر الوقت في عملة الصراع الذي ينشب مع الأفكار المتبرعمة التي لم يحسب لها حساب في معادلة التجاذب الاجتماعي والتغيير كما هي حالة فكرة (الإرهاب) التي برزت في الزمن الحالي بعد ربما نكسة حزيران عام 1967، أو ربما تلك الحركات المتطرفة المغاليّة التي كان يقودها القرامطة أو الخوارج (قسم منهم) أو غيرهم من الإيديولوجيات التي أنتجتها حماسة بعض الالكترونات المنفلتة من محيط النظام الذي سنته معادلة الحالة الديناميكية تلك.

الحركة الجوهرية الاجتماعية: وهنا نرى بأنه آن لنا الظرف والوقت كي نقدم نظرية اجتماعية جديدة في فكرة الحركة (الجوهرية الاجتماعية) بعكس النظريات السابقة التي كانت ترى بأن الأفكار تموت وتحيا كما هي حياة الإنسان وخلاياه، وفي هذا الإطار لا أرى من ضير في أن نعطي بعض خصائص تلك النظرية التي ستساعدنا كثيراً في مسيرة توصلنا إلى تفهم مسببات الربيع العربي وهي النتيجة التي تهمنا في هذا الكتاب:

1 - الفكرة لن تموت، وإنما تنتقل من حالة إلى أخرى، كما هو تحوّل الماء إلى الغاز أو الحالة الصلبة.

2 - تتناسب سرعة مسيرة الفكرة في المجتمع طردياً مع عملية التحول تلك.

3 - الفكرة لا تبقى فكرة عموماً، لأنّ الفكرة مجردة تحتاج إلى حامل أو ناقل. وناقل الفكرة هي (الثقافة) (Culture).

4 - مؤشر الإيديولوجيات هي ثقافات الشعوب[1].

5 - موت الفكرة أخطر كثيراً من عملية التحول لأنّ بقايا الموت شظايا من الصعوبة التحكم في حركتها، فمن صالح الفكرة المناوئة أن لا تدع الفكرة المعادية أن تموت، وإنما بدلها تقوم بحُسن إدارة توجيهها.

6 - عامل الزمن في مسيرة الأفكار أمر نسبي ولا يمكن تطبيق عمر الإنسان المعروف في حركة الزمن كمؤشر لعمر الفكرة.

7 - كل الأفكار تحتاج إلى منبه أو منشط (Promoter) وعلى طول عمر المسيرة، وبدونها تبقى خاملة بدون تأثير.

8 - غاية الفكرة هو توجيه (الثقافة) والتي على ضوئها يتم بناء علاقة الإنسان مع مصدرين مع (أخيه الإنسان) ومع (الطبيعة) لتحقيق حاجة فكرية كبرى، وهي العلاقة مع مثل أعلى (السماء) (الله) (Almighty).

(1) ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: 71].

تحقيق أي مفهوم من هذه المفاهيم أمر ليس بالعسير، وخصوصاً في المجال الهدفي الذي تسير باتجاهه الفكرة، وهو ما يتطلب من الفكرة والمتمثلة بثقافة الأمة أن تتمكن من إدارة الصراع مع الكم الهائل من الأفكار التي تزاحمها على الوصول إلى نوعية علاقة أفضل مع (الإنسان) و(الطبيعة)، أي الجانب النفعي من حياة هذا المخلوق البشر.

وهذا ما يبدو في أن الصراع للحصول على فائدة (الإنسان، المجتمع) عبودية كانت أم كسباً أم تجييراً، وكذلك الطبيعة ثروة كانت أم زراعة، أم تصنيعاً تبدو للإنسان محدودة جداً أو شحيحة، مما دعاه على الاعتقاد بأن الصراع في الحصول عليها أمر مهم جداً ويتطلب الدخول في مزاحمة أخيه الانسان. مع أن سخاء الإنسان وسخاء الطبيعة لا حدود له، ولكن بشروط العمل وتحفيز الطبيعة والإنسان ليقدم ذلك السخاء إلى المجتمع. وهنا يميل الإنسان إلى تشكيل قوى متمثلة بالدولة أحياناً وبقوة السلاح أحياناً أخرى من أجل الحصول على ما يعتقد بأنه شحيح في عالم الإنسان والطبيعة.

فالصراع الفكري منذ بدء الخليقة[1] نابع من الاعتقاد بشحة عطاءات الإنسان وعطاءات الطبيعية. ولذلك تبرز هنا فكرة (الأقليّة) التي غالباً ما تكون هي المسيطرة على الحكم أو مقدرات إدارة الإنسان، سواء أكانت أقلية فكرية أو أقلية دينية أو أقلية عددية. . . . .

---

(1) ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

فلكل من تلك الأقليات من سبب في أن تتدرع بعنصر القوة لحماية مكتسباتها من الأكثرية التي ترمي إلى الاستئثار بالثروة (الإنسانية) أو (الطبيعية). فأبن آدم القاتل اعتقد بأن الطبيعة أو الإنسان سوف يحرمه من الثروة التي سيستولي عليه أخاه القتيل، لذلك قرر أن ينتهي منه اعتقادا من أن قتله سيترك له ثروة الطبيعة.

بالتأكيد هذا ليس ميلاً مادياً في تفسير حركة الإنسان كما هو تفسير الكثير من نظريات العالم الواحد وإنما هو الحركة الحضارية والثقافية التي تمثل طبيعة ذاتية حركة الإنسان.

إدارة الصراع: كما ذكرنا تواً في القول بأن الصراع هو أمر حتمي بين قوى التغيير والقوى المحافظة، والذي يتخذ أشكال متعددة ومتنوعة ذات صيغ صعبة الإدراك أحياناً (الحرب الباردة) (الحرب الخفية) وغيرها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: 31]. . . . وهنا كلمة النبي هي الفكرة وليس مصطلح مقتصر على شخصية النبي.

وأدوات الصراع ومادة توجيه الاستمرار في الحياة نسميه في العرف الإنساني الانثروبولوجي (ثقافة الأمم) وهو السلوك الذي تقوم به الأمة أو المجتمع باتجاه التوافق مع حالة الصراع وحالة التعايش مع الوجودات الحياتية المعقدة الأخرى سواء أكان التوافق ذلك أمراً إيجابياً أم سلبياً. ومن يدير الصراع هو الذي يحتل غالباً موقع الريادة في المركز الاجتماعي، كما أن أدوات الصراع هي التي سيدركها الأفراد بلحاظ فعاليتها، وبجمع كل تلك العوامل المتصارعة أو

التوافقية بين التجمعات تبرز حالة جديدة لها مصطلح وهو (صراع الثقافات) والذي وضعت في الفصل السابق تعريفه العلمي باعتباره حدث طبيعي وسميناه (الحركة الجوهرية الاجتماعية) التي تتحكم في واقع الأمة وواقع المجتمع وواقع المستقبل وكل ما يخص مسيرة الأمة أو الفرد.

وهنا في مثالنا الحالي وفي طريقة تسلسلنا في الموضوع نرى أن ثقافة التغيير (Dynamic) وثقافة المحافظة (Static) هما القوتان المتناوبتان في أن يعطي كل منهما إلى الآخر مع تبدلات مستمرة في أدوات وأشكال الصراع الذي يجب أن تديره جهة متخصصة أو مبادرة تلتزم وضع خطط الصراع والمنافسة والتي تكون إما مرئية أو غير مرئية مع اتخاذها أشكال متعددة أهمها:

- الشكل الديني (المقدس).
- الشكل المسلح (القوة).
- الشكل العام (المجتمع).

غالباً القيادة بما هي عامة هي أقلية اجتماعية وهي تخشى على تبيان حجمها في عداد الأغلبية والأكثرية، وبذلك تقوم باحتواء أكبر عدد من المواطنين ممن يشترك معها في المصلحة لكي تظهر الأقلية أكثرية والأكثرية أقلية بطرق متعددة في غاية التعقيد والذكاء. وقد تزود السماء أو القدر هذه الطبقة بقدرات لم يمتلكها أصحابها من ذي قبل في الفترة التي كانوا يعيشون خارجها، وهو شبيه بالمقولة التي ترى بأن الشخصيات المصابة بمرض انفصام الشخصية هم من

الأذكياء[1] مع أن سبب الذكاء ذلك متأت من كثرة الممارسات التي يقوم بها المصاب في إخفاء شخصيته الحقيقية وبطرق متعددة بحيث يبدو للآخرين بأنه أبرع منهم في السلوك.

وهنا قد نستعرب في أن نجد رواد ثقافة التغيير ورواد ثقافة المحافظة يمتلكون وبمرور الوقت قدرات مميّزة فكرية أو غير فكرية، والتي تعتبر جزءاً عملياً من أدوات الصراع الثقافي سواء أكانت تلك القدرات سلمية أو أدوات عنف. كما هي الطبيعة التي تزود الإنسان الصحراوي أو الكائن البيولوجي الذي يعيش في بيئة خاصة تلزمه في أن يكتسب قدرات خاصة لا يملكها الآخرون ممن يعيش في محيط أخر وذلك لكي يتمكن من الاستمرار في دوام معيشته.

فالحاكم وبطانته وكل من هم في منزلة العيّنة التي تكلمنا عنها، وهي الأقلية المسيطرة لقيادة كلي الصراعين الثقافيين سواء أكانت تلك القيادة في منزلة المعارضة أو في منزلة المحافظة فكلتاهما تتمحوران في شخصياتهما قدرات النفس إلى الدرجة التي تصبح قادرة على التناغم مع متطلبات الصراع الكبرى بين الثقافتين. فليس من السهولة أحياناً أن نلوم حاكم ما أو شخصية رئاسية في سلوكه المخالف لمبادئ

(1) الشيزوفرينيا (Schizophrenic) الفصام هو مرض دماغي مزمن يصيب عدداً من وظائف العقل وهو مجموعة من الاستجابات الذهنية تتميز باضطراب أساسي في العلاقات الواقعية وتكوين المفهوم واضطرابات وجدانية وسلوكية وعقلية بدرجات متفاوتة كما تتميز بميل قوي للبعد عن الواقع والهلوسة والأوهام وعدم التناغم الانفعالي، والاضطرابات في مجرى التفكير والسلوك الارتدادي ويميل إلى التدهور اجتماعياً أو وظيفياً في بعض الحالات.

وأخلاقيات الفكرة التي تمارس عملية تصارع[1]. وهنا يبادر المنادون بحقوق الإنسان إلى رفع عقيرتهم في الاعتراض على نوعية هذا الممارسات غير الإنسانية التي لا تتوافق مع المبادئ التي تدعو إليها ثقافة ذلك الطرف. ومع أننا نشاركهم في اعتراضاتهم ولكننا في ذات الوقت نقول لهم ونسألهم السؤال الافتراضي في قدرتهم على ممارستهم سياسة التعفف عن قتل المعارضين لو كانوا في موقعهم.

دوماً أدوات الصراع تتخذ جانب العنف من أحد الطرفين أو من كليهما، ولم نجد بأن هنالك صراع ثقافي تغييري يخلو من سمة العنف تلك إلّا نادراً، وربما سنتطرق إليه فيما بعد. وعندما يسفك الدم بل قبل تلك المرحلة تكون سمات كلتي الثقافتين المتصارعتين قد حددتا معالمهما ووضعت أطرها بشكل غالباً ما يكون:

- غير ديني.
- غير مذهبي.

(1) هارون الرشيد (ت 193) كان متبتل تملأ دموعه لحيته، ولكنه كان المعارض السياسي في اسطوانة كبناء لحد الموت، نابليون (ت 1821) بالرغم من شخصيته المميزة الهادئة فقد شكل محاكم الثورة لمحاكمة المتهمين، فقضت تلك المحاكم بالإعدام على عشرين ألفًا تقريباً من النبلاء ورجال الدين والزعماء وزعماء الثورة السابقين والعلماء والرجال والنساء البارزين مثل الملكة (ماري أنطوانيت)... المنصور العباسي (ت 158) وضع عشرة آلاف معارض سياسي تحت الأغطية ودعا الناس لطعام الإفطار إلى أن ماتوا بأجمعهم وكان يقول والله ما أكلت أكلة في حياتي أطيب من هذه. وعندما قتل الحسين عام 61 ووصل الرأس إلى الحاكم يزيد بدأ ينكث الشفاه بالخيزران تشفياً... وطالب الملك سليم الأول (ت 919) بإبادة أربعين ألف إنسان بسبب الاختلاف الفكري معهم. صدام حسين (ت 2006) قتل في حادثة (الأنفال) والجنوب مليون عراقي (رقم غير موثق) في فترة الثمانينيات مع أنه كان رجلاً ذي حس عربي.

- غير قومي.
- غير فئوي.

مع أن الصراع بالتأكيد يحمل الكثير من المفاهيم الدينية أو المذهبية أو القومية أو الفئوية ربما كلها وربما بعضها وربما مفاهيم أخرى مثل العنصرية أو الاقتصادية أو الجغرافية أو غيرها من الاختلافات الإنسانية والتي تعتبر مادة من مواد الاختلاف بين البشر. كما وفي نفس الوقت هنالك ميل من كلتي الفئتين المتصارعتين في عنونة الصراع بما يحلو لهم أن يعنونوه، وذلك أملاً في رصد أكبر عدد ممكن من الناس المنتمين إلى تلك الفئة المذهبية أو الدينية أو القومية أو الاقتصادية لكي تصطف خلف قادة الصراع (الأقلية) ولكي تضفي شرعية التمثيل الشعبي لهم من خلال العدد الذي تمكنت الثقافتان من رصده إلى جانبهما. هذا التناقض في المفهوم (الفئوي) و(الثقافي) بين قادة الصراع وبين الواقع يُحوّل الموضع إلى حالة عنف وقتل وإبادة وإرهاب وإلغاء. ويتحول عندها المشهد إلى صورة متأزمة جداً كما هو المريض المصاب بالسكري، ولكنه مصاب بضغط الدم وكذلك بتضخم الكبد وفي نفس الوقت السرطان، فمن الصعب تمييز الفئة التي ينتمي إليها هذا المريض والتي على ضوئها يتم تشخيص العلاج.

إن خلط الأوراق في عملية الصراع قضية صعبة على المجتمع أو حتى على منتمي الثقافات المتصارعة في أن يصمدوا أمام ضغوط التغيرات المتباينة، أو أن يقفوا موقف الحياد أو المتفرج، فلكل عامل من عوامل الصراع تلك من تفرع اجتماعي أو ديني أو قومي أو اقتصادي أو غيرها وهذا له أتباعه وغاياته في تحقيق المصلحة للدخول

إلى حلبة الصراع توقياً لما سوف يلحق من ضرر لذلك الاعتقاد الذي يلتزم به دينياً أو مذهبياً أو قومياً أو اقتصادياً . . الخ.

إنّ قوة الفكرة الثقافية التي تصارع الآخر هو توحيد الصراع ضمن اتجاه واحد (نظرية العامل الواحد) وهي فكرة (الثقافة) وليس فكرة الدين أو المذهب أو القومية أو الطبقة الاقتصادية والتي في الغالب تعتبر من أصعب الأمور التي تواجه القادة وخصوصاً القادة المغيرين، فتشويه صورة المغيّر أمر في غاية الأهمية لدى ثقافة الجانب الآخر الذي يحاول أن يخلط ثقافته بثقافة الطرف المغيّر أملاً منه في سحب وتذويب الهدف الثقافي الذي يدعو إليه في حركته التغيرية.

الهدف الثقافي: (الثقافة) كما أشرنا لها في السطور الفائتة هو المحصلة للسلوك، فقد يقال ثقافة العلم عندما يتخذ المجتمع من العلم طريقاً له في مستقبل بناء أجياله، ويقال ثقافة العنف عندما يتم الاستعانة بعامل القتل في منع المواطنين الآخرين في المشاركة في القرار، ويقال ثقافة الدين عندما يلتزم الفرد أو المجتمع بنظريات السماء في تغيير محتوى غرائز الإنسان. ويقال ثقافة التسامح عندما يميل المواطن إلى تحمل الآخر في طريقة عرض الرأي أو في نشر الفكرة، ويقال ثقافة البداوة عندما تسود فكرة العصبية والقوة والتسلط، ويقال ثقافة الغرب عندما تسود المفاهيم الغربية في طريقة التعاطي مع الاقتصاد ومع السلطة، ويقال الثقافة العربية عندما يسود الكرم والضيافة وحسن الصداقة، ويقال الثقافة الإسلامية عندما تسود مفاهيم الأخلاق التي جاء بها الرسول الأكرم، كما ذات الشيء في الثقافة المسيحية والثقافة اليهودية والكونفوشية وما إلى ذلك.

فالثقافة إذن هي سلوك وليس إيديولوجية، يقوم بتشذيب ذلك السلوك المبادئ الفكرية التي وضعت التسمية على أساسها. . . . . فالثقافة العلمية هو سلوك صنعته مفاهيم العلم وحولته إلى طريقة تعامل مع المجتمع. . . . . وكذلك الثقافة الإسلامية هي عبارة عن مفاهيم جاءت بها السماء على يد الرسول الأعظم من أجل تهذيب محتوى الإنسان الداخلي وغرائزه ودوافعه لكي يصدر منه سلوك (ثقافة) مهذبة.

وهنا فيما لو كان ذلك التغيير الداخلي لم يتحقق في أفراد ذلك المجتمع فإن السلوك سوف تكون مخرجاته معاكسه لمفاهيم العنوان. . . . . الثقافة الإسلامية مثلاً، فهنالك من الغربيين أو غير المسلمين تمكنوا في أن يستعينوا بما جادت به التعاليم الإسلامية السماوية، وتمكنت من تغيير محتواهم الداخلي، وانعكس ذلك على سلوكياتهم (ثقافتهم) فعندئذ يسمى أيضاً ثقافة إسلامية، حتى وإن كان الممارس لتلك الثقافة ليس منتمياً إلى الدين الإسلامي. ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67] ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: 111]، ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: 44].

فقد يمكن للعراقي من الموصل أن يقول بأنه ذو ثقافة موصلية عراقية عربية سنية إسلامية، بينما نجد أن البصري يقول بأنه ذو ثقافة بصرية عراقية عربية قبلية شيعية إسلامية زراعية. وهذا الاختلاف في الثقافات التي تجدها في القطر الواحد الذي بنيّ على الأساس القومي

كما هو عام التأسيس في 1921 لم تتمكن القومية لوحدها أن تكون الإطار الكبير الذي يجمع العراقي أو المصري أو السوري، وإنما هنالك أدوات مهمة ثقافية أخرى تجتمع لكي يتكون ما يسمى بمصطلح الحضارة، وهي أكبر تجمع بشري يضم الثقافات. فهنا اليوم خمسة حضارات وهي المسيحية الغربية، المسيحية الشرقية، الإسلامية، الهندية، الشرق الأقصى. وهنالك حضارات أخرى ولكنها حضارات متفرعة أو حضارات في طريقها إلى الموت أو الزوال بسبب عدم قدرة آليات تلك الحضارة من أن تماشي التغيرات الحياتية. . . . العالم اليوم بدأ يتوجه إلى التجمع الثقافي أكثر منه إلى المشتركات الاقتصادية أو السياسية، وخصوصاً بعدما انتهت فترة الحرب الباردة. . . بعبارة أخرى تحوّل الصراع اليوم إلى صراع شعوب بعد أن كان صراع حكومات.

إن المحرك للهدف الثقافي هي مجموعة العوامل المعقدة المتداخلة التي يتكون منها النسيج الاجتماعي أي الدين والأخلاق والفن والعلم والوراثة والتاريخ والجغرافيا والمناخ والظرف السياسي وغيرها من عوامل كثيرة جداً أحياناً يصعب حصرها، ولكن علماء الانثروبولوجيا يعطوا لكل من تلك التي ذكرتها الأولوية. . . .هذه العوامل مع أنها تعمل باستقلالية بعضها عن البعض الآخر ولكنها متداخلة، يتفاعل كل منها مع الآخر بطريقة متناسقة وبشكل لا يستغني أي منهما عن عمل ونتائج الآخر. ومثله كمثل الجسم البشري البيولوجي بأعضائه وأجهزته المتنوعة التي تعمل بشكل استقلالي كل عن الآخر، فالجهاز الهضمي يعمل بصورة مستقلة عن الجهاز البولي، والعصبي بصورة مستقلة عن جهاز الدم، وهكذا الأمر مع نظام الطاقة الجسمية ونظام الهرمونات،

فكل منظومة من تلك المنظومات المعقدة تعمل بصورة استقلالية أحدهما عن الآخر ولكن في النهاية تكون محصلة عملها كلها هو صحة الجسم.

فبالقدر الذي يضعف الجسم عن مواجهة غضبة الطبيعية من الأمراض وغيرها فإن ذلك معناه أن هنالك خلل في كل أو بعض تلك الأنظمة، وبالعكس فإنّ صحة الجسم الجيدة تنبئ بدقة وتناسق الأنظمة الجسمية، هذا في الوقت الذي تعمل كل من تلك الأنظمة بصورة جدلية متناقضة بعضها مع البعض الآخر وبشكل يكاد أن يراه الإنسان وكأنه صراع داخلي ولكنه في الحقيقة صراع من أجل إنتاج جديد وليس من أجل إثبات ذات أو أنانية كما نفهمها أو كما تبدو لنا. فالجهاز العصبي والعقلي يعارض عمل الجهاز الهضمي والتناسلي والأجهزة الغرائزية الأخرى، كما أن الجهاز الهضمي يتعارض مع الجهاز البولي وجهاز الدم، وكل له طريقته في التناغم مع الجهاز القلبي، وتجد ذلك أيضاً مع الجهاز العضلي والجهاز الحسي وهكذا.

فالعالم بتكوينه العام يدخل في تناقض أو صراع من أجل إنتاج أفضل وخدمة أكبر يستفيد منها الإنسان في استمرار حياته. وهكذا هو فلسفة الثقافات فهي تتصارع من أجل أن ترفع من قدرات الإنسان باتجاه اكتشاف طرق جديدة في العلاقات الاجتماعية والعلاقات مع الطبيعية. لكي يكتسب قدرات تجعله صامداً أمام عوادي الطبيعية وعوادي الفكر. البعض من الثقافات عندما تتصارع ينتهي صراعها بناتج. أي أن يكون هنالك شيء ثالث، كما هي صراع الثقافة القرشية مع الثقافة التي شكّلها الرسول، أو صراع قصي مع خزاعة. أو صراع

الغرب الرأسمالي مع الفكر الاشتراكي الشيوعي. . . . . فلكل من تلك الصراعات من ناتج جديد يظهر ليسود لفترة قد تطول وقد تقصر، بينما هنالك صراعات ثقافية لا يتم حسم نتائجها وتبقى عبارة عن (جذور) مفتوحة تتقبل الأفكار الأخرى الثقافية أو المواد التي تحفزها ثانية إلى الصراع. . . . . وهذه الثقافات ذات الجذور المفتوحة (Free Radical)[1] هي التي انتهت إليها الثقافات التي سادت في العصور التي سبقت هذا العصر أي منذ الأيام الأولى لتكوين الدولة أيام السقيفة في السنة الحادية عشر للهجرة.

وعلى سبيل المثال كنموذج من (الثقافات ذات الجذور المفتوحة):

- ثقافة العبيد في الجاهلية ولّدت ثقافة الرق. .
- ثقافة القبيلة ولّدت ثقافة إقصاء القدرات من الوصول إلى الحكم.
- ثقافة العنف في العصر الراشد ولّدت ثقافة مقتل آل الرسول والتي سببت في انقطاع المدد الروائي.

(1) (Free Radicals) هي عبارة عن مركبات كيماوية تتكون من انطلاق إلكترون من منظومة متعادلة فيتحول إلى (جذر) مفتوح يتمتع بقابلية كبرى على التفاعل فيما بين أصنافه أو مع أصناف أخرى مولداً الكثير من المواد التي إما أن تكون نافعة إذا تم توجيه عملية الاتحاد ثانية مع المواد الأخرى كما هي عملية (البلمرة) أو أن تكون ضارة إلى الجسم إذا تمت بذاتها وبدون تحديد ضوابط. وعلماء الصحة يتحاشون جداً تولد هذه الجذور في داخل الجسم الإنساني لأنها مواد مسرطنة (Carcinogenic) باعتبارها تنتج مواد لا يعرف عواقبها، وهنا يحاول العلم في اكتشاف مواد تتصيد هذه الجذور داخل الجسم ومن ثم التخلص منها بطريقة أو بأخرى.

http://en.wikipedia.org/wiki/Radical_(chemistry).

- ثقافة الحكم ولّدت ثقافة إقصاء الآخرين.
- ثقافة الاعتداد بالرأي في الاجتهاد مقابل النص ولّدت ثقافة الديكتاتورية.
- ثقافة الأنا ولّدت ثقافة عدم كتابة السُنّة لأكثر من قرن ونصف.
- ثقافة الانتقام ولّدت ثقافة تحريف التأريخ.
- ثقافة العصبية ولّدت ثقافة بناء طبقة يهودية (ايديولوجية) عملت على تزوير الحقائق.
- ثقافة الكذب ولّدت ثقافة بناء أسس كاذبة للتأريخ.
- ثقافة عدم الأمان والخوف من الآخر ولّدت دول بائسة محكومة بالعنف.
- ثقافة العصبية العربية ولّدت ثقافة الغزو المغولي وسيطرة المماليك.
- ثقافة الأمية الكتابية واعتماد ثقافة السماع ولّدت ثقافة إشاعة التسويق والتسطيح الفكري التي مارسها الحكام وبطانتهم تجاه الشعوب.

وكل من تلك الثقافات الناتجة هي ثقافات ذات (جذور حرة) (Free Radicals) من الممكن لها أن تتحد فيما بينها أو مع غيرها في تولّد ثقافة جديدة غالباً ما تكون غير نافعة لبني الإنسان.. على سبيل الفرض:

- ■ ثقافة إقصاء الآخرين وباتحادها مع ثقافة الكذب ولّدت طبقة من العلماء الذين يسبّحون بحمد السلطان.

- ثقافة الاجتهاد مقابل النص اتحدت مع ثقافة الأنا فولّدت كادر رواة تدخلت فيه الأيادي اليهودية (الإيديولوجيين) في كتابة تأريخ الإسلام.
- ثقافة العصبية تفاعلت مع ثقافة الحيازة فولّدت مجازر تاريخية كبرى...

وهنا صار ملزم علينا ونحن نتوجه إلى صراع الثقافات أن نتفهم بأن كل من تلك الثقافات لم يكن صراعها بالأساس:

- لا مذهبياً.
- ولا دينياً.
- ولا قومياً.
- ولا فئوياً.

وإنما هو صراع ثقافي بالدرجة الأولى، حتى وإن بدا لنا بأن صراع يوم السقيفة على سبيل الفرض هو صراع بين عمر (الذي يمثل التسنن) (وهو خطأ) وبين علي (الذي يمثل التشيع) و(هو خطأ أيضاً). أو صراع (يوم الطف) بأنه حرب طائفية أموية ضد هاشمية شيعية، وهو تقدير غير دقيق في التحليل. بينما الواقع هو أن الكثير ممن شارك في قتل الحسين هم شيعة، وأن عمر بن سعد بن أبي وقاص كان أقرب نسباً إلى الحسين، لأنّ أم النبي آمنه بنت وهب منهم. في ذات الوقت كانت شخصية زهير بن القين قائد ميسرة الحسين عثمانياً سنياً من الأقحاح... فلم تكن تلك الواقعة أو أي واقعة أخرى ذو سمة طائفية أو نَسَبيّة كما يقال بنو هاشم وبنو أمية.. نعم من الممكن أن نقول

بوجود تأثيرات نَسّبيّة أو تأثيرات طائفيّة، ولكن العامل الحاسم الأول هو العامل الثقافي. وقد تجد الأمر ذاته في معظم حوادث التأريخ وحركته فيما يخص الجانب الإسلامي سواء في الغزوات أو في الحروب أو في النزاعات... فهي بالدرجة الأولى اختلاف عقلية (ثقافة) (سلوك) لا اختلاف طائفة أو عشيرة أو ما إلى ذلك مما يمكننا أن نسميها بما هو أسهل إلى عقولنا وإلى بساطة فهمنا، كما كنا نفسر الكثير من الظواهر المرضية بعامل الغيب، أو عامل سيطرة الشيطان وغيرها، وهي ذاتها التي نفسرها الآن في حدوث أي من الظواهر الكونية المختلفة.

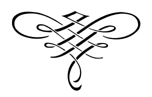
فالإنسان في طبعه وفي تركيبته يميل إلى الابتعاد عن مسؤوليات الفكر وتبعاته، فهو يريد أن يفهم مسائل التغيرات بالطريقة البسيطة التي تظهر له والتي على ضوئها يمكن له تفسير الأحداث اليومية[1] أما من يفكر من الناس ضمن التسلسل المنطقي فإنهم أقلية صغيرة وعينة نخبة،

(1) في دماغ الإنسان هنالك عدة مناطق للتفكير، استعمال ماكينات التفكير في الدماغ معظمها يحتاج إلى بذل جهد أو استهلاك طاقة، الجسم الإنساني طبيعياً يتجنب اللجوء إلى الجهد، كما هو رفض الجسم في استهلاك الطاقة الكامنة في خزين الخلايا الدهنية، فيلجأ إلى المعدة في الضغط على الدم لطلب الغذاء عن طريق الفم. العقل الإنساني يتجنب الغوص في حجيرات الدماغ الداخلية لاستخراج المعلومة ومسبباتها ويلجأ بدلاً منها إلى المعلومات التي تحتل سطح الدماغ وهي المنطقة التي تفسر الظواهر العادية السهلة التي هي أقرب إلى التصرف التلقائي. وهنا يعمل الإعلام دوره الكبير في ملأ تلك المنطقة بالمعلومات التي تبقى خزيناً للإنسان في تناول المعلومة التي يريد معرفتها بدلاً من أن يلجأ إلى كوامن الدماغ في تفسير العلة والمعلول وغيرها مما يتطلب جهد وطاقة.

فمن يتمكن من أن ينقل الرأي إلى الواقع الاجتماعي ببساطته فإنه سوف تقترب منه الفرصة في قيادة اجتماعية سواء أكانت قيادة سياسية أو قيادة فكرية أم غيرها من المواقع. فالشواهد الحياتية اليومية التي تظهر أمام نظر الفرد العادي من الصعب له أن يحلل تأريخها ضمن حقبة زمنية محددة كما أنه من الصعب له في أن يتصورها أو أن يفهمها. فهي أمور لا تهمه ويعتبرها حوادث صعبة الفهم وخارجة عما يهمه في يومه. وهكذا تنمو في الوسط الاجتماعي الأفكار السطحية التي ترتبط مباشرة بالعلل المرئية أو المحسوسة. فالكثير من المؤرخين من شتى الاتجاهات يقفزون إلى تحليل الأحداث كما يريدون أن يفهموها لا بما هي واقعة في حقيقتها.

فالصراع الذي يدور على الساحات الدولية والصراعات الكبرى أو الصغرى غالباً ما تفسر بما هو سائد من فهم وبما هو دارج. فالحروب التي نشبت في المنطقة الإسلامية عموماً تفسر من خلال تنافس القوميات أحياناً ومن خلال الطموح الشخصي ومن خلال الاختلاف الديني أو المذهبي أو المنفعي. وتبقى هذه التفسيرات هي السائدة في النظرة إلى الأحداث. فالنزاعات التي دارت في زمن الدولة الراشدة أو في زمن الدولة الرومانية قبل الميلاد أو بعده أو في أحداث الاتحاد السوفيتي في التسعينيات من القرن الماضي قد تم تفسيرها بطريقة غير جامعة لعوامل التفسير كلها، نعم ربما بعضها بالتأكيد. . . . . . فالحدث المعقد من الصعوبة أن يتمكن المحلل السياسي من تفسيره بشكل متكامل ما لم يكن هنالك أولاً استقلالية في التفسير أي انعدام

الخلفية الإيديولوجية للمحلل، هذا أولاً، أما ثانياً فالبقعة الجغرافية لها دور في تسليط الضغط الاجتماعي أو الفكري على الشخص في التحكم باتجاه تفكيره، أو من خلال الدعايات المستمرة التي تمارسها القوى المتنفذة أو من خلال العقل الجمعي العام.





الفصل الثالث

ماهيّة الثقافات





لغة الغيب وفعل الإنسان: إنّ الثقافة عبارة عن ظاهرة ترتبط بعوامل بشرية وهي فعل الإنسان، وكذلك ترتبط بعوامل لها علاقة مع الطبيعة ومع الواقع الزماني والمكاني، وكذلك فإن لغة الغيب لها قول في تلك المسيرة، مع أن الغيب في معظم الأحيان عبارة عن عامل مرتبط بالقانون الرباني السماوي كما هو قضية إرسال الأنبياء أو الرسل أو معاجز البعض من المخلوقين، في الوقت الذي من الصعوبة أن يمكن معرفة الأسباب الكامنة وراء تدخل عامل السماء في أحداث الأرض، فلماذا كان هنالك حشد من الأنبياء على سبيل الفرض في منطقة جغرافية معينة كأرض فلسطين مثلاً ولم نجد الشيء ذاته في أرض الجزيرة أو في أراضي أخرى. أو أن يتحف الله قوم كما هم أهل مكة بنبي كرسول الله مع حرمان شعوب أخرى هذا النوع من رسل السماء. هذه كلها عبارة عن لغة من لغات الغيب لا يمكن للعقل الإنساني من أن يناقشها انطلاقاً من فلسفة احتواء الصورة التي نرغب في تقديمها إلى المواطن العربي فيما يخص علاقة الثقافات بالثورات العربية التي انطلقت خلال العقد الحالي.

فثقافة المجتمع هي حصيلة لحوادث كثيرة جداً ومتعددة بشكل إلى الدرجة التي يصعب في معظم الأحيان التوصل إلى لغز بوصلة اتجاه تلك الثقافة، فعوامل التعدد الكثيرة المؤثرة على تلك البوصلة لا يمكن

عدّها في معظم الأحيان والتي تبدو للكثير من الناس بأنها لغز معقد من الصعوبة تبيّنه لأنه متغير باللحظات كما هي الذرة التي من الصعب أن تتصور بأنها ساكنة (Static) لكي نتمكن من دراسة خصائصها في لحظة السكون، ولذلك فإن الإنسان يدرس كل متحرك (Dynamic) على فرض الماضي لا على فرض الحاضر، فليس لنا أن ندرس حالة متغيرة بكل جزء من الثانية لأننا في اللحظة التي نرغب في دراستها نراها انتقلت إلى المرحلة الحركية الأخرى وهكذا.

ولكن الإنسان من خلال واقع التغيير في مسيرة الثقافات أو المكونات التي تتعلق بمسيرة الثقافة فإنه غالباً ما يمارس عمليتين من أجل معرفة مستقبل الخطوة التي تلي هذه اللحظة من الزمن وهما فكرة (القياس) (Sylogenius) وفكرة (الاستقراء) (Induction) وهما الأساسان العقليان اللذان يطمح من خلالهما الإنسان في أن يستنبط ما يمكن له تفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية، وكذلك معرفة الحركة الثقافية لأمة أو لمجتمع من المجتمعات. وهذا معناه أن الإنسان وعلى الدوام يعيش أمام حركة ثقافة المجتمع بدرجة من التخلف فيما يخص الزمن، وهو أمر مهم جداً باعتبار أن اللحاق بعنصر الحادثة يعني استباق الحصول على النتائج التي يطمح إليها الإنسان.

فقد فُطر الإنسان إلى اكتشاف ما ينفعه في حياته من قوانين الطبيعة وقوانين حركة المجتمع بالإضافة إلى قوانين العقل والإنسان وقوانين فهم المخلوقات كلها، وقد زُوّد بقدرات كامنة على حل البعض تلك القوانين والألغاز، ولكن ذلك لا يعني بامتلاكه كامل القدرة على تطويع

الطبيعة، أو الفكر أو البيولوجي لخدمة استمرار وجوده، كما هو معرفة نتيجة ظاهرة اجتماعية معينة، أو مثل انشطار نواة الذرة التي تنتج طاقة كبرى، أو عندما يتم معرفة طرق السيطرة على مرض مثل شلل الأطفال في حالة تضعيف نوعية الفيروس بطريقة أو بأخرى. وهكذا هي الحياة في مسيرتها في الفهم وفي استباق الظواهر الطبيعية والاجتماعية التي تنحو كلها باتجاه أن يتمكن الإنسان من العيش بنوع من الأمان أمام واقع وغضب الطبيعة والبيولوجي وكذلك غضب الإنسان.

وهنا يدخل عالم دراسة سلوك الإنسان وهو علم الانثروبولوجيا كجزء من عملية استباق الحوادث الإنسانية قبل حدوثها من خلال دراسة التاريخ ودراسة بيولوجي الإنسان، وكذلك دوافع طموحاته، وهي المحركات التي تعمل في ماكينة الثقافات أو الحضارات.

الإنسان هو مادة الثقافة وهو العامل المغيّر لمسيرة الثقافة، طبعاً جنباً إلى جنب مع عامل الجغرافيا والزمن والطبيعة وغيرها من عوامل معقدة جداً، ولكن يبقى الإنسان هو العامل الفاعل لأنه المستفيد من كل عملية تغيير ثقافية في المجتمع، وهو المتأثر بتغيير العوامل الثقافية إلى جانب التأخر والانحراف والذي يلقي بتبعاته على مستقبل الإنسان فيما يتعلق بعلاقته مع أخيه الإنسان أو مع الطبيعة أو مع السماء.

فالتأريخ كان قد أخبرنا بأن قصور الفهم أو تأخر البحث عن المسيرة الإنسانية سوف يؤدي إلى استفحال عوامل أو شروط الضرر بحاضر الإنسان، كما هو التأخر عن مواصلة البحوث الطبية الذي يؤدي إلى انتشار الوباء والموت للمخلوق البيولوجي كما هو انتشار

وباء (الإيدز) أو الجذام أو أنفلونزا الخنازير أو ما إلى ذلك. فقدرة هذا المخلوق الإنسان على إدراك أهمية معرفة الماضي والقوانين المتحكمة بالفيروس أو البكتريا يتم تأمين مستقبل حياة الإنسان في إيقاف قدرة تلك الجرثومة من الاستفحال والسيطرة على حياة الإنسان.

وليس لنا أن نجد صعوبة في فهم أهمية اكتشاف حركة التأريخ (الماضي) من أجل بناء مستقبل يتلاءم مع حاجات ذلك الإنسان. فمن خلال هذه النقطة لا بد لنا في أن نتعامل مع كل الظواهر التي مرت على الإنسان قديماً والآن على أنها مادة ثرية للدراسة ليس بلحاظ الفهم الأكاديمي فحسب، وإنما بلحاظ معرفة واكتشاف قوانين حركة الأمم بشكل استقرائي (Induction) والذي من خلاله يمكن خلق أو اكتشاف قانون أو هيكل يتحكم بواقع إنسان اليوم سواء أكان دولة أو مجتمعاً أو ديناً أو مجتمعاً بشرياً.

مسيرة بحوث الثقافة: وقد ناقش أول من ناقش المفهوم بنوعية ارتباط ثقافة الأمم وانعكاساتها على الإنسان هو عمانويل كانط (ت1804) عندما قال بأن الثقافة التي أسماها (التنوير)[1]: هو خروج

(1) في ذلك الوقت كانت المصطلحات والتعبير عنها محدود جداً بسبب حواجز كثيرة أهمها الخشية من الكنيسة، وكذلك الاختلاط بالشعوب وغيرها. فقد يكون مفهوم التنوير في ذلك الوقت هو المفهوم السائد الذي درجت عليه الأجيال فيما بعد، ولا أدري هل أن ترجمة التنوير في المصطلح الذي وضعه كانط هو النوع المراد في شرح عملية التطوير الثقافي أو غيره، مع أنني أشجع الباحثين المتخصصين في لغات الشعوب الثقافية إلى سبر أغوار إعادة كتابة المصطلحات التي وصلتنا منذ ذلك التأريخ انسجاماً مع الوضوح الحالي لأنّ اللغة هي عامل متطور كما هي التكنولوجيا.

الإنسان من حالة عدم النضج والتي تكبده كثيراً من العناء. وقال أيضاً بأن هذا النضج الإنساني للفرد أو للأمة لا يتأتى من حالة عدم الفهم (قلة الذكاء)، ولكن يتأتى من حالة افتقاد الشجاعة على التفكير بشكل مستقل عن الآخرين فرداً كان أم أمة، ولذلك رفع شعاره المعروف القائل: كن شجاعاً لتكن حكيماً. وهو محاولة جريئة منه في إطلاق مفاهيم مرتبطة بهذا الشعار وخصوصاً عندما قال بأن هنالك جبناً عقلياً كما هو الجبن الجسمي أو الشعوري.

أنظر أول التفاتة من كانط كانت بأهمية عامل الإنسان باتجاه تفعيل ثقافة المجتمع على مستوى السلوك ومستوى الفعل. مع أن هنالك الكثير ممن كان قد تطرّق إلى ذات المفهوم بشكل أو بآخر مثل (جوهان جوتفرايد هيردر Johann Gottfried Herder)، (ت 1803) الذي أشار إلى أن الإبداع البشري، والذي لا يمكن التنبؤ به أن يأخذ أشكالاً متنوعة للغاية، وهو الذي لا يقل أهمية عن عقلانية الإنسان بأي حال من الأحوال. فهنا نرى هيردر يشير إلى مفهم آخر مرتبط بما جاء به كانط في أن الفرد هو الطريق إلى بناء ثقافة المجتمع. وأن الفرد والمجتمع عاملان مهمان مرتبطان في اتجاه سلوك أو ثقافة الأمة، باعتبار أن الفرد سوف لا يتحلى بما افترضه كانط ما لم يتمتع بمرتكزين وهما (الهوية المتماسكة) و(المصير المشترك) وهاتان الركيزتان تتوفران من خلال مجموعة الخبرات المتراكمة التي يستقيها الفرد من حركة التأريخ والمجتمع.

ولكن ذلك لم يحوّل مفهوم الثقافة إلى حركة عامة، بل حددها حسب اختلاف المفاهيم التي تتصارع من أجلها الأقوام. وكان هذا

العالم قد درس الصراعات التي جرت بين الوثنية وبين إمبراطورية النمسا، كما درس أيضاً صراعات توحيد ألمانيا خلال قرون من الزمن إلى أن توصل إلى مفهوم ثقافي مهم، وهو أن العصور تتفاوت في ثقافتها عندما قال: بأن العصر الذي كان في زمن الإمبراطورية النمساوية هو عصر (الثقافة القبلية) كما قال بذلك العالم الفيلسوف اللغوي الكبير (ويلهلم فون هومبولدت Wilhelm von Humboldt) (ت1835).

بعده نادى أدولف باستيان (Adolf Bastian) (ت 1826) بفكرة (الوحدة النفسية للبشرية). أو الأفكار (الأساسية) للمجتمعات، وقال بأن الثقافات هي ذات نسق موحد كما هي النفسية الخلقية (البيولوجية) التي خلق الله بها البشر في التركيبة وشكل تناسق بيولوجيا الإنسان أينما كان، وقد عضّد هذه النظرية (فرانس بواس Franz Boas) (ت 1942) في القول: بأن صراع الثقافات هو صراع من أجل (تعديل) الأفكار الأساسية التي افترضها ويلهلم.

بمعنى آخر أمامنا الآن منعطف جديد في تفسيرنا لمسيرة الربيع العربي والانتفاضات التي تتبلور في أنها عبارة عن حركات ثقافية تميل إلى تعديل الأفكار الأساسية التي تكوّن الثقافات للإنسان، والتي على ضوء ذلك وعلى فرضية كانط يمكن لنا أن نقول بالتالي:

- الحالة الثقافية هي حالة حتمية.
- وحدة المفردات (الأساسية) لثقافات الأمم والأديان.
- الرمزيّة في المفاهيم الثقافية بعد أن وضعت لعلم الإنسان محاور

مهمة لظهور الرمز والتي تم معرفتها من خلال أربعة مصادر مهمة هي:

- انثروبولوجيا البيولوجية.
- انثروبولوجيا اللغوية.
- أنثروبولوجيا الثقافية (المعرفة).
- انثروبولوجيا الاركيولوجية علم الآثار.

الحالة الثقافية متعلقة كثيراً بشجاعة الإنسان والتي تتبلور في:

- الشجاعة في التفكير.
- الشجاعة في القوة.
- الشجاعة في البيولوجي.

هنا أمامنا مخطط جديد لفهم التغيرات التي طرأت على أمم الأرض وعلى مسيرة الفرد ومسيرة المجتمع، وهو الذي أسميناه (ثقافة) والذي يبدو بأنه عبارة عن تشابك معقد جداً لعدة عوامل كما هي العوامل التي تتشابك في التركيبة البيولوجية أو الصحية للإنسان، والتي لا يمكن فصل أي منها عن الآخر لا بشكل علمي ولا بشكل أدائي حتى تحوّل الكائن الإنسان إلى وحدة واحدة تميزه عن الآخر بكل ما حمله من ترابط تلك العوامل التي هي ربما أكثر من بليون عامل منها نفسية وعصبية وبيولوجية وفكرية ووراثية وما إلى ذلك. ففي جسم الإنسان تجري ملايين الفعاليات في كل ثانية من الثواني التي تمر على حياته بل بلايين من تلك الفعاليات التي يمكن جمعها بشكل لا يمكن فصل أي منها عن الآخر بأي حال من الأحوال. فالكبد يؤثر على كل

الجسم، أي على تلك البليون عملية وكذلك أي خلية في الجسم لها نصيب من عطاء وأخذ جزء من ذلك البليون عملية وهكذا.

حقول بحوث الثقافات: فالثقافة هي تركيب معقد جداً يسير باتجاه معين مرسوم لها، ولا أدري أن أقول غيبياً أم من خلال سُنّة أو قانون موضوع أو كما يعبر عنها القرآن (فطرة)، كما تماماً هو الجسم البشري الذي يسير باتجاه معين سواء أحاول الإنسان أن يؤخر عمل الكبد أو لا، أو أن يمنع العقل من التفكير أو لا، فالنتيجة هي ذاتها بما هو مع الآخرين.

الاختلاف مابين هذا وذاك هو الشجاعة التي يمتلكها هذا الجسم أو هذا الإنسان أو هذه الثقافة في المبادرة إلى إرجاع قانون الجسم أو قانون الثقافة إلى وضعه الأصلي من خلال عوامل كانط كما أشرنا إليها والتي سماها الشجاعة مقابل الجبن في:

- التفكير.
- القوة.
- البيولوجي.

ماذا نعني بكل من إفرازات الشجاعة تلك..؟ فالمفهوم الأول (التفكير) يعني البحوث، الاكتشافات، ثقافة العلم والمعرفة، والتي تتميز بأن العقل البشري له طاقة عملاقة في الخروج من حالة إلى حالة أخرى في كل ما يتعلق بالإدراك للأشياء المتعلقة بالأديان وبالمعرفة وبتغيير حالة المجتمع. أما شجاعة القوة فتعني المبادرة إلى تشكيل قدرات بشرية بما يعرف عنها بالدولة أو الحرب أو الموت للآخرين.

أما شجاعة البيولوجي فهي القدرة التي يمتلكها أو الشجاعة في رفع قدرات الإنسان بيولوجياً كالنسل والصحة النفسية والجسمية، هذا بالإضافة إلى تفاعله مع البيولوجي من النبات والحيوان.

والأمم في مسيرتها لا تتغير إلّا بعامل الإنسان أي العامل الفاعل، والذي من ممكن أن أعبر عنه بيولوجياً (بالهرمون)[1]، لأنّ الهرمون هي أصغر وحدة في التفاعلات ولكنها من المستحيل إتمام عملية التفاعل بغيابها كما هو هرمون النمو وهرمون الذكورة والأنوثة وهرمون الجنس وهرمون الطاقة الداخلية وغيرها من أنواع هائلة من تلك المركبات.

فالإنسان هنا دوره في علمية التغيير الثقافي الاجتماعي كدور (هرمون النمو) (Growth Hormone) الذي يحدد طول الإنسان أن يكون ضمن المعدل الطبيعي[2]، وأي اختلال (جزء بالبليون) في الإفراز قد يسبب في أن يكون الإنسان إما قزماً، أو في زيادته بذات

(1) الهرمونات (Hormones) أو (الحاثّات) هي مركبات حيوية يتم تصنيعها في غدد ضمن الأجسام الحية (الصماء) لتقوم بوظائف حيوية مختلفة تثبيطية وبنائية، فهي مواد كيمائية معقدة للغاية تفرزها خلايا خاصة بكميات ضئيلة جداً حسب حاجة الجسم إليها، وقد ينشط إفراز خلايا عصبية مثل إفراز الهرمونات عند الخوف والغضب. كما أنها تهيئ حالة الجسم حسب البيئة الخارجية، هذا بالإضافة إلى الدور الهام في العمليات الحيوية التي يقوم بها الكائن الحي، فكل هرمون له دوره ومتخصص في عمله، ونقص الهرومونات يؤدى إلى حالة مرضية وربما الموت.

(2) إفراز هرمون النمو في جميع الحالات يكون أقل من 1 نانوغرام/ مل (النانو جزء من مليار جزء) في المستويات الطبيعية، بينما يقع أقصى ارتفاع له هو بين 10-20 نانوغرام/ مليلتر.

النسبة إلى أن يكون الجسم عملاقاً. فالإنسان ما هو إلّا أداة في مسيرة التغيير الفكري والثقافي للأمم والمجتمعات مع توفر كم هائل من المسببات التي تقوم بعملية التغيير سواء أكان التغيير ثورةً أو تطوراً أو حضارةً.

علينا أن نستحضر في أذهاننا وخلال استمرارنا في شرح دور الإنسان في بناء الثقافة دور الهرمون في الفعل والذي كما أشرنا له مشابه لدور الإنسان في التغيير الاجتماعي.... وهذا معناه أن الإنسان ليس هو العامل الوحيد في المسيرة التغييرية ولكنه في العامل الذي يمتلك مفاتيح الفعل. فكما أن هنالك هرمون الفعل الايجابي فهنالك هرمون الفعل السلبي أو ما تسمى مثبطات (Inhibitors). وبعدم توفر المثبط فإنه لمن الصعوبة ضبط إفرازات الهرمونات من الغدد الصماء بالشكل المناسب مع الجسم، فالتوازن هنا عنصر هام جداً تسيطر عليه مركبات تعتبر في العرف العام أنها متناقضة في عملها أو في توجهاتها، ولكنها بالتالي هي متناسقة في بوصلة حفظ الجسم البشري من المرض أو الموت أو النمو غير الطبيعي أو الضمور أو غيرها.

أمامنا إذن فكرة برزت وقدمها لنا علم البيولوجي تلك هي أهمية وجود عامل التثبيط في مسيرة المجتمعات (Inhibitors) وهي بالترجمة الحضارية عوامل الصراع أو عوامل النقيض، وهي التي ناقشها الكثير من المفكرين والذي كان سيّدهم هو (هيغل) (ت1831) الذي جاء بنظريته الجدلية الشهيرة والتي ناقشها من المنظور الاجتماعي، فتوفق في تطبيقها أيما توفيق حتى صارت هي المنطلق للكثير من البحوث

الاجتماعية خلال القرون المنصرمة وإلى الآن. وكان أساس فكرته هو النقيض ثم اجتماع النقيضين التي كان أرسطو (ت 322 ق.م) قد نفاها علمياً بل منطقياً.

ومع أن دور المثبطات هو دور سلبي، ولكنه عموماً يسير باتجاه إيجابية مسيرة الحضارة أو مسيرة الظاهرة البيولوجية، العامل المرضي هنا، هو أيضاً يعمل عمل الفعل المثبط في محتواه، ولكنه يختلف عن المثبط من النوع الأول باعتباره أمر يحمل في مفهومه عنصر التدمير وليس عنصر الإصلاح. فقدرة المكابح في الآلة أي آلة هو إيقاف العمل، ولكن إيقاف العمل من أجل التنسيق وليس من أجل إلغاء الفعل. أما ما يحدث في حالة العطل في الآلة فهو عرض غير منسق ضمن مسيرة الآلة، ولذلك يعتبر عنصر غير مرغوب فيه وهو عنصر مرضي أو عنصر سلبي باتجاه إلغاء الفعل.

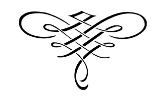
في العلم البيولوجي لم تكن المثبطات هي من ذات المادة الفاعلة كما هو وحدة جنس المتناقضات الهيغلية، وإنما هي عوامل مختلفة كلياً عن الفاعل أو الهرمون، شكلاً ومضموناً، وكذلك فيما يخص تركيبتها الكيماوية. كما أن عملها في المكان والزمان مختلف عما هو دور الفاعل الهرمون.

فثقافة الأمم عبارة عن مسيرة يستحيل لها أن تتوقف، يقوم بها عامل الفعل وهو الإنسان الذي يتخذ دورين الإيجابي والسلبي، فإذا غاب الإنسان في مسيرة ثقافة ما فماذا ترى سيحدث....؟ الذي سيحدث هو أن تسير الثقافة ضمن المسار الطبيعي الفطري الذي خلق

الله النفس الإنسانية عليها بشكل من الأشكال مع صعوبة معرفة دواخل (الفطرة) وكينونتها وتعقيداتها وهي التي أشار إليها القرآن في بعض آياته فـي الـقـول: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: 213]. ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يـونـس: 19]، وهـذه الفطرة عبارة عن تكوين كامن مع خلقة الإنسان لها قدر محدد من الفعل، فإن شاء أن لا تمتلك الفعل، فإنها لا تمتلك أيضاً رد الفعل، بل هي التي تحفظ مكونات الثقافة البشرية.

وعلينا ولكي نقرب مفهوم (الفطرة) إلى أذهاننا فإننا نمثلها بالجسم الإنساني الذي خلق على ما هو عليه من القدرة المناعية الطبيعية التي يحملها في نفسه والتي في العموم لا تغنيه كلياً عن مقاومة الأمراض ولكنها تحافظ عليه من الفناء سريعاً، بعكس المناعة التي يكتسبها الإنسان من خلال طبيعة الأكل أو الرياضة أو طريقة المعيشة أو غيرها التي تسلحه بما يتمكن به من أن يقاوم ظروف أصعب.

فموت الجسم الإنساني ذو المناعة الطبيعية هو أسرع من الجسم الذي تمكن من أن يكتسب مناعته من مصادر خارجية أو فعل خارجي. وهكذا الثقافة الطبيعية التي أشار إليها القرآن الكريم بأنه لولا حكمته في استمرار الوجود في إرساله الأنبياء والرسل لقُضيّ بينهم، أي لزالت البشرية بسرعة بسبب افتقاد عامل السرعة في مسيرة الثقافة وغياب عامل الفعل الإنساني.





الفصل الرابع

صراع الثقافات في العصور الإسلامية





فلسفة الصراع: من الصعوبة على أصحاب الاختصاص أي اختصاص أن يعترف بأن نزاعه مع الآخرين هو نزاع يقع خارج دائرة اختصاصه، لأنّ الاختصاص هو جزء من شخصية الإنسان، وهي حالة في العرف العام ليست بمنفصلة عن ذات الشخصية الإنسانية.

والقليل من الناس من يتمكن من أن يتحلل من هذه العقدة ويرى بعين العلم والاستقلالية حقائق أية قضية جدليّة أو خلافيّة من تلك التي يتصارع على مجرياتها الناس والأمم. ففي الصراع السوفيتي الأمريكي، كان السوفيات يرونه من خلال المنظار الإيديولوجي الفضائلي، لا من خلال الصراع على مناطق النفوذ ومفهوم الحيازة والعصبية. وكذلك كان الغربيون، مع أنهم في مسعاهم إلى تحليل مجريات الصراع فهم لا يختلفون في كليّات التوضيح عما يفكر به السوفيات.

ونفس الشيء تجده في كل الصراعات التي تدور في العالم والتي تُحدّد بالإطار الإيديولوجي عموماً حتى ما بين أصحاب الاختصاصات العلمية الدقيقة كالطب والهندسة، وكذلك في الأدب وفي الجمال والغناء والرسم وما إلى ذلك. فالعقل الإنساني مفطور في طبيعته على

إظهار جوانب نزاعه أو تميّزه عن الآخرين من خلال الفضائل كعنوان رئيسي لا من خلال الغرائز التي تمتلئ بها نفسيته ومشاعره.

فالصراع الهتلري الأوروبي ما قبل الحرب العالمية الثانية كان يوضع تحت مسمى توحيد العالم، وتقريب الأمم، والتخلص من عناصر الشر في المجتمع من أجل بناء عقل إنساني سليم، وهي الشعار الذي كان هتلر (ت 1945) قد رفعه في تلك الحرب المدمرة. من الجانب الآخر الحلفاء كانوا قد أطّروا حربهم بالحرب الديمقراطية التي تتفق مع فطرة الإنسان في رفض إقحام الأمم في أمة واحدة، أو في نظام واحد. وهكذا صراعات على هذه الشاكلة مستمرة على مدى الحياة، وعلى مدى ظروف البشر في محاولاتهم تجنب رفع شعارات الفطرة التي تمتلئ بها نفوسهم كعنوان من عناوين الصراع مع الآخرين.

في المسيرة الإسلامية التي ابتدأت منذ القرن السادس الميلادي أي ما بعد بعثة النبي الأكرم في مكة عام 611 ميلادية فإن كلي الفريقين لم يترددا في رفع ذات الشعار، ولولا علاقتنا الثابتة نحن المسلمين مع السماء من خلال إيماننا بالقرآن وبالرسول فإننا ربما نركن إلى هذا أو إلى ذاك..... قريش من جانب آخر كانت في الوضع التي ترى وجوبية الدفاع عن مبادئ كانت تمثل العمود الفقري لمجتمع امتلك القدرة على سيادة العرب، وعلى تكوين مجتمع مكي له ميزاته وقدراته في شكل العلاقات. فقد كانت قريش ترمي من صراعها في الحفاظ عن آليات اجتماعية سائدة لها علاقة في تكوين أسس المجتمع وأهدافه بغض النظر عن صحتها أو خطئها، أو شرعيتها.... فهي على أية

حال علاقات مرتبطة بالخارج في شكل تعامل المكي مع المكي الآخر، أو تعامل المواطن مع شكل الدولة أو شكل القبيلة.

جاء الرسول من خلال الرسالة السماوية التي يحملها لكي يزيح الواقع القرشي عن ساحة العلاقات، ويقيم بدله أو إلى جنبه نظام جديد له تبعاته وله شخوصه وأعرافه التي يختلف عن النظام القائم آنذاك. كما أن القائد الجديد رسم مصدرية الرسالة في علاقتها مع السماء بالطريقة التي توثقت بالقرآن، بعكس قريش التي كانت علاقتها مع السماء علاقة افتراضية، وليس علاقة مباشرة من خلال كتاب أو ما شابه. فقد اختلقوا أو اكتشفوا لأنفسهم نوع معين من شكل علاقة مع عالم الغيب (الأصنام)، وهي العلاقة الفطرية التي يستشعرها الإنسان في خلال مسيرته في الحياة.

هذه العلاقات الاجتماعية والفكرية التي كانت سائدة في كلتي الجهتين أو كلي الفريقين هما بالأصل علاقات (ثقافية) أي (سلوك) جاء الإسلام ليس لمحوها بالكامل أو لإلغائها، وإنما كما ذكر العالم الكبير والفيلسوف و(يلهيلم) (ت 1835) بأنها عبارة عن (إعادة أو تصحيح مسيرة).

فإذن المثبطات هي للتصحيح وليس للإلغاء، فإذا اعتبرنا أن مسيرة قريش كانت هي السائدة في زمن ما قبل الرسول، وأنها هي الفعل فإن الرسالة النبوية كانت هي المثبط من أجل تصحيح المسار. مع أن هنالك نظرة تختلف عما ذكرته تواً، وهي أن الثقافة السائدة التي كانت ما قبل قريش هي الثقافة الإبراهيمية، وأن قريش التي جاءت في زمن

تقريبا 450 ميلادية كانت هي المثبط للثقافة الإبراهيمية، كما كانت العرب البائدة هي المثبطة للمسيرة الإبراهيمية، والتي ردّت علها السنة التاريخية والثقافة الإبراهيمية بأن استعانت بالسماء بطريقة من الطرق في تدميرها وفي إبادتها ثم انقراضها.

قريش وثقافتها: كانت الثقافة القرشية من النوع الذي دخل على الثقافة الإبراهيمية بصورة متقاطعة من أجل إيقاف فعلها، وليس من أجل تنسيق مسيرة الفعل معها كما هو الفرق بين مثبطات الفعل الهرموني وبين المرض الذي يصيب الإنسان في إيقاف فرز الهرمون كما هو مرض السكري على سبيل الفرض.

وهنا الثقافة القرشية بالرغم من أنها لم تتمكن من أن تجهض الثقافة الإبراهيمية، فإن الإسلام جاء ليستعيد بل لإصلاح الثقافة القرشية وإعادة الثقافة الإبراهيمية ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: 78]، ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67]. في الوقت الذي لم تتوقف مسيرة كلتي الثقافتين القرشية التي تتصل بجذور الحضارة (البدوية) لأنّ البداوة عبارة عن حالة حضارية، ولكنها بداية المراحل الحضارية والتي تتفرع منها مجتمعات تسير باتجاه التحضر المدني مثل مجتمع الريف ومجتمع التصنيع ومجتمع المدينة ومجتمع الدولة ثم مجتمع التكنولوجيا.

فكان أب الثقافة القرشية هي (البداوة) والتي ليس من المؤكد أن تكون البداوة هي (عربية)..... و لا أدري هل أن أصل البداوة هي

من العرب. .؟ لا أعتقد ذلك. . . مع أن ابن خلدون (ت 1405 م) يؤكد بأن البداوة هي حالة (عربية) أو (إعرابية) وهي الحالة المدمرة التي تدمر الحضارات، ولكن العالم الاجتماعي علي الوردي (ت 1995) يؤكد بأن أصل البداوة وحضارتها متعلق بالجغرافيا أي الصحراء فقط، وبوجود الصحراء تتولد الحالة والثقافة البدوية. فهي إذن ليست مرتبطة بأب العرب وهو إسماعيل وإنما مرتبطة بحالة جغرافية معينة عاشها أقوام بعضهم أبيدوا، وبعضهم بقوا كانوا يعيشون ويجوبون الصحاري والتي أضفت على سلوكهم طابع الصحراء وثقافة العصبية وعبادة الذات.

هذه الثقافة الاجتماعية التي كانت قبل الإسلام جاء النبي لكي ينتزع منها أركان البداوة ويعيدها إلى أصل هذا الشعب وهي الثقافة الإبراهيمية، ولكنه لم يتمكن، بل نرى بالعكس أن الثقافة البدوية تمكنت من ثقافة الدين الجديد وسيطرت على مسيرة الأحداث بطريقة ما بسبب القدرة اللوجستية التي تمتلكها، فقد خدمتها الظروف والواقع الجغرافي والشخصي والتاريخي من أن تنتصر ثقافة قريش البدوية على الثقافة الجديدة ثقافة الإسلام[1].

---

(1) مفهوم الغلبة القرشية البدوية هنا نعني به الانتصار الثقافي وليس الانتصار العسكري أو السياسي. فالشعوب قد تنتصر عسكرياً ولكنها تخسر ثقافياً كما هي الثقافة المغولية والثقافة الساسانية في انتصارهم على العرب أو المسلمين عسكرياً في الوقت الذي خسورا أمامهم في منازلتهم الثقافية. والغلبة أو الخسارة هنا في صراع الثقافات ليس مرتبط بمادة الفكر أو شرعيته، وإنما مرتبط بقدرات التسويق الفكري والاجتماعي ومهارتها في الوصل إلى عقل الشعوب من خلال سلاسة الاسلوب وبساطة التوافق =

وهنا وفي المراحل الأخيرة من أشواط الصراع الثقافي مع الدين الجديد تمكنت قريش من أن تغيّر الاسم إلى أسم أكثر لمعاناً ذلك هو (الثقافة القرشية)، حيث أن الاسم الجديد لم يكن ذو معنىً استفزازياً، والذي من خلاله تمكنت تلك القبيلة الكبرى الضخمة من أن تدخل في بطن الثقافة الجديدة بعد أن تمكنت حضارياً ومفاهيمياً ولوجستياً من دحرها.

وكان السبب في ذلك أي سبب عدم محاولة القدرات القرشية في حرق القادم الجديد (الإسلام) ثقافياً هو حاجتها إلى الشرعية في طريقة قيام الدولة[1] باعتبار أن البداوة لا تحمل في مفاهيمها عنصر الدولة،

= مع مفاهيم المجتمع السائدة في تلك البقعة الجغرافية. كما أن الانتصار في شوط تأريخي لا يعني أفضلية المنتصر على الشعب المغلوب ثقافياً، بل يعني أن أدوات الصراع (أدوات) كانت متكاملة لدى الطرف المنتصر عنها مع الطرف الخاسر. فصحة أو خطأ الفكر هنا ليس له من علاقة في عملية الخسران أو الغلبة. فغلبة قريش وتمكنها من ثقافة الدين الجديد الإسلام لا يعني تفوق الأطروحة الفكرية، وإنما تعني امتلاك قدرات المناورة وتخطيط الاحتواء.

(1) قريش لم تمتلك ثقافة الدولة، أي أن الدولة المركزية ليس لها من تعريف في ثقافتها القرشية التي استوحتها من طريقة معيشتها في البوادي والصحاري، فبعد تمكن قصي الجد من خزاعة وانتزاع مكة من بين يديها فشل في أن يقيم نظاماً مركزياً بسب العقلية البدوية المتحكمة في سلوك العشيرة وأقطابها. بل دخلت الحرب مع أقوام كانوا يمتلكون قدرة الدولة المركزية وهي صفة كامنة في البداوة في نزوعها إلى تحطيم الكيانات المركزية للتجمعات البشرية، فالصراع بين البداوة والحضارة يتناوب بهذا النوع من الغارات التي تشنها البداوة على المدن فتحيلها ثانية إلى واقع غير منضبط مشتت، ويشير أبن خلدون في مقدمته إلى وقائع كثيرة أهمها هو سلوك عشائر بني سليم وبنو هلال في تدميرهم لحضارات الفاطميين ودول كثيرة في الشمال الأفريقي =

والدولة لا وجود لها في الثقافة البدوية، وعندما احتاجت قريش البدوية الثقافة إلى الدولة التي صارت فكرتها حاجة أساسية في الواقع الجزيري العربي، وجدت بأن الإسلام هو الخيار الأمثل في تبني مفاهيم نزعته وتفسيره للدولة المركزية هذا فضلاً عن قدرته في ربط الدولة بالجانب السماوي. فصار الفكر الجديد قد استقى القوة من ثقافة قريش البدوية كما أضفى في ذات الوقت على الثقافة القرشية مبرر الشرعية.

وهنا انتقلت الأسماء (Terminology) من حالة إلى حالة ومن طور إلى طور، فبعد أن كانت الثقافة تسمى ثقافة بدوية، صار اسمها ثقافة قرشية وكذلك تغير اسم الثقافة الإبراهيمية إلى ثقافة الإسلام. . ولكن بعد موت النبي تبدلت الأسماء ثانية وصار اسم الثقافة القرشية ثقافة الجمهور أو ثقافة الراشدين أو ثقافة مكة أو ثقافة المدينة ولكنها كانت تعني الشيء ذاته وهو السيطرة البدوية بلباس شرعي تمكنت أقطاب قريش من تجييره في انتزاع الشرعية لصالح العصبية البدوية.

بالمقابل كانت ثقافة النبي والإسلام قد صار اسمها ثقافة التشيع أو ثقافة آل البيت أو ثقافة الرفض أو ثقافة الانعزال كلها هي ذاتها بعض من تلك المصطلحات تم تسميتها من قبل متبعيها وبعضها من قبل مناوئيها من الثقافة المناوئة.

دعونا نوضح هذه النقطة بشيء من التسرع من الاعتذار عن الملل الذي قد يصيب القارئ، ونحن لسنا هنا من يقرر صحة هاتين

= (المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي. الجزء الأول ص 261. جامعة بغداد 1993).

الثقافتين، ولسنا في موضع الاعتراض أو الموافقة على مفاهيمهما، ولكننا أمام حالة وصفية تحليلية، أكثر من ميلنا إلى التقييم في شرعية هذه الثقافة أو تلك، فالصراع وفي تلك المرحلة دخل معترك ساحة التماس التي تختلف عنها فيما قبل ذلك التأريخ، فاجتماعهما الجغرافي والتبادل في المنافع فرض على مسيرة الصراع أن تأخذ منحنى سنة التأريخ في التجاذب بين الحضارات.

مع أن البعض يعترض ويقول بطائفية الطرح، فإننا نذكر ما قلناه في الفصول السابقة في أن الثقافة تركيبة كبرى من الآليات بعضها مختص بعنصر الجمال وبعضها اقتصادي وبعضها تأريخي، هذا فضلاً عن العامل الديني والطائفي والقبلي. . . . . . فنحن لا نتحدث عن عامل واحد أو مُكّون واحد من مفردات الثقافة، بل نتكلم عن المحصلة التي تسير باتجاهها الثقافة التركيبية الجديدة التي بدأت بعد مجيء الإسلام واحتكاكه بمجتمع قريش باعتباره الحاضنة للفكرة السماوية.

طريقة طرحنا مشابه لقولنا عندما نصف الشخص الساكن في بريطانيا بأنه مسيحي الثقافة، بينما نطلق على الصيني بأنه كونفوشي الثقافة وهكذا. ولا يعني بوصفنا له بأنه مسيحي الثقافة هي ممارساته الدينية للمسيحية، أو كونفوشي في عباداته، أو شيعي في تعبده، أو سني في إخلاصه. . كما نطلق على نعوم تشومسكي العلماني اللاديني بأنه مسيحي الثقافة، يهودي المولد في الوقت الذي لا تؤمن تلك الشخصية الكبرى بكلي المصطلحين ولكن هكذا هو التأريخ الذي يضفي بطابعه على الشخصيات رغماً عنهم في تسميتهم وفي انتسابهم

إليه. لا ليس ذلك ما نعنيه.... بل ما نعنيه هو أن نشير إلى بوصلة حركة المجتمع الذي تحرك باتجاه بعد أن برزت حالة ثقافية جديدة تشكلت من الثقافتين الجديدة والقديمة في الواقع العربي الجزيري. هذا بغض النظر عن صحة أو عدم صحة تلك الحركة أو الثقافة.

تحالف الثقافات واتحادها: برزت على الساحة تركيبة جديدة تلك هي الثقافة البدوية - القرشية - الراشدية - التي بنت لها كيانها وهيكلها بالشكل الذي يضمن ديمومة نوعية العلاقات المناسبة لها سواء أكانت تلك العلاقات مع الأفراد، أو مع الشعوب والأمم الأخرى، كما هو شأن أية حضارة أخرى في العالم. ولم تكن تلك العلاقات بمختلفة عن تلك التي كانت سائدة في تأريخ قريش قبل بعثة النبي أو أبعد من ذلك[1].

كان الاسم الجديد منقذاً لتلك الثقافة كما هي المسيحية إلى الحضارة الهيلينية أو البوذية إلى الحضارة الهندية، فالحضارات قد تُسحق ما لم يحصل في تأريخها طفرات (Mutations) والتي على ضوئها تستمد الحياة من تلك الطفرات بطريقة يتمكن القادة الكبار من اتخاذ زمام المبادرة في إضافة قدرات تلك الطفرات على مسيرة

(1) وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب (للسهولة) ونهزة (الفرصة) الطامع وقبسة العجلان (القلة) وموطئ الأقدام. تشربون الطرق (ماء السماء الذي تتروث فيه الإبل) وتقتاتون القد (اللحم أو الجلد اليابس) أذلة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم (غياب الأمان) فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد بعد اللتيّا والتي (التعب) وبعد أن مُنيّ (ابتلي) ببهم (عقول) الرجال وذؤبان (لصوصهم) العرب ومردة (المحرفون) أهل الكتاب (شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي).

الثقافة، كما هو شأن قدرة الصديق والفاروق في الاستفادة من قدرة الإسلام في تقوية الثقافة القرشية، ولولا مبادرة عمر الفاروق في مواقفه في ترشيد الثقافة القرشية وطريقة الاستفادة من الدين الجديد باتجاه الترشيد لما تمكنت تلك الثقافة من البقاء على ساحة الأحداث خلال تلك الفترة الطويلة التي امتدت منذ وفاة النبي إلى الوقت الحالي[1].

وكذلك نرى الأمر بالنسبة إلى الثقافة الإبراهيمية والتي لولا قدرة النبي محمد والطفرة الفكرية له (السماوية) في تأصيل الدين لما تمكنت تلك الثقافة من أن تعيش إلى دهور طويلة وربما حتى قيام الساعة[2].

---

(1) شخصية الفاروق عمر والصديق أبا بكر شخصيتان شكلتا الوجه المعروف للثقافة القرشية ومن خلال رسمهما للوحة وتنوع تلك الثقافة لما كانت أن تبقى إلى قرون من الزمن، فقد كانت فلسفة الشخصيتين الكبيرتين هي الاستفادة من الثقافة القرشية في رفع مستوى القدرة الإسلامية أو بالعكس أو بكليهما، وهي قابلية كبرى لا يمتلكها الكثير من منظري ثقافات الأمم. فقد لا نجد غرابة في أن منتمي الثقافة السنية الدينية أو الثقافة السنية السياسية أن يشتركوا في النظر إلى شخصيات الصديق والفاروق بنفس الحماسة من الحب والتقدير لما لهما من دور مهم وأساسي في وضع أسس الثقافة القرشية، هذا بغض النظر عن صحة أو خطأ خطوات الشخصيتين الكبريتيين.

(2) لشخصية الرسول المبعوث أكثر من جانب أهمها هو الجانب التبليغي الذي ارتبط بالسماء والوحي والذي فسره معظم علماء الكلام الإسلاميين بالطريقة التي تتناسب مع طريقة الفهم لشكل تلك العلاقة. هذه العلاقة النبوية بالسماء نعجز نحن ضمن مفاهيمنا في أن ندركها أو أن نفسرها، ولذلك فليس هذا هو عنوان ما نتلكم فيه، بل أننا نتناول النبي من حيث القدرة الشخصية التي كونها والتي أبدع هو بجهده وقدرته وطريقة مقاومة ذاته، وبالتأكيد مع التسديد الرباني في أن يشكّل أسسها، وأن تكون المصدر للثقافة الإسلامية. فشخصية النبي هي العنوان الكبير للثقافة الإسلامية، وهذا معناه أن تلك الشخصية لم يقتصر إشعاعها على المسلمين فحسب، وإنما هي ملازمة لكل مفهوم مرتبط بالثقافة الإسلامية سواء أكان ذلك المفهوم تم استلامه من قبل المسلم أو =

تصارعت الثقافتان (وهو أمر طبيعي) بشكل متأزم وبطريقة فرضتها الثقافة القرشية وليس ثقافة الإسلام، وتمكنت بسبب قادتها وقدراتها من أن تسود الساحة الاجتماعية، بينما انحسرت الثقافة الأخرى الإسلامية بعد أن حاولت أن تنقل المعركة إلى محيط الفكر لا محيط الإقصاء، ولكنها لم تتمكن بعد أن عاجلتها الثقافة القرشية وتمكنت من أن تفقدها قدرتها في العمل على الساحة الاجتماعية من خلال تفريغ الساحة من قادتها باستعمال عوامل كثيرة لسنا في مجال مناقشتها هنا.

بعد مقتل الخليفة الثالث ذو النورين على يد ثوار الأمصار في عام 36 هجرية تغيرت أسماء الثقافتين المتصارعتين بحكم عامل التأريخ وعامل الشخصيات إلى ثقافة (ارستقراطية) متمولة وثقافة (شعبية) كان يقود الأولى هم الشخصيات القرشية الكبرى المعروفة. ويقود الثانية هم آل البيت أو الهاشميين ومن تبعهم[1].

بعد مقتل الحسين في كربلاء في 61 هجرية برز الاسم المعروف

= غير المسلم. وعليه فإن القدرة الثقافية للنبي هي قدرة إضافية إلى شخصيته الرسولية التي نرى من خلال منطق الافتراض العقلي أن تكون مسددة (Infallible) من قبل أدوات قوة السماء، بينما لا نرى ذلك في طريقة شخصيته الثقافية التي يشترك في تكوينها التأريخ والعائلة والجغرافيا والفن وغيره. وهذا المفهوم لا ينطبق فقط على شخصية نبينا الأكرم بل هي صفة ملازمة إلى كل المرسلين.

(1) لا بأس بمراجعة كتاب اليمين واليسار في الإسلام، مع أننا قد لا نتفق مع الكثير مما يراه ذلك الكاتب، ولكنه على أية حال كان قد طرح موضع صراع الثقافتين من المنظور الطبقي وهي دراسة موفقة وعلمية. وقد تمكن الباحث الكبير من أن يصل إلى أعماق الأحداث التي استعرت آنذاك. (اليمين واليسار في الإسلام، أحمد عباس صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1973).

هم (الشيعة) مقارنة بمصطلح (العامة) أي (زعماء الحكم) لوصف كلتي الثقافتين المتصارعتين. مع إضافات كثيرة لحقت بكلتي الثقافتين بسبب الأحداث المدلهمة وبسبب تعقد الحالة الفكرية بالشكل الذي تحوّلت كلتا الثقافتان إلى مدارس فكرية لكل منهما أقطابه وشخصياته.

في تلك الفترة انتشرت الثقافة الشيعية مقابل الثقافة القرشية بما تحمله من صفات نحاول أن نشرحها بالشكل الواسع من خلال تحليلنا لأول ثورتين انطلقتا في الإسلام وهما الثورة الكبرى على عثمان سنة 36، وثورة الحسين في عام 61 لما لهما من انعكاس مهم على مسيرة الموضوع الذي نحن بصدده محاولين الاقتراب من المعنى بالصورة الكبيرة والموسعة التي نرمي إليها في معرفة تفاصيل البحث.

ولكن قبل الاسترسال في التخصص من خلال الثورتين وما دمنا في مسيرة المصطلحات فإننا سوف نواصل عملية التسمية واطلاقاتها خلال القرون الإسلامية لكي تكتمل التسمية وليس الشروحات.

فقد تحوّلت التسمية بين الثقافتين إلى تسمية (عامة) وتسمية (خاصة). العامة هي السائد والخاصة هي الاستثناء، فلذلك صارت تسميات الحكم أو الدولة هي العامة، بينما كل ما عداها من أسماء ومصطلحات هي إفرازات حرب إعلامية ومحاولة لكسر الفكر المضاد المرفوع ضد الدولة، مع أن الحرب كما ذكرت لم تكن حرب دولة أو حرب حيازة من قبل المعارضة بالشكل الذي تفهمه الدولة، بل كانت حرب تختلط بها الكثير من العوامل ولكن أهمها هو رفع الظلم عن الفرد المواطن الشعار المرفوع من قبل الطرف الأضعف.

في بداية الدولة الأموية تحوّلت حرب الأسماء إلى حرب مكشوفة وعلنية فكان أهم ما أقدم عليه الأمويون هو تبني أسلوب السب القرآني (اللعنة) في ذم المعارضين لأنّ السب في القرآن هو نفي الشرعية كما في آيات كثيرة[1]، فادخل هذا النوع من الحرب الإعلامية في تقاليد الدين على أن يقوم بها كل من يبدأ بمحفل ديني أو صلاة ولمدة سبعين سنة إلى أن أوقفها الخليفة عمر بن عبد العزيز (ت 101). وقد كان أسلوب اللعن من أشد معاني حرب المصطلحات التي لم يعد لها من تأصيل كبير وخصوصاً في زمن ما قبل التدوين باعتبار أن التدوين ابتدأ في القرن الثاني الهجري. فاللعن صار شعار من شعارات المدرسة العامة أي (مدرسة الخلاقة) أو (مدرسة قريش) التي امتد أوارها وقدراتها إلى تقريباً نهاية العصر الأموي في أواسط عام 135 هجرية. فكان المعارض يطلق عليه (ملعون) وهي كلمة كما ذكرت تستبطن معاني كثيرة جداً في ذلك الوقت لما لها من دلالات متعلقة بالقرآن ومتعلقة بالواقع العربي الذي كانت تنخر به الأمية وثقافة السماع. وكان بطل الحرب الإعلامية والتسمية هو الشخصية المنظرة للدولة معاوية بن أبي سفيان (ت 60).

---

(1) آيات اللعن في القرآن هي 32 آية تتوزع مواضيعها في خمسة عشر مورد وهي: الكافر، الكاتم لما أنزل الله من البينات، الكاذب في المباهلة، المحرفون للكلم عن مواضعه، القاتل العمد، الناقضون لعهد الله والميثاق، المتطاول على الذات الإلهية، أصحاب النار، المنافقون والمنافقات، المفتري على الله الكذب، رامي المحصنات الغافلات، المؤذون لله عز وجل والرسول وأهل البيت، الناصبي، الظالمين، الظانين بالله ظن السوء.

في عصر التدوين أي ما بعد أن ابتدأ الزهري (ت 124) في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز، ومن بعده ابن حزم الأنصاري (ت 130) واستمرار حالة التدوين والكتابة كان المصطلح الأمثل الذي حوربت به ثقافة المعارضة هو (الرفض) وهو يعني رفض (مبادئ) (العامة) والعامة معنى يُطلق على سُنّة الرسول، ومسيرة الشيخين بعد أن تحوّلت تلك السُنّة التي لم تجزأ إلى سُنّة واحدة وضعت تحت طائلة عدم الاعتراض أي العصمة (Infallibility) في أن لا يقترب منها أي خلق بشري باعتبارها تحوي على مادة علمية أكبر من قدرة العقل البشري على مناقشة مواد ذلك الموروث.

بقيت كلمة الرفض ملازمة للثقافة المعارضة والتي كانت توصم أحياناً بمصطلح (الشيعة) باعتبار أن المصطلح الأخير هو (لغوي) وليس (سياسي) بينما كان على العكس المصطلح الأول (الرفض) كان سياسياً بكل معناه.

تطور (الرفض) إلى معاني الاستمرارية مثل (رافضي) (روافض) (يترفض) وما إلى ذلك من مصطلحات والتي منها (أهل البدع) التي لحقت فيما بعد بالمصطلح اللغوي (الشيعة) فصار لها تفرعات فقيل (شيعي) وقيل (يتشيع) وقيل (متشيع) وقيل (يستر تشيعه) وقيل (مستشيع) وقيل (مبتدع) وهكذا وما إلى ذلك من مسيرة حرب إعلامية كبرى دخلت إلى الثقافة الإسلامية وأدبياتها وكامل كتابة التأريخ العربي والإسلامي، وصار لها معاني ومدلولات تترتب عليها تشريعات واستجابات قانونية إسلامية تلزم السلطة أن تتعامل مع تلك المصطلحات بنوع من المبادرة إلى محاربتها أو التخلص منها باعتبار

ربط المصطلح بمفهوم (التحريف) لا بمفهوم (المدرسة) أو التوجه الفكري[1].

بعد ظهور عصر المذاهب التي ابتدأها أبو حنيفة النعمان (ت 150) الذي كان قد جرب العامل الثوري في انتمائه إلى ثورة زيد بن علي (ت 122) وبعد أن فشلت الثورة فشلاً ذريعاً على يد الأمويين كان أمامه أن يتوجه وبالتعاون مع العباسيين إلى تبني مذهب فكري جديد، وهو (الحنفي) ذو التحديدات الفكرية المعروفة والتي على ضوء ذلك نشأت مدرستان كبريتان أو عقيدتان في داخل فكرة (العامة) وهما مذهب (الاعتزال)[2] التي جعلت للعقل الإنساني من حيز في مساحة فهم

(1) قد تجد هذا النوع من الحروب منتشرة في الديانات ضد أتباعها المتنورين الذين يطالبون الارستقراطية الدينية بانفتاح وتقبل الآخر. وفي المسيحية (الهرطقة) يطلق عليها أيضاً (الزندقة) في السياق الإسلامي. كان (إرنايوس Irenaeus) هو من أعطى الكلمة زخمها. لذا فكلمة (هرطقة) تستخدم لفظة «أورثودكس» في المسيحية الأورثودكسية الشرقية والبروتستانتية والإسلام وبعض الفرق اليهودية. كما توصف التنويعات على الفكر الماركسي اللينيني بأنها انحرافات إلى اليمين أو إلى اليسار. وفي العلوم يستخدم وصف (هرطقة) على نحو مجازي ساخر. لا يَصفُ من يُعَدُّون هراطقةً آراءَهم على أنها هرطقات، فمثلا يرى المسيحيون اللاتين الكاثوليك أن البروتستانتية هرطقة، بينما ترى جماعات غير كاثوليكية أن الكاثوليكية هي الردة الكبرى. و في المقابل فإن من يوصفون بأنهم هراطقة يرون أنفسهم على أنهم إصلاحيون أو مجددون أو أنهم يُنَقُّون العقيدة ويخلصونها مما شابها، أو أن فهمهم لها هو الفهم الأصلي الذي انحرفت عنه الجماعة التي تصف ذاتها بأنها أرثوذكسية... راجع تفاصيل المصطلح في:
http://en.wikipedia.org/wiki/Heresy.

(2) الاعتزال مذهب وسطي ما بين الفكر الذي تمثله السلطة (الثقافة القرشية - الأموية) وبين الفكر الإمامي لآل البيت، دافع إنشاء فكرة الوسطية هو تجنب القتل والاضطهاد في الإعلان عن مذهب فكري يستقي من ثقافة السنة النبوية التي رواها آل البيت =

الدين وعلاقة الإنسان مع الله. وبالمقابل رد عليه (العامة) (التسنن) بتفاصيل متعددة سميّ فيما بعد مذهب (الأشاعرة) بعد أن وضع تفاصيله أبو الحسن الأشعري (ت 324) مع أن المؤسس له هو أبو حنيفة، وليس أبو الحسن المذكور. عندها تحوّلت الثقافة (العامة) (القرشية - الأموية) إلى أسم آخر توزع ما بين الأشاعرة والمعتزلة، وانمحى عصر اسم قريش كثقافة. وهنا تمكنت كلتا الفئتان الأشاعرة والمعتزلة من سيادة الشارع وسيادة السلطة مع تفرعات كثيرة من هنا وهناك والتي كانت في الواقع عبارة عن ثقافة موحدة يشملها هيكل موحد هو (ثقافة التسنن) وهو المصطلح الذي ظهر في عصر أواسط القرن الثالث، بعدما توزعت الأسماء والمدارس التي تفرعت من مدرسة (العامة) أو مدرسة (الجمهور) فكان الاسم قد أطلق هو (أهل السنة والجماعة)[1].

= (مصدرياً) طريقاً لهم في أدبيات ذلك الفكر. فالحكام في الدول الثلاث الراشدية، الأموية، العباسية كانوا يملكون حساسية مفرطة من ثقافة آل البيت التي لا أعتقد بأنها نابعة من منافسة سياسية، بل أعتقد بأنها منافسة ثقافية، ولذلك انتحى الكثير من المدارس الفكرية مرحلة وسطية تأخذ مبادءها من مدرسة آل البيت بمسميات جديدة مثل الاعتزال وغيره. وقد سلكت قبلها الكثير من المدارس المسيحية التي كانت تضطهد من قبل الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى نفس المنحى، وأشهرهم هو ديكارت (ت1650 م) في نظريته المعرفة المشهورة. أنظر كتب المعتزلة كما أنظر مواقع المعرفة مثل: http://en.wikipedia.org/wiki/Mu%27tazila.

(1) بدأت التسمية تنتشر في منتصف العصر العباسي 447 بعد سقوط الدولة البويهية على يد السلاجقة، وانتشار المدارس النظامية في كبرى الحواضر الإسلامية، للتفريق عن الشيعة، مع أن أول من استعمل هذا المصطلح هو محمد بن سيرين (ت 110)، فيما أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه بسنده إلى ابن سيرين أنه قال: (كانوا لا يسألون عن =

كان صراع المدرستين الثقافيتين عنيفاً إلى الدرجة التي ربما تعتبر من أعنف ما يمكن أن يسطره التأريخ في عالم صراع الحضارات باعتبار أن مادة الصراع (البدوي) تختلف في منهجها عن مادة الصراع الروماني أو الهيليني أو الساساني أو الآشوري، أو الفرعوني، وكانت تلك المادة هو الحرب والاستئصال وهي الطريقة الوحيدة التي أسست عليها ثوابت تلك الثقافة.

تماماً كما جاء في القرآن الكريم في قصة فكرة ثقافة العنف عندما كان هنالك الموقف المعروف (قال لأقتلنك)[1] مع أن سياقات القصة لا تستوجب القتل لأنّ الرافض إلى تقبل القربان لم يكن القتيل، ولكن القتل هنا كان بدافع سلوكي (ثقافي) وليس بدوافع أخرى. وهي بالضبط ما تتبناه ثقافات قريش، الراشدة، الأموية، العباسية، بعض الخوارج، الأشاعرة.. الخ. بمقابل ثقافة البديل وهي ثقافة القتيل التي تبنتها الثقافة الإبراهيمية، المحمدية، العلوية، الحسينية، الإمامية، الشيعية.

نحن هنا لا نناقش مذهباً أو توجهاً سلوكياً، وإنما نناقش سلوكاً أو ثقافةً، وليس للتوجه الفكري سواء الشيعي أو السني من علاقة بتوجهات الثقافة إلّا من قبيل أن المذهب هو أحد عوامل التأثير كما

= الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سَمُّوا لنا رجالكم، فيُنْظر إلى أهل السنة فُيؤخذ حديثهم، ويُنْظر إلى أهل البدعة (الشيعة) فيُردّ حديثهم.

(1) ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

هي الجغرافيا والتاريخ والفن والبيئة والدين وما إلى ذلك من عوامل كثيرة كما ذكرنا.

وبناءً على ذلك كان أمامنا رؤية جديدة نستفيد منها في تقييم جذور الصراعات في العصور التي سبقت هذا التاريخ والتي أسميناها نظرية صراع الثقافات وليس صراع المذاهب أو الأطروحات الدينية. واعتمادا على ذلك فقد بدأنا ننظر إلى الموضوع بنظرة أعم وأشمل وبشكل موسع مما يغطي الكثير من مسببات ودوافع الإنسان في التحرك اتجاه اتخاذ موقف معين، بدلاً من الاقتصار على عامل واحد فقط ذلك هو الاختلاف الفرعي في (المذهب) أو المدرسة الفكرية.





الفصل الخامس

انتشار الثقافات





هل تموت ثقافة الشعوب.....؟: في الفصل السابق كان لنا أن ننتقل من القوقعة الفئوية إلى الفضاء الثقافي في فلسفة صراع الحضارات، أو صراع الثقافات التي تعتبر العالم الذي تنصهر به تحولات الأمم وانتقالها من حالة إلى حالة أخرى ومن موقع إلى آخر.

فالثقافات كما ذكرنا في السابق هي حالة ديناميكية (Dynamic) لن تتوقف ولن تتأخر عن مسايرة السنة التاريخية فيما يتعلق بتطورها ومسيرتها، وهنا علينا أن نشير إلى أن الثقافة متى ما تحوّلت إلى حالة ثابتة (Static) فان ذلك يعني بأنها حضارة ميتة، فالموت في الثقافات ليس له من مصداقية واقعية كما هو الموت البيولوجي، بل أن موت الثقافات هو حالة خطرة من الصعوبة أن تتحقق إلّا من خلال عوامل قاهرة جداً مثل عامل غزو عسكري، أو زلزال مدمر، أو مذبحة إنسانية كبرى..... وما لم يحدث ذلك فإنه لمن الصعوبة تصور موت ثقافة.... فالثقافات ليس من قبيل أن تموت. نعم من السهولة تصور ولادة حضارات ولكن من الصعوبة تصور الموت لها.

ماذا يعني ذلك.......؟: يعني بأنه يتحقق على أطراف النزاع في الصراع أن لا يحلموا في فكرة إفناء الخصم الثقافي، لأنّ عملية الإفناء للخصم (Elimination) أو (Eradication) عملية ليس لها من وجود

في تأريخ البشرية، وهو مشابه إلى شكل النظائر المشعة (Isotopes) التي تتحدد أعمارها ابتداء ولا يمكن إفناءها ما لم يتحقق انتهاء العمر الفعلي لها كما هو عمر اليورانيوم[1] والموت بعد ذلك التأريخ لليورانيوم بعد انتهاء تلك المدة هنا لا يعني الفناء، وإنما يعني تحوّل العنصر من حالة إلى أخرى.

وهذا يُحتّم على الإنسان أن يُدرك وأن يستفيق من حلمه في قدرته على إفناء عدوه الثقافي مهما أوتي من قدرة وقوة وسطوة، وهذه الحقيقة لم يدكها الكثير من قادة الأمم خصوصاً ممن استورث أسلوب ربط استئصال الفكرة باستئصال الإنسان. . . . . . فلقد كان قرار مقتل النبي من قبل قريش أو مقتل عيسى من قبل اليهود أو مقتل يحيى أو مقتل هابيل أو مقتل الحسين أو مقتل مارتن لوثر كنج أو غيره ممن تم قتلهم بأيدي إيديولوجيين كانوا يعتقدون بأن الفكرة الثقافة ستموت بموت الشخص[2].

وبتطبيق معادلة استحالت موت الثقافات، فإنه أمام الإنسان الحالي خيار واحد فقط لا غير وهو المعايشة والتحمل (Tolerance) في العيش

(1) العمر لعنصر اليورانيوم هو 4468 مليون سنة.

(2) من مواجهة شفوية بين حاكم ذلك الزمن وبين حفيدة النبي زينب (ت 62) (المدفونة في مصر) عندما حاول استفزازها بعدما قتل الحسين أخيها وكل من ينتمي إلى آل البيت في مجزرة كربلاء المشهورة في قوله لها ماذا ترين صنع الله بك وبأخيك. . ؟ فكان جوابها ثقافياً في الخطبة المعروفة التي منها: فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تُميت وحينا، ولا يُدحض عنك عارها، وهل رأيك إلّا فَنَد وأيامك إلّا عدد، وجمعك إلّا بدد. . . يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين.

مع الثقافة المناوئة، وليس محاولة إنهائها أو قتلها كما هي فكرة توجه العالم ما بعد عصر القنبلة الذرية التي أسقطت على هيروشيما في عام 1946 إلى رفض فكرة الحرب وفكرة إبادة الآخر، بل التعايش معه ضمن مصطلحات الحرب الباردة أو غيرها، أو تقارب الأمم أو ما إلى ذلك بعد أن أدركت ثقافات الأمم خصوصاً القوتين العظميتين وما تبعها من دول أخرى نووية بأن الموت في استعمال السلاح النووي هو موت مكتسح للكل ولا ينجو منه حتى ذلك الذي أقدم على اكتشاف واستخدام السلاح النووي باعتبار أن لدى العالم اليوم قدرات في أن تفني البشرية هذه عشرة مرات.

ماذا نستنتج من هذه النظرية على مستوى الواقع...؟: لا يمكن إفناء ثقافة البداوة ولا ثقافة قريش بعصبيتها ونزوعها إلى العنف، ولا ثقافة الأعراب، ولا ثقافة البعض من الخوارج في إفناء الآخرين، ولا ثقافة العنف المستشرية في المجتمعات الإسلامية لدى (القاعدة) و(داعش) وغيرها.

- كما لا يمكن إفناء ثقافة السلم ولا الثقافة الإبراهيمية ولا المحمدية الإسلامية ولا الثقافة الإمامية، ولا الثقافة الشيعية.
- نعم من الممكن أن نعيد الثقافات إلى ميزانها الطبيعي على مستوى صراع الأفكار وصراع المعرفة فقط. أي إعادتها إلى حالة التوازن (Equilibrium) الطبيعية من خلال قانون التحمل وقانون المعايشة والعمل الفكري. بمعنى آخر وكما هي نظرية الفيلسوف الكبير (فرانس بواس Franz Boas) (ت 1942) في القول بأن

صراع الثقافات هو صراع من أجل تعديل (الأفكار الأساسية) التي افترضها الفيلسوف ويلهلم (ت 1835).

وما دامت الثقافات لا تموت فإنه لمن المحتم أن نقول بأهمية الإقلاع عن عنصر الصراع المسلح، أو التفكير في إبادة الآخر بما تحمله الثقافة البدوية المستشرية في المجتمع العربي حكاماً كانوا أم شعباً. فقد بنت تلك الثقافة كل أفكارها ورؤيتها وشكل قاعدتها على مفهوم الإبادة، واستبدال الشخص بعد إفنائه بآخر يقترب من حرفيات الثقافة القاتلة (الجانية). وهو مبدأ سارت عليه كل الدول الإسلامية التي تلت وفاة النبي. . . . . فقد كانت حروب الردة هي حروب إبادة (Genocide) وكذلك حروب مواجهة التبرعمات التي انطلقت فيما بعد مثل مواجهة عشيرة النبي، وحروب ثورات الخوارج، ومعركة الحرّة، ومعركة مكة، والطف وبقيّة الوقائع التاريخية الكثيرة جداً والتي كتبها التأريخ بالصورة الخاطئة من خلال ثقافة الدولة السياسية خلال عصور ما بعد النبي وإلى الآن.

الاستبدال الثقافي: وهنا من المنطوق التاريخي نعرج على فكرة انتشار الثقافات وذلك بعد أن اتضح لنا بأن الموت الثقافي أمر محكوم عليه بالخطأ الفكري والخطأ التاريخي، ونقول بنظرية (الاستبدال الثقافي) (Replacement Theory) ما بين الكتل الثقافية. . . . تتحقق شروط توفر الثقافة (الجامعة) (البديلة) في مجتمع ما من خلال مفردات الثقافة مثل: القوم والتأريخ والجغرافيا والدين والفن والاقتصاد. وهي عموماً متوفرة في كل مجتمع بشري تقريباً.

فالثقافة التي تنتجها تلك المجتمعات أو السلوكيات تبقى عبارة عن محرك ينتقل ما بين أفراد المجتمع خلفاً عن سلف، تتحرك بقدرات الأفراد في نشر مبادئ تلك الثقافة إلى أمم الأرض وإلى الأقوام التي تختلط أو تتصل بها . . . وتشتد الصراعات أو التقاربات ما بين الثقافات تبعاً لحالة التجانس (Homogeneity) ما بينها، فبالقدر الذي تكون (نقاط التماس الحضارية) متناسقة يكون هنالك منافذ سهلة للثقافة أن تذوب أو أن تطغى إحداهما في الأخرى. وبالعكس وبالقدر الذي تبدو نقاط التماس مختلفة في تركيبتها وفي شكلها فإن عامل الرفض ينشط في كلتا الثقافتان لكي يتحول إلى عامل احتكاك ومواجهة أي عنف، بعد أن تعجز نقاط الالتقاء الحضاري والثقافي السلمية من أن تتقارب.

فالثقافة البدوية في خلال مسيرتها مع التأريخ القرشي لم تتمكن من التناسق مع الفكرة الإبراهيمية التي كانت مختلفة في أدبياتها وسنخيّتها وطريقة إدارة الحياة. فلم يكن بداً من خلال هذا الاختلاف الكبير إلّا أن تدخل كلتي الثقافتين في مواجهة صاخبة يسودها العنف من طرف والسلم من الطرف الآخر. . . . . فكانت محاولة عملية حرق الشخصية الرئيسية في المشهد (إبراهيم) هو نتاج طبيعي لحالة الصراع الحضاري ما بين الجهتين، وكذلك ابتدأت في تلك الفترات أقسى أنواع المواجهات الثقافية إلى أن تم إبادة أجيال كاملة من الشعوب البدوية بعد ترك إبراهيم النبي هذه الشعوب تحت رحمة نوعية الثقافة التي اختاروها ليتوجه إلى أمم أخرى أكثر قابلية لطبيعة ثقافته السماوية والسلمية. فكان هنالك العرب البائدة وهم أقوام المؤتكفة وطسم

وغيرهم وقوم وهود، أي قوم أنبياء العرب (وهم في طور البداوة)[1].

وتكاثفت كذلك نقاط التماس بشكل أكثر فيما بعد وفاة النبي فكان أن تمكنت الثقافة المناوئة من قتل آل الرسول ما بين 11 إلى 61 هجرية وهو مسلسل عنف كبير ابتدأ من تأريخ إبراهيم الخليل (تقريباً أربعة آلاف سنة قبل الميلاد) وإلى الوقت الحالي مادته هو اقتراب الثقافتين جغرافياً أحدهما من الآخر في الوقت الذي كانت نقاط التماس متناقضة في تركيبتها الجزيئية ومفاهيمها الفكرية بشكل لا يمكن لأي من الثقافتين أن تسيطر أو أن تتداخل مع الثقافة الأخرى[2].

هذه نقاط التماس تتكرر في التأريخ العالمي كلما كبرت وقويت ثقافة التغيير، أو ثقافة المعارضة، أو كما تسمى ثقافة إرجاع المعادلة إلى توازنها على حسب تعبير الفيلسوف ويلهيلم. . . . . . . فيحدث بعملية محاولة التغيير ردود أفعال متنوعة تؤدي بالتالي إلى ظهور حوادث عنف تقودها الثقافة التي تمتلك أدبياتها فلسفة إلغاء الآخر أو السيطرة الكلية[3].

---

(1) وهم ستة (إسماعيل، هود، وشعيب، وصالح، ولوط والنبي الأكرم).

(2) وقد تجد ذلك منتشراً في أمثلة صراع حضاري أخرى في القرون الحالية، مثل صراع الثقافتين الهندوسية والإسلامية في فترة الأربعينيات، وكذلك صراع الثقافتين البنغالية والباكستانية في السبعينيات، وصراع الثقافتين الأرثوذوكسية والإسلامية في البوسنة والهرسك، وكذلك في كوسوفو في أعوام التسعينيات من القرن الماضي.

(3) الثقافات التي تتميز بالعنف في التعامل مع الثقافات الأخرى غالباً ما تضم بين ثنايا أدبياتها روح الاستعلاء والتميّز، أو كما تسمى في المصطلح الإسلامي فكرة (الفرقة الناجية) في الوقت الذي قد لا تجد ذلك واضحاً في ما تم كتابته بالصورة التي تنبىء =

عندما تعيش في ظروف قاهرة فإنها تتشتت في جغرافيتها في الوقت الذي تتغير باتجاه التطرف بكل أنواعه في طريقة تعاملها مع الآخرين، فقد تمكنت الثقافة القرشية الأموية من أن تمتلك قدرات سلطوية كبرى في تشتيت الثقافة المناوئة لها وهي ثقافة التشيع أو ثقافة آل الرسول على مستوى الفكر وعلى مستوى الوجود الجغرافي والزماني وكذلك طبيعة العلاقات الاجتماعية، وهو ما فرض عليهم أن يتوزعوا في الأمصار المتفرقة العائدة إلى الدولة آنذاك.

فقد كانت من أولى الأقطار التي هاجر إليها معتنقي ثقافة التشيع هي إيران باعتبارها تمثل أرض فيها الكثير من التشابه مع الواقع العربي في دمشق أو بغداد العاصمة، هذا بالإضافة إلى الالتصاق الجغرافي، بعكس بقيّة الأقطار مثل تركيا التي كانت لازالت في ذلك الوقت تحت

= بهذا النوع من التمييز، بل أن مثقفي ومنظري تلك الثقافة لم يكن في خلدهم بأن الفكر قد يتحول إلى عنف، فدوافع كتاباتهم كانت نابعة من الاعتزاز بانتمائهم، ولكن الفكر عندما يؤسس فإنه يخرج عن نطاق ما يفكر به منتجيه، فقد تجد ثغرة صغيرة في قالب الفكر تكون كافية في أن يضع منظر آخر فكر أقسى من الأول وهكذا. فلا أعتقد شخصياً بأن الثقافة البدوية والقرشية التي اعتبر الفاروق والصديق من أهم أعمدتها كانوا يرمون إلى تمييز المجتمع أو دفعه نحو العنف من خلال ما أتحفوا به الإسلام من أقوال ومن سيرة. وكذلك لم تكن سيرة النبي في مواقف معينة ترمي إلى العنف بل كانت حالة خاصة مقتصرة على ذات الموقف للزمان والمكان لا غير، ولكن من جاء فيما بعد وقرر أن يواصل الشرح أو التفصيل فإنه انطلق من الواقع النفسي والفكري الظلامي الذي عاشه في ذلك الوقت، فظهر إلى الأمة بأنه سلوك من النبي أو من الخلفاء. وهنا من الضروري على كل محللي التأريخ أن يدرسوا كل قضية في زمان ومكان وظرف بشكل مستقل تماماً عن أي حادثة أخرى مشابهة كانت أم غير مشابهة. أنظر الموقع التالي: http://ejabat.google.com/ejabat/thread?tid=32de831cdbf5d964.

السيطرة الرومانية، وكذلك أرض الشام التي كانت مسرحاً مهماً لمؤيدي ثقافة السلطة آنذاك الأموية، وكذلك الأمر في زمن العباسيين عندما صارت بغداد هي المركز للحكم، فكانت الأقطار البعيدة عن المركز هي الأماكن التي هرب إليها منتمو ثقافة آل البيت. فقد هرب الشيعة من آل البيت من الزيديين إلى إيران وهرب البقية منهم إلى اليمن، كما هرب في الوقت ذاته أتباع المذهب الإسماعيلي إلى إيران وإلى اليمن وإلى شمال أفريقيا.

أما الخوارج فإنهم انتشروا في الأقطار الإسلامية المتعددة ولكنهم استقروا في شمال أفريقيا خصوصاً الجزائر وليبيا كما تمكنوا من أن يبنوا دول في جنوب الجزيرة العربية.

أما الإماميون الاثنا عشريون من الشيعة فإنهم لم يغادروا مركز الدولة سواء عندما كانت في سوريا دمشق أو في العراق بغداد، مع وجود كثافتهم العلمية والفقهية في الكوفة.

كانت الأقطار التي هاجر إليها منتمو ثقافة التشيع بمختلف مدارسها وهي الإسماعيلية والزيدية قد بدأت بالتجذر في أماكن الهجرة وبالشكل الذي سنتحدث عنه فيما بعد وبصورة مختلفة عن السلوك الذي سلكته دمشق أو بغداد مع الناس والمواطنين.

الأماكن الرئيسية الكبرى التي تشعبت فيها ثقافة (الرفض) وهو المصطلح المرادف لأتباع (آل البيت) أو ثقافة (رفض العنف) قد بدأت منذ سنة 61 هجرية والتي سنكتب عنها فصلاً لأنها تمثل منعطفاً مهماً من منعطفات ثقافة السلم. . . . فقد بنيت أسس تلك الثقافة على منهج

آل البيت، أنظر دقة التعبير القرآني[1] وهي الثقافة الوحيدة التي نبعت من أدبيات الرسالة في تغيير الشعوب سلمياً. وقد كانت حركة الحسين أول مبادرة سلمية من زعيم آل البيت آنذاك وهو الحسين بن علي، وأمه فاطمة بنت الرسول. وسنذهب في تفاصيل المبادرة الحسينية بشيء من التمحيص باعتبارها الأشهر ليس على مستوى الإسلام السياسي أو الإسلام المدني أو التغيير السلمي أو التغيير الآمن أو غيرها من المصطلحات الحديثة، وإنما من حيث النموذج الأمثل ربما لكل من يرمي التغيير السلمي في العالم منذ عصر انطلاق الثورة.

فليس بمستغرب أن يكتب المؤرخون الذين تناولوا الثورات السلمية في التأريخ بما هو انعكاس لحركة كربلاء في نوعية التشابه مع المواقع التاريخية الإنسانية وبدون معرفة أو اطلاع تلك الأمم على وقائع سنة 61 هجرية، فقد تكررت المشاهد بشكل عفوي أو بطريقة ما في ثورات كبرى في التأريخ مثل واقع الحركة التي قادها غاندي (ت 1948) وكذلك مانديلا (ت 2013) ثم قبلهم كان عبد القادر الجزائري (ت 1883) صاحب مبدأ الثورة السلمية وغيرهم الكثير.

ولكن الذي حدث هو أن الكثير بل ربما كل المؤرخين الذين كتبوا عن حركة كربلاء أو ثورة الحسين قد فسروا الثورة من منطلق فهمهم

---

(1) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33]. كلمة (يريد) هي كلمة (جعليّة) ربانية وليست نابعة من خيار. سبب ذلك (الجعل) هو الأهمية القياسية لشخصية البشر على تقديم نموذج للسلم إلى الآخرين لكي يكون مرآة لروح الآية.

للأحداث المتناسقة مع ظرف ذلك الوقت، وطبيعة نظرة المجتمع، مع أن الذين شاهدوا وكتبوا عن المعركة كانوا لا يزيدون عن عدد أصابع اليد الواحدة[1]، فقد دخلت الثورة في عمق الوجدان الشعبي الإسلامي بطريقة لم يألفها المجتمع في ذلك الوقت، فلم يكن رد الفعل إلّا الثورة أو حركة السلاح وهي الطريقة التي يفهمها المجتمع آنذاك، بمعنى آخر إن امتداد حركة كربلاء كانت لا تفسر مغزى تلك الحركة، فثورة المدينة، وثورة مكة، وثورة المختار، وثورة التوابين، كانت ثورات مواجهة بكل ما في الكلمة من معنى والتي انعكست بالتالي على مفاهيم الحركة الحسينية بالتأثير الرجعي وبشكل أثّر على الواقع العام في فهم ثورة الحسين على أنها ثورة شخصية تريد انتزاع حكم من شخصية لم تتأهل شرعاً لذلك.

أنموذج السلم ثورة الحسين...: هذه المفاهيم لم تتغير منذ أن كتب العرب أو الشيعة أو السنة عن ثورة الحسين، فكان لكل منهم من سبب في أن يضيف على الثورة الحسينية صفة المواجهة لا صفة السلم.

فالشيعة كانوا يعشقون الشهادة آنذاك وهو تراث ربما لازمهم وإلى الوقت القريب من العصور المتأخرة معتقدين بفكرة (عشق الرسول وآله منجاة من النار) والتي يقول بها ربما جميع المذاهب الإسلامية بطريقة مختلفة نوعاً ما مثل (الفرقة الناجية). ولكن الظرف السياسي والظرف النفسي للشيعة في سنة 61 كان ظرفاً يميل إلى طلب الشهادة وطلب الانتقال إلى العالم الآخر، بحيث أن القتل والشهادة صارت سمة بارزة

(1) أهمهما اثنان هما لوط أبو مخنف وحميد بن مسلم.

وعنوان مشهور لدى الشيعة من آل البيت، وخصوصاً بعد مقتل الزهراء وعلي والحسن وأبو ذر وعمار وسلمان، والمقداد. . الخ.

أما الشيعة غير الإمامية فلم يكن لهم من نصيب في عنصر الزمن باعتبار أن الفرقة الأولى التي انطلقت من رحم التركيبة الشيعية الأصلية هم الزيديون في تأريخ تقريباً 110 هجرية أي بعد حادثة كربلاء بأكثر من خمسة عقود. في ذات الوقت كان الحكم (العامة) أو مذهب الخلافة الراشدة أو ما يمكن تسميته (مدرسة الخلافة) يحاول زج الطرف الآخر في مسلسل العنف. . . . فليس هنالك من مبادرة أخرى في التعامل مع أي حدث خلافي فكري كان أم غيره إلّا من خلال العنف والقتل أو الحرب والمواجهة، حتى وإن كان المختلفون هم أقرب إلى بعضهم نسباً.

فلذلك فإن العنف الذي بادرت إليه المدرسة الثقافية (العامة) أو (الخلافة) كانت تدّعي بل تؤكد على أن حركة كربلاء كانت خيار انتزاع حكم، وليس خيار تثبيت مفهوم، وذلك انطلاقاً من وحدانية الرأي واعتقادهم به كخيار وحيد في التعامل مع المسائل الخلافيّة.

فلم يُعرف ولم يُروَ في أن القادة الكربلائيين وهم الحسين وآل البيت قد صرحوا بانتهاج خيار العنف أو المواجهة المسلحة. . . . . نعم كان الخيار الذي اتخذه القائد هو رفض مبايعة الخليفة وهو أمر سلمي، بل هو حق من حقوق المواطن المسلم ليس للحاكم أن يفرض بيعته على أحد، كما أنه ليس لديه الحق في منع شروط المواطنة عنه، ما لم يقترن عملية الرفض تلك بحمل السلاح.

فقد رفض مبايعة أب الحسين قبلاً مجموعة منهم سعد بن أبي وقاص (ت 55)، وأسامة بن زيد (ت 54)، ولكنه لم يعترض على رفضهم ذلك، ولم يبادرهم إلى فرض البيعة عليهم. وهو أمر سلمي تنتهجه كل الشخصيات التي ترى في الحاكم شخصية لا تتناسب مع موقفه في قيادة الناس.

كان أهم مبدأ من مبادئ الحسين هو حمل السلطة على مبدأ ومفهوم الدخول في مفاوضات مع المعترضين على الحكم، ليس معه فحسب، وإنما مع كل الآخرين ممن رفض البيعة مثل عبد الله بن الزبير (ت 73)، وعبد الله بن عمر (ت 74)، وغيرهم، باعتبار أن رفض البيعة هو جانب سلمي من الجوانب التي تفرض على السلطة التفكير في أسباب الرفض الجماهيري. . . . . ولكن السلطة بعدما أسكرها خمر القوة والكرسي فقد عميت عينيها عن رؤية ما يفكر به ابن الشارع العادي، ولذلك فخيار الرفض لتقبّل الحاكم والدخول في طاعته أمر ليس فيه غير العمل السلمي طريقاً، وهو مشابه تماماً لرفض الانتخاب لرئيس بلد في هذه الظروف وعدم إعطاءه البطاقة الانتخابية في الوصول إلى الحكم.

الأمة في تلك الأوقات لم تتعود على فكرة الاعتراض على حاكم[1]، لأنه مؤد إلى القتل، والبيعة صورة محسّنة من أدبيات البداوة وطبيعة وصول شيخ القبيلة إلى الحكم، بالتأكيد أننا هنا لا نتحدث عن

(1) البيعة عبارة عن أتفاق بين الحاكم والمحكوم بالطاعة، وتكون من خلال مصافحة اليد، وتعد فرق المسلمين كلهم ماعدا الشيعة بأن الرافض للبيعة أو الناكث لها يجب قتله ويعدونه من الكبائر مع أن ثقافة التسنن السياسية لا تصرح علناً بهذا المفهوم لأنه =

وجهة النظر الشرعية مع من تكون أو غيرها، وإنما نتحدث عن ثقافة الاختلاف ما بين أفراد المجتمع الحديث العهد بتوجه سماوي هو الإسلام.

فما كان من الحسين بعدما رفض أن يتقبل الحاكم الجديد إلّا أن وجد نفسه أمام ملاحقة قضائية وأمنيّة وعسكرية كانت تطلب رأسه حياً أو ميتاً. وهذا ما دعاه إلى الالتجاء إلى الحرم المكي باعتباره مكان تشترك به كل التوجهات الفكرية في توفيره الأمان للناس. ولكن الحكم لم يفهم ذلك، وإنما طالب القادة الأمنيين والمخابراتيين بقتل الحسين، أو كما هو مشهور في الرواية: (حتى لو كان متعلق بأستار الكعبة).

في الواقع لم يغب عن ذهن سبط النبي بأن السلطة ستقتله عاجلاً أم آجلاً، وأن الزمن هو الكفيل فقط في نقل رسالته إلى الأمة بأهمية عامل السلمية في النزاع مع الحاكم، فلم يركن إلى واقع عسكري، ولم يُعرف عنه بأنه دعا إلى تسليح نفسه أو غيرها من الأمور التي تنبئ باستعداد الشخص إلى قيادة حركة عسكرية.

= صورة جلية من صور الديكتاتورية وفرض الرأي بالقوة، فتقول بدل ذلك بأن المواطن تطوع ذاتياً لتقديم البيعة. وتكتسب شرعية الحكام العرب المسلمين مثل معمر القذافي وصدام حسين والملك السعودي والملك الحسن الثالث وبقيّة الرؤساء من خلال عملية البيعة التي يأنف المواطن العربي في رفضها بسبب عاقبة الرفض التي هي سفك دمه في الشريعة الإسلامية. الكثير ممن رفضوا بيعة خليفة تم اغتيالهم بطريقة أو بأخرى مثل سعد بن عبادة (ت 14)، ومالك بن نويرة (ت 11) وغيرهم. انظر المزيد عن البيعة في ويكيبيديا الأخوان المسلمون:
http://www.ikhwanwiki.com/index.php?title= البيعة

ولذلك تجنباً أن يتم حصره وقتله في داخل الحرم خرج في (يوم التروية) بعد أن اصطحب معه كل أهله وعياله، وهي علامة ليست فقط معروفة في العرف العربي، وإنما في الثقافة البدوية أيضاً، وفي ثقافة كل الشعوب التي سكنت تلك الأرض، بأن المعنى من اصطحاب الأطفال والنساء هو الشعار السلمي[1] في الحركة، لأنّ المقاتل دوماً يخرج لوحده بعيداً عن أهل بيته من النساء خصوصاً، فكان الشعار الحسيني المسالم هو كما يسمى (ضعن العايلة) في الوقت الذي كان يضم ذلك الضعن شخصيات كبرى من آل الرسول مثل زينب أخته (ت 62) زوجة عبد الله بن جعفر (ت 80) الطيار شهيد مؤتة (ت 8)، وأخته الأخرى وبقيّة نسائه، وكن ممن عرفن في التأريخ العربي بأنهم من علية القوم، كما في نفس الوقت صاحب معه صحابة أو تابعين من أصحاب النبي[2]. وهي دلالة لا تقبل التأويل على شعار السلمية التي التزم بها الإمام.

(1) القت السلطات الكندية القبض في يوم ضرب العراق عام 1991 على شاب وصل مع زوجته تواً إلى كندا يحمل معلومات تشكك في أنه ذو توجه إرهابي. المحامي المدافع عنه كان يهودياً وعندما سؤل عن سبب التزامه الدفاع عن شاب لا يعرفه مع احتمال أن يكون كذلك..؟ أجاب المحامي الكبير (Clayton Ruby) بأنه اقتنع من براءة المتهم لأنه كان يصطحب معه زوجته وهي حامل بشهرها الثامن. (راجع القضية في كتاب: العالم فكر وسجن. صلاح شبر، دار العارف، بيروت 2014).

(2) أنس بن كاهل الاسدي، عبد الرحمن بن عبد ربه الأنصاري الخزرجي، حبيب بن مظاهر الأسدي، مسلم ابن عوسجة، كنانة بن عتيق التغلبي، عمار الدالائي، الحرث بن نبهان مولى حمزة بن عبد المطلب، زياد بن عريب أبو عمرة، عمرو بن ضبعة بن قيس بن ثعلبة الضبعي التيمي، مسلم ابن كثير الاعرج الازدي، سعد بن الحرث الخزاعي، يزيد بن مغفل الجعفي، شبيب مولى الحرث بن سريع الهمداني الجابري، جنادة بن الحرث السلماني المذحجي، جندب بن حجير الكندي الخولاني، عروة الغفاري.

توجه الحسين يريد الشام وليس إلى الكوفة -كما يقال- وكان يرمي من رحلته هذه الدخول في مفاوضات مع الحاكم آنذاك وهو يزيد بن معاوية (ت 64) ولكن الحاكم في الكوفة عبد الله بن زياد (ت 67) كان له أن يُرسل الكتيبة الكبرى لمنعه من مواصلة المسيرة إلى الشام والالتقاء بالخليفة[1].

وقد حاول الحسين أن يقنع الكتيبة الكبيرة التي خرجت لقتاله في أن يدعوه يواصل طريقه إلى الشام قائلاً لهم بأنه ويزيد أولاد عمومة[2]. ولكنهم لم يمهلوه وحاصروه ثم توصلوا بعد مفاوضات معه إلى أن يأخذ طرف الصحراء بعيداً عن الشام وبعيداً عن الكوفة، بعدها سار في طريق قادته قدماه إلى أرض يقال لها الغاضريات وهي كربلاء الآن.

لم يحمل الحسين معه في ذلك الوقت من عتاد أو سلاح أو ما

(1) كانت الحرب في الثقافة البدوية بمثابة (Business) لأنها الوسيلة التي تحقق ربحاً كبيراً في وقت قصير من خلال عملية السبي والسرقة والاستيلاء على النساء وعلى موجودات الجهة الخاسرة، وتزداد الرغبة في القتال إذا كان العدو لا يملك قدرات قتالية أو انه محكوم عليه بالخسارة كما هي حالة الحسين. فلم يرافقه أكثر من 300 شخص على أكثر الاحتمالات. في الوقت الذي كان الحسين قد حمل كل ما يملكه في الحياة من ممتلكاته ونسائه وأهل بيته. فكان القائد بن زياد ومعاونيه يرون في مقتل الحسين أمر مهم من الناحية المادية وأنه طريق سهل للغنيمة والثروة، ومما يدلل على ذلك هو الهجوم الذي بدأه الجيش بعد مقتل الحسين على خيام الحسين بمجرد أن سقط على الأرض ينهبون ما تقع على أيديهم مما يمكن الانتفاع به حتى أن أحدهم قطع أصبع الحسين لأنه لم يتمكن من سرقة خاتمه من اصبعه.

(2) من خلال نسب عبد شمس (أب أمية) وهاشم (أب عبد المطلب) باعتبارهم أخوان لأب واحد هو عبد مناف.

شابه من إشارات استعداده للحرب، في الوقت الذي كان يحمل الوثائق الثقافية التي يريد أن يعلنها في حركته وهي الأصول المتعلقة بجذور الثقافة السلمية الإسلامية المحمدية، فكان يحمل معه عمامة النبي، وسيفه، وفرسه كما كان إلى جنبه النبوة الناطقة وهم الصحابة، ثم الوثيقة الأخرى النسب (آل النبي) وموقعه هو من ذلك النسب كسبط وحيد من أسباط الأنبياء على الأرض.

دارت المفاوضات بين الطرفين وكان الجانب الآخر مستعجلاً للتخلص من الحسين بطريقة أو بأخرى، بينما كان من صالح الحسين أن يطيل أمد المعركة الثقافية في تلك اللحظات العصيبة، وكانت قوة ورقة الحسين في المفاوضات هو أنه لم يخرج إلى قتال بدلالة اصطحابه عائلته مع قلة أصحابه، ولو أراد ذلك لكان الاستعداد قد تم بطريقة أخرى، وبوسيلة معروفه لدى العرب.

بينما كان المفاوض الآخر وقائدهم عمر بن سعد ابن سعد بن أبي وقاص الشاب الذي كان طائش البال مغرور بالوعود التي أغدقها عليه الخليفة بعد أن مناه في إعطائه ولاية إيران في قيادته الحرب ضد الحسين. في الوقت الذي كان الخليفة يعتقد بأن معركة المواجهة مع الحسين ليس بالضرورة أن تكون رابحة لانعدام من يتمكن من أن يقود المعركة[1].

(1) تأريخيا من الصعوبة فهم هذا المنطق فقد عصي الأمر على قادة الدولة عبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية على إيجاد من له الاستعداد لقيادة الجيش، ويبدو أن ذلك جاء بسبب تململ أول كتيبة أخرجها ابن زياد يقودهم الحر بن يزيد الرياحي ورفضهم قتل أو أسر =

في هذه الأثناء كان الشخصية الدموية السايكوباثولوجية ابن زياد يرى أهمية أن يثبت للخليفة الجديد قدرته على حل المشاكل بطريقة العنف والدم.

تجمع حول الحسين ما يقارب ثلاثون ألف مقاتل[1] على أكثر الروايات وهو لا يُستبعد باعتبار أن المعركة قريبة من الكوفة تبعد 65 كم عن المركز العسكري (النخيلة)، كما أنها معركة محققة الفوز، فخرج أناس كثر للحصول على الغنيمة تقودها قبائل البدو المنتشرة في محيط العاصمة العراقية الكوفة (ذو الأصول اليمانية) التي لا ترى في المعركة مع مبادئ، فالقتال ليس له مبادئ في العرف القرشي والبدوي وهو أمر ينسى فيه الإنسان بأنه ذو صلات إنسانية أو علاقة مع من يقاتله.

وهنا تحوّل الموقف إلى موقف بين حضارتين أو بين ثقافتين كانت مع الحسين ثقافة السلم والحوار ولغة الغيب (لغة هابيل) ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: 28] من الجانب الثاني كانت حضارة العنف التي اتخذت من التسنن أسماً لها في الانتماء ومن الجذور البدوية منهجاً في التعامل.

= الحسين، كما أن القواعد الشعبية كلها كانت تعارض التعرض إلى الحسين باعتبار أن الصحابة الذين لازالوا يروون منزلة الحسين من النبي أحياء مثل جابر بن عبد الله الانصاري وأبو سعيد الخدري وغيرهم.

(1) الكثير منهم شيعيّو الانتماء المذهبي مع تحليهم في تعمق ثقافة العنف السياسية السنية.

عندها خاطبهم الحسين بخطبتين مهمتين اللتان اعتبرتا وثيقة مهمة للشعوب الثائرة، ولكل من يفكر في انتهاج ثقافة السلم منهجاً له في التغيير، وكذلك لأولئك القادة الذين لا يؤمنون بالثقافة ثقافة آل البيت السلمية في أن يراجع متن الخطبتين المهمتين من خلال كتب كثيرة أو من خلال شبكة الانترنيت، كانت مجمل خطبتاه هو التحفيز الفكري والثقافي للأمة وإشعارها بطبيعة مبادئها[1] التي جاء الإسلام ليؤصّلها بعيداً عن مبادئ البداوة وثقافتها.

هذا في الوقت الذي كانت ثقافة البداوة القرشية هي ثقافة الدولة، ولم يكن من بدّ من أن تتواجه الثقافتان في ساحة ذي عنوان ما، إما

(1) أيّها النّاس أنسبوني مَن أنا ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها وانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي. . .؟، ألستُ ابن بنت نبيّكم وابن وصيّه وابن عمّه وأول المؤمنين بالله والمصدّق لرسوله بما جاء من عند ربّه. . . .؟، أوليس حمزة سيّد الشهداء عمّ أبي. . . . .؟، أوليس جعفر الطيّار عمّي، أولَم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنّة. . .؟، فإنْ صدّقتموني بما أقول وهو الحقّ ـ والله ما تعمدتُ الكذب منذ علمت أنّ الله يمقت عليه أهله ويضرّ به من اختلقه ـ وإنْ كذّبتموني فإنّ فيكم مَن إنْ سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري (ت 78)، وأبا سعيد الخدري (ت 74)، وسهل بن سعد الساعدي (ت 88)، وزيد بن أرقم (ت66)، وأنس بن مالك (ت 93) (كانوا أحياء) يخبروكم أنّهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي، أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي. .؟، فإنْ كنتم في شكّ من هذا القول، أفتشكّون أني ابن بنت نبيّكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم، ولا في غيركم، ويحكم تطلبوني بقتيل منكم قتلته. . . .؟، أو مال لكم استهلكته. . .؟، أو بقصاص جراحة. . . .؟. . . يا قوم، إنّ بيني وبينكم كتاب الله وسنّة جدّي رسول الله، ثمّ استشهدهم عن نفسه المقدّسة وما عليه من سيف النّبي ولامته، وعمامته فأجابوه بالتصديق.

فكرية وإما دموية، وذلك حسب ما يقرره الطرف القوي. وهو أمر محتم في مثل كل الظروف التي تفرض سياسة القتل قدرتها، والتي لم يكن أمام ثقافة السلم إلّا التصبر والصبر من خلال عدم القتل والرد بالمثل، وهي من أصعب المهام التي تواجه الإنسان أو تواجه الجسم البيولوجي.

فالصعوبة ليس في أن تقاتل، بل أن تصبر على القتل.... أو في أن لا ترد العنف بالعنف، لأنه دوامة لا تنتهي، بل أن ترد العنف بالحب والصبر والسلام..... لم يكن بداً من الحسين إلّا أن يُعلن بأنه على استعداد في أن يوثق سلميته بطريقة حركية يفهمها ويدركها عقل العنف البدوي. فكان له أن يحمل إليهم أعز ما هو أقرب إلى قلب الأب فاستخرج لهم رضيعاً كان قد ولد حديثاً وطالبهم في أن يسقوه ماء بعد أن قرر الجيش قبل ثلاثة أيام أن يقتل الحسين بالعطش[1]، ومعنى الاستسلام هنا لا يختلف كثيراً عن معنى القتل بشيء، بل كان القتل حاصل في الحالتين، ولكنهم كانوا يرمون إلى إذلال صاحب النظرية الثقافية السلمية لكي يكون عبرة لمن يفكر في استعمال سلاح منطق السلم والعقل.

(1) وليس بالسيف باعتبار أن الحسين هو سبط النبي وقتله باليد أمر في غاية الصعوبة فانبثق عقلهم عن وسيلة أخرى وهو أن يموت الثائرون من العطش أو أن يستسلم... وبالتأكيد الجسم البيولوجي في تلك الصحراء ومع وجود ذلك العدد الهائل من النساء والأطفال فإن عنصر الاستسلام هو الخيار المحتم. فالجسم البيولوجي في غياب الماء يفتقد القدرة على التفكير في قرارات الجسم لما للماء من دور مهم في طاقة التفكير. وقد منع الماء عن الحسين منذ اليوم السابع من عاشوراء.

فتقدم احدهم ليأخذ الطفل الرضيع من بين يدي أبيه فتناوله أحدهم بسهم قطع رقبة الرضيع[1].

بقيت مناورات القوي تحز في رقبة عنفوان ثقافة الكبار، ولم يكتفوا بذلك وإنما هجموا على القلة من معسكر الحسين بالسهام حتى أبادوا منهم جمعاً كثيراً. . . . . ولما لم يجدوا من صاحب الرسالة أن يستسلم لإرادة العنف، وإرادة القتل والبداوة طالبوه أن ينازلهم بسيفه، فأبى وخاطبهم بالعنوان الثقافي لا بالعنوان العسكري قائلاً لهم (يا شيعة آل أبي سفيان) وهو خطاب غريب في عُرف الصراعات في ذلك التأريخ، ولكنه أراد من ذلك أن يؤكد للحالة الشعبية التي خرجت عمياء صماء إلى قتال ابن بنت نبيهم بأنهم أمام حالة ثقافية أسرتهم وأعمت أفئدتهم وأبصارهم عن مواجهة طبيعة البشر وطبيعة الإسلام، فلم يقل لهم يا جيش بن زياد أو جيش يزيد أو جيش الدولة، وإنما سماهم بعنوانهم الثقافي وهي التفاتة مهمة كبرى من القائد السلمي في طبيعة حرق العناوين.

(1) كان هذا الموقف موقفاً استفزازياً من معسكر ثقافة العنف البدوية في جر ممثل ثقافة السلم الحسين إلى موقف عاطفي جارف لكي يدخل إلى معترك العنف بدون السيطرة على مشاعره، كما هو موقف غاندي في أن يطلب من الهنود في أن يقوموا بتبني أولاد قاتليهم. فما كان من الحسين آنذاك إلّا أن ردّ العمل البربري بعمل أشد ثقافياً من القتل وهو أن أخذ دم ابنه الرضيع ورماه إلى السماء وهو يقول: اللهم لا يكن عليك أهون من فصيل ناقة صالح، وهو دعاء المثقف صاحب الروحية العالية التي لا تعرف الحقد. ثم أخذ جسد رضيعه وحفر له بسيفه خلف الخيام قبراً، وطالب أمه أن لا تشق جيباً أو تشمخ وجهاً.

في هذه الأثناء بدأت تباشير النصر تميل إلى جانب منطق الحسين العقلاني الإنساني أمام أناس يحملون بقيّة ضمير، وآثار عروبة، وشعارات انتساب، عندما خاطبهم قائلاً: (ويحكم يا شيعة آل أبي سفيان، إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم، وارجعوا إلى أحسابكم فحاسبوها إن كنتم عرباً كما تزعمون). هذه هي قمة القدرة الخطابية الثقافية التي لا يمكن لإنسان أن يصمد أمام عنفوان الكلمات التي دخلت في وجدان وعقل كل إنسان منهم..

وهنا بدأت الناس تتراجع، وكان من توفرت لهم الفرصة في أن ينتقل إلى معسكر الحسين، وكان أولهم هو الحر الرياحي أشجع شخصية ذو السمة الثقافية الاجتماعية والدينية عندما تسلل بعد أن تظاهر بأنه ذاهب إلى الفرات[1].

وأمام تنافس حركتي السلم والعنف المدمرة في تلك الأرض القاحلة في اليوم الثاني عشر من شهر اوكتوبر عام 680 م رفض الحسين كل طلب يتقدم به أصحابه في القتال أو النزول إلى المبارزة أو ما إلى

(1) كان الخروج إلى الحرب في العرف البدوي له سياقاته، فمن يعتزل الحرب يقتل من قبل الناس وهو أمر استعمله العرب فقط في حروبها، ولم تستعمله الرومان أو الفرس أو غيرها من الشعوب، بل كانت الجيوش العربية تضع في مؤخرة الكتائب من يتخصص في ملاحقة المتأخرين عن القتال فترميه بسهم وهو في موقع قريب منهم. و قد استعمل هذا الأسلوب صدام حسين في الحرب العراقية الإيرانية ونجح به نجاحاً باهراً حيث تمكن من إيقاف التمرد على الجيش الذي كان أفراده لا يرون من جدوى لهذه المذابح بين دولتين مسلمتين.

ذلك. . . . وكان يقول لهم اصبروا وسيحكم الله بيننا وبينهم بالحق. . . . وكان يرفع صوته وهو في موقعه في قلب المعركة في النداء السماوي الذي جعل نفوس الجيش المعادي أن يعيش غضب نفسه وتناقض روحه مع عقله ذلك النداء الكبير المزلزل: هل من ناصر ينصرنا أهل البيت. .؟ هل من مجيب يذبّ عنا . . . . .؟ حتى ضجر أخوه الأكبر غير الشقيق العباس من تسويف الحسين في عدم السماح له بالحرب فاستأذنه في جلب الماء من الفرات علّه يجد فرصة في النزول إلى القتال.

ولم تتوقف نداءات البطل السلمي الحسين في أن ينقل إلى كل ذلك العدد مفاهيم رسالة السلم الكبرى لكي تبقى ثابتة في عقله وفي روحه وفي مبدئه من خلال الطلب منهم أن يصلوا جميعاً باعتبارهم مسلمون، والصلاة قد حان وقتها فلعل الصلاة تغيّر من نفوس الناس بعد أن يتوجهون إلى ربهم، وأن يتكاشفوا مع بارئهم، وكان صاحب مبادرة الصلاة هو الصحابي أبو ثمامة الصائدي[1] ولكن القائد بن سعد

(1) من قبيلة حاشد اليمنية الزيدية الموجودة الآن التي تنتسب إلى همدان (قتل من نفس القبيلة مع الحسين حِبشي بن قيس النهمي وحنظلة بن أسعد الشبامي (نسبة إلى شبام كوكبان) وسيف بن الحرث بن سريع الجابري وزياد بن عريب الصائدي وسوار بن منعم حابس الهمداني وعابس بن أبي شبيب الشاكري وبرير بن خضير الهمداني) ويسمى أبو ثمامة بشهيد الصلاة، وتذكر الروايات بأنه أقبل للحسين قائلاً: نفسي لك الفداء، إني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، لا والله، لا تُقتل حتى أُقتل دونك، وأحبّ أن ألقى الله وقد صليت هذه الصلاة التي دنا وقتها، فرفع الحسين رأسه إلى السماء وقال: ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلين الذاكرين، نعم، هذا أول وقتها. . . و كان واحدًا من آخر ثلاثة بقوا على قيد الحياة أثناء المعركة وقيل أنه سقط من أثر الجراح فحمله أقاربه من الميدان وتوفي بعد ذلك.

رفض، بل رفض السماح لهم لوحدهم في الصلاة، أما الحسين فقد اتخذ قرار الصلاة جماعة بالبقية مع أصحابه، في الوقت الذي كانت النبال تنهال كالمطر على المصلين، فقسم أصحابه إلى فرقتين، قسم يصلي لركعة (لأنها صلاة القصر) ثم يلتحق الباقون من المدافعين، وما إن انتهت صلاة الظهر حتى سقط بضع من أصحابه قتلى من السهام في أثناء الصلاة وكان منهم سعيد الحنفي البصراوي الذي قرر أن لا يصلي (بعكس الصائدي) دفاعاً عن قائده، وخوفاً من أن يُقتل القائد أثناء الصلاة، فكان يميل إلى حيث يهب السهم تجاه جسم الحسين حتى امتلأ جسمه بجراحات سقط على أثره ميتاً، بينما أسلم الحسين يديه أمام بارئه في الركعة الأخيرة ولم يسع إلّا أن يستمع إلى كلمات ذلك (السعيد) ليقول له وهو يكابر جراحاته وهو في النزع الأخير: ألّا هل وفّيت. . . ؟.

فنيّ ثلاثة أرباع أصحابه وبقي منهم فقط أهل بيته لا يتجاوزون الثلاثين شخص والمنادي ينادي من الطرف الثاني هلا تستسلم. . ؟ وتنزل على حكم أبن عمك. . ؟ وإن لم تستسلم فليس أمامنا إلّا إبادتك مع نسائك. . . . بينما كان الحسين يتوجه إلى كل قتيل يسقط بسهام القوم في تطييبه وتوديعه في الاستمرار على نهج الرسول وثقافة العقل والمنطق بقوله اقرأ رسول الله عني السلام وقل له بأننا على الأثر. . . .

لم يأمر الحسين حتى إلى هذه اللحظة ولم يطلق أمر المواجهة في القتال مع العدو، بل كان يراهن على أن تجد كلمة السلم وكلمة

الإنسان طريقها في قلوب هؤلاء المسلمين الذين يحملون ديناً ولكنهم يحملون ثقافة أخرى مخالفة لمبادئ الدين، إنها ثقافة العنف والقتل والإرهاب ثقافة البداوة والعصبية وحب السلطة والقوة.

وهنا كان له أن يعلن ثانية بأن السيف والعنف ليس له من أن يغير من ثقافة الإنسان ولا من عقيدته، لأنّ الثقافة قضية أكبر من السيف وأمضّ من القتل فقال لهم: والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر لكم إقرار العبيد. . . . . لأنّ الإنسان موقف، والموقف تضحية، والتضحية ثقافة كبرى تعتمل وتبقى تنتقل ما بين الأصلاب، فمن المستحيل أن يواجههم بمنطوق الوحشية التي يمارسونها أو يخوفونه بها، إنه يبقى يصارع أمام مبدأ السلم الذي يجب أن يتعلمه المسلمون الذين يحملون عنوان الانتماء[1] ولكنهم لا يحملون مبادئ ثقافة السلم التي أسسها الرسول وأشادها آل البيت بزعامة مسلسل الإمامية.

فالأمم لا يمكن لها أن تتعلم الثقافة أي السلوك إلّا من خلال النموذج. فمن المستحيل تحويل الشعوب إلى شعوب متحضرة بمادة ثقافية أكاديمية، أو علم مقروء، بل أن السلوك يتحفز ويتحول إلى برنامج لدى الشعوب عندما يكون هنالك من هو قادر على تحويل

(1) لم ينثن نلسون مانديلا أمام قوة الحكومة العنصرية البيضاء في أن يرفض طلبهم وهو آنذاك قابع في السجن من أن يتخلى عن مطلبه والطلب من الجماهير السوداء ان تتخلى عن التظاهر بعد أن خيروه بين الإعدام والاستجابة لطلبهم، فقرر مانديلا أن يُعدم بدلاً من الاستجابة لمطلبهم في تحويل الصراع إلى واقع مسلح. بعدها اضطر النظام العنصري إلى الرضوخ أمام إصرار البطل ثم إطلاق سراحه. أنظر حياة مانديلا على الموقع التالي: http://en.wikipedia.org/wiki/Nelson_Mandela

النظري إلى واقع عملي سلوكي يتفاعل مع النفس، وليس من خلال المستوى النظري فحسب.

فلقد كان من الصعوبة على الرسول الأكرم أن يتمكن من أن يغير الناس بقواعد نظرية وكذلك بقيّة الرسل في التأريخ، وإن ما يغير عقلية الفرد هو السلوك العملي الذي يقدمه القادة في ذلك الشعب أو المجتمع، وهؤلاء غالباً ما يكونون مخلوقات وهبها القدر إلى ذلك الشعب، بطريقة أقرب إلى الإعجاز منه إلى الواقعية التي ندركها في حياتنا[1].

وهكذا كان للقائد الحسين وفي تلك اللحظات العصيبة الصعبة أن يرى أبناءه وأهل بيته وأخوانه وكل الذكور من آل هاشم أن يذبحوا بطريقة بشعة أمامه، وأن عليه هو أن يصبر وينظر إلى الطريقة التي يتم بها ذبحهم. في الوقت الذي كان له القدرة أن يدخل معركة المواجهة ومعركة رد الظلم بالنتيجة العادية التي يراها الإنسان في الموت أو

(1) فلولا وجود تشرشل (ت 1965) في أثناء الحرب العالمية الثانية لتغيّر العالم تماماً ولكانت ألمانيا قد استولت على كل أوروبا، وكأنّ الرجل قد أرسلته السماء في ذلك الوقت وفي ذلك الظرف بالذات لكي يحقق هذه المهمة الكبرى، بعدها من الظريف أن نذكر بأن تشرشل لم يتمكن من أن يحقق فوزاً انتخابياً فيما بعد انتهاء الحرب، بل بقي في مزرعته بعيداً عن الأضواء، وقد تجد ذات الشيء في الرئيس الأمريكي بوش الأب في تحريره للكويت في عام 1991 بعد أن اجتاحها صدام والتي بعدها لم يتمكن من الفوز في الانتخابات الثانية، وكأن القدر قد حتّم عليه في أن ينجز مهمة التحرير فقط، وإلّا بعدمه لا أعتقد بأن صدام كان له أن يتوقف في مسيرته وفي طموحه في احتلال المزيد من الأراضي من الدول المجاورة. أنظر ترجمة تشرشل على الموقع التالي:
http://en.wikipedia.org/wiki/Winston_Churchill.

النصر، بينما كانت إستراتيجية الحسين السلمية هو الصبر على مقتل الجميع بدون أن يرفع أمام القوى الإرهابية سيف العنف، لكي يعلّمهم بأنه أقوى من القتل والعنف، وأمضّ من ذات السيف في حدّيّته وعنفوانه.

وقد رأوه وهو يبكي على طرف من مخيم النساء فشمتوا به، وأرادوا له أن يستسلم ذليلاً أمام آلاف السيوف الغادرة التي تريد لجسمه أن تقطعه إرباً إربا. . . . وعندما اقترب منهم زعيم الجيش بن سعد ليعرض عليه الاستسلام قال له: والله ما أبكي على حالي وإنما أبكيكم كيف ستواجهون الله غداً وقد قتلتم عترة نبيكم التي لا يوجد اليوم على ظهر الأرض منها أبدا. . . . . وكيف ستواجهون ثقافة التأريخ وهو يلعنكم وأنتم تتجاوبون مع ثقافة قريش وثقافة العنف في لحظة غرور. . . كانت دموعه لهم وليس عليهم، إنها النفس الكبيرة نفس القائد الذي سخت به السماء على هذه الأمة لكي تعلمها ما هو قدر الإنسان، وما هو معنى السلم الاجتماعي في بناء مستقبل الدولة ومستقبل الفرد.

أمر القائد العام أن يهجم الكل (30) ألف على بقيّة من بقى من آل البيت، وهنا كان على القائد الحسين أن يريهم من يكون هو من الرجال. . ومن أي صنف. . . فشد عليهم مصلتاً سيفه. . . وتروى المأثورات التاريخية بأنهم كانوا ينهزمون بين يديه كما هي انهزام المعزى إذا شد عليها الذئب. وكان يرجع إلى مكانه ويكرر من قول لا حول ولا قوة إلّا بالله. وكان آنذاك شيخاً بعمر 57 سنة ويكرر عبارات

مبادئ ثقافة السلم الكبرى التي تشترك بها الأديان وثقافتها في صراعها مع ثقافة العنف في قوله:

- اشتد غضب الله على اليهود حين قالوا: عزير بن الله.
- واشتد غضب الله على النصارى حين قالوا: المسيح بن الله.
- واشتد غضب الله على المجوس حين عبدوا النار من دون الله.
- واشتد غضب الله على قوم قتلوا نبيهم.
- واشتد غضب الله على هذه العصابة الذين يريدون قتل ابن بنت نبيهم!

فقد وضع محيط العالم بأديانه وبرسله تدور في فلك الحركة الرسالية التي تمثلها الثقافات، وكأنه أراد أن يقول من ذلك بأن ثقافات الأديان الكبرى في العالم هي ثقافات موحدة كانت ترمي إلى نقل رسالة السلم التحررية من عبودية الإنسان ضد ثقافة القتل البدوية العربية، فالأديان الأخرى كانت تصارع من أجل مفهوم وهو الانتماء إلى الباري من خلال ابن كما هم اليهود، والنصارى. . . . ثم العبادة للمجوس، أما العقلية الثقافية العربية فهي القتل كما هي ثقافة الانتماء إلى الرب من قبل بقيّة الأديان.

وحينما طلب منهم شربة من الماء ليروي عطشه في تلك الصحراء الملتهبة وهو في السابعة والخمسين من عمره الشريف، قال له أحد قادة جيش العنف وكان يعرفه جيداً وبأسلوب إرهابي: انظر لن تذيق الماء، هذا الفرات يجري كأنه بطون الحيات لن تذوق منه شربة حتى تموت عطشاً وتصل الحامية (النار)، لم يرد الحسين عليه إلّا أن قال له

يا ابن البوال على عقبيه أنا أرد الحامية. . ؟ بمعنى أن الحسين أراد أن يبين نوعية ثقافة العنف والقتل، وهي ثقافة البداوة وكأنها إشارة إلى دناءة من ينتمي إلى ثقافة العنف.

ثم لم يكن أمامه بعد أن بقي الصفوة من آل بيته وإخوته معه إلّا أن سمح لواحد بعد الآخر في القتال في قوله: قوموا وذودوا عن حرم رسول الله. . . . . ولم يقل لهم قوموا وقاتلوا الأعداء أو ادفعوا عنكم القتل، وإنما رفع شعار أخلاقي كبير بأن الدناءة الإرهابية لا تمانع من أن تصل إلى البريء من النساء، وأن دفعه الظلم عن الضعيف هو أمر متعلق بحضارة وأخلاق الإنسان.

وكانوا كلما قتلوا منه ابناً أو أخاً وخصوصاً ابنه الأكبر علي الذي كان يشبه الرسول خلقاً وخلقاً ومنطقا. . . . . قتلوه واحتزوا رأسه ثم مثلوا بجسده وأرسلوه إلى القائد الأب لكي يعلن استسلامه ويعلن بأنه لم يعد قائداً للثقافة التي تنتسب إليه أو ينتسب إليها.

صحيح أن الروايات تقول بأن الحسين بكى عندما شاهد ابنه مقطعاً إرباً إربا، ولكنه صاح صبراً آل الله، ولم يقل صبراً آل الحسين لأنه كان ينسب كل القتلى إلى مالكهم مالك الكون هو الله المطلق غاية الإنسان في مسيرته في حياته وفي بناء ثقافته. . . . .

وهكذا بدأ يتساقط الواحد تلو الآخر أولهم أبناؤه ثم أخوته ثم أولاد أخوه ثم أولاد أخيه (الأقرب عاطفة إليه أولاً) وكان في كل من يسقط في أرض المعركة يذهب إليه القائد بنفسه ويحمله إلى المخيم وهو يقول: لعن الله قوماً قتلوك، ما أشد جرأتهم على الله، وعلى

انتهاك حرم رسول الله. . . . . إلى أن بقي وحيداً وحوله ثلاثون ألف رجل مسلح يحاولون انتزاع اعترافه بالخسران والهزيمة وذل المعارضة والضعف أمام العنف وأن يستسلم في موقف أرادوا أن ينقلوه إلى الأجيال بأن القوة والسيف والتراث والثقافة البدوية هي سيدة الساحة، وهي التي تستسلم عندها الرجال. . . هكذا كان جلّ ما أرادوا من الحسين أن يقول أو أن يعلن. . . . بينما تتدهور حالته الصحية من جراء نزف الدماء واشتداد العطش وفي جسمه عشرات الطعنات ليروي لنا أحد المراسلين الصحفيين الموقف ليقول فيه: والله ما رأيت مكثوراً قط قد قُتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً ولا أمضى جَناناً ولا أجرأ مَقدماً منه، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله، وإن كانت الرجّالة لتشد عليه فيشد عليها بسيفه فتنكشف عن يمينه وعن شماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب، ولقد كان يحمل فيهم فينهزمون من بين يديه كأنهم الجراد المنتشر.

وكان في تلك اللحظات وهو يسير إلى حافة الموت بعد أن أعياه نزف الدماء يقول بصمت ويناجي مثله الأعلى: تركت الخلق طراً في هواك وأيتمت العيال لكي أراكا. . . . . فلو قطعتني بالحب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا. . . ثم يستمر في مناجاته العلوية الرائعة التي تنقل الإنسان إلى قمة الاعتراف بما يملكه من عزة ومن اعتزاز بثقافته، ثقافة الإنسان وثقافة المبدأ:

اللهمّ، أنت ثقتي في كلّ كرب، ورجائي في كلّ شدّة، وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعدّة، كم من همّ يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدوّ، أنزلته بك وشكوته

إليك، رغبةً منّي إليك عمَّن سواك فكشفته وفرّجته، فأنت ولي كلّ نعمة ومنتهى كلّ رغبة.

إنها رائعة إنسانية ومقطوعة من سمفونية وجدانية تؤسس لثقافية كبرى أرادها أن تنتقل إلى الإنسان تُكتب لا على صفحات الكتب، وإنما على صفحات العقل الإنساني الذي يحتاج أن يخرج من حيّز غرائزه ليقود سلوكه في عالم من القدرة ومن العطاء أمام اجتياح ثقل الموقف الإنساني الصعب، ويتصل بالمثل الأعلى لكي ينقل لأمم الأرض في أن يبنوا لأنفسهم مسيرة وثقافة تميزهم عن غيرهم من الآخرين.

وهكذا وفي لحظات النزع الأخير كان وقد صنع له في وسط المعركة مخدة من تراب بعد أن نزف دمه، ولم يعد له القدرة على الرؤية في أن يقترب منه جلواز إرهابي حاقد يريد أن يحتز رأسه فيرمقه بطرفه فيهتز السيف من يده ويولي هارباً حتى بقي لساعات تخشى أن تقترب منه الفرسان *(عفيراً متى عاينته الكماة... صريعاً يجبّن شجعانها)*.... وكان الكل ينتظر منه أن يقول كلمة الأسى أو كلمة الأسف على حياته، وحياة كل بنيه، بل كل عشيرته كما يفعل الإنسان العادي في لحظات الشدة، ولكنه أبداً لم يضعف ولم يُرَ فيه أية إشارة إلى الضعف، بل بالعكس كان الموقف يزداد صلابة وكأنه يريد أن يقول لهم: أبداً أبقى أحبكم حتى وإن قطعتم وريدي، وفعلا يتوجه إليه رجلا شاذ إرهابي متمرس في الخيانة ليحمل رأسه على رمح طويل بعد أن احتزه...

ولكن هل انتهى المشهد بعد أن حُمل الرأس وهو يكبر على طرف الرمح. .؟ وهل انتهى الموقف. . وهل هنالك أن تستسلم العائلة والنساء والأطفال أمام هذه المذبحة التاريخية الكبرى وهل ستتوجه المعادلة إلى جهة العنف. .؟

أبداً. . . . . وإنّ ما حدث وبمجرد أن رفع الرأس على القنا، وإذا بامرأة متشحة بالسواد تخرج من المخيم عرفها ابن سعد القائد بأن مشيتها هي مشية أبيها (علي) صديق أبيه (سعد بن أبي وقاص) الذي كان يستأنس بصحبته، أدركها هي أخت القائد، هي زينب. . تخطت القتلى فتهستر بن سعد وهو يصيح بالجيش أفرجوا عن ابنة علي لنراها ما تصنع. . . . . حيث كان يعتقد بأنها ستعلن بيان الاستسلام نيابة عن أخيها الذبيح. . . . أو كلمة عنف أو كلمة ثأر التي كان الكل ينتظرها لكي تنهار ثقافة السلم. .

تخطت المرأة جثث إخوتها وأبنائها وأبناء عمومتها واحداً واحد، ثم وقفت على أشلاء الجسد المقطع (أخيها)، ولم تقل أكثر من كلمتين دوّت لوقعها أملاك السماء. . . عندما صدحت بها حنجرتها لتقول: اللهم تقبل منا هذا القربان. . . . هكذا هي النهاية لا استسلام لا عنف لا قتل، ولو مات الحسين فإن كلمة الحسين لن تموت، ولن نستسلم للعنف بل سنصمم على ثقافة السلم وثقافة العقل.





الفصل السادس

انعكاس الثقافة السلمية الحسينية





ثقل المفهوم الحسيني للثورة: لم تتمكن الشعوب الإسلامية لا في ذلك الوقت ولا في هذا الوقت من أن تدرك معنى الرسالة الحسينية، ولم يكن هنالك من حيّز في تجاويف أدمغتها من معرفة هذه القدرة العظمى التي سُطّرت على أرض كربلاء، بل لم تكن لتدرك بأن هنالك إنساناً يحمل هذه القدرة من الصبر والمضي على المبدأ. . . . . حيث أن الكل اعتقد بما أملت عليه مفاهيم المواجهات التي استعرت في الأرض الإسلامية في أن مأساة الحسين هي مأساة مجردة، كما هو ما يحدث في بقيّة مواقع الحروب في انتصار قوي على ضعيف، فالجانب الثقافي السلمي لموقعة كربلاء لم تُثبّت في شعار الثورة ولا في أدبياتها التي كتبها الناس من المحبين ومن الأعداء، لأن المبدأ الذي كانت ترميه الثورة أو الحركة كان صعب بل عصيٌّ جداً عن الفهم، وإنما كان نوع من المثالية التي لا يمكن التصديق بها.

فكان أول ما وصلت أخبار المأساة إلى الأمصار الإسلامية نرى بأن النساء قد هجرن أزواجهن العائدين المنتصرين نكاية واستحقاراً لضعفهم وبلاهة عقولهم، كما بدأ الكل يبكي الحسين، والبكاء هنا ليست كما هي الطريقة التي نبكي بها أحباءنا، وإنما هو بكاء المبدأ وبكاء هدر ثقافة السلم وليس موت الإنسان.

فكم واجهت آنذاك الشعوب من مآسٍ ومذابح كبرى في ثورات انطلقت من هنا وهناك ولكن تلك المذابح كانت مبنية على سياسة العنف والقتل بل الانتصار على أفضل المثاليات، أما هنا في حادثة كربلاء فالأمر مختلف تماماً في شكل القتل والصبر على المأساة، فكان على الإنسان أن يبكي داخلياً حتى من هم أعداء الحسين الذين قتلوه أو شاركوا في قتله أو ساعدوا على ذلك، فتحولت قضية البكاء إلى قضية ثقافية ترتبط بثقافة السلم والمقاومة السلمية، ولم يتردد عن البكاء على مأساة السلم حتى مجلس وعائلة الخليفة نفسه، لأنها مأساة من نوع آخر يغيب فيها الإنسان حتى لو نسينا بأن القتيل هو الحسين بعد أن استسلم عقلنا بأن الموضوع ليس موضوع إنسان بل موضوع مبدأ سامي ذو أبعاد إنسانية عالية.

ولكن الشعوب آنذاك لم تكن لتدرك معاني المثل الكبرى التي أفرزتها تلك الثورة، بل أصبحت أمامها بحالة من الشلل الفكري في إدراك ماذا تعني وماذا تتطلب وماذا يراد لها أن تكون. . . . ؟، فانبرت أمام هذه المأساة عمق عقدة الشعور بالذنب التي استعرت في شعور الأمة بصورة كبرى[1]، وولدت وبسبب القصور في الفهم اتجاهات

(1) حاولت الثقافة الأموية في عام 36 هجرية أن تطور ذات المفهوم، مفهوم السلم، وتدعي امتلاكه من خلال استثمار حادثة مقتل الخليفة الثالث ذو النورين عثمان بن عفان على يد الثوار، وقد تمكن معاوية من استثمار هذا الحدث بصورة ناجحة لحد ما في كسب تعاطف المسلمين مع خليفة مظلوم قتل صبراً على يد عصابة تريد منه أن يغير من شرائع الإسلام، فتمكن والأمويين معه من حشد أنصار كثر أمام نغمة الظلم التي لحقت بالخليفة. فكانت البصرة في توجهها قد مالت إلى هذا الحشد الإعلامي وكذلك =

التطرف، لأنّ الفهم كان قاصراً، ولأنّ مبادئ السلم لم تكن لها أية قاعدة أو جذور في المجتمع الإسلامي آنذاك، فمن الصعوبة أن تدرك الشعوب ماذا يعني صراع السلم مقابل صراع العنف. لأنّ العنف هو فقط المادة المتوفرة على الساحة لا غير، أما ثقافة السلم فإنها لا تحمل ذلك الاسم، بل تحمل أسماء مرفوضة مثل الضعف والاستكانة والهروب من الواقع والجبن ورفض الرئاسة والسيطرة وما إلى ذلك.

فتحولت الثورة في نفوس الناس إلى سبعة اتجاهات:

1 - الثأر والعنف المضاد، قادته الحركات التي ظهرت في ذلك الوقت منهم الكيسانية والزيدية من الشيعة، وكانت جذور الزيدية قد ابتدأت فيما بعد تأريخ كربلاء ونضجت في ثورة زيد في زمن هشام بن عبد الملك عام 122 هجرية.

2 - الشعور بالضعف والهوان والتوجه في التكفير عن الذنب من خلال عمليات مسلحة ضد النظام كما هي ثورة التوابين 65 هجرية التي كانت أول ثورة فدائية في التأريخ الإسلامي.

3 - أساليب المقاومة المسلحة ضد السلطة وظهورها في التأريخ الإسلامي وهي التي اتبعتها الخوارج والبقية من التشكيلات.

4 - البقاء على نهج السلم ورفع قدرات ثقافة التشيع السلمية

= أمصار كثيرة بالإضافة إلى الشام. وقد قادت فكرة الظلم وفكرة الجهاد السلبي إلى حدوث ثورات كبرى بل مذابح هائلة أهمها هو ثورة الجمل وصفين بالإضافة إلى مجزرة (الحرة) في المدينة.

والمطالبة ببناء ثقافة جامعة وهي ثقافة الأئمة الاثنى عشر (مدرسة الإمامة).

5 - الهجرة إلى مناطق أخرى في العالم والانطلاق من خلالها في مواجهة الدولة القائمة الأموية.

6 - ظهور مدارس فكرية جديدة لمواجهة مدارس النظام التي كان يعتمد عليها في القضاء على المعارضة مثل مدرسة الجبرية التي التزمت بها الدولة الأموية.

7 - ثقافة الدعاء التي تطورت فيما بعد إلى مدارس الصوفية والابتعاد عن حطام الدنيا في الصراع السياسي.

وهنا نرى من خلال الاحتمالات السبعة المذكورة أعلاه بأن المدرسة الإمامية لم تعد لها السيطرة على مسيرة الشيعة بأكملها، وإنما صارت وتولدت هنالك ثقافة جديدة هي ثقافة العنف الشيعي أو الإيمان بسياسة قيام الدولة في مواجهة الدولة الأموية ومن بعدها العباسية باستعمال أسلوب السلاح والمواجهة، وهذه المجاميع تأثرت كثيراً بمفاهيم الواقع السني (المحافظ)، أو الفقه السني الذي يفصل موضوع الدولة عن موضوع الدين بالطريقة التي بيناها فيما قبل.

إن الثقافات في هجرتها أو اتساعها تتخذ طريقاً متعرجاً، ولكنه حتمي وذلك اعتماداً على عوامل متعددة أهمها هو الانسجام ما بين الثقافة المهاجرة وتركيبة المجتمع الجديد من الناحية الثقافية، وأعني هنا بأن المجتمع الجديد الذي هاجرت إليه الثقافة الجديدة ليس بالضرورة أن يكون مجتمعاً يدين بالإسلام ابتداءاً، بل أعني هو شكل

التركيبة التي تكونت منها ثقافة تلك الشعوب سواء أكانت ذو أصول دينية أو أصول عشائرية أو أصول مجتمع حرب. . . .

فالثقافة المنتقلة (Disseminated) عندما تنتقل فإنها تتحرك ضمن قانون الحلول (Diffusion) والذي يعبر على مدى التباين ما بين الوسطين من كلتي الثقافتين، فإذا كانت الكثافة مختلفة بشكل كبير فإن مسيرة الثقافتين ستكون بطيئة وضعيفة مع الأخذ بنظر الاعتبار أن أي ثقافتين تقتربان البعض من الآخر فهنالك حداً من تأثير أحدهما على الآخر بدرجة ما اعتماداً على القدرات التي تملكها كلتاهما في النفوذ والإحلال. وهو عكس ما يعتقده البعض بأن مسيرة الثقافات تسير باتجاه واحد أي القوي باتجاه الضعيف، وهذا خطأ مع الاعتراف بنسب التأثير ما بينهما. ولذلك فمن المهم أن يتم تقدير المحيط الاجتماعي للمجتمع لهجرة الثقافة الجديدة. فالثقافات الإسلامية مثلاً مع أنها هي المتأثرة من الثقافات المسيحية في الغرب ولكنها باتجاه إيجابية الثانية، فإنها في ذات الوقت تأثرت وتغيرت بنسب بالاتجاه الايجابي.

وترى الأمر مثلاً في الثقافة المغولية التي تعتبر من الثقافات التي تأثرت بالإسلام مع امتلاك الأولى لقدرات القوة في ذلك الوقت. وتجد الحالة مشابهة كذلك في الاتجاه المعاكس عند دخول الأمريكان إلى العراق عام 2003 حيث كان التأثير إيجابياً باتجاه ثقافة العراقيين خصوصاً الجنوبيين، ذات الشيء كان يمكن ملاحظته في فيتنام في حرب الولايات المتحدة معها. ولقد كانت الثقافات التي تأثر بها

الأمريكان في أثناء انتقالهم من حضارة إلى حضارة وثقافة إلى أخرى عاملاً مهماً من عوامل الدخول في بحث ومناقشة حضارات الأمم وثقافاتها.

في العالم الإسلامي وفي الدول التي تلت عصر سقوط الحضارة الساسانية وما بعد واقعة كربلاء كان للعامل الإنساني دور كبير في أن تنتقل الثقافة من منطقة إلى أخرى ولكن ضمن أجواء الكتمان خوفاً من سطوة النظام الذي كان يحمل صفة انتزاع الشرعية عن من يفكر في التأثر بثقافات الأمم.

كما في نفس الوقت كان التأثر بثقافات الإسلام وخصوصاً ثقافة السلم أمر محظور لدى السلطة، حيث كانوا ينعتونه (بالتشيع) و(بالرفض) و(بالباطنية) و(بالردة) أو (الزندقة) أحياناً خصوصاً من قبل علماء الخلافة التي سيطرت على الجانبين الديني والدنيوي في كل مراحل حكمها في الدول التي حكمت باسم الإسلام منذ وفاة النبي.

الذي حدث هو أن ثورة الحسين تمكنت من أن تكسر طوق الخوف والإرهاب بطريقة بدأت الأمم تتنادى فيما بينها في أهمية إدراك حيثيات التوجه السلمي في التغيير بدلاً من واقع القوة مع الشعوب. بالمقابل بادرت الثقافة الأموية (الموجودة آنذاك والتي هي خليفة الثقافة البدوية القرشية) إلى الاهتمام بجانب القوة والسلطة وتفسير التأريخ الإسلامي من خلال منظور العنف. فكان أول أنواع الثقافات التي كُتبت هي ثقافات العنف على شكل مصطلحات سموها (الغارات) فانبرى لذلك الكثير من التاريخيين لكي يكتب في موضوع الحروب وأهميتها وشكلها

وما إلى ذلك من أمور يراد منها إضافة صبغة العنف على المسيرة الإسلامية[1].

فلم يصل إلى مسامعنا أو لم يكتب التأريخ بأن هنالك طاولة حوار جرت بين فئتين من الفئات الإسلامية[2]، وإنما جميع ما وصل إلى المسلمين في ذلك الوقت خصوصاً بعد حادثة كربلاء هو العنف والقتل مع الوحشية المفرطة التي تَمّيز بها القادة والحكام، إن كان في العاصمة أو خارجها[3]، بينما في ذات الوقت توجهت ثقافة الإمامية وفي قمة سطوة الغضب والقتل والمواجهة والعنف إلى أن تختط مسار فلسفة الدعاء السلمية[4] التي وضع أسسها الإمام الرابع علي السجاد (ت 95)

(1) عبد الله بن سلام (ت 43) اليهودي الأصل كان راوي حروب ومعارك وعنف معظمها كانت من عندياته، وجبير بن مطعم (ت 59) أول من كتب في التأريخ، ثم عبيد بن شرية (ت 67) كان راوي أساطير، وسليم بن قيس (ت 76)، ثم إبان بن عثمان بن عفان (ت 105) وغيرهم.

(2) حاول الرسول في فترة قيادته للأمة تطبيق مفاهيم السلم في الوصل إلى الهدف ولعل أفضل ما يمكن ان نذكره في هذا المجال هو حادثة صلح الحديبية الشهيرة التي كانت تمثل قمة القدرة السلمية لتفكير الرسول، ولكن الذي حدث هو أن قريش في ذلك الوقت لم تكن هي القوة التي تمتلك زمام المبادرة في السطوة، وهنا الفرق الجوهري في صراع السلم، باعتبار أن السلم هو سلاح يمتلكه الضعيف ذو الحق المغتصب تجاه القوي المتسلط.

(3) من قادة سياسة العنف كثيرون أهمهم هو زياد بن أبيه (ت 53)، وابنه عبيد الله بن زياد (ت 67)، ثم سمرة بن جندب (ت 59)، ثم بسر بن أرطاة (ت 65)، والحجاج بن يوسف الثقفي (ت 95) وابن أخيه يوسف الثقفي (ت 127)، ثم خالد القسري (ت126)، وغيرهم كثيرون والذي من الممكن مراجعة كتب التأريخ ككتاب مقاتل الطالبيين وغيره.

(4) أنتجت فلسفة الدعاء التي بدأها الإمام زين العابدين (ت 95) ثقافة جديدة سميت في =

الذي كان الوحيد من الناجين في مذبحة كربلاء[1]. وبين أيدينا اليوم بعض إنتاجات الدعاء السجادية التي وُضع بعضها في الصحيفة السجادية التي تمثل عنوان ثقافة التشيع بكل ما فيها من توسع وتفهم لواقع الصراع، والتي كانت محاولة من ذلك الإمام إلى تغيير محتوى الإنسان من خلال الدعاء في اعتماد ثقافة السلم وثقافة الحوار والاستغفار. وقد تمكنت هذه الثقافة السلمية في حماية مدينة الرسول من الإبادة الجسدية (Genocide) بعد أن قرر القائد الأموي مسلم بن عقبة المري أن يجتثهم كلهم وذلك في واقعة الحرّة الشهيرة[2] بتعليمات

= العصر الهجري الرابع (المتصوفة) مع أن ظهور المتصوفة كان تقريباً في نهاية القرن الثاني، ولكن تحوّلت إلى إطار ذي مسمى مختلف عن مسمى ثقافة التشيع المحاربة من قبل السلطات، ففي العصور التي يتعرض لها الشيعة إلى المذابح تبرز هنالك ثقافة التصوف التي تتخذ من آل البيت مصدراً لها في أدبياتها مع التوجه إلى الجانب العبادي الروحي، وقد سادت هذه الثقافة كل الأقطار الإسلامية بعدما قرر صلاح الدين الأيوبي (ت 589) من إبادة الشيعة جسدياً في العالم وخصوصاً في شمال أفريقيا عندها تحوّل الشيعة إلى كيان صوفي يقبع في المساجد وفي أماكن العبادة. (الحركة الشيعية السرية في القرنين السادس والسابع قبل البدوي، أحمد صبحي منصور). . تجده على الموقع التالي:

http://www.ahl-alquran.com/arabic/printpage.php?doc_type=1&doc_id=7986.

(1) أنظر كتاب الصحيفة السجادية التي يطلق عليها زبور آل محمد.

(2) جرت في عام 63 هجرية بعد أن أعلنوا رفض خلافة يزيد، وهي ثورة رد فعل عفوي لحركة كربلاء وتفسير من منطلق الفهم الذي كان مسيطر على واقع المدينة، بعد أن كان الأمويين يعتقدون بأن المدينة كانت المبادرة لرفض خلافة بني أمية، وهو ما سبّب في أن يتحول هجوم الجيش الأموي إلى مذبحة كبرى ثم استباحة لنساء المدينة والتي كما يقول الرواة في وصفهم للمذابح في ولادة ألف امرأة من نساء المهاجرين والأنصار بدون رجل في ذلك العام. . . راجع في ذلك موقع:

http://en.wikipedia.org/wiki/Battle_of_al-Harrah.

من الخليفة الدمشقي يزيد، ولكن طريقة السجاد كان لها الدور الكبير والمؤثر في منع عملية الإبادة الجسدية التي كان من المفترض أن تتم للبقايا من صحابة الرسول من المهاجرين والأنصار.

وبملاحظة لدراسة حيثيات ثورة المدينة يبدو لنا الأمر جلياً في استعداد المدينة إلى ثقافة العنف باعتبار أنها المدينة التي بدأت فيها أول حركات العنف في قتل الخليفة الثالث عام 36 هجرية، ولذلك لم تنمُ ثقافة التشيع في محيط المدينة منذ ذلك الزمن وإلى الوقت الحالي من القرن الواحد والعشرين، بل بقيت مدينة الرسول وكذلك مكة التي تشابهها في واقع ثقافة العنف مدينة عصيّة لا تتلاءم مع الثقافة الشيعية الإمامية. مع أننا هنا ندرك الفرق ما بين ظروف القرن الأول الهجري وظرف القرون الأخرى وحتى القرن الحالي.

فقد كانت الدول التي تأثرت بثقافة كربلاء الدموية والثأرية هي ربما معظم مدن العالم الإسلامي ولكن أهمها هي:

- العراق كله يعني الكوفة والبصرة.
- إيران.
- مصر.
- اليمن.
- الشمال الأفريقي.
- مناطق الخليج.

هذا في الوقت الذي كان الفهم لتلك الثورة ليس من الممكن إدراكه بالطريقة التي تترجم إلى حركة شعبية وثقافة سائدة، فالصورة

التي تم نقلها من قبل وسائل الإعلام الحكومية كانت كما أرادت ثقافة قريش، وهو صراع على كرسي وحكم وشرعية وأفضلية، مع أن شخصية الحسين لم يشك أحد من مواطني تلك البلدان بترفعها عن المطالبة بأمر دنيوي، وهو يملك في ذاته وفي موقعه بما يتجاوز الحكم أو السلطة باعتباره الشخصية التي كانت الأقرب إلى النبي، وقد قال فيه ما قال في حبه له وكان أهمها هو (حسين مني وأنا من حسين) وهو أمر فيه الكثير من العمق في الفهم الرسالي والفهم الثقافي.

فلم يكن الإعلام السلطوي له القدرة على ترسيخ مفاهيم التسويق التي ابتدعها في توصيف ثورة كربلاء بأنها من أجل النزاع على السلطة، مع أنه نجد لحد ما إلى درجة لا بأس بها تمكنت من نقل المفهوم إلى المنتفضين الثوار وإلى المؤمنين بأدوات الثورة المسلحة في تغيير المجتمع، ولكن في ذات الوقت لم تتمكن السلطة من أن تمنع الفصل الثقافي ما بين ثقافتين أحدهما يمثلها آل بيت الرسول والأخرى يمثلها الحكم والأمويين والقرشيين. ولعل ذلك هو المؤشر الأول في التاريخ الإسلامي في بناء حدود واضحة لثقافتين والتي لم تكن حدودها واضحة المعالم إلى حين مقتل علي الخليفة الرابع وتسييد آل أمية على السلطة فقد كان الأمر يظهر دوماً بوجود لون واحد من الثقافة وهي الثقافة (العامة)، ولم تتبين حقيقة الانفصال الثقافي إلّا بعد معركة كربلاء بحيث دفعت بالكثير من الناس في البحث بصورة أعمق عن أسباب حادثة مروعة في الوقت الذي لم يكن هنالك مؤشرات على صراع سلطوي.



الفصل السابع

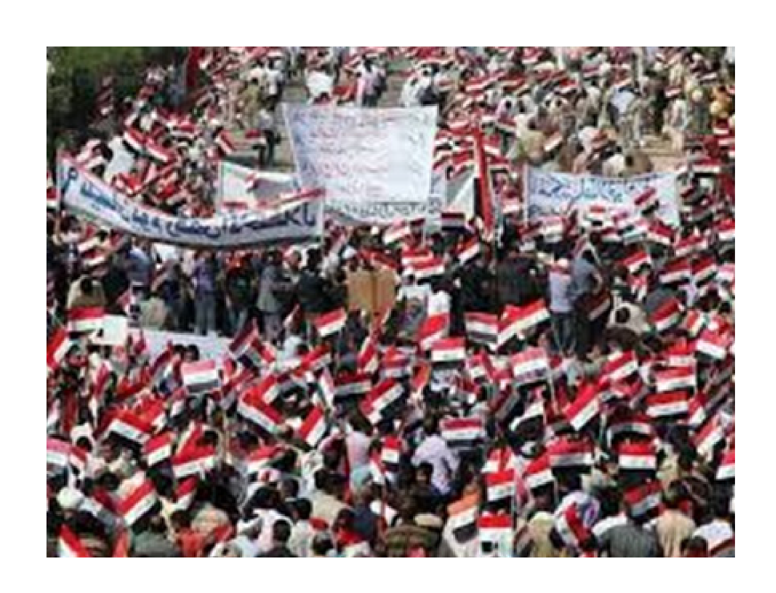
حيز الثقافتين أو خطوط التماس







العراق





الثقافة أم المذهب...؟: العراق منذ القدم هو مهد ثقافة التشيع أي ثقافة السلم التي بناها أول ما بناها علي الخليفة الرابع بعد أن نقل عاصمته إليها مبتعداً عن المدينة التي كما ذكرنا لم تكن هي المهد المهيأ لنمو ثقافي سلمي لما ترك التأريخ من نُدب ومن جراحات على جسم تلك المدينة المقدسة، هذا فضلا عن أن تأريخ المدينة ومكة ما قبل الإسلام كان تأريخا دموياً بشكل يمثل في شكله نموذج للواقع البدوي وثقافته المستندة على العصبية والقتل[1] منذ القرن الرابع الميلادي أو ربما ما قبله. ولذلك فلم تكن البيئة الحجازية بيئة مناسبة لنمو ثقافي جديد مختلف في أولوياته على استعمال عنصر السلم في التغيير.

فهنالك وكما يبدو أكثر من حديث إلى الرسول في تشجيع المسلمين في عدم اتخاذ مكة أو المدينة دار سكنى لهم[2] ما لم يكن هنالك من مشروع ثقافي له القدرة على تغيير النفوس كما يفهم من الحديث.

---

(1) المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي.

(2) فقد قال السندي في حاشيته على ابن ماجه: السكن بالمدينة أفضل، لما ثبت من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «لَا يَصْبِرُ عَلَى لَأْوَائِهَا وَشِدَّتِهَا أَحَدٌ إِلّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا وَشَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ * أو شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وقد بدأ العراق منذ ذلك الوقت يتبنى ثقافة التشيع، بل ربما لكي أكون أكثر دقةً في هذا الموضوع في القول بأن المجتمع العراقي هو أقرب إلى التشيع المذهبي منه إلى التشيع الثقافي.

فالمذهب هو حالة فكرية خالصة تعبدية ترتبط بعلاقة دينية مدرسية، أما الثقافة فهي الحالة المتحركة السلوكية لمحصلة عوامل كثيرة مخزونة في كيان الأمة أو المجتمع. فأهم علامة من علامات سيادة الثقافة على المذهب هو التعامل مع ظاهرة الاختلاف الفكري فيما بين الطبقات الاجتماعية المتنوعة واعتماد التغيير بالوسائل السلمية وليس بواقع الحرب والعنف.

وهنا لا بأس في أن نلقي بنظرة على الواقع العراقي آنذاك، وفي الفترات التي تلت مقتل الخليفة الرابع علي في سنة 46 هجرية كمنطلق لمناقشة خلفيات تأصل الثقافة الشيعية في المجتمع العراقي ودورها في تهيئة أرضية سلمية بعيدة عن العنف، مع أن العراق لم يكن من الأقطار التي شملها الربيع العربي فيما بعد ذلك التأريخ بأربعة قرون إلّا بنسب قليلة، بل أننا نعتبره من الأقطار التي فشل فيها الربيع العربي والتي من المفترض أن نناقش موضوع فشلها وليس انتمائها، لأن موضع الكتاب هو مناقشة نجاح ثقافة السلم ودورها في الأقطار التي شملها الربيع العربي، ودور ثقافة آل البيت والتشيع في إذكاء تلك الثقافة بعيداً عن ثقافة العنف والقتل. وهذا معناه أن موضع الإحباط الذي أصاب الأقطار التي لم تصل إلى النتيجة المصرية أو التونسية أو اليمنية أو الليبية هو موضوع مختلف تماماً عن موضوع التمكن الثقافي السلمي للربيع العربي في تلك الأقطار الأربعة أو الخمسة إذا اعتبرنا البحرين

قطر مهم من أقطار التوفيق في الربيع العربي مع أن نتائجه لازالت غائمة ولازالت بعيدة عن نتائج مصر وتونس.

تطرقنا إلى العراق كنوع من الدراسات المقارنة التي تفرق (المذهب) عن (الثقافة) وهو تناول مهم في مسلسل دراستنا لواقع إثبات نظرية السلم الشيعية المنتمية إلى آل البيت وعلاقتها بالتغيرات التي حصلت في الربيع العربي، فلا يعني تشيع المجتمع هو امتلاكهم لثقافة التشيع، بل العكس هو الصحيح فمن المهم أن يكون للمذهب وجود في زمن من الأزمان أو وقت من الأوقات لتفعيل الثقافة السلمية لآل البيت، لأن بذرة الثقافة تختلف عن بذرة المذهب، باعتبار أن الثقافة بذرة يمكن نموها في أي وقت من الأوقات إذا صادفت البيئة المناسبة كالجو الفكري والحضاري والتكنولوجي والفكري والسياسي، فهذه عوامل مهمة وأساسية في تفعيل ثقافة السلم عموماً، أما المذهب فهي حالة عملية مرتبطة بعامل الدين بصورة أساسية محدودة الخيارات في حالة النمو لبذرة التمذهب الشيعي.

أما التخصص في الثقافة التي افترضتها في الإسلام فإنها لم تكن إلّا من خلال أدبيات ثقافة آل البيت، فليس هنالك في الإسلام (مما وصلنا) من ثقافة تدعو إلى التغيير السلمي إلّا ثقافة آل البيت[1] مع أنني

(1) على النطاقين الفكري والعملي، فالثقافة غير الشيعية المذهبية وهو فكر الأشاعرة والخوارج عموماً بتنوعاتها الأربعة في شكل المدارس السنية فليس هنالك أطروحة سلمية في التعامل مع الاختلافات الفكرية أو طبيعة التغيير في الأمم والشعوب. كذلك الأمر ينطبق على مستوى الجانب العملي التأريخي الذي ساد الدول التي حكمها =

أترك هذا الموضع إلى الباحثين الآخرين ممن هم أكثر عمقاً مني في ثقافات الشعوب وثقافة الإسلام علني أهتدي إلى مكوّن فكري ثقافي إسلامي آخر غير المكوّن الشيعي المنتمي إلى آل البيت تحوي مواده الفكرية وأدبياته وأسسه ثقافة السلم في تغيير المجتمعات. وهذا سيكون بالتأكيد عامل سرور لي لو تم عكس فرضيتي، لأنني أولاً لا أدّعي امتلاك كل الحقيقة خصوصاً فيما يتعلق بالواقع التاريخي والواقع البحثي. ثم أنني أفترض في الإسلام أن يكون هو الوعاء الأكبر للبشرية فضلاً عن التشيع، مع إيماني بأن التشيع هو امتداد للإسلام من الناحية الثقافية والفكرية والاعتقادية، وكلاهما امتداد للثقافة الإبراهيمية.

فالعراق بقي منذ فترات تأسيسه مركزاً مهماً من مراكز العلم الفقهي والروائي يقصده العلماء من مناطق مختلفة من خارج العراق، فتحول وبمرور الوقت إلى ما يشبه التجمعات الدينية كالفاتيكان أو الأزهر أو النجف في هذه الأوقات من القرن الماضي والحالي، كما هاجرت قبائل كثيرة من الجزيرة العربية باعتبار العراق هو امتداد للصحراء تلك التي تبدأ من اليمن وتنتهي تقريباً في أعالي بغداد. . . . . كذلك تمت هجرة أقوام من مناطق فارس حتى تحوّلت الكوفة والشام إلى مراكز تقدم الفكر، ولكنه في ذات الوقت مجتمع مهاجر وليس مجتمع ذو خاصية وطنية.

= الفكر الأشعري السني بتنوعاته فإننا لم نجد بأن هنالك أنموذجاً سليماً تم تطبيقه على مستوى تغيير الأمم منذ عهد السنة الحادية عشر للهجرة وإلى الوقت الحالي. بل العكس كانت نماذج التغيير كلها دموية وربما أشد عنف جرى في تأريخ المنطقة.

أعلنت الكوفة توجهها العلوي أي الالتزام بالتشيع مذهباً وتكاثر فيها كل العلماء المساندين إلى هذا النوع من العلم الديني بينما أحاط بالكوفة قبائل مهاجرة منهم كندة اليمانية ومذحج اليمانية وقبائل كثيرة فكان الطيف المميز ما بين المركز وبين الأطراف واضحاً. مقابل ذلك أهتم الحكام منذ ذلك العصر إلى خلق حاضرة دينية أخرى مقابلة إلى حاضرة الكوفة فكانت البصرة ولكنها كانت على النقيض كانت تؤمن بفكر السلطة مع أن الأولوية كما اعتقد للبصرة في أن تكون ذو توجهات سلطوية وجاءت الكوفة فيما بعد لكي يستقر فيها التشيع مذهباً.

ارتباط عضوي.......: كان المركز العلمي للكوفة والبصرة مهماً جداً للحكام، وخصوصاً الحكام الأمويين الذين تعاملوا مع كلي الإقليمين بنوع من الشدة المفرطة من أجل الاستفادة منهم في إضافة الشرعية إلى الحكم. لذلك اهتم كل الحكام منذ زمن معاوية (ت 61) وإلى حين بناء بغداد في أعوام 140 هجرية إلى انتقال العاصمة إلى سامراء في عام 221 هجرية في زمن المعتصم العباسي (ت 227) أن يفرضوا على العراقيين الكوفيين أو البصريين أعتي شخصيات سفاحة كحكام عليهم، كزياد بن أبيه (ت 53) وابنه عبيد الله (ت 67)، ثم بسر بن أرطاة (ت65)، بعده الحجاج بن يوسف الثقفي (ت 95) ثم ابن أخيه يوسف الثقفي (ت 127) وبعده خالد القسري (ت 126) وغيرهم وكانوا هؤلاء يمثلون ثقافة العنف بأجلى صورها في إباحة وإشاعة الرعب والخوف فيما بين الناس أملاً في زجهم في معارك عنف مع السلطة لكي تتمكن تلك السلطة من استئصالهم والتخلص منهم.

ولنذكر بعض ممن كان في الجانب السلمي التغييري من ثقافة آل البيت مقابل جانب العنف. . . . . حجر بن عدي الكندي (ت 51) صحابي شيخ كندة اليمنية، شيعي الثقافة، اعتقله وأرسله ابن زياد إلى معاوية، على أبواب الشام هو وستة من أصحابه، خيروهم بين البراءة من علي لفظاً أو القتل صبراً، فحفرت قبورهم أمامهم ثم ذبحوا بالسيف بدم بارد[1].

ميثم التمار (ت 60): خطيب مفوه مؤمن بثقافة الحوار والعقل، ينتمي إلى مدرسة آل البيت. حاكم الكوفة صلبه بعد أن قطع يديه، فبقي لسانه يلهج بمبادئ الفكر، فقرر الحاكم إخراج لسانه من قفاه وتركه مصلوباً[2].

سعيد بن جبير (ت 95): حبشي تابعي راوية عالماً محدثاً، طالبه الحجاج أن يتبرأ من المدرسة الثقافية التي ينتمي إليها (آل البيت) فرفض، حاوره وأغراه بكل شيء، قرر قتله بشكل وحشي[3].

رُشيد الهجري (ت 45): (من هجر، في منطقة الإحساء) علم من أعلام ثقافة العلم والتقريب، ذو سعة في الفقه، قتله زياد بن أبيه بصورة غاية في الوحشية[4].

---

(1) قبره في مرج عدرا، هدم الإرهاب قبره في سوريا بوصولهم إلى المدينة في عام 2013.
(2) مكان صلبه وقبره الآن في الكوفة حد قصر الإمارة في مداخل المدينة.
(3) http://en.wikipedia.org/wiki/Sa%27id_ibn_Jubayr.
(4) قال: اقطعوا يديه ورجليه، فقطعوا يديه ورجليه، وهو يتكلّم فقال: اصلبوه خنقاً في عنقه، فقال رشيد: وقد بقي لي عندكم ما أراكم فعلتموه، فقال زياد: اقطعوا لسانه. فلمّا اخرجوا لسانه ليقطع قال: نفسّوا عنّي أتكلّم كلمة واحدة، فنفسّوا عنه، فقال: =

ابن المقفع (ت 142): الأديب المشهور البصري، قتل بأمر من المنصور بعد أن رموه في التنور فمات محروقاً.

وبسبب الحالة الثقافية للمجتمع العراقي الذي يميل بفطرته وبتكوينه إلى التشيع أو الإمامية في طريقة فهمه للحياة كان هنالك وضع خاص للعراق في أن يكون دوماً القطر الذي يقع على فوهة المدفع، أو في وسط الأزمات وعليه فإن التعامل معه يجب أن يكون تعاملاً مختلفاً عما هو مع أقطار أخرى[1].

وقد أدت هذه الحالة إلى ظهور واقع نفسي (طبي، بيولوجي) متأصل في شخصية العراقي في اليأس من قدرة التغيير بسبب سطوة القوة الكبرى من الحكام والقوى الأمنية، وقد واجه مؤسس مدرسة أهل العراق ذاته وهو الإمام علي تلك الظاهرة بنوع من الاستهجان والتهكم في مخاطبته لهم في خطبته المعروفة[2] والتي في الواقع كانت

= والله هذا تصديق خبر أمير المؤمنين (علي) أخبرني بقطع لساني، فقطعوا لسانه وصلبوه. أنظر ترجمته في الموقع التالي:
http://www.al-shia.org/html/ara/ahl/?mod = ashabhm&id = 42.

(1) يقول ابن الأثير فلما مرض معاوية الذي مات فيه، دعا ابنه يزيد فقال: «انظر أهل العراق، فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فأفعل، فان عزل عامل أيسر من أن تشهر عليك مائة ألف سيف».

(2) يا أشباه الرجال ولا رجال، ويا أحلام الأطفال، وعقول ربات الحجال، وددت أن الله أخرجني من بين ظهرانيكم، وقبضني إلى رحمته من بينكم، والله لوددت أني لم أركم، ولم أعرفكم معرفة جرت ندماً، فقد وريتم صدري غيظاً، وجرعتموني الموت أنفاساً، وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش إن ابن أبي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم وهل فيهم أحد أشد لها مراساً، وأطول تجربة مني، لقد مارستها وما بلغت العشرين، فها أنذا وقد نيّفت على الستين، ولكن لا رأي لمن =

لأهل الانبار، وليس لأهل العراق عموماً بعد أن أغار جيش معاوية على تلك المنطقة، مع أن الأنبار كانت في ذلك الوقت لها واقعاً ثقافياً مختلفاً عن واقع الكوفة والبصرة في شكل تركيبة المجتمع. والغريب بأننا نجد ذات الفكرة عن أهل العراق قد قالها الاسكندر الأكبر[1] في رسالة كتبها إلى أستاذه أرسطو.

ولكنني من خلال البحث والتنقيب أميل إلى آخر رأي للأمام علي في تقرير حالة العراقيين في الامتناع عن امتلاكهم قدرة ثقافة التغيير هو قوله في خطبته المعروفة (بالقاصعة): *واعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة أعراباً (ذو ثقافة بدوية)، وبعد الموالاة أحزاباً (رفض فكرة الدولة)، ما تتعلقون من الإسلام إلّا باسمه ولا تعرفون من الإيمان إلّا رسمه، تقولون النار ولا العار، كأنكم تريدون أن تكفئوا الإسلام على وجهه (تسخير ثقافة الإسلام لوجهة ثقافة البداوة).*

وهنا المفترق في شخصية العراقيين، بل هي الوثيقة المهمة التي

= لا يطاع. . . . حدث ذلك بعد أن هجم على الأنبار من قبل معاوية غامد بن سفيان بن عوف الغامدي زعيم الغارة وقد وردت خيله الأنبار وقتل حسان البكري عامل المدينة.

(1) ويقال أن الاسكندر المقدوني كتب إلى أستاذه أرسطو، الفيلسوف اليوناني المعروف، بعد فتحه العراق عام 331 قبل الميلاد ما يلي: «لقد أعياني أهل العراق، ما أجريت عليهم حيلة إلّا وجدتهم قد سبقوني إلى التخلص منها، فلا أستطيع الإيقاع بهم، ولا حيلة لي معهم إلّا أن أقتلهم عن آخرهم». ويقال أن أرسطو أجاب الإسكندر بما يلي: «لا خير لك من أن تقتلهم، ولو أفنيتهم جميعاً، فهل تقدر على الهواء الذي غذى طباعهم وخصّهم بهذا الذكاء. . . .؟، فان ماتوا ظهر في موضعهم من يشاكلهم، فكأنك لم تصنع شيئاً». أنظر الموقع التالي:
http://www.elaph.com/Web/ElaphWriter/2009/11/501910.htm#sthash.4v8 ZzcFX.dpuf.

تبين بأن ثقافة العراقيين لم تكن بمختلفة عن ثقافة البادية وهي الحجاز واليمامة ومناطق الجزيرة العربية، والتي هي في الواقع أصل الأقوام في العراق، أعني العراق بعموميته وليس بنخبته، فالنخبة الفكرية التي كانت هنالك جاءت من خارج أرض العراق معظمها من الموالي ومن الفتوحات التي تمت في ذلك الزمن أو الأزمان التي تلته باعتبار أن العراق كان يسمى (أرض السواد) لكثرة الزرع والخير والمياه بعكس أراضي الجزيرة القاحلة أو أراضي الشام أو إيران. فكانت الهجرات التي انتقلت إلى هذا البلد هي عبارة عن عيّنات أو نخب فكرية لا تمثل الجسم العام للعراقيين.

والثقافة عموماً هي ليست نتاج نخبة، وإنما نتاج شعوب، فيجب لكي يمتلك الشعب ثقافة جامعة أن تتمكن أدبيات تلك الثقافة من نفوس غالبية كبرى عددية لا بمفهوم عينة أو نخبة أو طائفة فيه، وهذا هو المهم في تقرير معرفة ثقافة الشعوب. فلا تقاس العينات الصغيرة في جسم الثقافة على المسمى العام للحالة الثقافية. فحالة النخبة الثقافية هي ذاتها نجدها في الواقع العراقي على الأقل في القرن الماضي وفي هذا القرن حيث تختلف في المجتمع المصري أو التونسي أو اليمني حتى مع اعترافنا بنسبيّة حجم المادة الثقافية النخبوية فيما بين العراقيين النخبويين وبقيّة الأقطار التي ذكرتها.

النخب العلمية: فالنخب العلمية ليس هي دوماً من يصنع ثقافة التغيير. نعم تُنظّر لثقافة التغيير ولكن لا تصنعها ولا تحركها، فالعلم ورجالاته أكثر ميلاً إلى الهدوء والدعة والراحة، بينما ثقافة التغيير

عملية تختلط فيها كل وسائل الاضطراب والثورة والمجازفة وهذا لا يتفق مع ذلك.

لم تتمكن في العراق (ثقافة) آل البيت السلمية على مستوى التغيير من أن تجد طريقها أو تأثيرها في مجتمع كانت البداوة ضاربة بجذورها في عموم سكانه بسبب كثرة الهجرات التي وصلت من أرض الجزيرة، ولكن بقي المجتمع يحمل سمة ثقافة التشيع السلمية على مستوى غير كاف لإحداث التغييرات الاجتماعية المطلوبة، فكأنّ التأثير الثقافي عبارة عن معادلة تتناسب مع تركيز المادة الثقافية في الشعوب تشبيهها مثل عوامل (التركيبات) المناعية البيولوجية في الجسم الإنساني[1] التي يجب أن تكون ضمن نسبة معينة وبخلافها فإن المناعة تنعدم في مواجهة المرض.

وباضطراب الفهم الاجتماعي لثقافة آل البيت وتشوه الصورة وقلة تركيز المادة الثقافية، جازف العراقيون في انتقاء الأسلوب التغييري من خلال استعمال القوة في رد الآخر، فلم تكن تلك الثقافة البدوية المختلطة بثقافة آل البيت من معرفة متى يجب استعمال العقل والأسلوب السلمي في تناول الخلافات ومتى يجب أن تكون القوة هي الحكم.

فقد كان الكثير من العراقيين يعتقد بأن مسؤولية الصراع أو المواجهة مع السلطة يجب أن يقوم بها القادة الدينيين، أو المنظرين لثقافة التشيع أو علمائه أو مفكريه، مع أن فكرة الحركة في المطالبة

(1) مثل (IgG, IgM) أو المناعة الخلوية وغيرها.

بالحقوق هي من مسؤولية الشعب وخصوصاً عوامه، فقوة التغيير ليست بالضرورة نابعة من شخصيات الدين، بل من قوة الشارع العام[1].

فقد بقي العراقيون يتصرفون في حركة منطوق الثورات التغييرية بنفس القالب الذي كانت البداوة تستعمله في حركة الغزوات، فكأنهم استعاروا ثوباً لم يفصلوه إلّا على مقاسهم مع الافتراض أن يكون ذلك الثوب من غير طبيعة الملبس الذي يلبسونه. فقد انتظر العراقيون أن يصدر من شيخ العشيرة أو رئيس القبيلة أو عالم المنطقة أو المرجع الديني في الطلب منهم أن ينتفضوا ضد النظام، ولم يدركوا بأن الفكر الثقافي التغييري ليس قرار شخص بل هو قرار أمة سواء وافق ذلك الشيخ أو المرجع أو الرئيس على ذلك أم لم يوافق، لأن التغيير مطلب داخلي تتوقّ إليه النفس بصورة تلقائية وليس اصطناعية.

وهنا نرى بأن الحكام منذ زمن الأمويين وإلى الزمن الحالي، لنأخذ الأقرب لنا تأريخياً هي فترة سيطرة حزب البعث على الحكم في النصف الثاني من القرن الماضي قد أدركوا سر العراقيين من خلال اعتقال أو قتل القائد الشخص لا غير[2] عندها فإن حركة المجتمع العراقي تشل تماماً لأنهم اعتمدوا في حركتهم على رأي القائد فقط لا

(1) أو كما يعبر عنه في الغرب بأن السيد المغيّر ليس رئيس الوزراء أو الحكومة بقوتها، بل هو رجل الشارع العادي (The Boss is the Ordinary).

(2) أغتال النظام العراقي ستة مراجع كبار هم: الصدر الأول 1980، الغروي 1989، البروجردي 1989، السبزواري 1990، الخوئي 1992، الصدر الثاني 1996. بالإضافة إلى مئات آخرين من القادة الدينيين وغير الدينيين.

على رأي الدافع الطبيعي الفعلي لمجريات الثقافة، وهذه صفة ليست حضارية بل هي أقرب كثيراً إلى البداوة، بل هي مؤشر كبير على وجود مذهب شيعي وليس ثقافة شيعية في العراق.

بالتأكيد قرار الغزو أو مواجهة عقائد المجتمع هي ليست من مسؤولية القائد بل هي مسؤولية الجميع من الناس، نعم قد تزداد حجم المسؤولية على القائد ولكنها لا تعفي الفرد العادي من أن يحمل ذات الشعور في الرفض وفي رفع سيف الثورة ضد الذل وضد سلب الحقوق. ولكن العراقيين كانوا ليسوا من هذا النوع وإنما كانوا شعوباً اتكاليةً على القائد الذي يجب أن يحرك الشعب بما يملكه من قدرات وطاقات حتى وإن كانت قدرات غير شريفة وغير إنسانية ولا تتفق مع الثقافة التي يحملونها[1].

فكان نموذج العراق هو خير مثال على مجتمع تبنى مفهوم الثقافة على المستوى الديني، وليس تفعيل الثقافة على المستوى الاجتماعي، مع انه وفي الحالة الأولى فإن الثقافة هي عبارة عن قدرة كبيرة نائمة في رحم المذهب لا يمكن لها التفعيل إلّا من خلال عوامل، كما هي الذرة العادية لليورانيوم لا يمكن لها من أن تتحول إلى طاقة حرارية (مائة مليون درجة مئوية) ما لم يتم العمل (تفعيل) على انشطار النواة الذرية أو الاندماج النووي.

(1) أحدث مثال على ذلك هي الحرب العراقية الإيرانية التي دارت بين عام 1980–1988 والتي كانت تمثل نموذجاً واضحاً في استجابة العراقيين إلى حاكم أصدر قراره في تبني سلوك لا يتوافق مع معتقداتهم ومفاهيمهم.

بمعنى آخر، هو أن الشعب الذي يمتلك ثقافة معينة حتى وإن كانت نائمة فإنها تبقى عامل خشية على الآخرين خصوصاً الحاكمين باعتبار أن النائم سيستيقظ يوماً كما استيقظ حجم (700) غرام من اليورانيوم فتحولت هيروشيما خلال أقل من دقائق إلى مدينة أشباح بعد أن تبخر الحجر وذابت الأرض وتحول الجسم البشري إلى موت مطلق.

العراق في الواقع مع انه لم يواكب مسيرة الربيع العربي كما كان متوقع له أن يكون في الصدارة، ولكنه يبقى مثالاً مهماً في التأريخ مشابها لذرة اليورانيوم التي تبحث عن مغيّر لتركيبتها في الانشطار لكي تتحول إلى طاقة كبرى.... ولا أعتقد بأن الزمن الآن وفي هذه الحقبة من العقد الثاني من الألفية الثالثة هو الوقت المناسب لذلك الانفجار الثقافي الذي يكمن في عمق تركيبته التي استورثها من ثقافة آل البيت.

بالتأكيد الانفجار هنا لا أعني به ثورة العنف أو ثورة السلاح وإنما أعني به مسيرة السلم الاجتماعية الكبرى، والتي لا يخطىء القول في تسميتها بأنها ثورة، ولكن ثورة من طراز آخر. فالانشطار الذري يتطلب استعداد علمي وتمثله مفاهيم وشخصيات ومشروع نهضوي ونظرة مستقبلية وشعب تضحوي، كما هي نظرة الثقافة المصرية التي سنتحدث عنها عندما نقترب من المفاهيم في عمق فهمها لعملية التغيير على المستوى الثقافي الفكري العام لذلك الشعب.

فما كانت تمتلكه الأقطار العربية التي شاركت في الربيع العربي لم يكن العراق يمتلكه أو السعودية أو أقطار أخرى، وذلك له أسبابه

وعوامله بما يخص أصول ثقافة آل البيت السلمية وعمقها في ذلك المجتمع.

ومع أنني اعتقد وأنا أناقش العراق الآن بأن الصورة سوف لن تكتمل إلى ما أريد أن أرمي إليه من مفاهيم جذور الثقافة السلمية المنتمية إلى ثقافة التشيع أو ثقافة آل البيت ما لم أناقش بقيّة الأقطار التي انفجر بها أحداث الربيع العربي والتي عندئذ تكتمل الصورة بما يتمكن القارئ من إدراك المفهوم بالشكل المتكامل.

ولكن هل شارك العراق في أحداث الربيع العربي. . . .؟

بالتأكيد لقد شارك العراق كله ربما شتى طوائفه ومكوناته[1] في النهضة الكبرى التي حدثت بعد أن تحركت تونس باتجاه إسقاط رئيسها. مع أن الكثير من المحللين السياسيين كانوا يرون في أن أحداث التغيير ودخول القوات الأمريكية العراق في أبريل من عام 2003 كان هو الحد الفاصل أو فترة الحضانة التي استمرت في العالم العربي إلى حين سنة 2011 والتي انفجرت على شكل ربيع عربي. . . فقد كان التغيير العراقي رسالة واضحة إلى الشعوب العربية مفادها أن الغرب بحضارته الديمقراطية ستقف إلى جانب الشعوب المطالبة باستعادة حريتها وديمقراطيتها في اتخاذ زمام المبادرة بالطرق الثقافية التي يؤمن بها الغرب.

(1) في العراق سبعة قوميات، وتقريبا أكثر من ثمان لغات، أما الأديان فهي ستة. التقسيم داخل الإسلام يصل إلى أكثر من عشرة طوائف. أما الأحزاب فهنالك 52 حزب.
http://en.wikipedia.org/wiki/Demographics_of_Iraq

فلم يكن دخول القوات الأمريكية إلى العراق في عام 2003 حدثاً عابراً، ولم يكن أيضاً حدثاً ذات توجهات اقتصادية صرفة كما يحاول البعض أن يدّعي في أن النفط هو الدافع لذلك التحرك، وإنما كان في حقيقته عبارة عن توجه تبنته الحضارة الأمريكية بفلسفتها التي ترى أهمية نشر مبادئ الإنسان إلى أمم الأرض وخصوصاً تلك التي ترزخ منذ عصور تحت الهيمنة الدينية والسياسية والقبلية[1]. على شرط مهم جداً هو أن يتم التغيير على يد أبنائه، لا كما حدث في العراق في أن التغيير تم من قبل الخوذة والدبابة العسكرية الأمريكية.

إنه لمن المهم أن نفسر الأحداث بواقعيتها، لا بما نشتهي أن نفسرها، فمن الصعب أن أغمض عيني كطبيب على وجود أعراض سرطان وأدّعي أنها أنفلونزا مع التشابه الكبير في كلي العرضين. إنّ التغافل عن معرفة الأسباب الحقيقية وتشويه أسماء الأمراض التي نصاب بها، أو التي تنخر بالكيان العربي هو أمر مجانب للحقيقة ومن الصعب مواصلة عملية الكذب السياسية المستمرة على طول وعرض الزمن، لأن الكذب مهما كان فله حدود بينما الصدق حدوده السماء.

علينا أن نعترف بشكل علمي ونقول بأن البلدان العربية تعتبر من أتعس بلدان العالم على الإطلاق ليس فقط الآن وإنما على مدى التأريخ في نوعية ممارسات الاستهانة بكرامة الإنسان ومبادئه ومعتقداته، فليس هنالك في الأرض من يشابه هذه المنطقة من القسوة والوحشية في الانتقام والتخلص من الفكر الآخر. وربما كما ذكرت في

(1) الديمقراطية في أمريكا، الكسيس دي توكفيل.

البداية كانت البداوة وتحريف الدين بما يخدم ذلك المبدأ هما من أهم عوامل هذا التأخر.

يقظة متأخرة: لم تدرك الولايات المتحدة عمق مأساة العرب، وشكل وقسوة الديكتاتورية العمياء التي تقودها عصابات حاكمة قبلية أو دينية أو فئوية متلبسة بلبوس التقدم والعصرنة إلّا متأخراً أي بالضبط ما بعد سبتمبر 11 عام 2001. بعد أن ظهر لها بأن الفكر الذي وصل إلى المسلمين هو فكر الأشاعرة والخوارج (غير الاباضية) والسلفية والحنابلة المستند على الثقافة البدوية والقرشية التي تأسست منذ أربعة قرون قبل مبعث النبي... وأن الإسلام لم يتمكن من أن يُغيّر من نفوس العرب، بل العكس هو الذي حدث، في تمكّن الثقافة القرشية العصبية من أن تستفيد وتركب موجة الإسلام في تأصير ثقافتها القرشية المستندة على القتل والعصبية واستئصال الآخرين، هذه المفاهيم لم يدركها الغرب لا في مراكز بحوثه، ولا في شكل نظرته السياسية[1].

(1) لتقريب الفكرة إلى الأذهان نشير إلى أن هنالك الكثير من الكائنات الحية وخصوصاً المايكروبية منها الفيروسات خصوصاً لا تكتسب صفة الحياة إلّا بعد أن تعتمد على خلية حية أخرى فتسرق منها جينات الحياة بطريقة معقدة تابعة إلى قوانين التناقل الوراثي فيتحول الكائن (الفايروس) إلى تركيبة جديدة، ويعطي العلماء له اسماً في عالم الكائنات الحية من خلال امتلاكها خصائص التصنيف البيولوجي كما هو فيروس (SARS) أو فايروس انفلونزا الخنازير (H1N1) أو مرض (AIDS) أو غيرها. وعندما نلحظ الظاهرة القرشية الإسلامية في اعتماد قريش في كسب الشرعية والحياة على الدين الجديد الإسلام فإننا من السهولة لنا أن نجد قدرة قريش (الفايروسية) على سرقة عامل الحياة من الإسلام وهو الأمر الخطير الذي كان النبي القائد يحذر منه من خلال التأكد من تثبيت قيادة فكرية قادرة على التمييز ما بين الفايروس وبين الخلية الحيّة الأخرى، =

بعد ضرب مركز التجارة العالمية بتلك الصورة من الوحشية بدأت مراكز البحوث المستقلة بإعادة النظر في شكل الثقافة التي سادت الشعوب الإسلامية منذ ذلك التأريخ، فوجدت ما لا يمكن تصوره. . . . . فقد أدركت بأن هكذا ثقافة بدوية تلبس لباس التحضر، خطرة ليس فقط على مستوى الدول العربية، بل على مستوى العالم كله، والدليل على ذلك هو الهجوم على مركز التجارة العالمية وعلى مراكز أخرى فضلاً عن المذابح المروعة التي ترتكبها الدول والعصابات السلفية بحق مواطنيها تحت اسم مصطلح الدين.

هذا التحول في النظرة الغربية أدى إلى استيقاظ الغرب من هجعته والنظر بجد إلى تغيير نظم الديكتاتورية في هذه المنطقة ذو العقل الثقافي البدوي من العالم. فكان العراق والسعودية هما البلدان المرشحان للبدء بعملية التغيير.

لماذا السعودية... أولًا...؟: فقد كانت السعودية الدولة التي هي محط أنظار التغيير الأمريكي، فهي القطر الأكبر الذي يعتبر المصّدر الكبير للفكر التكفيري الديني المختلط بالفكر البدوي القرشي القومي، في نفس الوقت لم تكن السعودية هي البلد الذي يحمل ثقافة جامعة، فهو لعله البلد الوحيد في المنطقة العربية التي تغيب فيه تلك الثقافة، وأعني بالثقافة هو السلوك وليس المادة الفكرية.

فليس بإمكان شعب أن يقود حركة تغييرية سلمية كانت أو غيرها

= أي بين الفكر السماوي وبين فكر الإنسان المرتبط بعوامله الغريزية التي تشده إلى الأرض وإلى جانب الأنا في حياته.

بدون توفر ثقافة وطنية جامعة، فأي تحرك تغييري في أي بلد سيتحول إلى مأساة كبرى ما لم يمتلك الشعب ثقافة جامعة تغييرية. وأقرب مثال لنا هو الصومال الذي حصل التغيير فيه ولكنه تحوّل إلى مأساة كبرى بسبب افتقاد تلك الثقافة الجامعة للشعب.

السعودية لا تمتلك الثقافة الجامعة لأسباب أهمها هو تأصّل عامل البداوة الثقافي المقاوم لثقافة التغيير، وثانياً التركيبة الشعبية التي تختلط في أعراقها وفي وطنيتها، فالسعودية عبارة عن جسم يتحرك بطاقة الأجانب، هذا بغض النظر عن تجنيس أولئك الأجانب أو عدمه. وهو أيضاً ليس دافع من قبلنا في الانتقاص من تلك القوميات الأجنبية من الشركس وجمهوريات روسيا الجنوبية وغيرها يصل إلى عشرة قوميات بعضها آسيوية وبعضها أفريقية. ولكننا نحلل الأمر من المنظور الثقافي الفكري.

كما في نفس الوقت ليس هنالك في المملكة السعودية من نظرية ثقافية (أدبيات) مكتوبة أو معلنة. فقد اجتهدت المملكة على إشاعة مفاهيم العنف وعدم تقبل الآخر (أدب الحنابلة المتشدد السلفي) وحظر الأفكار الأخرى والانتقاص من التطور الفكري ومحاربة كل المذاهب والأديان التي لا تتفق مع مسيرة ثقافة البداوة الدينية. بل اجتهدت بشكل لا مثيل له في تنشئة الأجيال على تلك الثقافة منذ نعومة أظفار المواليد في الوقت الذي منعت كل ما يتعلق بالثقافات الأخرى التي تتعارض مع ثقافة البداوة والإقصاء التي تتبناها الدولة.

وهنا كان من الصعب على أمريكا (لوقاية مستقبل الغرب من

اجتياح بدوي) أن تفكر في التغيير للدولة السعودية[1]، ونرى هنا بأن ثقافة البداوة ونقص التطور تحوّل إلى نقطة ايجابية للتركيبة السعودية. ولذلك فقد كان العراق هو القطر المؤهل الوحيد لقيادة عملية التغيير أن تبتدئ منه. هذا في الوقت الذي كانت القيادات الثقافية الغربية ترى خطأً أن العراق[2] يمتلك ثقافة جامعة كما هي ثقافة الشعب المصري أو الشعب التونسي، يتمكن من خلالها أن يقود عملية التحديث الديمقراطي والعلمي والاجتماعي، وذلك استناداً على أدبيات كانت تمتلكها مراكز البحوث الأمريكية كتبت قديماً في الأربعينيات أو الخمسينيات من القرن الماضي. ولكنها في الواقع كانت قد أخطأت في التقدير ولم تكن التوقعات مطابقة للنتائج، فلم تكن عملية قياس

(1) أي تخلخل في انتاج النفط السعودي يؤدي إلى كارثة في الطاقة العالمية باعتبار أن السعودية تصدّر الآن ما يقارب 6 ملايين برميل يومياً مع أن الأرقام غير الرسمية تقول بتجاوزها العشرة. وخشية الغرب من التغيير المصاحب لعنف بين الفرقاء سينعكس على استقرار العالم، ولذلك فقد كانت أمريكا ترى في أن العراق هو البلد الذي سيحل محل السعودية في ضمان استقرار الطاقة النفطية العالمية. وهو أمر أدركته السعودية وعملت بقوة على إفشال مشروع دمقرطة العراق.

(2) العراق بحضاراته الكبرى التي سادت العصور ما قبل التأريخ كالسومريين والآشوريين وبقيّة حضارات وادي الرافدين كانت بالنسبة إلى الغربيين عبارة عن ضمانة حضارية مهمة لمستقبل التغيير في العراق فيما لو أقدمت أمريكا على بناء مستقبل تغييري في العراق. ولكن الجزء المفقود في هذا الفهم الغربي هو الفاصلة الكبرى ما بين ذلك التأرخ وبين واقع اليوم بعد أن تغيّرت التركيبة السكانية بشكل جذري بحيث لم تعد تلك الحضارات لها من تأثير على حاضر الشعب العراقي أو مستقبله، وكأنّ العراق فيما بعد دخول المسلمين أرضه في عام 13 هجرية لم يعد العراق هو ذاته في ارتباطه الحضاري بالجذور التي بدأها، بل استبدل تماماً بحضارة جديدة وتفكير جديد وكأنه ولد من جديد بروحية وعقلية مشابهة تماماً للثقافة البدوية التي غزته.

تأثير حضارة الفراعنة على الشعب المصري، بحضارة السومريين على الشعب العراقي موفقة في المقارنة.

فلا الشعب العراقي يمتلك ثقافة جامعة (مفعّلة)، ولا هو بالقادر على الانتقال إلى الواقع الديمقراطي في إمساك خيوط معادلة حكومة شعبية، لأنه ببساطة شعب لازال يعيش ظرف حضارة البداوة في نهاية طورها، وقد يتطلب أكثر من خمسين سنة على أقل التقديرات للتخلص من صفات البداوة التي تأصّرت به على مدى قرون. وما مقولة حمورابي وآشور بانيبال ونبوخذ نصر إلّا عبارة عن تأريخ ليس إلّا، لم يكن له من تأثير على واقع حركة المواطن العراقي ولا في ثقافته ولا في تفاعله الحضاري، فالعراق في قعر دول العالم في مسار التنمية البشرية والحضارية والعلمية وفيما يتعلق بمستوى التعليم والجامعات وغيره.

فالانتماء هو ليس للوطن العراق، بل هو للقبيلة والمذهب والعشيرة والقومية وحتى المحلة، وليس لنا في أن نفكر أو نناقش عن الأسباب، لأننا نناقش ظواهر وليس أسباب، ولكننا نُجملها في ذات التصدير الذي ابتدأنا به في الإشارة إلى بدوية الشعب العراقي والتي من أهم صفاتها هو غياب الوطنية، باعتبار أن البداوة لا تمتلك معرفة بشيء اسمه وطن أو دولة، وإنما الولاء إلى الأرض التي تدر عشباً وإبلاً ومتى ما خلت من هاتين المنتجين فهو ليس بوطن بل تركه والتخلص منه.

الكثير من المحللين السياسيين والاجتماعيين درسوا العراق من وجهة نظر من يتم الالتقاء بهم من العلماء ومن السياسيين ومن رجال الأعمال وغيرهم، وهؤلاء لا يملكون أي معلومة عن واقع العراق

الشعبي وطبيعة تنوعاته وشكل فقره وعاداته ونظرته إلى العالم وإلى الدولة والدين[1]. فالعراق عبارة عن واقع بدوي تحوّل إلى إقطاعي زراعي في الفترة التي سيطر بها العثمانيين على الحكم ثم الملكيين إلى عام 1958 بعدها ترك الشعب الأرض بعد قانون الاصلاح الزراعي ولجأ إلى المدن من أجل العمل كأجراء في كسب لقمة العيش، ولكنه في تركيبته الداخلية تجمع ثانية كعشائر ومجتمع بدوي يستقي يومياته من ثقافة العشيرة وثقافة البداوة، لأنه يعتبر ذلك جزء من وسائل القوة التي يتوجب أن يتمسك بها من أجل حماية نفسه وعائلته أمام إهمال الدولة وتنكر المجتمع له ولحاجاته.

وقد ركزت الأنظمة السابقة الملكية، العارفية، البعثية هذه المفاهيم من خلال سوء إدارة الدولة من أجل تحقيق مفهوم سيادة الأقلية الطائفية السنية على الأكثرية الشيعية الطائفية. . . .

أنظر هنا إلى الحقيقة الجديدة التي ظهرت الآن في سياق بحثنا في أسباب التخلف الاجتماعي والبقاء على ظاهرة البداوة وحضارتها والالتزام بقانون العشائرية القبلية وتشجيع كل ما من شأنه أن يصب في هذا الاتجاه، هو التوجه الطائفي للحكام الذين توالوا على حكم العراق منذ زمن العثمانيين[2]. فقد وزعت الأراضي والمناصب إلى

(1) لعل الوحيد الذي يجب أن لا نبخس مساهماته وعلمه هو د. علي الوردي الذي قدم تراث ضخم ومهم عن طبيعة شخصية العراقي ونوعية الأفكار التي يحملها من خلال التطور السياسي والاجتماعي للبلد.

(2) دخل العثمانيون (السنة الأحناف) العراق في عام 1534 وبقوا في صراع دام مع =

السنة (السياسيين) وكذلك مراكز الدولة المهمة، فصار الجنوب العراقي وهم شيعة عبارة عن شعب تتحكم به ثقافة البداوة بأجلى صورها. . . . فتأخر التعليم وتأخرت الصحة وتأخرت ثقافة المواطنة، بل جُلّ ما يمكن أن نقوله في التوجهات الأخرى هو النزوع إلى الدينية التي كانت محصورة في الفكر الطائفي أكثر مما هو في الفكر الإسلامي العام.

كذلك كان مما يسر التسنن السياسي هو بقاء الشيعة بما هم عليه من التأخر مع مشاركتهم في اللطم وفي العزاوات على مناسباتهم الدينية والتي كانت بالنسبة لهم هو الشعار الوطني الذي تقدمه الدولة إليهم في تلك المشاركة.

حقل تجارب ثقافي: وهنا علينا أن نؤكد على نقطة الإصرار الكبرى من قبل الشيعة أنفسهم في البقاء على الحالة التي وجدوا أنفسهم عليها، فلم يبادروا إلى نزع جلباب التأخر والبداوة وشعارات الدين غير ذو الصفة الإجتماعية. وإنما مارس الكثير من القادة الشيعة في تأصيل

= الصفويين (الشيعة) إلى عام 1750 م بعدها حكموا بمفردهم واضطهدوا الشيعة بشكل ساحق لظنهم بأنهم مؤيدون للإيرانيين (مواطنون درجة ثانية) فسلموا الحكم إلى السنة السياسيين الذين وبسبب تمثيلهم النسبي (الأقلية) اضطهدوا الشيعة سياسياً لتجنب وصولهم إلى الحكم بطريقة أو بأخرى، هذا بالإضافة إلى تركيز تأخر الشيعة ثقافياً وسياسياً وفكرياً وتمثيلياً إلى حين الثورة العراقية الكبرى في عام 1920 ومجيء الملكية والتي بسبب تأريخ الاضطهاد الذي عاناه الشيعة وقفوا موقفاً سلبياً من السلطة من خلال الابتعاد عنها، وليس الثورة ضدها. وهنا توجهت الجماهير الشيعية في انتماءها إما إلى العشائرية أو إلى اليسار. (أقرا كتب الشيعة والدولة القومية، حسن العلوي) وكذلك كتاب (التأثيرات التركية في المشروع القومي العربي، حسن العلوي).

هذه المفاهيم والدفاع عنها، وحجب ثقافة الوطنية والدخول في مهاترات مع الطائفة الأخرى المناوئة (السنة). مع أننا بالتأكيد لا نعفي الطرف الثاني من روح المنافسة غير الشريفة التي واجهوا بها الشيعة ولكن السياسة هي سياسة، وهي ميكافيلية الوسائل، فليس لنا أن نقول للسنة لماذا، بل علينا أن نقول للشيعة لماذا....... لأنهم هم من يجب أن ينتقي أفضل الأساليب في رفع مستواهم الثقافي. فإذا لم يدرك صاحب الحاجة حاجته فليس من واجب على الآخرين أن يكونوا ملكيين أكثر من الملك.

تأصلت الطائفية والعشائرية بشكل مكثف فيما بعد مقتل قاسم في عام 1963 ومجيء البعث مع القوميين إلى الحكم حتى سقوط هذه التركيبة وظهور العارفيان إلى عام 1968 عندها جاء البعث ليجد أمامه طبقة اجتماعية مهمة لتقوية حكمه وهم الشيعة المهمشين الفقراء المشردين فدعاهم إلى تسلم مناصب حكومية (من الدرجة الثالثة فما دون) وزجهم في المخابرات والأمن والجيش وقوات فدائيي القائد ثم فتح لهم منافذ السطوة والسيطرة والعصابات. فتحول الشيعة إلى أداة حرب وعنف وقتل وعشائرية وسطوة، فعادت البداوة إلى أشد مما كانت في السابق ولكن بلباس حزبي قومي عربي اشتراكي بعثي فعاثوا في الأرض فساداً لا بسبب انتمائهم الطائفي، وإنما بسبب ثقافتهم البدوية التي جددت أصولها الأجواء المناسبة للظهور ثانية. فصارت الرتب العسكرية من جيش الدولة من الجندي العادي إلى ربما درجة نقيب هم من الشيعة، وكذلك قوات الأمن والمخابرات والاستخبارات وقيادات الفرق الحزبية بتنوعاتها.

وليس من الصعب لنا أن نتابع المشهد للتحول الاجتماعي البدوي في المجتمع العراقي الذي يمثل الشيعة فيه (العرب) تقريباً 80% أما في العموم مع الكرد فهو ربما 65%.

وبسقوط النظام في أبريل 2003 لم يكن في الساحة إلا الثقافات البدوية التي خرجت من نفق البعث إلى نفق التركيبة الجديدة التي استلمت مقدرات الحكم في العراق بعد أن ساهمت القوات الأمريكية في تقديم كامل العون للمعارضة العراقية التي كانت في كواليسها عشائرية أو بدوية الثقافة، حصل ذلك الانحياز نحو ثقافة البداوة من أوائل مجيء البعث إلى الحكم وفي جو خال من التطور ومن الثقافة العالمية والتكنولوجيا ومن الانفتاح على العالم، وبعد أن حجر صدام على الشعب الانفتاح على أمم الأرض لأكثر من ثلاثين سنة.

ولنا هنا أن نتصور مدى ما يمكن أن يكون عليه تركيبة المجتمع من نزوع إلى البداوة والعشائرية والميل إلى الدخول في نزاعات جانبية ضمن ولاءات متعددة، وأقولها بكل وضوح وبعيد عن الشخصنة، لولا بقايا مبادئ وتراث ديني تقوده المرجعية الدينية الشيعية لحدثت مذابح لا مثيل لها في تأريخ المنطقة لا تشابهها إلّا مذابح راوندا عام 1994. . . . . ولكن بقايا التشيع المذهبي بأدبياته العمومية والتعلق بآل البيت ولو خطأً لكانت الصورة قد رسمت بشكل مختلف تماماً ولوصل الدم إلى الركب كما يقولون. ولكن الحس الديني المتعلق بأدبيات الحسين خصوصاً وآل البيت عموما ووجود المرجعيات الدينية كان لها دور هائل في تخفيف القدرة الكبرى على رد الفعل الشيعي في ارتكاب مذابح كبرى.

بعد تشكيل الحكومة العراقية الأولى في عام 2004 والثانية 2010 كانت القوات الأمريكية لاتزال على أرض العراق، والعراقي دوماً يخشى القوي. مع أن الأمريكان وللأمانة نقول قد استعملوا أقصى درجات ضبط النفس. ولكن ما حدث لم يكن في الحسبان وهو تعاون دول المحور السني السياسي السعودية والإمارات وقطر وبقيّة أقطار العالم الإسلامي وانضمت إليهم إسرائيل في منع قيام حكومة ديمقراطية في العراق بعد أن أدرك السعوديون هدف الأمريكان البعيد[1] فصار القرار هو تزويد المنظمات السنية السياسة في العراق بالسلاح، والابتداء بمقاومة الأمريكان داخل العراق، وهو ما حدث والذي لم تكن الولايات المتحدة قد أعدت العدة إلى ذلك في الوقت الذي كانت تعتقد بأن المقاومة ستأتي من إيران أو من الشيعة.

كانت مكونات الحكومة العراقية بكامل أطيافها عبارة عن تجمعات تبدو للخارج بأنها دينية أو قومية أو تقدمية أو وطنية ولكنها تشترك في إطار واحد وهو ثقافة العشيرة والقبيلة على الأقل لكلي المكونين الشيعي والسني. فتكونت الحكومة من هذه التشكيلات، وكان البرلمانيون هم من العشائر، وممن يحمل ثقافة القبيلة سواء أكانوا شيعة أم سنة، ما عدا عدد قليل جداً منهم، أما الأحزاب الكبرى والتكتلات

(1) أنظر تصريح ساندي بيرغر مستشار الأمن القومي للرئيس بوش الابن بقوله: بأن العراق هو هدف مرحلي، ولكنّ السعودية هدف استراتيجي، والدول العربية هدف نهائي. أنظر البحثين التاليين.

Congressional record. Proceeding and debates of the 106th congress first session. Volume 145-part 2. Feb 2, 1999 To Feb 24, 199 (PP 1497-3104). Also Look at: http://www.freerepublic.com/focus/f-news/933748/posts.

الدينية فكانت تستند على المكوّن العشائري القبلي تماماً كما كان في زمن النظام السابق عندما كان القادة هم تكريتيون سنيون بينما كامل الحاشية ومن بيده انجاز العمل هم من العشائريين الشيعة.

ولم تكتفِ الحكومة المُشكّلة من قبل السيد المالكي في عام 2010 على ذلك، وإنما استدعي أصحاب الولاء العشائري ممن كان يقود الجيش العراقي في حربه مع إيران وفي مواجهته مع الأمريكان وحرب الكويت، وهم كُثر ولكن أهمهم ستين قائد عشائري عسكري تم استدعائهم لتولي أمر إدارة الجيش[1].

لم يرَ الأمريكان أخيراً في العراقيين بأنهم أصحاب ثقافة، ولم يتلمسوا منهم امتلاكهم رؤية سياسية أو وطنية، بل وجدوهم عبارة عن شعب تنخر به ثقافة البداوة والعصبية بأجلى صورها، ووجدوا بأن التوقعات لم تكن مطابقة للنتائج ولذلك قرروا الانسحاب بشكل غاية في الهدوء تاركين العراق بيد عصابات سياسية بدوية متصارعة تحكم باسم الديمقراطية والتعددية تحت قبة البرلمان.

في تلك الفترة بالذات أفاقت الشعوب العربية وأدركت مغزى دخول دولة عملاقة مثل أمريكا بلد عربي مثل العراق وعاصمة عربية

(1) كان معظم أولئك القادة هم ممن سلّم (داعش) الموصل في حزيران 2012 والمناطق الأخرى التي تسيطر عليها التنظيمات المسلحة سواء في غرب العراق أو شرقه أو في شماله. وهو وإلى الآن ونحن في نهاية عام 2014 نجد الشيء ذاته في سيطرة العقلية العشائرية بثقافتها البدوية التي تتحكم في الجيش وفي الوزارات وفي مفاصل الدولة كلها.

مثل بغداد، وتخاذل الجميع أمام سطوة تلك القوة الضاربة. فوجدت الجماهير العربية لنفسها فرصة كبرى في أن تنتفض وتكرر السيناريو العراقي ثم السماح للقوات الأمريكية في المساعدة وأخذ زمام المبادرة وإنقاذهم من حكومات جاثمة على صدورهم لأكثر من ثلاثين سنة، بعد أن تم إدراك مفهوم جديد تم استيعابه من قبل العرب وهو زهد الولايات المتحدة في الاستمرار بالبقاء في العراق بعد تنفيذ المهمة، وهي مهمة إسقاط النظام كما حدث في العراق.

فكانت أول ثورة (تونس ثم ثانيها (مصر) وثالثها (اليمن) إلى أن وصلت عجلة الثورات إلى العراق ثانية، وهنا وفي العراق تبدلت الأدوار بشكل أقرب إلى المعجزة من وجهة نظر السياسيين، ولكنها طبيعية لمن اطلع على ثقافة الأمم..... فالحكم في العراق صار بيد الأكثرية من المنتمين إلى المذهب الشيعي (لم تكن هذه المعلومة معروفة عربياً لدى الشعوب)،الأكراد قومية أخرى نالوا 17%، السنة نالوا تمثيلهم 17% ثم قوميات ومكونات أخرى وهكذا[1].

(1) ولكن وكما ذكرنا سابقاً في أن الانتماء المذهبي لا يعني بأي حال من الأحوال أن المنتمي إلى المذهب يحمل ذات الثقافة المسماة باسمهم، فلا يعني أن نقول عن نعوم تشومسكي بأنه مسيحي الثقافة التزامه بالمسيحية صلاة وعبادة وانتماءاً، كما لا يعني في أن كل مسيحي هو ذو ثقافة مسيحية، ولا كل معتنق للثقافة المسيحية هو مسيحي الدين. فنعوم تشومسكي يهودي وشارلس ديكنز ملحد وسارتر وجودي ولكنهم كلهم ذو ثقافة مسيحية. هكذا هو التأريخ يضيف بصفاته على الإنسان قَبِل بذلك أم أبى. فكل الأدبيات التي تجدها اليوم تشير إلى هذه النقطة وتصر عليها وترى أنه التوصيف الطبيعي للتفريق ما بين الثقافة وبين المذهب، وهو ما يستعمله ذات الباحثين المذكورين في قراءاتهم وفي كتبهم وتوصيفهم لأنفسهم.

القادة العراقيون في السلطة الذين يمثل التشيع المذهبي ما نسبته مقابل إلى عددهم في العراق وقفوا موقف الثقافة المعارضة فكرياً لثقافة التشيع في التعامل مع أحداث الربيع العربي العراقي. فقد حاصرت قوات النظام التظاهرات السلمية وضربتهم وواجهتهم بخشونة منقطة النظير، وسجنت القسم الكبير منهم، ثم فرقتهم بشكل وحشي، مع الاختلاف في أن الصحفيين العالميين لم يكن لهم من وجود في العراق بسبب الواقع الأمني الذين منعهم من التواجد أثناء انطلاق الربيع العربي في العراق، فانفردت القوات العراقية بالمتظاهرين بصورة بشعة، ولم تكن الوحشية التي تعاملت بها قوات الحكومة نابعة من إيمان بخطأ المقابل من المتظاهرين، وإنما كان رد الفعل الحكومي نابع من الفلسفة البدوية في منع الرأي الآخر. إذ بدا جلياً، بان الثقافة البدوية مرتبطة بنسبة ما بمفهوم السلطة والقوة والحيازة. مع أن معظم الجنود والقادة العسكريين الذين واجهوا الانتفاضة كانوا من الشيعة انتماءاً، كما كان الكثير ربما الغالبية العظمى من المتظاهرين هم من شيعيوا المذهب أيضاً، ولكن الاختلاف الكبير كان اختلاف الثقافة، فثقافة المتظاهرين كانت تمثل ثقافة آل البيت والتشيع، بينما كانت ثقافة السلطة هو ثقافة العنف القرشية البدوية المتسننة الأشعرية مع أن كلي الفريقين كان معظمهم شيعة التمذهب.

لم تتمكن التظاهرات من أن تجد طريقها إلى العراق، كل مناطق العراق مع أن المحافظات بأجمعها تظاهرت ضد النظام، مع مطالب محدودة مثل الوظائف والكهرباء والصحة وغيرها، ولم يكن هنالك من

جامع ثقافي يجمع المنتفضين بعكس ثوار الشباب المصريين أو اليمنيين أو التونسيين، فقد كان الثوار الشباب في تلك الانتفاضات معظمهم من المثقفين الذين امتلكوا القدرة في الوصول إلى الانترنيت أو شبكات الترابط الاجتماعية، بينما في العراق فإن استعمال تلك المواقع نادر بين المثقفين، فكيف بالطبقة الشعبية المسحوقة التي لا تمتلك خبز يومها، فكيف بها أن تقتني كومبيوتر أو (آي فو ن) أو غيرها. فالظرف العراقي كان مختلف تماماً عن ثقافة البقية من الثورات العربية.

فترة حضانة الثورات: وأستطيع القول بأن الثورة في العراق أي الربيع العربي خرج من بطن أمه وهو بعد لم يكتمل، فمات بسرعة لعدم توفر الحاضنات الطبية الخاصة بإدامة الحياة. بينما كانت الثورات العربية الأخرى وخصوصاً في الأقطار الأربعة التي سأتحدث عنها مهيأة بسبب ثقافة الجمهور، وتأصل الثقافة السلمية التي استوعبت تفكيرهم في الانتماء إلى خلفياتها المتبرعمة من ثقافة آل البيت.

أهم مطالب المتظاهرين العراقيين في الربيع العربي:

- إعادة كتابة الدستور.
- تحييد القضاء وإقرار نظام عادل.
- رفع المحاصصة.
- محاسبة الفاسدين في الدولة والسارقين الرسميين[1].

(1) في العراق هنالك ما لا يقل عن أربعة ملايين يتيم، ومليوني أرملة، والأمية والبطالة تصل فيما بين العراقيين إلى أكثر من 40% وربما أكثر، ونصف الشعب العراقي يعيش =

- رفع يد الدولة عن الخدمات والغذاء.
- انتخابات عادلة غير طائفية.
- إطلاق سراح المعتقلين السياسيين.
- توزيع عائدات النفط على الشعب.

أين المقتل في الثقافة الشيعية العراقية...؟: تكمن مشكلة العراق في جوانب متعددة وهي التي تقف في السابق واليوم وغداً حاجزاً كبيراً أمام قدرة ثقافة السلم الشيعية من الانتشار، أهمها هو الخلط الكبير ما بين الثقافة والمذهب. فكل التظاهرات التي أنطلقت في المناطق السنية الانتماء كانت ذات توجه طائفي، كما كانت كل التظاهرات التي انطلقت في المناطق الشيعية ذات توجه مذهبي. . . . . في المناطق السنية كانت المذهبية قد وجدت لها طريقها في احتواء ثقافة السلم والسيطرة عليها وتحويلها من تظاهرة وطنية سلمية إلى تظاهرة طائفية محدودة.

أما في المناطق الشيعية فإنها انطلقت بالنفس (المذهبي) وليس (الطائفي)، فطغيان الحس المذهبي أضاع طائفيتها في محيط يميل إلى التعاطف مع السلطة الشيعة الانتماء. فالحاكم والجندي والمتظاهر ورجل الأمن وغيرهم هم شيعة، فلذلك لم يتبين مدى طائفية التظاهرات السلمية الجنوبية، بينما استعرت في المناطق السنية

= على وارد لا يقل عن دولارين باليوم. هذا في الوقت الذي أشار (ستيوارت بوين) المفتش العام الأمريكي عن ضياع 8,7 مليارات دولار من أصل 9,1 مليارات دولار من أموال البرنامج مما يعني أن نحو 96% من المبلغ الإجمالي المودع في الصندوق قد أخذت طريقها إلى وجهة مجهولة بسبب السرقة والاحتيال.

الشعارات الطائفية بأجلى صورها مثل مصطلحات (الصفوية) و(الفارسية) و(الروافض) وهي شعارات طائفية بامتياز لم تعبر عن واقع التوجه السلمي، بل هي شعارات عنصرية تثير المقابل وتثير السلطة بشكل لا يقبل الشك.

بينما لم نجد ذلك في التظاهرات في المناطق الشيعية، هذا في الوقت الذي كان يمكن لهم في أن يرفعوا شعار العمالة لأمريكا على أقل ما يمكن تقديمه لإحراج السلطة. ولكنهم لم يدخلوا في النفق المذهبي أو الاستفزازي بل جُلّ مطالبهم هو الصحة والكهرباء والوظائف. مع انعدام أي شعار طائفي نكاية بالجانب السني.

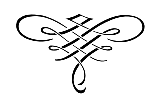
هذا من جهة، أما من الجهة الأخرى فإن التشيع انتماءاً مرتبط بالدين وحسب ما أقرّته المراجع الدينية التي تلتزم بها الجماهير، فالسلطة لم تجد لها من رفض من قبل الجهات الدينية[1] المرجعية بالدرجة التي تسمح لجماهير الشيعة في أن يعلنوا شرعية الخروج عليها والتظاهر ضدها. وهذا يعني بان السلطة تمكنت من تحييد الجانب الثيولوجي، بعكس موقف الأزهر المشرّف الذي وقف إلى جانب المتظاهرين ضد السلطة، مع أن الأزهر ينتمي إدارياً إلى الحكومة،

(1) ماعدا مكتب المرجع الديني الشيخ بشير النجفي الذي دعم المطالب المشروعة للمتظاهرين والمعتصمين، داعياً المسؤولين إلى الاستجابة إليها وإبعاد العناصر المفسدة من المؤسسات الحكومية. وقال سماحته في بيان أصدره مكتبه في النجف، أن صوته مع صوت الشعب العراقي المنهك المظلوم في مطالبه المشروعة، مضيفاً أن للشعب الحق شرعاً وقانوناً بأن يطالب بحقوقه كافة بالتظاهر والاعتصام السلميين.

بينما لا تنتمي الحوزة الشيعية إلى الحكومة في ماليتها وإداراتها، ولكن مع ذلك فإن الأزهر كان إلى صف المتظاهرين بكل قدراته ولم تتحرك الجهات الثيولوجية العراقية المتمثلة بالحوزة إلى جانب الشعب، وبدا الموقف عندئذ بأن المرجعيات الدينية تقف إلى صف السلطة وهو ما أحبط التظاهرات في المناطق الشيعية.

بقي في الساحة فقط اليساريون من التجمعات غير الدينية فانفردت بهم السلطة وتعاملت معهم بقسوة منقطعة النظير وعزلتهم عن الجماهير بحجة أنهم كفرة وأن آراءهم لا تتوافق مع توجهات الجماهير العراقية.

الشيء المهم الذي يجب تأكيده هنا هو أن التشيع في العراق في أحداث الربيع العربي قد انقلب من ثقافة إلى تمذهب، بينما في الدول العربية الأخرى التي نجحت فيها أحداث الربيع العربي كان التشيع الثقافي هو تحوّل التمذهب إلى ثقافة مع وضوح الفرق الكبير في أن التمذهب الشيعي موجود فقط في العراق جنباً إلى جنب الثقافة، بينما لم يكن هنالك من وجود مذهبي في الدول العربية إلا من خلال مكونات ثانوية ولكن مع ذلك كان ذلك القليل قد أنتج ثقافة ولم ينتج مذهباً.



مصر



أم الحضارات....: مصر بالتأكيد هي سيدة المسيرة الحضارية ليس في المنطقة العربية بالتحديد، فهي قدرة كبرى من قدرات الإنسان الذي خُلق على الأرض. فقد تناول (توينبي) (ت 1975) المؤرخ العملاق الحضارة المصرية التي حار فيها كي يجد لها من أسلاف، وكأنه يريد أن يقول بأن تلك الحضارة تولدت ذاتياً، أي أنها هي قمة إبداع الإنسان في النمو الذاتي[1]. فعمر تلك الحضارة هي إلى الآن أكثر من تسعة آلاف سنة أي أنها بدأت تقريباً سبعة آلاف سنة قبل الميلاد. وقد قدمت إلى الأمم إبداعاً حضارياً كبيراً ليس على مستوى مصر فحسب، وإنما على مستوى العالم أجمع.

مع أن مصر بتركيبتها الجغرافية لا تختلف عن الكثير من الأقطار العالمية في احتوائها على شعب وأرض وماء وغيرها. فالنيل يمثل شريان الحضارة التي بنيت على جانبيه مسيرة الحضارات في الوقت الذي تحيط الصحراء من جانبيه بشكل تعتبر لو امتدت تلك الصحراء إلى الغرب من أكبر البقع الصحراوية في العالم.

ولم تكن الدول التي سادت هذه المنطقة من الفراعنة ومن بقيّة الدول والصراعات التي توالت على مدى تلك الفترات الكبيرة إلّا أن

(1) مختصر دراسة التأريخ الجزء الأول، توينبي.

تشاهد هنالك نسقاً عاماً تسير عليه تلك الدول مهما اختلفت في طريقة إدارتها إلى الدولة، ذلك هو تحقق مهمتين:

الأولى البحث عن مرجعية موحدة سواء أكان ذلك عن طريق البحث عن الإله أو البحث عن الحكم أو النظام أو البحث عن دين أو البحث عن توجه أو ثقافة فكرية. الصفة *الثانية* اعتماد طريقة الفن الإنساني في الاختلاف.

وهاتان الصفتان هما من أسس التطور العقلي الإنساني في التأريخ على مر العصور، وقد استفاد منها ديكارت (ت 1650) أب التطور الأوروبي عندما وضع نظرية (البحث) أو نظرية الشك كما تسمى، وهي التي فتحت الباب إلى العالم الغربي في أن يخرج من نفق الظلمات والتحول إلى عصر العطاء والعلم والبحث.

كذلك نجد ذات الصفة الثانية واضحة في المجتمع المصري في طريقة مبادراته إلى تضييق الخلافات بالطرق العقلية من خلال اعتماد أسلوب السلم في الوصول إلى غاياته.

فهو شعب أميّل إلى السلم وإلى الحوار منه إلى العنف. فلم يُعرف في التأريخ الإسلامي حتى ما قبل ذلك التأريخ بوجود سفاحين متمرسين ظهروا في واقع المجتمع المصري كما ذكرنا في الحالة العراقية الشرقية، ما عدا مذبحة المماليك[1] التي لم يعد لها من ذكر إن

---

(1) في 1 مارس 1811 قام محمد علي باشا بدعوة أعيان المماليك إلى احتفال كبير، وقد لبى المماليك الدعوة وركبوا جميعاً في أبهى زينة، سار الموكب منحدراً إلى باب العزب، ولم يكد هؤلاء الجنود يصلون إلى الباب حتى أقفل الباب الكبير وراح =

وضعت إلى جنب المذابح الأخرى ككربلاء وفخ والحرّة وزيد وغيرها مما ذكرنا بعضها.

فلقد تمكن المجتمع المصري خلال عقود من الزمن أن يتعلم كيف يستقي المعلومة وكيف يكيّف تلك المعلومة لخدمة أهدافه في المعيشة الصعبة التي يدرها عليه النيل بمياهه التي ترفد الحياة له. ولا أدري هل أن شظف العيش في شكل النهر وفي طبيعته هي التي أوحت إلى المصريين أن يتجنبوا خلافات القتل والعودة إلى الحوار السلمي بطريقته المتناسبة مع الزمن..؟ أم أن هنالك عاملاً آخر.....؟ هذا يحتاج إلى أكثر من بحث وأكثر من تحليل.

فلقد شهد العصر الفرعوني الذي بدأ في الزمن الغابر حوادث كان للقرآن أن يرويها لنا في قصة موسى عندما توجه إلى فرعون، وكان الأمر الإلهي هو أن يدخل معه في حوار، مع أن مصر ضمت ثلاث أنبياء هم إبراهيم ويوسف وموسى في الوقت الذي لم يتبين معنى الفرعون إلّا من خلال الجانب الاصطلاحي أي المعنى المتسلط الجبار الظالم، بينما لم يتم في التوراة أن وجد هذا الاسم[1].

= الجنود يمطرون المماليك بوابل من الرصاص حتى قتل منهم خمسمائة، ومن نجا منهم من الرصاص فقد ذُبح بوحشية، ولم ينج - كما يقال - من هذه المجزرة سوى أمين بك.

(1) حيث وجدت كلمة (بر-عا) أو (برعو) ومعناه الباب العالي والتي وجدت في الحفريات ما بعد الأسرة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة (1539 ق. م.) التي تعني الملك، كما هي كلمة كسرى في الأدب الفارسي التي تعني ذات الشيء السلطان أو الملك بمقابل كلمة الشاه. بينما في القرآن يبدو بأن كلمة الفرعون هو اسم علم لشخص هذا هو اسمه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 104] والتي لم تستعمل فيما قبل =

المهم هنالك حدثان مهمان يجب تسجيلهما بما يخص الموضوع، موضوع الثقافة المصرية السلمية وجذورها، أولهما هو ظاهرة (مؤمن آل فرعون) وهي ظاهرة مهمة جداً في التأريخ قد نجدها تتكرر في الكثير من المواقع ومن الدول والأحداث التاريخية التي ترمي إلى تفعيل عملية التغيير بالأسلوب السلمي[1]، إذ المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون، أو ابن عم فرعون.

وثانيهما هو طريقة التعامل الفرعوني مع موسى الذي كان الأقرب

= ذلك التأريخ أي 1539 ق.م. بل أنبئنا القرآن بأن مصطلح الملك هو المستعمل. فمن المتفق عليه أن نزول يوسف إلى مصر وحكمه كان قبل بعثة موسى عليه السلام بفترة طويلة وذلك لقوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: 34]. أما موسى فقد ولد في عام 1525 ق.م. فهو في عصر رمسيس الثاني أو الملكة حتشبسوت (ت 1442 ق. م) التي في وقتها هرب موسى إلى مدين كما جاء في القرآن، مع أن البعض يرى غير ذلك في زمن تحتمس أو منفتاح. وبعد أن تم اكتشاف حجر رشيد الذي يعود إلى الأسرة الثالثة وتحديداً إلى عصر الملك زوسر حيث كتب عليه (الملك زوسر يطلب من الآلهة رفع المجاعة التي ضربت مصر والتي استمرت لسبع سنوات إلخ..)، ويرجح أن يكون يوسف قد حكم مصر في عهد الملك زوسر أو دوسر في عصر الأسرة الثالثة لأنه جرى توثيق لهذه المجاعة على أنها استمرت لسبع سنوات كما انه تمت الإشارة إلى حاكم مصر على أنه الملك وليس الفرعون وهذا أيضاً موافق للقرآن الكريم. أنظر تفاصيل ذلك في الموقع التالي: http://en.wikipedia.org/wiki/Pharaoh

(1) ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: 28].

إلى التحضر[1]، فلم يأمر بقتله أو إبادته كما هي الوقائع من النبي العربي في توجههم لقتله في ليل مظلم اغتيالاً. بينما أقصى ما عمله فرعون هو الدعوة إلى اجتماع عام من قبل أخصائيين في ذلك العلم (علم السحر) أو ما شابه لتبيان الحقيقة التي جاء بها موسى.

هاتان الحادثتان المهمتان القرآنيتان كانتا توحيان إلى أسلوب التحضر في العملية الانتقالية من حالة إلى حالة أخرى، وهو إشارة ثقافية مهمة للشعوب، بينما نجدها في الجزيرة العربية مع النبي مختلفاً[2] وذلك حسب طبيعة الثقافة القرشية التي كانت سائدة آنذاك في عدم تحمل حالة الاختلاف في الرأي الذي نتيجته هو القتل للمخالف.

ثمة قضية ثالثة جديرة بالنظر هنا في المجتمع المصري ذلك هو الاهتمام بالتعليم وبفنون البناء وتشييد الطرق والقنوات وغيرها، وهي غالباً صفة لا تتفق مع ظاهرة الديكتاتورية وواقع العنف. فقد بنى حكام مصر ربما أعظم شاهد في التأريخ العالمي إلى الآن وهي المعابد والأهرامات وغيرها من أسس الفن العالمي الذي بقي شاهداً. وهذا

(1) ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء: 34-42].

(2) ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30].

رقم آخر يضاف إلى الأرقام التي قدمناها في بداية البحث فيما يخص ميل المصريين إلى ثقافة السلم وثقافة الدولة.

ولو قارنا ذلك في العصور التي حكمت بها العرب في الدولة الأموية أو العباسية لم نجد لذلك من أثر وذلك بسبب غلبة الروح البدوية في استعمال أسلوب العنف وأسلوب القتل في التعامل مع الشعوب. فمجتمع العنف لا يبني حضارة ولا عمران ولا يبني روحية مبدعة.

ثقافة الغزو: وعندما تنتقل مصر إلى العصر الإسلامي مع أننا نمتلك هنالك أكثر من شاهد على واقع الثقافة المصرية التي تميل إلى التحضر في التعامل ما بين الإنسان وأخيه الإنسان فإننا هنا نترك ذلك لنقترب من العصر الإسلامي الذي ربما يهمنا بسبب عامل الزمن وقربه من الفترة التي حدثت فيها انتفاضات الربيع العربي.

فقد دخلت مصر أولا في الإسلام بعد أن أرسل النبي إلى (المقوقس) يدعوه إلى الإسلام في الوقت الذي لم يكن له القدرة في الدخول إلى الإسلام لأن مصر كانت تحت سيطرة الرومانيين، كما في نفس الوقت كان المصريون يتوجسون خيفة من العرب الذين كانوا يسمون آنذاك (العربان) أو (الاسماعيليين) نسبة إلى إسماعيل ابن إبراهيم الخليل الذين كانت سمعتهم متدنية بسبب الغزوات التي باتوا يشنونها على المصريين في العصور المنصرمة[1].

(1) أراد عثمان أن يكون عمرو بن العاص (ت 45) على الحرب وأن يكون عبد الله بن أبي سرح (ت 37) (أخ عثمان بالرضاعة وهو طريد النبي ومحرف القرآن) (مدفون في مدينة أوجلة بليبيا) على الخراج (أي الضرائب والجزية)، فرفض عمرو قائلاً: أنا إذاً كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها... مشبهاً بذلك مصر بالبقرة الحلوب التي تدر الخيرات =

كان المصريون مسيحيون بينما كانت الدولة الرومانية وثنية، وعندما اعتنق الرومان المسيحية كان المصريون على مذهب مسيحي مختلف، وكانوا في نفس الوقت يمتلكون قدرة على رفض مبادئ الرومان التي لا تتفق مع معتقداتهم مثل رفضهم قرارات خلقيدونية التي أقرت سنة 451.

وفي أثناء وصول الجيوش الإسلامية طلب المقوقس واثنان من الرهبان مدة ثلاث أيام للوصول إلى قرار القتال أو الجزية، بعدها وافق

= على العرب، ويذكر حنا أسقف نقيوس - يوحنا النقيوسي - الذي عاصر دخول العرب إلى مصر في الفصل (113) احتلال العرب (لأتريب) و(منوف): أن عمرو بن العاص قبض على القضاة الرومانيين وقيّد أيديهم وأرجلهم بالسلاسل والأطواق الخشبية، ونهب أموالاً كثيرة، وضاعف ضريبة المال على الفلاحين وأجبرهم على تقديم علف الخيول، وقام بأعمال فظيعة عديدة، وحدث الرعب في كل المدن المصرية وأخذ الأهالي في الهرب إلى مدينة الإسكندرية تاركين أملاكهم وأموالهم وحيواناتهم. وانضم إلى الغزاة الكثيرون من سكان مصر الأجانب الذين أتوا من الأقطار المجاورة واعتنقوا دينهم، ودخل الغزاة المدن واستولوا على أموال كل المصريين الذين هربوا. وفي الفصل (121) يقول يوحنا النقيوسي: ويستحيل على الإنسان أن يصف حزن وأوجاع المدينة بأكملها فكان الأهالي يقدمون أولادهم بدلاً من المبالغ الضخمة المطلوبة، أما المؤرخ المصري المسلم ابن عبد الحكم فيقول في كتابه فتوح مصر (ص 87): أن عمرو قال للقبط: إن من كتمني كنزاً عنده (ثروته) فقدرت عليه قتلته، وسمع عمرو أن أحد أهالي الصعيد اسمه بطرس كان عنده كنز، فلما سأله أنكر، ولما تبين لعمرو صحة ما سمع أمر بقتله، فبدأ القبط بإخراج ثرواتهم خوفاً من القتل، وفي نفس الكتاب (ص 153) يقول ابن عبد الحكم: أن بعض الأقباط ذهبوا لعمرو بن العاص طالبين أن يخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصير لها، فأجاب عمرو: لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك. إنما أنتم خزانة لنا إن كُثّر علينا كثّرنا عليكم وإن خُفف علينا خففنا عليكم. http://en.wikipedia.org/wiki/Abdullah_ibn_Saad.

المقوقس الخيار الأول بينما رفضه الراهبان الآخران مما دعا ابن العاص القائد إلى الهجوم على المدن المصرية فأحدث بها مذابح كبرى كما ذكر التأريخ بعكس ما هو مشهور ممن كتب فيه المؤرخون السلطويون[1].

وكان لواقع المذابح التي ارتكبت بحق المصريين وقع مؤلم وكبير على عموم الشعب الذين كانوا قد أعلنوا إسلامهم بدون قتال إلّا قلة قليلة جداً رفضت الصلح بدوافع دينية مسيحية، ولكن ابن العاص كان يرى أنه لمن المهم أن يحوّل مصر إلى ما يشبه الأرض المحروقة، وأن يفرض عليهم القتل لأنه الوسيلة التي تزيد لهم عطايات العبيد والجواري والأموال. فدعا الكثير من الأعراب والبدو للمشاركة في الهجوم على المصريين مما سبب في خلق هوة كبيرة لدى المصريين من العرب أو المسلمين عموماً.

ولذلك اشترك المصريون كأول فئة من الطلائع التي انتفضت على عثمان بقادتهم الذين جاءوا إلى المدينة يطالبون الخليفة أن يخلصهم من أبي سرح[2] الذي عاث في الأرض فساداً في استباحة أموال الناس.

كما ساند المصريون محمد بن أبي حذيفة بعد أن خلع عامل علي

(1) سناء المصري «حكايات الدخول: هوامش الفتح العربي لمصر» ص61.
(2) الغافقي بن حرب المصري وكان أمير الحملة، وكنانة بن بشر التجيبي، وسودان بن حمران، وعبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وحكيم بن جبلة البصري، ومالك بن الحارث الأشتر.

على مصر وهو عقبة بن عامر في سنة 35 هجرية، كما ذهب هذا الصحابي إلى المدينة وألّب الناس على التخلص من الخليفة.

وفي خلافة علي وضع عليهم عامله قيس بن سعد بن عبادة (ت60) ابن شيخ الأنصار، ثم عزله وعين بدله مالك الأشتر (ت 38)، ثم بعد أن اغتاله معاوية بالسم أرسل إليهم محمد بن أبي بكر الصديق (ت38). وبعد مقتل علي أرسل معاوية أحد كبار سفاحي التأريخ إلى مصر وهو معاوية بن خديج بقيادة عمرو بن العاص فأحرق محمد بن أبي بكر بعد أن وضعه في جوف حمار ميت (كنوع من التشفي) ثم قطع رأسه وأرسله إلى معاوية وهو أول رأس طيف في الإسلام، وكذلك ألقى القبض من قبله على الصحابي أبي حذيفة وسلمه إلى معاوية فسجنه ثم قتله في السجن.

وهنا يمكن لنا أن نفهم الموقف المصري من كل الشخصيات التي تنتمي إلى ثقافة العنف والتي هي ثقافة قريش المتمثلة بعمرو بن العاص، وأبن أبي سرح ومعاوية بن خديج وغيرهم من قدرات تلك الثقافة البدوية، فمالوا في طبعهم كما يقول عالم الاجتماع الكبير المعروف د. سيد عويس (ت 1988)[1] إلى الثقافة التي تتوافق مع طبيعة نفوسهم وهي ثقافة آل الرسول[2] خصوصاً بعد أن وصلتهم ما

(1) سيد_عويس http://ar.wikipedia.org/wiki/

(2) يقول عالم الاجتماع المصري الراحل، الدكتور سيد عويس، أن المذهب الشيعي لقي ميلاً حقيقياً لدى المصريين، مسلمين منهم وأقباطاً. لماذا. . . ؟ يذهب العالم الجليل إلى أن قصة التنكيل بالحسن والحسين، ثم استشهاد الحسين والتمثيل بجثته، استدعت =

بعد سنة 61 هجرية طلائع بقايا مذبحة كربلاء، وهي زينب بنت علي وقد دفنت في المكان المعروف في القاهرة، وكانت ترافقها كما هو مروي سكينة وفاطمة ابنتي الحسين. وكرد فعل لمذبحة كربلاء توجه المصريون إلى مبايعة ابن الزبير باعتباره ينتسب إلى آل البيت بشيء ما (جدته صفية عمة النبي)، ولكن مروان استعمل معهم القسوة المفرطة في إرجاعهم إلى حظيرته. ونرى الموقف المشابه في رفضهم مساعدة مروان بن محمد آخر خليفة أموي ثم مقتله سنة 132 هجرية.

كما وقف المصريون مع ثورة محمد ذو النفس الزكية (ت 145) التي شملت تقريباً معظم البلدان الإسلامية، وعدّت مصر ملاذاً آمناً لبعض من هاجر إليها كإسحاق بن جعفر الصادق الذي لجأ إليها مع زوجته نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي، وفي الوقت ذاته كانت مصر معبراً آمناً للهاربين إلى المغرب والأندلس سواء أكانوا من الأمويين (عبد الرحمن الداخل) أم العلويين (إدريس بن عبد الله) اللذين

= بهولها المصريين جميعاً الأسطورة المصرية القديمة لإيزيس وأوزوريس، والشقيق الشرير (ست)، كما استدعت القصة للأقباط خصوصاً مشهد تعذيب وصلب المسيح عليه السلام. ففي القصص الثلاث هناك (الخير) الذي تمثل في أوزوريس والمسيح والحسين. وهناك (الشر) الذي تمثل في (ست) الذي قتل ومزق جسد أوزوريس، ونثر أجزاء هذا الجسد على كل أرجاء مصر، وهناك ياهوزا الإسقريوطي، الذي وشى بالسيد المسيح لدى الرومان واليهود فعذبوه وصلبوه حتى استشهد، قبل أن يبعث بعد ذلك حيا. . وبالمثل تمثل الشر في يزيد ابن معاوية في المشهد الحسيني يوم عاشوراء. وفي المشاهد الثلاثة كانت هناك دائماً الرحمة والحنان متمثلة في امرأة طاهرة - هي إيزيس، ومريم البتول، وفاطمة الزهراء.
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=357453.

تمكنا من إقامة دولتين مناهضتين للدولة العباسية في الأندلس والمغرب.

وبعد سقوط الدولة الأموية وصل أول علوي إلى مصر وهو علي بن محمد بن عبد الله وقام بأمر دعوته خالد بن سعيد بن حبيش الصوفي فبايعه الكثير من المصريين إلى أن جاء كتاب المتوكل العباسي في سنة 236 في الطلب من الوالي إخراج كل شيعة ابن أبي طالب من مصر، فقام عامله يزيد بن عبد الله بتتبع الشيعة ثم تسفيرهم إلى العراق لتسليمهم بيد سلطات المتوكل. وبعد مقتل المتوكل أصدر المستنصر (ت 640) بمنع تملك الشيعة للأراضي، كما رفضت شهادتهم ثم أمر بتهجيرهم.

وقبلها وفي عام 252 اندلعت ثورة موالية لآل البيت بقيادة جابر ابن الوليد المدلجي في الإسكندرية وهزم العباسيين في الوجه البحري، بعده ثار بغا الكبير في الصعيد وبعدها بغا الصغير في برقة عام 255 في زمن الطولونيين الذي يمتد نسبهما إلى الحسين بن علي. بعدها ثار ابن الصوفي العلوي في الصعيد وهزم ابن طولون ولكن الأخير تمكن منه فيما بعد.

ويقول المؤرخ المصري المشهور المقريزي (ت 844) وما أن دخلت سنة 350 حتى قوي الشيعة وحدثت مشادات كثيرة في مصر بين الشعب وبين السودان (الجنود) وكانت حول أفضلية علي أو معاوية.

وفي زمن الاخشيديين ارتفعت وتيرة مواجهة عقيدة التشيع بصورة كبيرة وخصوصاً بعد أحداث مكة التي كانت بين الطالبيين. وبدأت

الشعارات الشيعية تبرز على ساحة الواقع ومنها الجهر بأفضلية علي والصلاة عليه وعلى الحسن والحسين وفاطمة.

ودارت الدائرة وهمّ جوهر الصقلي بإحراق رحبة الصيارفة بسبب تظاهرهم ضد الحكومة رافعين شعار: معاوية خال علي. وصدر الأمر بالجهر بالبسملة.

وفي ربيع 385 هـ جلس القاضي محمد بن النعمان على كرسي بالقصر في القاهرة لقراءة علوم أهل البيت. وتسارع الناس إلى الدخول في الدعوة إلى التشيع فقدموا من سائر النواحي والضياع فكان للرجال يوم الأحد والنساء يوم الأربعاء، للأشراف وذوي الحاجة يوم الثلاثاء.

ولم تواجه جماهير السنة في مصر أية ضغوط من قبل الدولة الفاطمية لإجبارها على التخلي عن مذهبها كما أشاع خصوم الفاطميين. وإنما الجماهير هي التي زحفت طواعية نحو دعوة آل البيت حتى تحوّل أنصار مذهب السنة إلى أقلية.

لم تستفد مصر من ولاتها الذين حكموها منذ الفتح الإسلامي قدر ما استفادت وانتفعت من الفاطميين على جميع المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية فكان بناء القاهرة والجامع الأزهر لهما خير دليل على ذلك. والتاريخ يحدثنا عن نهضة واسعة في الحياة الفكرية والأدبية في العصر الفاطمي كما يحدثنا عن ازدهار العلوم الفلسفية والرياضيات والفلك والتنجيم والطب.

ويقول الدكتور محمد كامل حسين: في العصر الفاطمي نرى تطوراً جارفاً في الحياة الفكرية ولاسيما في العلوم الفلسفية على اختلاف ألوانها وفنونها. إذ ازدهرت هذه العلوم ورعاها الخلفاء الفاطميون.

لقد أصحبت مصر لأول مرة في التاريخ مركز الحكم والتوجيه وتحولت القاهرة إلى عاصمة للعالم الإسلامي كما أصحبت منارة العلم وقبلة المتعلمين وذلك بفضل الفاطميين الشيعة.

مآثر الفاطميين: وكانت الدولة الفاطمية تمتد من أقصى المحيط الأطلسي إلى الفرات وبلغت دعوتها إلى أقصى انتشارها ووصل غناها إلى الذروة. وهكذا كان حال الدولة الفاطمية حين تسلمها المستنصر بالله الخليفة الثامن من خلفاء الفاطميين.

وقد أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة أو دار العلم في عام 395هـ وزودها بالكتب من كل نوع في العلوم والآداب والعقائد، وكان الطلاب يفدون إليها من شتى الأقطار. فكانت أشبه بجامعة تتكون من عدة كليات، وكانت خزانة الكتب في زمن المستنصر لا نظير لها في جميع بلاد الإسلام وهي تتكون من أربعين خزانة فيها أكثر من مائتي ألف كتاب وعدد كبير من الكتاب والنساخ. وبلغ عدد المساجد في مصر آنذاك ستة وثلاثون ألف مسجد في جميع المدن والقرى ولكل مسجد يقع في حدود الدولة من الشام إلى القيروان نفقات يقدمها الخليفة المستنصر من زيت وحصير وسجاجيد للصلاة ورواتب للقوام والفراشين والمؤذنين وغيرهم.

وفي هذا العصر الزاهي انتشر الزخرف في واجهات المساجد وانتعش التصوير ونبغ المصورون وترقّت صناعة الجص والأخشاب، وكانت أيامهم كلها أعياداً بما ابتكروه من حفلات جمعت بين جلالة الملك وطرب الشعب وبهجته.

ومع سقوط الدولة الفاطمية، بوفاة الخليفة العاضد عام 567 هـ،

انحسر التشيع، ورجعت مصر إلى الحظيرة السنية، حيث يعد مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان السني المذهب الرسمي في مصر. ومع ذلك، فقد ورث المصريون عن الفاطميين إحياء الموالد والاحتفال في المناسبات المرتبطة بآل البيت، مثل المولد النبوي ومولد الحسين ورأس السنة الهجرية ويوم عاشوراء، وغيرها من المناسبات التي تشكل جزءاً من الوجدان الشعبي المصري. فعلى سبيل المثال، يحتشد أكثر من مليوني مصري لزيارة ضريح الإمام الحسين في الاحتفال بمولده الذي يقام سنوياً بالقاهرة.

أما من الناحية السياسية فقد انعكست الأجواء المتشنجة ما بين مصر وبين الدول التي يقطنها الشيعة بدرجة كبرى على واقع المد الفكري الشيعي، فقد كان موقف جمال عبد الناصر من الشاه موقفاً متشنجاً بسبب التنافس على القيادة في العالم الإسلامي والعالم العربي، فقد آوى جمال عبد الناصر في الستينيات قادة المعارضة الإيرانية والتي لم تكن آنئذ ذو توجهات دينية، بل كانت تميل إلى القومية والعلمانية، واستعرت الحرب الكلامية الكبرى ما بين الطرفين وبدأ المستفيدون من نغمة محاربة التشيع يركبون الموجة في الطعن بالتشيع وربطهم أحياناً بالإخوان المسلمين وخصوصاً بعد حادثة المنشية في عام 1954 في الوقت الذي كانت العلاقة الفكرية الثيولوجية تسير بطريق متصاعد مع علماء الأزهر الذي لم يخطوا باتجاه التشيع إلّا ما هو إيجابي كما هي خطوتي كتاب المراجعات[1] وفتوى الشيخ

(1) كتاب المراجعات من تأليف العلامة عبد الحسين شرف الدين (ت 1957) وهو عبارة =

محمود شلتوت (ت 1963). هذا بالإضافة إلى إنشاء أول جمعية حوارية في العصر الحديث تعني بموضوع مناقشة المسائل الخلافية بين المذاهب تلك هي جمعية التقريب بين المذاهب الإسلامية[1].

العهود الثلاث: ومع أن الرئيس ناصر لم يكن يرق له أن يركب الموجة المذهبية السياسيين والمنتفعين في استغلال الظرف في داخل مصر ومحاربة أو اتهام الآخرين بالتشيع من أجل تسقيطهم سياسياً أو اجتماعياً، أو من أجل اتهامهم بعلاقتهم بالشاه الذي كان ناصر على

= عن مجادلات ومطارحات فكرية بينه وبين العلامة الكبير الشيخ سليم البشري (ت1916) حول قضايا الخلاف ما بين المذهبين الشيعي والسني باعتماد أدلة المذهب السني.

(1) هي هيئة معنية بالتقريب بين المذاهب الإسلامية تأسست في القاهرة عام 1947 على يد نخبة من العلماء المسلمين وضمت عند تأسيسها 20 عضواً من كبار العلماء من مختلف المذاهب. رأس الجمعية في أول تأسيسها أحد كبار المصلحين في مصر آنذاك، هو محمّد على علوبة باشا الذي كان وزيراً في عدة حكومات (للأوقاف والمعارف) وعينته مصر أول سفير لها في باكستان. وكان من بين الأعضاء الشيخ عبد المجيد سليم رئيس هيئة الفتوى بالأزهر، (صار شيخا للأزهر فيما بعد) والشيخ أحمد حسين مفتي وزارة الأوقاف، والشيخ محمود شلتوت الذي كان عضواً بهيئة كبار العلماء (صار بدوره شيخا للأزهر) والشيخ محمد عبد اللطيف دراز وكيل الأزهر، والشيخ عيسى ممنون عضو هيئة كبار العلماء ورئيس الجمعيات الشرعية، والشيخ حسن البنا رئيس الإخوان المسلمين، والشيخ عبد الوهاب خلاف والشيخ علي الخفيف، وهما من كبار أساتذة الفقه والتشريع بالجامعة، والشيخ محمّد المدني الأستاذ بالأزهر (أصبح وكيلا للأزهر فيما بعد). والى جانب هؤلاء كان من بين الأعضاء الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، والشيخ محمد تقي القمي ممثلاً للشيعة الإمامية والشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، والسيد عبد الحسين شرف الدين، وعلي بن إسماعيل المؤيد ممثلاً للمذهب الزيدي في اليمن، والقاضي محمّد بن عبد الله العمري.

عداوة تقليدية معه، ليس بسبب الانتماء وإنما بسبب التنافس على القوة في المنطقة.

ولكن الإسلام السياسي في مصر المتمثل بالإخوان المسلمين كانوا يرون في التقارب السني الشيعي من خلال الأزهر عملاً منافياً لتوجهاتهم من أجل القفز إلى الحكم باعتبار أن الشيعة لم يكونوا على اتفاق في موضوع إمكانية وصول الإسلام السياسي إلى الحكم. ولذلك فقد شُوّه الإسلام السياسي الكثير من المبادرات التي كانت تجري ما بين العالمين السني والشيعي في المحيط البعيد عن السياسة، بل أرادوه أن يكون ضمن مجرى التوجهات التي كانت ضمن آرائهم في وجوب عزل ناصر فكرياً واجتماعياً وسياسياً لكي يسهل لهم الوصول إلى الحكم بطريقة أو بأخرى.

بالمقابل رد الإسلام السياسي أي الإخوان على مبادرة ناصر من خلال دعوة شخصية ثورية إيرانية سياسية وهو الشهيد نواب صفوي (ت 1955) إلى القاهرة ثم انتقاده ناصر علناً في احتفال أقامه الإخوان في عام 1954 وذلك بعد انتهاء زيارته إلى الرئيس السوري أديب الشيشكلي (ت 1964) والملك حسين (ت 1999) في عام 1953 أثناء انعقاد مؤتمر القدس العالمي.

وقد كان الرأي الذي وضعته الجماعة هو ضرب التشيع كفكر من خلال إخراج الأزهر من دائرة التصدي للمفاهيم العقائدية وترك تلك المفاهيم تبعاً للحالة السياسية التي غالباً ما يكون لصالح الطرف الأقوى وهم الإخوان في ذلك الوقت.

وعندما أصدر الرئيس ناصر قرار إعدام سيد قطب لم يتوان الشيعة

في العالم وخصوصاً مرجعية النجف في الطلب من ناصر في التراجع عن قرار الإعدام حتى وإن كانت مواقف الشهيد ليست على وئام مع التشيع، فأبرق الإمام الحكيم (ت 1970) برقية إلى ناصر يطالبه بالإفراج عن سيد قطب باعتباره عالماً إسلامياً ومفكراً والعلماء ليسوا من صنف من يمكن أن يعدموا.

عبد الناصر من جهته كان يقدر الموقف الشيعي في الاعتراض على قرار إعدام سيد قطب في الوقت الذي لم يتردد الرئيس الراحل في ترك أمر التشيع وما شابه من أمور عقائدية بيد الأزهر وليس بيد الجماعات السياسية. فلم يوقف النشاطات الفكرية التي كانت تدور هنا وهناك ما بين المذهبين بشكل كانت تميل كفتها في معظم الأحيان إلى جانب التشيع.

وفي الثمانينيات دعا العراق العمالة المصرية في الاستفادة من خدماتهم في رفد آلة الحرب المستعرة مع إيران، فوصل إلى العراق آنذاك بضعة ملايين كما تقول التقارير غير الرسمية. فاندمجوا مع العراقيين وخصوصاً مع الشيعة الجنوبيين وفي بغداد بالإضافة إلى العشائر فاستلهموا من الشيعة روح الضيافة والكرم والمودة والاحترام، وهو ربما مبدأ لم يكن منبعه بالأصل عائد إلى الأعراف العربية الأصيلة أو الكرم الذي يتحلى به الجنوبيون من الشيعة، وإنما ربما عائد إلى مشاركة المصريين الشيعة في حالة الفقر والحرمان الذي يعانونه في مصر بسبب قلة الموارد.

فالتقارب هنا تحوّل إلى تقارب ثقافي اختلط مع التقارب الفكري فتحول الكثير من المصريين إلى المذهب الإمامي ربما ليس انتماءاً

وإنما ثقافة حتى عادوا إلى مصر بعد حرب الخليج الأولى في عام 1991 وكان فيهم عدد كبير من المتشيعين الذين أدركوا قدرة التشيع من الناحية الثقافية. وكان معظمهم من الشباب المصري الذي كان له أن يتفهم المشاركة ما بين التوجهين فيما يتعلق بالقدرة الثقافية لأدب التشيع ونظرته السياسية.

ولكن العداء الذي استعر ما بين الفترتين من عام 1979 إلى حين انتهاء الحرب العراقية الإيرانية في عام 1988 قد ألقى بظلاله الكبرى على واقع التشيع بسبب التأزم السياسي وليس بسبب التعارض الفكري، فقد لجأ الشاه (ت 1979) إلى مصر بعد أن طردته أقطار العالم بأجمعها. ولم يكن على الرئيس المصري السادات إلّا أن يستقبله مما أثار حفيظة إيران التي كانت تعيش نشوة الثورة في ذلك الوقت فاستعرت الحرب الكلامية والسياسية، وبالتأكيد الحرب المذهبية من قبل الإسلام السياسي المصري وليس من قبل الإسلام السياسي الشيعي أو الإيراني، باعتبار أن الواقع الإيراني أو الواقع العرقي أو لنقل الشيعي كان يرى أو يعتقد بأن الإسلام السياسي السني المتمثل بالإخوان ما هو إلّا ترديد لواقعهم هم في مواجهتهم للحكام كما هي الحركة الإسلامية السياسية الشيعية في العراق التي كانت في صراع مع النظام البعثي، وهو التوقع الذي يُعتقد به في علاقة الإخوان مع السادات آنذاك.

ولكن الثورة الإسلامية في إيران لم تكن لتدرك بأن التوجه إلى النظام المصري والحط منه سوف يقوي من شأفة الإخوان، وهو الطموح الذي يرميه الإسلام السياسي المصري في ذلك الوقت من

خلال الاستفادة من كلي التوجهين في ضرب التشيع وضرب النظام المصري في آن واحد.

ولم تكن حادثة المنصة ثم مقتل السادات في عملية خاطفة في عام 1981 بيد الإسلاميين المتطرفين إلّا أن تظهر للعالم بأن الثورة الإسلامية (الشيعية) التوجه هي خطر كبير ليس من خلال ثوريتها فحسب، بل من خلال عنف طريقة تعاملها مع مناوئيها وأن جماعة (عبود الزمر) المصرية ما هي إلّا صنيعة إيرانية ثورية في الوقت الذي تحلل الإخوان المصريين من انتماء (الأسلامبولي) و(الزمر) و(سرية) لهم أو تنظيمه أو أفكاره، مع أن الأسماء الأخيرة هي شخصيات إخوانية معروفة انفردت بفكرة العنف في مواجهة الأنظمة استناداً على مبررات فكرية سنية وليست شيعية.

وهكذا لم يكن أمام مبارك وهو يرث الحكم بعد السادات إلّا أن سار على ذات النهج في اعتقاده بأن الشيعة وإيران هم من يريد أن يقوّض حكمه، وهو التصور الذي داوم الإخوان على نقله إلى الحكام المصريين وترسيخه في ذهن الجميع والإيحاء لهم بأن العداوة في الحقيقة هي ليست مع الإخوان، وإنما مع التشيع مما اضطر مبارك إلى إصدار تصريحات غير مسؤولة عن اتهام التشيع بأنهم قوم يكنون الولاء إلى إيران وليس إلى الوطن، وهو تصريح فيه الكثير من المساندة إلى الإسلام السياسي الإخواني[1]. هذا في الوقت الذي كان التشيع على

---

(1) المقابلة التي أجرتها معه قناة (العربية) الفضائية في 8 إبريل/نيسان 2006، الذي اتهم فيه أغلب الشيعة بأن (ولاءهم لإيران وليس لدولهم).

المستوى الفكري يغزو الكثير من مواقع التسنن السياسي السني المتمثل بالإخوان مع عدم اقترابه أو معاداته للحكم في مصر أو في غيرها من الدول. وهو تصريح كان غريباً جداً في محتواه وفي هدفه.

في تلك الفترة بالذات أي ما بين عام 1979 إلى حين ثورة يوليو 25 حزيران 2011 كان الهدف الرئيس للإسلام السياسي المصري هو ضرب ثقافة التشيع في كل العالم من خلال مؤسسات دينية أحياناً ووطنية أحياناً أخرى، كل ذلك كان انطلاقاً من مفهوم الخوف من أن يتسيّد الإسلام السياسي الشيعي ويكتسح التسنن السياسي في مصر. بالخصوص في الوقت الذي كان يُعتقد بأن حركة الإخوان لم تكن بالأساس حركة فكرية، وإنما هي فرع لحركة طائفية تعتمل فيها الثقافة النمطية القديمة المتمثلة بالعقل القرشي وبالتصور الأموي في السيطرة على العالم الإسلامي بطريقة مشابهة إلى السيطرة التي تمت في العصر الأموي والعصر العباسي[1] ومن ثم العصر العثماني. وكانت تقف أمام ذلك الطموح قوتان وهما: الأزهر والتشيع... الأزهر باعتباره يمثل الجهة الفكرية والعقائدية التي تسيطر على العالم الإسلامي، والتشيع

(1) شخصياً لا أعتقد بأن أساس الحركة هو التطرف والتعصب والسيطرة لأن البنا كان ذو توجه إسلامي عالمي كما كان ذو ثقافة شيعية (أنظر رأي الدمرداش العقالي في شخصية الشهيد) جنباً إلى جنب توجهه المذهبي في الممارسة، وإنما الذي حدث هو أن الكثير من الحركات العالمية الإسلامية أو غيرها تبتدئ بتوجه نقي من قبل مؤسسين لهم دراية واضحة بالأهداف النبيلة، وبمرور الوقت تتحول تلك الأهداف إلى خليط بين الطموح الشخصي وأصل الهدف النبيل. ولكن هذا لا يعني في أننا ننكر على حركة الإخوان إسلاميتها بل أننا نخالفها في طبيعة الانعطاف عن الخطوط الأساسية التي بنت مبادءها عليها. http://www.kuwait.tt/ArticleDetails....rQuarter=20113.

باعتباره الحركة التي ترفض فكرة السيطرة وفكرة الحكم المطلق المستند على ثقافات الدول الأربع التي توالت على حكم المنطقة (الراشدية، الأموية، العباسية، العثمانية). وهنا لم يكن أمام الإسلام السياسي الاخواني إلّا أن يتحول إلى قدرة في التعامل مع المكونيّن من خلال تسقيط الأزهر، وتشويه التشيع.

أكبر حزب عالمي على الإطلاق: هذا في الوقت الذي كان الرصيد الاخواني يتنامى على المستوى الشعبي وعلى مستوى احتواء الجماهير العربية وغير العربية المسلمة. فتمكن أن يجد له قدرات متميزة في كل قطر من الأقطار العالمية كما كان له من القدرة على إدارة أزمات في الأقطار التي تمكنه من إسقاط نظامها كما هي محاولة مقاومة النظام السوري في عام 1982 وأحداث حماه، وكذلك في مصر من قبلها في عام 1954 ثم في الأردن وكذلك في الباكستان، وبعدها تركيا وهكذا. . . . . . كل ذلك كان يتم من خلال قدرة كبرى وتخطيط محكم ليس من السهولة لنا في أن نتغافل عن قدراتهم وعن بعد نظرتهم إلى تحقيق الهدف.

الشيء المهم الذي فات على التنظيم الاخواني هو عدم القدرة على التفريق ما بين الثقافة والمذهب. وبين الدين والحكم، فقد كانوا يرون من خلال كتاباتهم وأدبياتهم وطريقة تعاملهم مع الأحداث بأن المذهب هو بديل للثقافة كما هو الدين بديل للحكم. هذه النظرة كانت هي العنصر القاتل الذي فوّت عليهم الكثير من الفرص في العالم وهو ذات التفسير الخاطئ الذي أدى بهم في أن يواجهوا وضعاً صعباً جداً في مصر الآن بل في كل العالم.

فالتشيع هو ليس بالأساس مذهب فكري، نعم قد يمكن أن نقول بمذهبية فكرية للتشيع، ولكن ليس من السهولة في أن ننعت التشيع بالمذهبية، كما هو فكرة مذهبية التسنن التي من الصعب، بل من الظلم في أن ننعت التسنن بالمذهبية الفكرية الثيولوجية بعيداً عن السلوك أو النمط وهو ما نسميه الثقافة.

فقد نجد هنالك تسنن مذهبي فكري، ونجد إلى جنبه تسنن ثقافي في دائرتين تتداخلان في الكثير من مكوناتهما، فمن الصعب أن ننعت كل السنة بأنهم مذهبيون أصوليون يطبقون أو يدافعون عن تعاليم تاريخية أو روائية استورثوها من خلال السلف الصالح. ولقد حاول الإخوان في خلال الحقب التي تلت ظهور مجاميع عبود الزمر، ومجاميع التكفير والهجرة إلى تفهم، بل إلى دراسة الفرق الثقافي عنه مما هو لدى التمذهب الديني. فقد كان الافتراق الثقافي ما بين الاتجاهين الإخواني الكلاسيكي والتكفيري قد اعتمد على السلوك، وليس على الروايات، أو على ما يتفق المسلمون عليه في تقرير طبيعة النمط الفكري.

فقد توجهت الجماعات التكفيرية إلى سلوك أسلوب العنف بعد أن قررت في أن تقاطع الكل لكي تبني لها ثقافة خاصة مختلفة عن الإخوان التي تعتبر ثقافتها كلاسيكية بالنسبة لهم، وهنا ليس من العسير لنا في أن نعتبر تلك التبرعمات عبارة عن تولدات بيولوجية فعالة، كما هي التولدات التي تنبع في عالم الفايروسات في انتاج أجيال (Generations) جديدة من التركيبة الجينية أو الوراثية، والتي وكلما تزداد تقدم تلك التبرعمات تتعقد حالة التعامل مع المكون المرضي الذي ينتجه ذلك الفايروس.

فالإسلام السياسي الاخواني في مصر كان يعتقد كما هو الطبيب الكلاسيكي الذي يرى كل الفايروسات هي ذات اسم واحد وذات تركيبة واحدة وشكل واحد، وعليه فإنه يستلزم وحدة العلاج، بينما الجانب الثقافي في التركيبة يرى بأن الفيروسات لا تقع ضمن خط المشابهة في العلاج ولا في التركيبة الجينية ولا في القدرة الفعلية التي يمتلكها في التأثير. بل يجب أن يدرس سلوك كل نوعية بصورة مختلفة عن السلف الذي تبرعمت منه.

وهنا نرى بأن الجماعات المتقوقعة (كالتكفير والهجرة) وغيرها قد سلكت يساراً متطرفاً أكثر مما كان التوجه الكلاسيكي الاخواني يمارسه في إشاعة هدفه ونشر أفكاره، بعد أن ظهر واضحا بأن الثقافة شأنها كشأن الحياة تتطور عموماً باتجاه تصاعدي تبعاً لأصل وقوة الفكرة الرئيسية التي بنيت عليها. . . . . فعندما يكون العنف هو الموجه في الثقافة الاخوانية التي انبثقت من أصل فكرة دولة الخلافة التي تتميز في أدبياتها بالعنف تجاه الآخرين المخالفين لها في الفكر، فإنه لمن المحتم أن يكون التصاعد هو تصاعد باتجاه المزيد من العنف وليس العكس.

فمن الجدير هنا أن نفترض بأن هكذا نوع من الثقافة، ثقافة العنف ستستمر في تصاعد إلى أن تجد نهايتها في آخر المطاف ﴿إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: **39**] مع أنها لن تفنى أبداً، وإنما تتحول من عنف إلى حالة عنف أخرى تبعاً لواقع الظرف وواقع التفاعلات مع الواقع ومع المستجدات ما دامت تعيش الجماعة ذات الأدبيات الفكرية والمتبنيات العقائدية النابعة من

تأريخ وتراث يستلهم من الدول الأربعة الإسلامية منهلاً له في رسم طريقته في الدعوة إلى الإسلام.

فالإدراك الذي ظهر من قبل الجماعات الاخوانية في عصر ما بعد أحداث عام 1967 ثم ما بعد عام 1979 كان ذات طابع أكثر كثافة فيما يتعلق بنظرة تلك التنظيمات إلى الجماعات المخالفة لها في الرأي، وخصوصاً فكرة التشيع بثقافتها وتكوينها الفكري، وكأنني كمحلل ثقافي أرى بأن ذلك لم يكن بالأصل نابعاً من عنديات ثقافة إخوان مصر بالذات. . . . . . ولكي أوضح هذه العبارة الأخيرة أحب أن أضيف على ما قلته بعض الأفكار فيما يخص المصري من الإخوان عن غير المصري من الإخوان.

ففي الطبيعة العامة للمصريين إخواناً كانوا أم غيرهم فان شكل الإدراك في الفهم الثقافي، وفي طريقة العنف مختلف ما بين الجهتين، فمن الصعوبة أن تجد هنالك مشترك ما بين الاخواني المصري مع الاخواني السوري على سبيل المثال، أو الجزائري. واختلاف المشتركات نابع من اختلاف في الرؤية الحضارية والثقافية، فالمصري في عمومه يعتبر الأقرب إلى التحضر من أي إخواني آخر في العالم العربي، ولا أعرف فيما أقوله مقارنة ببقية إخوان العالم. ولكن هذه الميزة التي تمكن إخوان مصر من أن يفوزوا بها أصبحت شعاراً مميزاً لهم يفتخر بها أمام الآخرين.

مع الإشارة إلى أنها في الواقع لم تبق كما هي مما كانت عليه في

أيام الستينيات أو السبعينيات من القرن الماضي. مع أنني لا أستبعد في أنها كانت ولكننا لم نتمكن من إدراكها أو تشخيصها، ولم يتمكن من ذلك أيضاً بقيّة من تطرق إلى معالجة هذه الحالة من المحللين أو من العارفين بأحوال مصر والعالم الإسلامي. وهو ما يدعوني إلى الاعتقاد بأن التطرف الفكري ضد التشيع كفكر نابع من مصدر خارجي لا مصري، ويغلبني الظن في ذلك بالقول بأنه حافز وهابي سعودي التوجه العقائدي والسلوكي والذي يعتقد بأن التشيع مزاحم كبير له في إدارة الحرمين، وأنه المرشح في امتلاك هذا الأمر من خلال طبيعة انتمائه إلى آل بيت الرسول فكراً ونسباً[1].

هذه الفكرة الوهابية كانت من مبادئ قيام الدولة السعودية منذ التأسيس في بداية القرن الثامن عشر 1744. في الوقت الذي يرى البعض من المحللين السياسيين من القريبين من الفكر الإخواني المصري بأن الانتماء في التأسيس كان وهابياً سعودياً[2] من أجل السيطرة على العالم الإسلامي وهو ما سمي بفكرة الغزوات التي كانت عائلة آل سعود تتبعها في السيطرة والتوسع.

فلقد توجه الفكر الاخواني الجديد ذو الثقافة المتطرفة المستمد من

(1) الاختلاف الوهابي العقيدي مع المدارس السنية ليس بأقل مما هو مع المدرسة الشيعية الإمامية. ولكن الذي يبدو هو أن الوهابية تنظر إلى وجود عدو واحد على محيط العالم ذلك ليس هو الإلحاد أو التبشير أو الإباحية بل هو التشيع. وهو أمر يثير أكثر من سؤال وأكثر من علامة استفهام على أصول ودوافع الفكر الوهابي.

(2) سر المعبد، الأسرار الخفية لجماعة الإخوان المسلمين، ثروت الخرباوي، دار نهضة مصر للنشر، القاهرة، 2013.

أفكار السلفيين في التأريخ الإسلامي والذي كان موازياً لظهور الفكر السعودي إلى أن يتشابه مع المسيرة السعودية في الانتشار. فلقد وجد السعوديين بعد النهوض من أزمة الدولة السعودية الأولى وسقوطها في عام 1818 على يد إبراهيم باشا (ت 1848) بأنه يجب عليهم أن يتمكنوا من مصر بطريقة أو بأخرى. إما بطريق التدخل في الحكم أو بتنصيب حكومة مواليه إلى الفكر السعودي ضمن الولاء الوهابي المتطرف، وهي أزمة مستمرة ما بين مصر وبين السعودية التي كانت تعد العدة في وضع اليد على مصر أو تحييدها في العالم العربي[1].

ولقد استعرت تلك الأزمة بصورة شديدة ومعقدة في الستينيات من القرن الماضي بعد أن وقف جمال عبد الناصر مع السلال (ت 1994) في اليمن، بينما اتخذت السعودية موقف الإمام البدر (ت 1996) لتكون اليمن فيتنام مصر كما كانت تسمى.

تشدد الفكر الاخواني بصورة أكثر تطرفاً تزامناً مع الأزمات التي كانت تنشب في مصر وفي العالم الإسلامي، وكانت أزمة التطرف تحمل ثلاث اتجاهات:

- التطرف الفكري العقائدي بتشخيص ومحاربة الأفكار المخالفة وخصوصاً التشيع.

---

(1) فقد شهدت العلاقات المصرية السعودية فيما بين 1925/ 1936 فترة من الصراع الحاد فقد رفضت مصر أن تسلم للسعودية بحق السيطرة على الأماكن المقدسة في الحجاز كما رفضت الاعتراف بالدولة السعودية. وكان رشيد رضا (ت 1935) حلقة الوصل ما بين إخوان الوهابية في السعودية وإخوان مصر. أنظر ويكيبيديا الإخوان:
http://www.ikhwanwiki.com/index.php?title السعودية – والإخوان – المسلمون

- التطرف الحركي في اعتماد أسلوب القوة في انتزاع الحقوق التي منحها الإسلام لأتباعه.
- التطرف السياسي بمحاربة الدولة المصرية ومؤسساتها كالأزهر وغيره.

ولكن الشيء الذي يمكن أن يُطرح كسؤال كبير أمام أنظار القارئ هو أين هو التشيع في مصر كفكر، أو كأشخاص، لكي تتوجه حركة كبرى ومؤسسة ضخمة كالإخوان في المواجهة معه، وأن تسخر طاقاتها في محاربة قوة ليس لها من وجود على الأرض المصرية لا على المستوى الحاكم ولا على المستوى الشعب ولا على المستوى الفكر الثيولوجي..؟

وللجواب على السؤال هنالك شقان مهمان تجب إدراكهما ومعرفتهما بعد أن نغوص في التفكير الاخواني الذي يعتبر بتجرد بأنه أرفع فكر إسلامي (حركي) برز على الساحة العالمية من ناحية الأطروحة بلحاظ آليات التفكير، بغض النظر عن اتفاقنا أو معارضتنا لما يحتويه ذلك الفكر.

فالفكر الحزبي عموماً يتعامل مع المستقبل كما يتعامل مع الحاضر، مع أن الكثير من المعارضين للفكر الاخواني بل للإسلام السياسي عموماً يرون العكس، يعتقدون في أن الإخوان بالذات أناس رجعيون يعيشون الحاضر بعقلية الماضي، بينما يغيب المستقبل عن ذهنياتهم، ومع أن هذا التقييم لا يخلو من واقعية فعليّة فإن الاختلاف بين التفكيرين ينبع من التجزيئية في التفكير والتي هي كالتالي:

- *تجزيئية الفكر السلفي (ماضي).*
- *تجزيئية الفكر الإسلامي (حاضر).*
- *تجزيئية الوقاية والحذر (مستقبلي).*

من خلال هذه التشكيلة يرى الإخوان بواقعية أو بقدرة عجيبة على الإدراك والتنبؤ وقراءة مستقبل الواقع الإسلامي بأن القادم هو قادم ذو ثقافة مغايرة لثقافتهم السلفية الإسلامية (الحاضرة التي يرونها هم). وهذا معناه بأنهم يعيشون أزمة (أمان) (Security) لمستقبل كيانهم ومؤسساتهم، وهو معنى يعتبر في العرف السياسي والعرف الفكري أعلى أنواع التشخيص المبكر للأحداث السياسية والفكرية، وهو ما يجعلني دوماً أدافع عن قدرات الإخوان من الناحية الفكرية المستقبلية، ودفاعي عنهم بالتأكيد لا يشمل تنظيم الإخوان الحزبي فحسب، وإنما كل التنظيمات السياسية الإسلامية الموجودة على الساحة العربية وغير العربية.

يرى البعض من المطلعين على واقع الإخوان وبشكل قريب من القيادات بأن تلك القيادات يمتلك حساً غيبياً أو حساً تنجيمياً في معرفة المستقبل بطريقة أقرب منها إلى الحكام المسلمين السابقين منهم إلى الحكام الغربيين في استقاء الكثير من تنبؤات المستقبل على العرّافين والمتنبئين بأحداث عالم المستقبل القريب والبعيد. فمهما يكن المصدر أو السبب في النظرة التي رسمها الإخوان لأنفسهم والتي ليس لنا في أن نناقش شرعيتها من عدمها، فإننا في ذات الوقت نتعامل مع النتائج التي تفرزها تلك الفكرة في الوصول إلى الأهداف، فمهما كان مقدار

معرفة تاجر الأدوية بذلك العلم، فإن الحكم الأخير هو للناتج وليس لخلفيات الناتج، أو طريقة الوصول إلى كمية الدولارات التي يكتسبها.

ثمة شيء لا بأس بأن نضيفه هنا قبل الاسترسال في مناقشة الموضوع ذلك هو الاشتراك الطاغي في عموم الإسلاميين المتسننين السياسيين في العالم الإسلامي في ارتفاع وتيرة الهجوم على التشيع كلما ازدادت الضغوط على الحزب من قبل المجتمع أو من قبل الحاكم. وهذا تجده مشتركاً في كل الأقطار وفي كل الأوقات وفي كل الأحزاب اخوانيون كانوا أو تحريريون أو تكفيريون أو غيرهم. فأول مفهوم ينطلق في ثقافتهم الجديدة والقديمة هو إلقاء اللوم ومواجهة التشيع، مع إضافة أسماء له مختلفة في التعبير بدلاً من القول صراحة فيه من خلال استعمال كلمات (الروافض) أو (أهل البدع) أو (المغالين) أو (عبدة القبور) أو ما إلى ذلك في الوقت الذي لم يكن لكل من تلك الأسماء من طاقة أو قدرة على التعامل مع أي حدث عالمي أو إسلامي، باعتبار أن كل تلك الأسماء ما هي إلّا أوهام وضعتها تلك التجزيئية الحزبية المتبرعمة الجديدة، ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175] [1].

فالخوف بمعناه هنا بغض النظر عن الجهة المخيفة هي عبارة عن أوهام يضعها الحزبيون لأنفسهم وبما هو واقع ضمن دائرة الشك،

(1) ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم: 23].

وليس في محيط المعرفة، وذلك كمرض ولّده تفكيرهم كتبرير لبأساء قدراتهم من خلال تضعف القدرات لمنعها من التوجه نحو العدو الرئيسي لذلك التنظيم الحزبي.

أليس من المحزن في أن ندرك القدرة الإخوانية وطاقاتها ومن ورائهم قدرات التنظيمات السلفية بملايينها وهي تتوجه نحو التشيع بدلاً من أن تتوجه إلى القدرات الإلحادية والقدرات الحضارية لعوالم الأديان أو الأقطار الأخرى التي تعارض أصل الفكرة الإسلامية..؟ أو حتى مسيرة الصهيونية المتسيسة العالمية التي تتساقط أمام مخططاتها دول العالم من خلال قدراتها الكبرى الاقتصادية السياسية...؟

إنه لمن الصعوبة معرفة الأسباب الفكرية أو السيكولوجية التي دفعت هذه التيارات في التوجه إلى عدو وهمي، في الوقت الذي هو صديق قريب أو أخ بشكل آخر. وكأنّ الحكمة الربانية لا تريد أن تفتح طريق الخير أمام من لم تكن نيته مرضاته أو تحقيق غايات الباري عز وجل. والقصة مشابه لما هي حادثة قتل قابيل لأخيه هابيل في قوله له: لأقتلنك.. مع أن السبب في رفض القربان لم يكن من عنديات الضحية، وإنما هو رفض إلهي، فالقتل هنا يجب أن يتوجه إلى من رفض القربان لا إلى من تقبل الإله منه القربان.

وهكذا ربما تجد في كل أدبيات الأحزاب السياسية المصرية بإخوانها وسلفييها وتكفيرييها وغيرهم من اتفاق على محاربة التشيع فكراً ووجوداً، وبشكل يصعب على الإنسان العادي معرفة الأسباب المنطقية (Common sense) والتي بقيت مستترة عن الشعوب بل على

ذات الجناة أنفسهم وإلى اليوم. وهذا ما أدخل الإخوان مصرييهم وسورييهم وتركييهم في نفق البحث عن عدو وهمي ليس له من وجود ضمن تركيبة وضعها القائمون على التشكيل الاخواني والتشكيل الإسلامي السياسي المتسنن وبصورة بدا إلى البعض بأن التشيع هو قوة وقدرة هائلة تتجاوز حدود الإنسان وهي في طريقها إلى اكتساح كل الوجودات الحزبية السياسية المنطلقة من نظرية الوصول إلى السلطة.

أما أنا فليس من الصعب أن أصب برأيي في تلك الأحداث وأن أشير إلى ظاهرة ربما بقيت تنتقل بين المجتمعات وبين تأريخ الأمم في الماضي وفي الحاضر وستكون في المستقبل هي المسيرة التي ستسيطر على مجريات الأحداث وتفاعلات الأمم. . .

تلك هي قصة (مسيرة الثقافة) التي لم يتمكن القائمون على مسيرة التشكيلات الإسلامية لا قديماً ولا حديثاً من أن يدكوا ماذا نعني بالثقافة، فالمصطلح لديهم مختلف عما أدركته أمم الأرض وشعوب إنسان اليوم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ (قوانين) فَسِيرُواْ (أفيضوا بحثكم) فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ (لم يدركوا السنة أو القانون) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: **137–138**].

فالإسلامي الحزبي أو السياسي وضع عقله وبرمجته (Designed) على رفض مصادر المعرفة الأخرى، فاعتقد بأن ما وصله يغنيه عن دراسة شؤون الإنسان والأمم، فلم يتمكن من إدراك بأن السنة التاريخية هي قانون ينطبق على الجميع بلا استثناء، كما هو قانون الحرارة، وقانون الجاذبية، وبقيّت قوانين الطبيعة، وأن الدين هو جزء من ثقافة

الأمم وليس كله بل ليس بديلاً عنها، وأن الثقافات هي ليس من صنف ما يمكن له أن يُستأصل، وأن هنالك توافقاً فطرياً ما بين عقل الإنسان وبين ما يمكن أن ينفعه في حياته، بل أن الأمم في مسيرتها تدرك وبمرور تجاربها نوعية الثقافات التي ترفع من قدراتها وطرق تعاملها مع الطبيعة ومع الإنسان ومع السماء (المعادلة الثلاثية).

فالتشيع فكراً، وكذلك التسنن، لم يكن بأي حال من الأحوال ولا في أي يوم من الأيام مسيرة مذهبية أو أطروحة نظرية قابلة للنقض على شاكلة النظريات الفكرية التي كتبها أو يكتبها المفكرون أو المؤرخون.. وإنما هي ثقافة أو سلوك أو نمط حياة قد يأخذ أحياناً أسماء وقد يفتقد إضافة أسماء له لصعوبة اكتشاف اسم لظاهرة معينة كما هي إخفاقات الإنسان في إدراك الكثير من أسماء الظواهر العلمية والاجتماعية والفكرية، وعليه فإن أول ما بادر إليه الباري عز وجل عندما خلق أول إنسان (آدم) أن علمه (الأسماء)[1] وبعدمه من المستحيل أن يتمكن العقل البشري من إدراك ظواهر الفكر أو ظواهر الطبيعة أو ظواهر السماء.

فالإسلامي السياسي لم يسمِّ الأسماء بمسمياتها وإنما سماها بأضدادها عناداً وتكبراً واستعلاءاً ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف: 54]، فبدلاً من أن يسمي الظواهر التاريخية منذ ربما مبعث النبي وإلى القرن الحالي بأسمائها فإنه سماها بما تشتهي أنفسهم، وبما

(1) ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 31].

أرادوا أن يسمونها، كالشخص الذي يرفض عيادة الطبيب لكي يسمي مرضه السرطاني خوفاً من التبعات المترتبة عليه في ترك عاداته التي ألفها أو مسؤولية العلاج اللازم إتباعها في مستقبل حياته.

فالثقافات تتصارع على الأرض ذاتياً بعلم أو بدون علم متبعي تلك الثقافات، فهي سنة مستمرة في الكون جعلها الله قانون منطبق على كل شيء في الحياة (﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49]).

فقد تصارعت الثقافات الوحدانية والتعددية أي الشرك لقرون من الزمن حتى وصلت إلى زمن قريش التي كانت تتصارع فيها ثقافة التوحيد حتى قبل ظهور الرسول الأكرم مع ثقافة الشرك التي كانت قريش بمعظمها تلتزمها في تعاملها مع السماء حيث ظهر أكثر من نبي في ذلك الوقت يدعون إلى عبادة الخالق الواحد[1] بغض النظر إن كان أولئك الأشخاص هم أنبياء مرسلين أم أنهم مدعون، في الوقت الذي كانت الدعوة عموماً هي إلى عبادة إله واحد. وهكذا في كل عصور الصراع التأريخ الإسلامي حيث كانت تتصارع الثقافتان حسب عناوينها ووقتها وطريقة فهمها للحياة.

مسيرة قدرة المصريين: فالمصريون مع أنهم في عموميتهم لم يكونوا يدركون في داخلهم جذور الثقافات التي يعتقدون بها، ومن أين جاءت جذورها أو أسسها، فإنهم كانوا يمارسونها بعلمهم أو بدون علمهم، ومثلهم كمثل الجسم الإنساني الممنع (Immuned) من

(1) ورقة بن نوفل، وكذلك الاعشى، ولبيد، وأمية بن أبي الصلت، وعدي بن زيد العبادي، وزيد بن نفيل، وغيرهم مما كانوا يرفضون أكل الذبائح التي تقدم إلى الأصنام.

الإصابة بمرض الأنفلونزا، فإنه لا يعلم آليات المناعة، ولا يعلم من أين جاءت إليه في وسائل الدفاع ووسائل المقاومة البيولوجية. كل ما يمكن إدراكه هو أن المناعة لهذا المرض متوفرة بدلالة عدم إصابة ذلك الجسم بالمرض بشكل مستمر.

نفس الوضع تجده في أمم أخرى فيما يتعلق بموضوع رفض الطائفية التي نرى بأن هنالك شعوباً كثيرةً في العالم تمتلك القدرة الثقافية الفعلية في تجاوز أزمات الطائفية. والشيء ذاته ينطبق على العامل القومي أو العامل الديني. فالشعوب تتصرف بسليقتها وبمفاهيمها المتشربة في دمائها في تلك اللحظة من مواجهتها للحدث من خلال عقلية الخزين الثقافي المتوفرة في نفوسهم وعقولهم بدون أن يشعروا أحياناً بوجوده أو بعدمه أو معرفة أسسه أو دوافعه.

فقد كان المصريون في عموميتهم يتصرفون مع الأحداث السياسية والاجتماعية بثقافة خاصة تقترب من ثقافة التشيع والتي لا بأس هنا بأن نشخصها في النقاط التالية:

ثقافة التشيع أسسها يستند على خمسة مفاهيم:

1 - *السلم في الحصول على المطلب*... ونبذ العنف بكل أشكاله، وهذا متأتٍّ من مفاهيم فكرية منطلقة من فكرة غياب النموذج (Standard) في الحياة، وأعني به هو الإمام أو المعصوم، أو الشخصية التي يقرر على أساسها ميزان العدل من غير العدل أو الحق من غيره. فبغياب المعصوم بالتأكيد سيكون هنالك حق مهدور ولا يمكن المطالبة بذلك الحق إلّا من خلال

مبادئ التشيع التي استندت على فكرة (مدرسة الإمامة)، وهي الاتصال المستمر أو التتابع مع عالم الغيب. . . . . فعدم الوصول إلى الحق من خلال الصراع السلمي أو من خلال المطالبة الشعبية لا يعني انتفاء الاستمرار على ذلك النوع من العمل بسبب عدم تحقق هدفه. . وإنما يشعر الإمامية والشيعة فلسفياً بأن الله عندما طالب البشر في المطالبة بتحقيق الحق هو ليس من أجل أن يفوز الحق، ويتحقق العدل أساساً. بل من أجل أن يستشعر البشر بأهمية تغيير النفس في خلال عملية الصراع في الحصول على الحق، وكأنّ تلك العملية هي عملية تشذيب وتهذيب للنفس.

2 - *كل البشر متساوون في الحياة*. . وهو ما يحمّل الجميع ذات المسؤولية في تحقيق أول جزء من المعادلة الثلاثية وهي علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان. أي الحالة الديمقراطية في مسيرة الأمم. وبما أن الكل متساوون في المسؤولية فإن الكل سيتحمل نتائج تقاعسه عن أداء واجبه في تحقيق العدل والحق، حتى ذلك الفرد الذي كان يقود أسس التغيير لا بد وأن يلحقه أيضاً كما يلحق بالآخرين تبعات التقاعس عن تحقيق الحق[1].

3 - *التخصصية*. . . كل إنسان لا بد له من مرجعية فقهية دينية (تخصصية) شبيهاً لحاجة طبيعة البشر إلى مرجعية في الشؤون الطبية أو الفكرية أو الاجتماعية أو السياسية أو غيرها مما

(1) ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: 25].

يحتاجها الإنسان في شؤون حياته، ويُعبّر الشيعة عن هذه الظاهرة البشرية بالقول (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)، وهو قول يفسر حاجة الإنسان الطبيعي إلى تخصص في كل جانب مهم من جوانب الحياة، وهذا هو مفهوم (القيادة) بمعناه الفلسفي.

4 - *ليس بالضرورة أن يتحقق العدل*. . . ليس تحقيق العدل هو نقطة مسجلة في هدف الباطل أو الظلم، كما يمكن افتراض العكس في أن الإخفاق في تحقيق العدل لا يعني فشل مسعى الإنسان سواء أكان ذلك الإنسان نبياً أم إماماً أو فرداً عادياً. بل أن تحقيق العدل هو مطلب ثانوي أمام تغيير النفس الإنسانية للوصول إلى معرفة الحقيقة سواء أكانت تلك الحقيقة هو المطلق (الله) أو مما هو أقل من ذلك في عداد مفاهيم (الحق). وتقريباً كل الأنبياء الذين أرسلوا إلى الأرض لم يحققوا هدفهم خلال فترة رسالتهم.

5 - *الدين ليس بديلا عن الدولة*. . . . مع عدم شرطية فاعلية كل مفهوم من تلك المفاهيم، فقد تتحقق دولة عادلة في غياب الدين، وقد تتحقق دولة ظلم في حكم الدين. فالدين هو ما يمكن أن يرفع من مستوى الإنسان باتجاه قيادة نفسه، وليس بالضرورة أن تكون العدالة ضمن مفهوم الدولة.

هذه هي مفاهيم ثقافة التشيع وليس مذهب التشيع، لأنّ كلمة المذهب هو طريقة لتفسير أو ممارسة الدين، أما الثقافة فهي السلوك الذي تبنيه مجموعة مفاهيم الدين والعلم والجمال والآداب والأخلاق

والتأريخ، والبيولوجي والتناسل، والجغرافيا وغيرها من الأمور المهمة التي باجتماعها تبرز بوصلة اتجاهها يسمى (ثقافة) أو في مثالنا الحالي (ثقافة التشيع).

فهم المصريين للعامل الثقافي: وما ينطبق على ثقافة التشيع ينطبق على ثقافة التسنن، وينطبق على ثقافات أخرى لأنّ قوانين الثقافات متشابهة كقوانين الحرارة والضغط الجوي والذرة والضوء وغيرها ما لم يطرأ عليها طارئ جديد يغير من ظروف تفعيلها والتي لسنا هنا في مجال بحثها وتفصيلها لأننا نتكلم بلغة وظرف الواقع الطبيعي الذي نعيشه.

فلقد بدأت ثقافة التشيع وثقافة التسنن تتصارعان في مصر وشمال أفريقيا على مدى عصور حتى قبل ظهور ثقافة التشيع وثقافة التسنن بالاسم، وذلك بعد أن أرسل النبي الدعوة إلى المقوقس[1] في الدخول

(1) قال حاطب إلى المقوقس: وما بشارة موسى بعيسى إلّا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك إلي القرآن إلّا كدعائك أهل التوراة إلي الإنجيل، ولسنا ننهاك عن الإيمان بالمسيح ولكنا نأمرك به.. وتدبر المقوقس جيداً ما سمع، ثم تدبر الكتاب الذي أرسله النبي مرة أخري... وكان نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلي المقوقس، عظيم القبط. سلام علي من اتبع الهدي. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ...﴾ [آل عمران: 64]. فاستدعي كاتبا يكتب العربية فأملي عليه ما يأتي: «لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط. سلام عليك. أما بعد، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج من الشام. وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام».

إلى الإسلام سلمياً (ثقافة تشيع)، وكان ذلك برسول من النبي اسمه حاطب بن أبي بلتعة.

وفي عهد الخليفة الفاروق أرسل الفاروق جيشاً جراراً بقيادة عمرو بن العاص في سنة 20 هجرية المصادف 639 ميلادية مصر على شكل غزوات يقودها الأعراب (ثقافة تسنن).

فتأريخ مصر قبل ذلك التأريخ أي في زمن الفراعنة بل قبل تأريخ السلالات كان يتصف بصفة التحضر في التعامل مع الأفكار، بالإضافة إلى صفة السلم في حل مشاكل المجتمع. وهذه الصفات هي صفات تتوافق مع الصفات الواردة التي حلّت في مصر بعد ذلك التأريخ، فالثقافات تتوافق وكذلك تتنافر في حالة الاقتراب الجغرافي والزماني، أو في حالات الاحتكاك بطريقة أو بأخرى، وقد تتصرف تلك الثقافات بشكل يقترب من هيئات العلاقات الاجتماعية التي تحدث بين الأشخاص عندما يقتربون ويبتعدون أحدهما من الآخر، كذلك الحال تجده في العلاقة بين أي جسمين في الكون عندما يتقاربان فإن درجة الاندماج بينهما يحدث عندما يتوافق التركيب الذري أو التركيب الجزيئي ما بينهما. . . . فالماء لا يتوافق مع الزيت، بل يبقى يتنافر باستمرار حتى وإن ظهر للحظة ما في أن السائلين قد ذابا في بعضهما، ولكن ما أن يمر الوقت القصير حتى تجد درجات الانفصال واضحة في حالات السكون، ذلك بسبب طبيعة التركيبة الجزيئية والذرية لكلتي التركيبتين، نفس الظاهرة نجدها في الطبيعة وفي الفيزياء وفي السياسة وغيرها من ظواهر الحياة التي نعيشها.

مع أن هنالك من الظواهر ما يمكن أن تكون نقاط التلاقي محدودة

جزئياً بينما يتنافر الغالبية منها، أو العكس. كل تلك الظواهر هي ظواهر تنطبق على ثقافات الشعوب. فالثقافة التي تمتلك قدراً من التسامح عندما تلتقي بثقافة العنف فان كلتي الثقافتين يؤثر في الآخر بدرجة ما لا يمكن تقديرهما إلّا من خلال الشواهد أو المظاهر الاجتماعية. . . . . ولنفترض بأن ثقافة من ثقافات التسامح قد أثرت في المحيط بدرجة 2% فان تلك النسبة قد ترتفع إلى أكثر من تلك النسبة إذا صادفت أو التقت مع ثقافة تحمل ذات التوجه.

فالثقافة الهندية هي بالأصل ثقافة براهمية تميل إلى السلم وإلى التعايش مع أنها ثقافة طبقية (Sectarian) ولكن تلك الطبقية متأتية من الإله وليس من الناس، في الوقت الذي تتقاسم الطبقات الاجتماعية مسؤولية العمل في الحياة من خلال توزيع الأدوار لا من خلال التنافس والتنافر. ولذلك نجد بأن الثقافة البريطانية في احتلال الهند وجدت الكثير من التوافقات مع الثقافة البراهمية الهندوسية. بينما تقاطعت معها عندما حان الوقت للتقاطع بعد أن بنيت كلتا الثقافتان على مسيرة جديدة خلقت مجتمعاً فيه الكثير من ثقافة الغرب المسيحية التي جاء بها البريطانيون في الوقت الذي كان الاعتقاد السائد بأن البريطانيين سوف لن يتمكنوا من أن يحكموا الهند بسبب عمق التأثير الثقافي الهندي البراهمي مع الثقافة المسيحية الغربية.

ولكن النتائج أظهرت خطأ ذلك التصور، بل أن الثقافتين التقيتا في نقاط التلاقي المتشابهة ولم تصطدم في نقاط الاختلاف التي كان لها أن تظهر وتؤدي إلى فصم تلك العلاقة.

وهكذا نجد الشيء ذاته في الثقافة الجنوب أفريقية عندما دخل البريطانيين إلى تلك المنطقة وفي مجتمع مختلف تماماً في اللون وفي العادات وفي الدين، ولكن عمق التأثير الثقافي البريطاني وتأثيره المسيحي الديني حوّل نقاط الاختلاف إلى تشابه وإلى واقع يتداخل كل في الآخر بطريقة تعطي للمجموع ما ترمي إليه الثقافتان، في الوقت الذي كانت الثقافة الدينية المسيحية الغربية ترمي إلى نشر الدين المسيحي الذي يتميز بقدرة التسامح لا بقدرة الصراع.

وقد تمكن الأفريقيون فيما بعد أن يستفيدوا من الكنيسة وتوجهاتها في أن تنقلب على القادمين الجدد أعني البيض وأن تنتزع منهم السلطة بطريقة أقرب إلى الانقلاب الثقافي منه إلى الانقلاب العسكري أو السلطوي[1].

وليس من العسير على المتتبع في إدراك حالة التفاعل الثقافي ما بين الأمم في العالم بطريقة ايجابية تكاملية (Integrated) والتي ربما

(1) (توتو) أول أسود في جنوب أفريقيا الانغليكانية كبير أساقفة كيب تاون. حصل على جائزة نوبل للسلام في 1984، وجائزة البرت شويزير الإنسانية، جائزة الحرية في 1986.. حصل على جائزة غاندي للسلام، الرئيس الفخري للتحالف العالمي لمكافحة الايدز. كان صاحب مصطلح (أمة قوس قزح) بوصفها استعارة لمرحلة ما بعد نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا بعد 1994 في ظل حكم المؤتمر الوطني الأفريقي. في 1995 طلب مانديلا، الذي أصبح رئيساً من توتو أن يرأس لجنة الحقيقة والمصالحة التي كانت مهمتها جمع الأدلة على جرائم اللاإنسانية واللاأخلاقية في عهد التفرقة العنصرية، على أن تتولى اللجنة تحديد ما إذا كان أولئك الذين اعترفوا بتورطهم في تلك الجرائم يستحقون العفو أم لا. يمكن مراجعة كامل الملف من خلال الموقع: http://en.wikipedia.org/wiki/Desmond_Tutu.

أبرزها هو الواقع الصيني الجديد الذي ظهر بعد زيارة الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون إلى الصين في فبراير 1972 والبدء بتأريخ ثقافي جديد تمكن الغرب فيه من أن يغزو الثقافة الصينية الكونفوشية بطريقة تعجز عنه أضخم جيوش العالم، والتي تحوّلت على أثرها الصين من نوعية ثقافية منغلقة إلى نوعية تسامحية ذو أبعاد كبرى في تقديم الأفضل إلى مواطنيها.

ولعله نجد الشيء ذاته في تحوّل الثقافة المصرية التي كانت قد أصابها السبات في خلال العصور التي تلت ثورة 1952 وإلى حين وفاة الرئيس الراحل عبد الناصر وإلى زيارة الرئيس الأمريكي الراحل ريتشارد نيكسون في عام 1974[1] وقدرة تلك الثقافة على إحداث تغييرات كبيرة في عمق المجتمع المصري بالاتجاه المخالف إلى السياسة التي كان الرئيس ناصر يتبعها في علاقته مع الشرق، مع توافق في طبيعة الثقافة المصرية التي تملك أكثر من مشترك مع الثقافة الأمريكية الغربية المسيحية الليبرالية.

---

(1) امتلأت الشوارع بل شرفات منازل شارع العروبة.. بل أمام باب قصر القبة.. وتم تجهيز سيارة مكشوفة.. فرفض حرس نيكسون ركوب هذه السيارة، وأصر الحرس المصري عليها لأنها تعليمات السادات.. وبعد محاولة وأخذ ورد.. طلب رئيس حرس نيكسون كتابة تعهد من رئيس مصر بالمحافظة على حياة نيكسون.. قصة مشهورة.. وكان استقبالاً مشهوراً.. أطرف ما فيه الورود التي ألقيت على الرئيسين، ووصفها نيكسون في خطابه بأن الشعب حوّل السيارة إلى حديقة...!! أبرز ما قاله نيكسون في خطابه من شرفة قصر القبة.. إن المسؤولين عادة يستطيعون التمييز بين استقبال حكومي واستقبال شعبى من القلب.. وأنا سعيد بقلوب المصريين... بعد عودته مباشرة. إسرائيل افتعلت لنيكسون فضيحة (ووتر جيت) فأطاحت به.. أنظر الموقع: http://today.almasryalyoum.com/article2.aspx?ArticleID=213833.

مع أن الوطن كان قد دخل نفق التوجهات السوفيتية الشرقية ربما الأقرب دينياً وسياسياً وعملياً إلى المصريين، ولكن الثقافة غالباً ما تمتلك قدرات أكبر من عامل السياسة وعالم المشتركات الدينية، وبذلك رفض المصريون التوجه الشرقي وانحازوا ثقافياً وبدون شعورهم إلى الغرب الليبرالي الذي يحمل في ذات الوقت الكثير من المتعارضات مع ثقافتهم وخصوصاً والمجتمع المصري آنذاك مجتمع محافظ دينياً وكذلك اقتصادياً.

فالتحولات الثقافية هي مؤشر كبير على نوعية الثقافة التي يمتلكها الشعب وخصوصاً في المشتركات التي تتقارب بصورة أبعد من تقارب المفردات الدينية أو المفردات الاجتماعية أو اللغوية أو غيرها.

ولعل الفترة التاريخية للفاطميين في القدم ومنذ عصر تأريخ 909 ميلادية 554 هجرية إلى حين تأريخ 1171 ميلادية، 592 هجرية كانت من أخصب الفترات التي مرت بها مصر، مع أنها كانت فترة صراع ونفوذ بين الخلفاء ومع الخلافة في بغداد التي يقودها التسنن القرشي المتشدد.

فالتشيع مهما كانت هويته فإنه في تلك الفترة وما قبل ظهور فترات العنف الذي حملته النزارية[1] من الفاطميين في عام 487 هجرية. كان هنالك ما هو تبرعم آخر قد ظهر من قبل الإسماعيلية وهم القرامطة[2]

---

(1) الفرع من الإسماعيلية من الذين أزيحوا عن الخلافة تعسفاً كما يقولون، وهم ممن ارتأى أن ينتهج الخط المسلح لاستعادة ذلك الحق.

(2) تصر كتابات التسنن السياسي على أن القرامطة شيعة ومن خلالها فإنهم يثابرون من =

الذين كانوا أقرب إلى الفكر الاشتراكي منه إلى الفكر الديني، فهم ليسوا حركة دينية بالمعنى المتعارف عليه، بل هم أقوام منتفضون على الواقع الإسلامي وعلى الخلافة والبذخ في أموال المسلمين، هذا مع أن التأريخ لم ينصفهم بصورة علمية، فإنهم وبالرغم من دمويتهم في التعامل مع الأحداث فقد كانوا عبارة عن قبائل فقيرة اجتمعت حول شخصية مجازفة من أجل فكرة إعادة توزيع الثروة بعد استنقاذها من الحكام المسلمين.

ولقد كان بالصدفة أن يكون حمدان أو الجنابي هم من الإسماعيلية باعتبار الإسماعيلية هي الطائفة الإسلامية ربما الوحيدة التي انبثقت من الإسلام أو من التشيع والتي ترتبط (بشرعية)، تلك (الشرعية) هو وجود إمام لهم توارث الإمامة عن إسماعيل.

= أجل إلحاق سمة العنف بالتشيع، وكأنّ الجانب النفسي المعروف في إسقاط ما في دواخل الشعور على الآخرين وهو المخرج الطبيعي للتحلل من عقدة الذنب في العنف الذي تمارسه تلك الفئة. فالقرامطة هم إسماعيليو الانتماء وسبب انتمائهم إلى الاسماعيلية هو الرأي العام في ذلك الوقت في أن تكون الحركات الثورية هي إسماعيلية بعد أن كانت خارجية، وهو مشابه لواقع تأريخ الحرب الباردة في ادعاء كل الحركات الثورية في العالم بصفة اليسارية أو الشيوعية، مع أن معظمها إن لم تكن كلها هي حركات كانت تطالب بتحقيق مطالب العدالة للمجتمع. كانوا عبارة عن قبائل ذات تفكير مشاعي في التملك متخذين من الفكرة الإمامية (المضطهدة) مدخلاً لهم في جمع الناس حولهم وهو شأن ربما كل الحركات التي انطلقت في ذلك الوقت وإلى الآن في انتسابهم إلى آل الرسول. فمن الخطأ هنا أن نفكر بإلحاق القرامطة بالتشيع كما هو شأن الدروز الذين تفرعوا من نفس الطائفة الإسماعيلية وصاروا قوم له خصوصيتهم في التأريخ وكذلك الأمر مع البهائية ومع القادرية وغيرهم من التفرعات التي تزخر بها الساحة من ذي قبل وإلى الآن. أنظر عن القرامطة الموقع التالي:
http://en.wikipedia.org/wiki/Qarmatians.

الإسماعيلية كانوا أول حركة انبثقت من الشيعة وتفرعت عنهم وبشكل متكامل مبتعدين كامل البعد عن تفرعات الجسم الأصلي من التشيع في أمور كثيرة ولحد الآن، فلهم كامل جهازهم التشريعي في تقرير أعمالهم وعباداتهم والسبب في ذلك هو امتلاكهم من يعتقدون بأنه (إمام الزمان) وسوف نتكلم عنهم بالتفصيل لو أتيحت لنا الفرصة، ولكنه ليس هنا مجال الغوص في تأريخهم باعتبار أن هدف هذا الكتاب لم يكن بذلك الاتجاه. ولكن ما يدعوني إلى الحديث عن الإسماعيلية بهذه العجالة هو التأثير الكبير الذي تركوه في مصر وفي المنطقة.

فالإسماعيلية الفاطميين كانوا أصحاب مشروع دولة بينما القرامطة لم يكونوا كذلك، فالشعب المصري يميل إلى ظاهرة القيادة وظاهرة الدولة كما هو تأريخ الفراعنة وتأريخ الحكم في الدولة الرومانية من ذي قبل، وكانوا يتجنبون الدخول في صراعات مع العرب القادمة من الجزيرة باعتبارهم قبائل ذو توجهات تميل إلى الغزو وإلى القتل.

وعندما استتب الحكم إلى الفاطميين كان من أول ما أقدموا عليه هو الابتداء بمشروع ثقافي ومشروع اقتصادي بالإضافة إلى المشاريع الأخرى التي كانت تهم المجتمع.

وقد تفاعل المجتمع المصري مع الفاطميين لا باعتبارهم شيعة، وإنما باعتبارهم أولاً أصحاب مشروع ثقافي ومشروع دولة، ثانيهما هو التعارض الفكري مع الدولة التي كانت قائمة في بغداد التي يقودها العباسيون اسماً ولكنها في الحقيقة كانت تتبنى الثقافة القرشية أو الثقافة الأموية التي بنيت على العنف وإلغاء الآخر، وكانوا على علم بأن

الدين ما هو إلّا اسم من الأسماء يمارس من خلاله الثقافات القبلية والبدوية التي تعتبر عامل مهم من عوامل السيطرة على الآخرين.

فلم يكن الفاطميون مهتمون في أن يعتنق المصريون مذهب التشيع، فلذلك لم يفرضوه على الشعب ولم يبادروا إلى اضطهاد الأفكار الأخرى التي كانت سائدة. فبقي الجميع على ما هو عليه لتلك الفترة التي ازدهرت الحضارة بشكل لا مثيل له.

مع أن البعض من أتباع الثقافات البدوية القرشية كانوا قد حاولوا أن يحرّفوا الواقع المصري بالطريقة التي تناسبهم بما يعكس صورة الاضطهاد التي كان الفاطميون يمارسونها. مع أننا لا نستبعد وجود حالات اضطهاد هنا وهناك، ولكن لم يتبادر إلى التأريخ بأن الفاطميين كانوا يمارسون الاضطهاد الفكري المذهبي بشكل كما هي ممارسة الاضطهاد في المذاهب الأخرى. مع أننا في هذا الكتاب لا نرغب في الدخول في علم المذاهب وتفرعاتها باعتبار أن المذهب شيء والثقافة شيء آخر. فإننا نتكلم هنا عن ثقافة التي يمكن أن يكون التمذهب الديني أحد أعمدتها كما هو التأريخ والجغرافيا والفن وغيره[1].

(1) كل الحركات الشيعية التي صارعت على موقع الدولة والحكم في العالم كانت تسير على غير نهج (مدرسة الإمامة) وهي المدرسة الأصولية الإثنى عشرية الموجودة الآن في العراق وايران ولبنان وبقيّة دول العالم الأخرى. فكان الطامحون في الوصول إلى الحكم من كل الفئات عليهم أن يجدوا منفذاً للاتصال إلى آل البيت نسباً أو من خلال ادعاؤهم التشيع بطريقة تبدو للعامة صحة ذلك الادعاء. فالحركات كلها التي انطلقت في خلال القرون الإحدى عشر بعد الهجرة كان على المنتفضون ولكي يكسبوا ود الناس أن يجدوا هنالك رابطاً فكرياً أو فقهياً مع التشيع، أو مع مدرسة آل البيت لكي يتمكنوا =

وعلى القارئ أن يدرك بأننا لسنا في موضع التأكيد بأن التشيع المصري كان أساسه فاطمياً، وإنما الفاطميون كانوا دخلاء على التشيع، بعدما استفادوا من سمعته في تقرير شرعية دولتهم، هذا مع وجود سمة التشيع في المقاومة وسمة المعارضة في تشكيل الدول التي تعارض الخليفة في بغداد.

ومهما كانت الظروف للفاطميين وللواقع الشيعي فإننا لسنا من الذين يناقشون مذهب أكثر من نقاشنا إلى ثقافة كانت تحمل صفات محددة في طريقة تعاملها مع مفردات الحياة.

فقد ترك الفاطميون الكثير من الممارسات التي استعاروها من الشيعة وخصوصاً وأن الدولة الفاطمية التي أقيمت في مصر كانت قد

= من كسب الشرعية. فالفاطميين في ذلك الوقت كانوا قد ظهروا في زمن ضعف الدولة العباسية، وفي غياب المعصوم الثاني عشر (لمدرسة الإمامة) وهذا معناه غياب إثبات العكس لما يمكن الإدعاء به، باعتبار أن الإمام غائب وأن ادعاء الانتساب إلى الغائب أمر ليس بالصعوبة إثباته مع صعوبة نفيه. فقد ادعى قبلهم الكثير من شخصيات أو حركات انتسبت إلى آل البيت باسم الغائب أو المهدي، إما من خلال وكالته لهم أو من خلال (بابيتهم) (من الباب) إليه أو غيرها من الأمور. فليس هنالك أقرب إلى الفكر الشيعي في موضوع (المهدوية) و(الغيبة) من الاسماعيلية الذين يشتركون في الإمامة مع الاثنى عشرية إلى الإمام الصادق أب إسماعيل الذي هو حلقة الافتراق فيما بين التفرعين. فهنالك الكثير ممن شكك في انتساب الفاطميين إلى آل البيت نسباً وكذلك فكراً وهو ذات المقولة التي كان العباسيون يستخدمونها لإسقاط شرعيتهم، ولكن الفاطميون كانوا يردون على ذلك في قربهم من النبي من خلال فاطمة وليس من خلال العم أي العباس، وهي مقولة قديمة كانت السبب في انتشار الفكر العباسي وتمكنه من الأمويين باعتبارهم آل الرسول، وهم الأقرب إلى النبي وليس أبناء الحسن والحسين وأولادهم الذين كانت ذريتهم قد جاءت من فاطمة.

سبقتها دول أخرى في العراق تدين بالمذهب الشيعي الإسماعيلي أيضاً وهي الدولة البويهية[1] والدولة الحمدانية[2] مع أنها كانت تنضوي تحت الاسم العباسي ضمن مفهوم الخلافة الشرعية وليس كما هم الفاطميون الذين استقلوا في اتصالهم بدولة الخلافة العباسية.

ومن خلال السرد الذي قدمه لنا التأريخ بدى واضحاً في أن التوجه الاسماعيلي هو التوجه الوحيد الذي تمكن به الثوار (أي فئة ثائرة) من الطامحين في المنازعة إلى استلام الحكم من الخلافة العباسية في الانتماء إليه لكي يتمكنوا من أن يظهروا شرعيتهم وارتباطهم بالرسول وبآل البيت.

أما الفرع الثاني من الشيعة وهم الزيدية فإننا سوف نناقش دورهم وأسس مذهبهم عندما نصل إلى اليمن وعندها تبدو الصورة جلية في طريقة حركة الفكر وحركة الثورة وتعارض كل منهما إلى الآخر.

الانتماء والثقافة: فقد تمكن الفاطميون في مصر من أن يبنوا أول دولة حديثة في العالم الإسلامي منذ وفاة الرسول، في الوقت الذي كانت الدولة العباسية تعيش في ظلمات الصراع ضمن ثقافة بدوية ونظام ارستقراطي ديني، كانت الفاطميون الذين انتشروا إلى الأقطار الأخرى

---

(1) سيطرت الدولة البويهية على العراق وايران وأجزاء من سوريا في سنة 334 هجرية في زمن المستكفي بالله العباسي وانتهت على يد السلاجقة في عام 447 هجرية. أنظر الموقع التالي: http://en.wikipedia.org/wiki/Buyid_dynasty

(2) أقيمت الدولة الحمدانية الإسماعيلية المذهب في الموصل وفي حلب وأجزاء أخرى من سوريا وحكمت من عام 368 هجرية إلى عام 403 هجرية. أنظر الموقع التالي: http://en.wikipedia.org/wiki/Hamdanid_dynasty

القريبة منهم وخصوصاً شمال أفريقيا وسوريا حتى كادوا أن يسقطون الدولة العباسية في الوقت الذي كانت الأقطار إلى الشرق من العراق تعيش عداءاً مستحكماً مع العباسيين الذين اتهموهم بأنهم الأسوأ من آل أمية في تعاملهم مع الشيعة ومع آل البيت[1].

فقد باع الخلفاء أنفسهم بشكل ليتعجب المرء منه إلى الأتراك منذ عهد المعتصم وأصبحوا المتحكمين في الخلافة وفي تسيير شؤونها[2]. في ذلك الوقت لم تكن القضية متعلقة بالتسنن المذهبي ضد التشيع المذهبي مع أن الارستقراطية الدينية التي كانت تتحكم بصورة كبيرة في بلاط العباسيين كانوا مهتمين أشد الاهتمام بالوضع الطائفي وبالوضع الشيعي بسبب الظهور الشيعي القوي للحركات المناهضة للدولة بالإضافة إلى التعاطف الجماهيري مع آل الرسول فضلاً عن الاستئثار بالمناصب الدينية التي كانت الطبقة الدينية تحتكرها في سبيل المصالح الشخصية والخوف من أن تصل الثقافة الشيعية إلى الحكام، وهي

---

(1) قتل العباسيون ستة من أئمة آل البيت وهم المعصومون الصادق (ت 148) مسموماً على يد المنصور، والكاظم (ت 183) سجيناً على يد الرشيد، والرضا (ت 203) مسموماً على يد المأمون، والجواد (ت 220) اغتيل على يد المعتصم، والهادي (ت 254) سمه الخليفة المعتز، والعسكري (ت 260) اغتيل بالسم على يد المعتمد. هذا بالإضافة إلى قتل الكثير من الشيعة ومن الثوار أشهرهم هو محمد ذو النفس الزكية في سنة 145على يد المنصور. والحسين العابد صاحب ثورة فخ في عام 169 على يد المهدي العباسي، وصاحب با خمرا إبراهيم بن عبد الله بن الحسن في سنة 154 وغيرهم كثيرون.

(2) قتل الأتراك ستة من خلفاء بني العباس بطريقة همجية وحشية.

الثقافة التي تفصل المنصب الديني عن المنصب الدنيوي مما يفقدهم قدراتهم ومكانتهم الاجتماعية والمالية.

ولذلك شنت الدولة العباسية هجوماً كبيراً حشّدت له العلماء وأصحاب المذاهب وبقيّة الدائرين من الدينيين في فلك الخلافة، حشدتهم ضد الشيعة والتشيع في إظهار كفرهم ومروقهم عن الدين والطعن في شرعيتهم وفي أصول تفكيرهم الديني وذلك من خلال روايات موضوعة تفصل مسار شخصية الأئمة (أئمة آل البيت الاثنى عشر) عن الشيعة الجماهير، وذلك كمحاولة من قبل السلطة العباسية في إظهار الحركات الشيعية أو الانتماء الشيعي بأنه ليس متوافقاً مع مسيرة الأئمة، وإنما هو انتماء شكلي من أجل الحصول على مكاسب سياسية أو مكاسب لتحريف الدين.

ونتفهم الآن السبب الذي دفع الكثير من علماء التسنن في التهجم على معتقدات الشيعة ونعتهم بنعوت غالبيتها تأتي من المنطلق السياسي وليس من المنطلق الفكري، وذلك بسبب الصراع الشرعي ما بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية في ذلك الوقت.

كما نتفهم التوجه إلى كتابة التأريخ الإسلامي وتأريخ الغارات والغزوات وكتب التمذهب وتشويه صور الأفكار الأخرى التي كانت الدولة العباسية تعتبرها أنها مهددة لوجودها. مع أن الحقيقة هو أن معظم تلك الأدبيات في محاربة التشيع ليست بالضرورة أن تكون من الخلافة ذاتها وإنما كتبها من يطمع في جاه أو مال لدى الحاكم، إما تطوعاً منه أو تعصباً لفئة قرّبها الحاكم إلى بلاطه.

مذابح التشيع: وكانت من أول التهم التي اتهمت بها الخلافة الفاطمية هي تعاونهم مع الصليبيين[1]، مع أن الفاطميين شأنهم كشأن

---

(1) يروي ابن الأثير عن أحداث عام 387 هـ. أنه قد وقعت فيها معركة كبيرة بين جيش برجوان الفاطمي قائد جيوش الحاكم بأمر الله وجيش الدوقس الرومي وانهزم فيها الدوقس ودخل جيش الفاطميين أنطاكية، وفي هذا العام يروي ابن الأثير أن الخليفة الفاطمي العزيز بالله برز لغزو الروم إلّا أنه توفي في الطريق بمدينة بلبيس. . وفي عام 491 استولى الفرنج على بيت المقدس في عهد الخليفة المستعلي بالله وسيّر الأفضل بن بدر الجمالي وزير الأمر بأحكام الله ابن المستعلي الجيوش إلى الفرنج عام 498 هـ، فقهرهم وأخذ الرملة ودارت بينهم معارك طاحنة لكنه لم ينجح في إخراجهم من القدس وعكا ويافا وعاد إلى عسقلان، وكان مع الفرنج جماعة من المسلمين منهم بكتاش بن تتش. وفي عام 503 هج ملك الفرنجة طرابلس وانطلق الأسطول المصري محملاً بالرجال والغلال والمال وغيره ما يكفي لسنة وفرقت المؤن هذه والذخائر في الجهات المنفذة إليها صور وصيدا وبيروت. في عام 558 هج وبعد مصرع الصالح طلائع الرجل القوي في جهاز الحكم الفاطمي في عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين تولى الوزارة من بعده ولده زريك الذي لقب بالعادل وسار على نفس سيرة والده الحازمة في مواجهة الانحرافات والفساد داخل جهاز الدولة وكان أن تصدى العادل لنفوذ شاور الذي كان واليا على الصعيد وأراد عزله فسار شاور بجيشه نحو القاهرة وفر العادل من أمامه وظفر به شاور وقتله وأصبح مكانه في الوزارة ولقب نفسه بأمير الجيوش وكان سفاكاً للدماء مكروها، إلّا أن الجو لم يصفو لشاور، فقد ظهر في مواجهته رجل قوي وهو الأمير ضرغام من أتباع زريك ونازع شاور ودارت بينهما معارك انهزم فيها شاور وفر إلى الشام. وهناك أطمع نور الدين محمود في غزو مصر فجهز معه شيركوه وصلاح الدين والعساكر عام 558 هج. ودارت معارك بينهم وبين ضرغام انتهت بهزيمته ومقتله. ودخل شاور القاهرة ثانية تحت راية الأيوبيين آل زنكي، ثم حدث خلاف وصدام بين شاور وشيركوه قام شاور على أثره بالاتصال بالإفرنج التي قدمت وحاصرت القاهرة وفر منها أسد الدين شيركوه وصلاح الدين وعاد شاور إلى القاهرة للمرة الثالثة تحت راية الصليبيين وأقام بها على عادته بظلم الناس وقتلهم ومصادرة أموالهم ولم يبق للعاضد معه أمر ولا نهي، وهنا لجأ العاضد إلى نور الدين محمود =

المصريين الآخرين كانوا ذوي توجه يتميز بالسماحة في حرية الاعتقاد وفي ممارسة الشعائر لكل المذاهب والأديان والملل تماماً بعكس ما هو مسطر في أدبيات الحكومات العباسية التي كانت المعارك والمذابح منتشرة على قدم وساق ما بين الفئات الاعتقادية والدينية وليس أدل على ذلك من محنة أحمد بن حنبل (ت 241) ومن محنة الحلاج (ت309) ومحنة الشلمغاني (ت 323) وغيره مما كتبه التأريخ مثل مذابح المعتزلة ومذابح آل البيت وغيرهم والتي لم يكن لها من وجود في مصر ولا في كل أجزاء الدولة الفاطمية.

ولكن المشهد قد تكرر بسبب زحف ثقافة العنف إلى أرض مصر وذلك بعدما استولى صلاح الدين على مصر بعد أن استوزره الفاطميون[1] فانقلب عليهم، وبدأ بتصفية الشيعة بشكل دموي،

= وأرسل إليه يستنجده فعاد شيركوه إلى مصر وانهزم الفرنج وقتل شاور بعد أن أحرق الفسطاط ونقض العهد مع شيركوه (الكامل في التاريخ ج7).

(1) الفاطميون لم يفرقوا في حكمهم بين مذهب وآخر بل كانوا يستوزرون الشخصيات من كل المذاهب والنحل، وقد تجد ذلك مشابهاً للسلوك المصري الآن في الدول التي تشكلت في القرنين الماضيين بحيث لم تجد هنالك من تفرقة ما بين المذاهب وبين الأديان، وهذا واضح ليس فقط على مستوى المؤسسة الحكومية، بل هي تنطبق كذلك على مستوى المؤسسة الدينية الأزهر. فالدولة لم تستأصل الإخوان بعد حادثة المنشية عام 1954 بل بقيت تتعامل معهم باعتبارهم مواطنين في الوقت الذي كانت السياسة لها أكثر من تأثير على واقع الحزبيين وليس على الإخوانيين بالذات بدلالة انتشار مؤسساتهم وكتبهم ونشاطاتهم وغيرها من الأمور التي كانت واضحة في المحيط المصري، وما بعد جمال عبد الناصر إلى حين الأحداث الأخيرة ما بعد 25 يوليو 2011 حيث تغيرت الصورة بالشكل المعتدل وصار للإخوان فريقان فريق يؤمن بالعنف وفريق ليس مع العنف وليس مع السلطة، وهذا الصنف ليس للسلطة من اعتراض =

فاستبدل القضاة ولاحق كل الشيعة في المغرب العربي وفرض عليهم إما تغيير اعتقادهم، وإما القتل.

ولنا هنا أن نتفهم سلوك صلاح الدين تجاه الأفكار الأخرى التي كانت في المحيط المصري عندما ندرك بأن صلاح الدين لم يكن مصرياً، بل كان كردياً جاء من محيط الدولة العباسية التي كانت تضطهد الأفكار الأخرى وتقتل معتنقي التشيع، ويقول كتبة التأريخ بأن مصر لم تشهد مذبحة بشرية في تأريخها على الإطلاق كما حدثت في سيف صلاح الدين الأيوبي، وخادمه (قراقوش) مضرب الأمثال وإلى الآن.

فقد اضطر المصريون وهم الناس الطيبون والبسطاء إلى ترك اعتقادهم الشيعي والانتماء إما إلى الشافعية أو المالكية أو الحنفية، في الوقت الذي لم يكن الشعب المصري يرى في تغيير المذهب من تأثير على مجرى اعتقادهم بثقافة التشيع التي هي ثقافة لا تتغير بالمذهب والانتماء.

فر الشيعة وقتها أي الباقون منهم إلى الجنوب وإلى المنصورة ثم قادوا حركة إنقاذية للتخلص من صلاح الدين بقيادة الشاعر عمارة بن أبي الحسن اليمني في عام 569 هجرية، ولكنه تمكن منه وقتله ثم بدأ بمذابح جماعية في كل منطقة يقال له أن فيها شيعة، إلى أن زحف

= على توجهه. فقد كان الفاطميين وبسبب سماحتهم لم يتوقعوا في أن هنالك من يغدر بهم وخصوصاً من داخل السلطة، لأنهم لم يوجهوا سيف الظلم إلى الآخرين من أبناء الشعب، ولذلك فإن حادثة صلاح الدين الأيوبي هي الآن في طور الدراسة من قبل المؤرخين لاستنتاج العبر والدوافع من ورائها.

السودانيون على مصر[1] لإعادة الفاطميين، ولكن صلاح الدين أرسل لهم أخاه فقتلهم وصلبهم على الأشجار بعمائمهم وملابسهم ثم أحرق بيوتهم مع الأطفال وأبادهم.

في هذه الفترة اضطر الشيعة إلى إتباع ثلاث طرق: إخفاء انتمائهم المذهبي، الانتماء للفرق الصوفية، أو الهروب إلى اليمن أو الشام.

جذور ثقافة التشيع: وتعتبر اليوم الطرق الصوفية المنتشرة في مصر صمام الأمان أمام كل التغيرات التي جاءت بعد سقوط الأيوبيين، وبعد المماليك والعثمانيين وكذلك في الزمن الحالي ضد الوهابيين المتطرفين، وهذا هو التفسير الواقعي في استمرار حب آل البيت في داخل المجتمع المصري والذي يمثله التيار الصوفي الذي يقترب كثيراً من ثقافة التسامح الشيعية، ومن احتواء الآخرين. كما يمكن لنا أن ندرك العداء المتأصل من قبل التيار السلفي ضد الصوفية بسبب امتلاكهم قدرة تسامحية في التعامل مع الشعوب المصرية واقترابهم من آل بين الرسول.

كذلك الأمر في مسيرة الالتحام المصري مع الثقافة الشيعية هو من خلال وجود الأشراف المنتمين إلى آل أبي طالب[2] في المجتمع المصري منهم طلائع بن رزيك (ت 556)[3].

(1) أنظر كتاب: النجوم الزاهرة ج6 ص 24.

(2) تضم الجمعية الآن أربعة ملايين منتم من المصريين.. راجع الموقع التالي:
http://www.ahl-alquran.com/arabic/printpage.php?doc_type=1&doc_id=1399

(3) دخل مصر على اثر مقتل الخليفة الظافر الفاطمي الذي قتله وزيره عباس وأجلس =

وكذلك عمر مكرم (ت 1822)[1] الشخصية الوطنية الكبرى، وأحمد عرابي (ت 1911)[2] القائد المشهور.

ومن بين العائلات الشيعة المصرية عائلة السيدة الراحلة تحية كاظم (ت 1992) زوجة الرئيس ناصر[3]، ومن العلماء والمؤلفين هنالك

= ولده الفائز، فاستنجد الجند بالملك الصالح وطلبوا خلاصهم من الوزير فدخل طلائع مصر دون قتال وانهزم الوزير عباس واستقامت له الأمور. وتدبّر أحوال الدولة، حيث حكم الناس بالعدل والإنصاف والمساواة، وكان جواداً فاضلاً، كثير الصدقات، حسن الآثار، قال ابن خلكان في وفيات الأعيان: وكان فاضلاً، سمحاً في العطاء، سهلاً في اللقاء، محبّاً لأهل الفضائل، جيّد الشعر، قال يوسف بن تغري بردي في النجوم الزاهرة: (وساس الأُمور، ولقّب بالملك الصالح، وسار في الناس أحسن سيرة، وكان أديباً كاتباً مائلاً لمذهب الإمامية، وقد تسلّم الأمر من بعده ولده فسار على سيرته). أنظر: http://en.wikipedia.org/wiki/Al-%27%C4%80%E1%B8%8Did

(1) هو زعيم شعبي مصري. ولد في أسيوط إحدى محافظات مصر سنة 1750، وتعلم في الأزهر الشريف. ولي نقابة الأشراف في مصر سنة 1793، وقاوم الفرنسيين في ثورة القاهرة الثانية سنة 1800. وكان له دور في تولية محمد علي شؤون البلاد، حيث قام هو وكبار رجال الدين المسلمين بخلع خورشيد باشا في مايو سنة 1805. وحينما استقرت الأمور لمحمد علي خاف من نفوذ رجال الدين فنفى عمر مكرم إلى دمياط في 9 أغسطس 1809، وأقام بها أربعة أعوام، ثم نقل إلى طنطا. توفي عام 1822... أنظر: http://en.wikipedia.org/wiki/Umar_Makram.

(2) ولد في قرية هرية رزنة بمحافظة الشرقية. تعلم القرآن الكريم وأرسله والده الذي كان عمدة القرية إلى التعليم الديني حتى التحق بالمدرسة الحربية. ارتقى عرابي سلم الرتب العسكرية بسرعة حيث أصبح أميرلاي (عميد) في سن العشرين. شارك في حروب الخديوي إسماعيل في الحبشة وكان يعتبر أحد المصريين القلائل الذين وصلوا إلى هذه الرتبة بسبب انحياز قادة الجيش وناظر الجهادية إلى الضباط الشركس والأتراك... انظر: http://en.wikipedia.org/wiki/Ahmed_%E2%80%98Urabi.

(3) زوجة الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر وقد تزوجها في عام 1944. تعرف عليها في الإسكندرية فقد كان جمال عبد الناصر صديق والدها تاجر السجاد الميسور =

القاضي النعماني (ت 389). والمسيحي المؤرخ والأديب (ت 420)، ثم بدر الدين الجمالي (ت 487)، والأفضل بن بدر الجمالي الذي كان له شرف نقل رأس الحسين من عسقلان إلى القاهرة في عام 491 هجرية.

كما بنى مجد الثقافة الشيعية السلوكية في مصر عمالقة كبار، بل شخصيات تطأطئ لهم هامات الرجال إكراماً مثل جمال الدين الأفغاني (ت 1897) والذين انطلقوا من مصر كحاضرة لثقافة التسامح وثقافة السلم، وكذلك عبد الحسين شرف الدين (ت 1957) بعد أن حرق الفرنسيون مكتبته في لبنان وهروبه إلى القاهرة. كذلك تجد الشيء ذاته مع محمد جواد مغنية (ت 1979) ونواب صفوي (ت 1955) ومحمد حسين كاشف الغطاء (ت 1954)، بالإضافة إلى شخصيات مصرية كان لهم الدور الكبير في توجه مصر نحو ثقافة السلم التي تتبناها الثقافة الشيعية[1]... وقد تجد الثقافة الشيعية متركزة في الصعيد وفي الجنوب

= الحال. عاش معها حياة سعيدة قبل وبعد توليه حكم مصر. وأنجبت له منى، هدى، خالد، عبد الحكيم، عبد الحميد. توفيت ودفنت بجوار زوجها الزعيم الراحل حسب وصيتها. عاشت في الظل ولم يكن يعنيها طوال 18 عامًا لا رئاسة الجمهورية ولا حرم رئيس الجمهورية. صدر كتاب (ذكريات معه) في القاهرة عن دار الشروق مملوء بصور لعبد الناصر منذ صباه حتى وفاته. ومن بين عشرات الصور لعبد الناصر في مصر وخارجها لا توجد صور رسمية لزوجته باستثناء صورة واحدة بصحبة زوجة رئيس زائر وكتب تحتها (تحية) في أحد الاستقبالات الرسمية بالمطار... أنظر المصدر:
http://en.wikipedia.org/wiki/Tahia_Kazem.

(1) أمين الخولي، والشيخ أحمد حسن الباقوري، والأستاذ أبو الوفا المراغي، والأستاذ خالد محمد خالد، ود. شوقي ضيف، ود. طه حسين، ود. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، والأستاذ عبد الكريم الخطيب، والأستاذ محمد زكي إبراهيم، والشيخ =

أكثر منها في الشمال بسبب كثرة هجرات المضطهدين الشيعة إلى الجنوب.

والملاحظ هنا في دراسة حياة معظم المصريين من المنتمين الأوائل إلى الثقافة الشيعية وحتى الفاطميين ومنذ وصولهم إلى الحكم، بأنهم لم يكونوا على صلة بتفصيلات المذهب الشيعي أو فقهه، ومع وضوح ضعف علاقتهم بالمرجعية الدينية في النجف، ولم نتمكن من تفسير أسباب ذلك الضعف في الاتصال بالنجف، مع أن مدرسة النجف كانت لخمسين سنة مضت على تأسيسها على يد العلامة الطوسي (ت 460) مع توفر وسائل الاتصال والانتقال، حيث كانت الدولة موحدة في اتساعها كما هو شأن انتقال العلماء من جبل عامل لبنان وايران وتونس والمغرب والأندلس إلى النجف لأخذ الرأي الشرعي منها.

هذا في الوقت الذي كان قادة التشيع في العراق قد انتشروا في الأقطار الإسلامية خصوصاً مصر بعد الاضطهاد الطائفي الذي عانوه على يد السلاجقة الأتراك وكذلك العباسيين. وهذا يعطي دلالة بأن القادة المصريين مثل عرابي وعمر مكرم لم يكونوا شيعة أو منتمين

= محمود أبو رية، والشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، والأستاذ محمود محمد شاكر، والشيخ محمد عبد المنعم خفاجي، والشيخ محمد محمود حجازي، والدكتور سليمان دنيا، والدكتور حامد حفني داود، والشيخ محمود شلتوت، والدكتور زكي نجيب محمود، والأستاذ عبد الحميد جودة السحار، والشيخ محمد الغزالي، ود. مصطفى محمود. والشيخ الغزالي، وعبد الرحمن البنا.

مذهبياً إلى التشيع، وإنما أطلق مصطلح التشيع أو الأشراف على سلوك معين يتفق مع المفهوم العام الذي يحمله المجتمع عن ثقافة آل بيت الرسول. كما هو موضوع إطلاق اسم (تركي) على كل مسلم في ألمانيا أو أوروبا في العصور التي تلت دخول الأتراك إلى أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي.

وقد تجد التسمية تنطبق ذاتها على كل شخص من العنصر الأصفر بمناداته (بالبربري) في العراق، وفي السعودية والحجاز يطلق على كل من ينتمي إلى السادة من آل البيت باسم الأشراف بدلاً من الإمامية.. وهكذا هي المصطلحات وحربها في العالم.

وكما يلعب الاسم دوراً إيجابياً في الجو الثقافي فإنه كذلك من الممكن أن تستعمل الأسماء للتسقيط وخصوصاً مع القادة الوطنيين. فعندما يراد تسقيط الوطنيين سياسياً أو إعلامياً فإنهم ينسبونهم إلى جهة مجهولة أو غامضة دينية كانت أم فكرية أم اجتماعية[1]. فقد اتهم القادة الكبار مثل محمد عبدة (ت 1905) والأفغاني (ت1897) بالماسونية كما أتهم البعض الآخر بالصهيونية. و كل ذلك كان الدافع ينطلق من الوجهة السياسية وليس من الوجهة الفكرية العلمية، فنسبة التشيع إلى

(1) هنالك الكثير مما قيل عن نسب الرؤساء العرب ربما كلهم بأنهم ذو انتساب إلى القبائل اليهودية وخصوصاً بنو قريضة، ومن السهولة أن تجد ذلك في مواقع كثيرة في الانترنيت. وقد تجد الذات نفسه في الرؤساء الأمريكان قبل وبعد مغادرتهم الرئاسة. فقد أشاعت الصهيونية العالمية بأن الرئيس نيكسون ذو توجهات غيبية عجيبة وكذلك الأمر مع رؤساء آخرين مثل كيندي وأوباما.

المصري ليس بالضرورة أن تكون مدحاً له. ولم تكن كذلك في الوسط الإسلامي الشرقي بعد أن تحوّلت إلى تهمة كبرى تستحق القتل على أساسها من قبل الحكام.

فقادة مصر الكبار سواء المذكورين منهم أو الآخرين كانوا يمتلكون الحس السلمي الحضري في التغيير بشكل مختلف عن توجهات قيادات السيطرة وقيادات العنف وهو ما دفع الجهة الثانية إلى نصب شراك التسقيط بهم من خلال مفاهيم غامضة كما اتهم جمال عبد الناصر بانتسابه إلى الإسماعيلية.

الاتصال مع التحضر: لا بأس في أن نتكلم قليلاً عن دور الحملة الفرنسة على مصر في عام 1789 والتي كانت تعتبر بمثابة التغيير في حياة مصر وفي شعبها، وهي في حقيقتها لا تقل عن ثورة الربيع العربي في عام 2011 الخامس والعشرين من يوليو حزيران.

فنابليون لم يذهب إلى مصر انطلاقاً من فكرة السيطرة كما يصفها الكثير من المحللين التاريخيين والقادة العسكريين من الذين كتبوا التأريخ، وإنما كان نابليون وهو الشخصية العظمى في التأريخ بغض النظر عن نتائج عمله وسطوته، كان قد انطلق من رحم الثورة الفرنسية التي كانت تمثل المنعطف الأكبر للعالم. . . . . كان الرأي الذي تبناه نابليون هو ضرورة اندماج الشرق مع الغرب لأنه كان يدرك بأن الحضارة الغربية عموماً حضارة يعوزها الكثير من مفردات ثقافات الإنسان، وهو ما أدركه في واقع التركيبة المصرية التي تختلف في تكوينها عن واقع بقيّة البلدان العالمية، فقد كانت تلك الحضارة تحمل

الكثير من عمق التاريخ والعطاء وتحول مصر إلى الإسلام ليس معناه في أن تنتهي جذور التحضر الفكرية التي كانت قد سادت في زمن الفراعنة وفي امتداد عصر الدولة الرومانية.

فقد اصطحب نابليون معه في الحملة 150 عالماً وأكثر من 2000 متخصص من خيرة الفنانين والرسامين والتقنيين من كيميائيين وأطباء وفلكيين[1] أو ما شابه، ولا ندري ما صحة انتماء هذه الشخصية الكبرى إلى الإسلام من عدمه مع أن الإسلام هو أمر داخلي يمارسه الإنسان بدون إعلانه.

كما أعطى قيمة كبرى إلى العلم والعلماء والمفكرين والجامعات والاكتشافات فتمكن خلال المدة القصيرة التي بقي في مصر من أن يكتشف فك رموز (حجر رشيد): حيث استطاع (شامبليون) فك رموز

(1) انظر في مكتبة الإسكندرية كتاب (وصف مصر) وهو عبارة عن المجموعة الموثقة تضم 11 مجلداً من الصور واللوحات و9 مجلدات من النصوص من بينها مجلد خاص بالأطالس والخرائط أسهم بها المجمع العلمي المصري وقام هؤلاء العلماء بعمل مجهد غطى جميع أرض مصر من شمالها إلى جنوبها خلال سنوات تواجدهم وقاموا برصد وتسجيل كل أمور الحياة في مصر آنذاك، وكل ما يتعلق بالحضارة المصرية القديمة ليخرجوا إلى العالم 20 جزءا لكتاب وصف مصر. وتميز الكتاب بصور ولوحات شديدة الدقة والتفاصيل. ويعتبر هذا الكتاب الآن أكبر وأشمل موسوعة للأراضي والآثار المصرية كونها أكبر مخطوطة يدوية مكتوبة ومرسومة برسوم توضيحية فتميزت بالدراسة العميقة للدارسين والأكاديميين الذين رافقوا نابليون فيما نشر الكتاب بين عامي 1809/ 1829. كما تشتمل هذه المجموعة على صور ولوحات لأوجه نشاط المصري القديم للآثار المصرية وأيام الحملة نفسها، كذلك التاريخ الطبيعي المصري بالإضافة إلى توثيق كل مظاهر الحياة والكنوز التاريخية والفنية والدينية المصرية وتسجيل جميع جوانب الحياة النباتية والحيوانية والثروة المعدنية آنذاك. وقد أصدرت مكتبة الإسكندرية (نسخة رقمية) من هذا الكتاب (وصف مصر) على أقراص مضغوطة.

حجر رشيد واكتشاف أسرار اللغة المصرية القديمة، وقد ساعد فك رموز اللغات المصرية القديمة (الهيروغليفية - الهيراطيقية - الديموطيقية) من معرفة أسرار الحضارة الفرعونية.

أهم إنجاز للحملة الفرنسة على مصر هو إشعار المصريين بأهميتهم ليس للشرق فحسب، وإنما للغرب عموماً، وأن مصر لا زالت تحتل المركز الحضاري من قبل سبعة آلاف عام وهو ما دفع بالبريطانيين والعثمانيين في التنافس على مصر. ولكن كلتي الدولتين الأخيرتين لم تكونا بالمستوى العلمي الذي جاء به نابليون باعتبار أن السياسة الفرنسية هي سياسة ثقافية، بخلاف البريطانيين الذين كانوا الأقرب إلى التجارة أو القوة.

غيرت الحملة الفرنسية كثيراً من تفكير المسلمين أنفسهم، خصوصاً بعد أن أدركوا بأن المساهمات الثقافية الفرنسية كانت كبيرة جداً إلى الدرجة التي عجز عن تحقيقها كل من وصل إلى مصر خصوصاً القوات العربية، وما يسمى الدخول إلى الإسلام في خلال حقبة من الصراع استمرت تقريبا 11 قرن من الزمن واجهت مصر فيها دماء غزيرة شتتت تأريخها وقدراتها وموقعها، إلى أن جاء نابليون ليغيّر مفاهيم المصريين في عمق تأثيرهم على العالم.

وقد برزت في تلك الأوقات الكثير من المفاهيم الجديدة أهمها هو مفهوم البداوة وثقافتها التي كان العرب القادمين قد جاءوا بها، فنشأ أدباء ذلك العصر ومفكروه وقادته السياسيين وهم أقرب إلى الثقافة السلمية العلمية منها إلى سياسة العصبية البدوية التي جاءهم بها عرب الجزيرة وصراعاتهم.

فقد أدرك المصريون بأنه يجب عليهم أن يقودوا أنفسهم لا أن يقودهم دخيل، فكان أول ما قام به نابليون هو تعيين لجنة مصرية تدير شؤون البلاد، ولم يطلب منهم في أن يفرضوا وصايتهم على الشعب كما فعلت أول مجموعة غزت مصر في عام 21 هجرية في امتصاص خيرات البلد. هذا الموقف أعطى لمصر موقف متميزاً في العالم وفي الدول التي تعاملت معها، وأصبح منذ ذلك التأريخ لمصر موقع الريادة في العالم العربي لم تتمكن أية دولة أو حضارة من منافستها سواء في المنطقة الأفريقية أو في الشرق الأوسط.

لقد تشابكت الثقافة الفرعونية القديمة ثقافة العلم بمسيرة المؤسسات التي بناها المصريون في الدولة الفاطمية وبالاندماج مع ثقافة السلم مقرونة بتحضر الغرب وإفرازات الثورة الفرنسية التي ما فتأت أن غيّرت الأمم الغربية كلها بشكل تناسقي وليس تعارضي لكي تخرج مصر من عباءة العصبية البدوية المغلفة بغلاف الدين وغلاف التمذهب إلى أن تكون ثقافة مميّزة تتبنى مفاهيم جديدة في واقع العرب وواقع المسلمين... والتي أهمها هو:

- الاهتمام بالمواطن والوطن.
- الاهتمام بالقوة الاقتصادية التي منحت لهذا القطر.
- الاهتمام بالعلم وبالمعرفة ونبذ العنف.
- الاعتزاز بما أفرته الحضارات السابقة التي سادت مصر والاستفادة من إيجابياتها فقط.
- اعتبار الدين جزء ثقافي وليس كلي.

- الاستفادة من مشتركات الثقافات التي مرت على مصر، ونبذ اختلافات تلك الثقافات. فكان التشيع والمسيحية قد أضافت إلى الواقع المصري قوة التسامح والسلم، وكانت الفرعونية قد أضافت قدرات التصميم والارتباط بالآخرة. وكان الغرب قد اعتبرها عمق العالم الحضاري.

وهنا نرى بأن تلك الفورمولا الجديدة قد أنبتت حضارة لم تكن من ذي قبل موجودة في الواقع المصري، ومثلها كمثل من التشكيلة الغذائية التي يقوم بتركيبها المتخصص في علم الأغذية ليقدم إلى الإنسان كما يسمى (الغذاء المتوازن) ضمن وصفة تشترك بها كل العناصر الغذائية المهمة التي تحافظ على جسد الإنسان من أن يهاجمه المرض.

هذه الفورملا الجديدة لم تكن من عنصر واحد، بل هي مجموعة عناصر متباينة أحياناً، ولكنها عندما تقترب من بعضها البعض تعمل باتجاه التكامل. في الوقت ذاته برز على الساحة قدرات علمائية دينية أو علمية بعضها سياسية وبعضها فكرية تمكنت من حل لغز تلك الفورملا بشكل دقيق، في الوقت الذي أكدوا في مسعاهم على أهمية عدم إهمال أي من تلك المكونات التي تصل بالإنسان إلى حالة التوازن (Balancing) الثقافي.

فالفكر السلفي المصري مع انه أكثر اعتدالاً من بقيّة السلفيين في العالم العربي ولكنه في العموم يعمل باتجاه أو بنظرية العامل الواحد الذي يهمل عناصر المجتمع وعناصر الثقافة ويتخذ جزءاً من الدين محرك رئيسي لحالة المجتمع والحياة، ولذلك فإنه في الوقت الذي

تنمو ظاهرة السلفية في مناطق من العالم فإنه بالمقابل تنحسر ظاهرة التوسع الأفقي الفكري لديهم، وتنحسر توجهات التطلع إلى المستقبل، ويتقوقع الفكر الاجتماعي في عامل واحد وهو فكرة السلف التي لا تحمل في معناها فكراً متكاملاً ولا حلاً شاملاً لمفاهيم الحياة، وإنما هو حل افتراضي ينتظر نزول معجزة من السماء.

فقد تميز المجتمع المصري في ميله إلى حسن الاستماع، وهي علامة من علامات الحضارة، كما أنها دلالة الميل إلى التعلم من الآخرين ومن ظواهر المجتمع المختلفة، وهذه الصفة مع أنها تحمل في طياتها الكثير من الايجابيات، ولكنها خطرة ضمن حدود طبقات كثيرة من المجتمع وخصوصاً الطبقات التي لم تنل حظاً من الحياة بما يتعلق بالمعيشة والتعليم والاقتصاد والعلاقات الأخرى.

وهنا فالظاهرة السلفية تكمن لتمد عنقها في خلفيات تلك الشريحة الاجتماعية التي أصبحت مهيأة إلى كل ما ينقذها من واقعها الصعب، وكأن السلفية والانتماء لها هي ردود أفعال قبل أن تكون مبادرة إيمانية.

وقد اعتقد التيار الاخواني وما قبل ظهور التيار السلفي بأن المعركة الفكرية القادمة ستكون ما بين الفكر اليساري والفكر الإسلامي، أما المعركة السياسية فهي دوماً مع السلطة ومع القوي، في الوقت الذي لم تحسب حساباً للتغيرات الأخرى التي تطرأ على الفكر وثقافته، بينما كان الكارتيل الديني المتسيس العالمي[1] الذي يقوده (التسنن

(1) أقصد بالكارتيل الديني السياسي هو المؤسسات الدينية الكبرى الموجودة في العالم وخصوصاً في دول الخليج، وهو التجمع ذو القدرات المالية والقدرات السياسية =

السياسي)[1]، وهو الجهة التي ترى نفسها بأنها الوريثة الفعلية لحالة الإسلام الذي ساد العالم منذ القرن الأول الهجري وإلى الآن، وهي الجهة المنسقة الكبرى التي تتفق مع الحكومات في استمرار سيطرتها

= الذي تدير عمليات الصراع بين الأفكار، وخصوصاً التفرعات الإسلامية ومذاهبها. هذا الكارتيل له قدرة كبرى مالية وسياسية مشابهة للمؤسسات الصهيونية التي انبثقت في بداية القرن الماضي والتي تتخذ من الدين مركباً، ومن الحكومات منفعة، بحيث أن عملها هو أن تدير الأمور بالاتجاه الذي تلتقي مصالح القطر المعين مع مصالح ذلك الكارتيل أو التجمع. هكذا أنواع من الكارتيلات يكاد أن يكون موجوداً في كل الأديان وحتى في التجمعات المسيحية العالمية أو تفرعاتها. وأمامنا في أمريكا التجمع الانغليكي الذي تمكن من أن ينشأ أول لوبي مسيحي في أمريكا والذي من خلاله سار باتجاه فر ض الكثير من آرائه على مسيرة الحكومة الأمريكية. كما أن نجد الشيء ذاته في مسرة معهد (إيباك) (معهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى).. أنظر:
http://en.wikipedia.org/wiki/Washington_Institute_for_Near_East_Policy.

(1) إسلام سياسي مصطلح سياسي وإعلامي وأكاديمي استخدم لتوصيف حركات تغيير سياسية تؤمن بالإسلام باعتباره (نظاماً سياسياً للحكم). ويمكن تعريفه كمجموعة من الأفكار والأهداف السياسية النابعة من الشريعة الإسلامية التي يستخدمها مجموعة (المسلمين الأصوليين) الذين يؤمنون بأن الإسلام (ليس عبارة عن ديانة فقط، وإنما عبارة عن نظام سياسي واجتماعي وقانوني واقتصادي يصلح لبناء مؤسسات دولة). وتعتبر دول مثل إيران والسعودية ونظام طالبان السابق في أفغانستان، والصومال أمثلة عن هذا المشروع، مع ملاحظة أنهم يرفضون مصطلح (إسلام سياسي) ويستخدمون عوضاً عنه (الحكم بالشريعة أو الحاكمية الإلهية). يتهم خصوم الحركات الإسلامية هذه الحركات بأنها تحاول بطريقة أو بأخرى الوصول إلى الحكم والاستفراد به، وبناء دولة دينية ثيوقراطية، وتطبيق رؤيتها للشريعة الإسلامية. وتلقي فكرة تطبيق الشريعة الإسلامية بحذافيرها في السياسة عدم قبول من التيارات الليبرالية أو الحركات العلمانية، فهي تريد بناء دول علمانية محايدة دينياً، وأن تكون مسألة إتباع الشريعة الإسلامية أو غيرها من الشرائع شأناً خاصاً بكل فرد في المجتمع لا تتدخل فيه الدولة... أنظر المصطلح على: http://en.wikipedia.org/wiki/Islamism.

واستقرارها من خلال تفعيل العامل الديني وإذكائه في نفوس المجتمع بالطريقة التي تتناسب مع واقع الدولة وواقع النظام السياسي.

هذا الكارتيل كان يمتلك رؤية أبعد من رؤية التنظيمات الاخوانية ومن البقية من الذين يصارعون على الحكم في أقطار عربية واسلامية. تلك النظرة هو الخشية من (ثقافة التشيع) وأكرر (ثقافة التشيع) وليس من التشيع (كمذهب) مع أن الخشية من التمذهب الشيعي لا يمكن تغافله أو إهمال تأثيره.

نظرية البديل الصعب: فالتسنن كمذهب وبالعموم لا يخلو من ثقافة تشيع، ومن أهم ما تتميز به تلك الثقافة هو السلمية في العمل السياسي أولاً وفصل الدين عن السياسة في الحكم ثانياً. ولذلك فإننا نرى وبين الفينة والأخرى ينبري أحد من هنا وأحد من هناك من قدرات المذهب السني بالصدح بتلك الأفكار التي تتفق مع ثقافة التشيع ومع مسيرته في النظرة إلى الدولة وإلى المجتمع. فليس لنا أن نستغرب ذلك التقارب إذا أدركنا بأن المفاهيم الدينية التي كتبت والتي وصلت إلينا في القرون الثلاثة الأولى كانت من القرب بشكل ما لم يسمح في أن يكون هنالك فاصل واضح بين الثقافتين، فنجد في تلك العصور أن مصطلح (السنة) لم يكن له من وجود، أما المصطلح (التشيع) فكان يشار إليه كمصطلح سياسي وليس مصطلح فكري.

وكان معظم العلماء لهم القدرة على التكلم في كل المذاهب الإسلامية إلى حين تقريباً 350 هجرية عندها تميّزت الثقافتين السنية والشيعية (فكرياً) بصورة دخلت علي الثقافة السنية الكثير مما أضافته

السياسة، وصار هنالك مصطلح (مدرسة الخلافة) السنيّة مقابل (مدرسة الإمامة) الشيعية واللتان تحولتا إلى ثقافات، الأولى ترتبط بما تم فيه العمل من خلال التأريخ الماضي ضمن مسيرة الدول الأربع الراشدة والأموية والعباسية والعثمانية. فكانت الخشية من اقتراب الثقافتان السنية والشيعية بعضهما من البعض الآخر أن تنذر بكارثة لكل تلك الدول التي تدّعي شرعيتها التي اكتسبتها من خلال عامل (القوة)[1] من تأريخ قديم يعود إلى القرن الثاني الهجري.

هذا في الوقت الذي تغيرت عالمياً شكل الشرعية المكتسبة للدولة من أن تكون القوة هي الفيصل إلى مفاهيم التمثيل في المجالس النيابية الحرة التي تأتي بالانتخاب فقط. وعلى ذلك كان الظرف مؤاتياً لبناء أطروحة جديدة تتجاوز واقع التركيبة الجديدة من خلال طرح الفكرة السلفية التي تدعي بأنها (الفرقة الناجية) الوحيدة البديلة لكل الطروحات الثقافية التي يشارك فيها المسلم في اختيار واقع السلطة.

وقد اكتسبت مقولة الرجوع إلى السلف الكثير من الاستحسان ومن المساندة من قبل التنظيمات الإسلامية التي لم تكن ترى في ذلك من حقيقة إلى أن تحوّلت الظروف وتحولت المواقع بصورة أو بأخرى حتى اقترب الإخوان كثيراً من فكرة السلف أو فكرة الانعزال أو ما يسمى بأفكار التكفير والهجرة أو في اللغة الانكليزية فكرة (Cult) التي تتشابه

(1) المدرسة الاشعرية التي وضع أسسها أبو حنيفة النعمان (ت 150) ونظّرها أبو الحسن الاشعري ترى بأن الخلافة أو الحكم لا يكتسب شرعيته إلّا بعنصر القوة، فلا شرعية بدون قوة (انظر مقالات الإسلاميين، لأبي الحسن الأشعري).

في طريقة رؤيتها إلى المجتمع ونظرتها إلى طريقة ممارسة الدين مع الاختلاف في التفاصيل.

عاش المجتمع المصري ظرفاً صعباً لإدراك التغييرات والتيارات الفكرية والسياسية التي عصفت به منذ زمن مقتل السادات وربما قبله، والذي ليس لنا في أن ندخل في تفاصيله لأنه يخرجنا عن الموضوع. ولكن ما نريد القول فيه هو أن المجتمع المصري في العموم مجتمع مشارك في بناء وطن، ومشارك في بناء حضارة وثقافة، مختلف عما هو في المجتمع الخليجي أو المجتمع العراقي أو مجتمعات عربية أخرى. . . . ولم يكن أمام ذلك المجتمع من طريق آخر (مرئي) غير الطريق الديني المتمثل إما باتجاه الأخونة أو السلفية. . . . هذا في الوقت الذي لم يكن التيار الوطني بهشاشته واضح المعالم، والذي لم يكن له من قدرة فعلية على تمييز ذاته أمام تياري الإخوان والسلفية.

فقد تأخّر المجتمع المصري من إدراك قدراته إلّا بعد أن تسلط عليه ما هو أكبر من مخيّلته وتفكيره تلك هو انتفاضة الشعب التونسي الذي كان بالنسبة له كزلزال كبير أشعره ليس بقيمته فقط، بل بأنه لم يفكر بقيمته. . . . . فالشعور بالقيمة له بُعد ابتدائي في الفعل، وهذا لا يمكن له أن يتوفر إلّا بعد أن يتحول الشعور إلى واقع متحرك من خلال حدث أو ظاهرة اجتماعية كبرى، كما هي الأحداث التي غيّرت العالم مثل مقتل ولي عهد النمسا وابتداء الحرب الأولى، وإطلاق سراح نيلسون مانديلا، ومقتل أبراهام لنكولن وغيرها من الأحداث الجسام في مسيرة التأريخ.

ومثل الشعب المصري في الثورة التونسية كالملاكم الذي خسر مع

غريم ضعيف، وإذا به يرى هنالك غريم آخر أقل قدرة منه وقد تمكن من ذلك الرابح، فشعر بالهوان واستعد لجولة كبرى كاسحة. . . وهذا ما حدث.

ففي الأزمات وفي صراعات الشعوب ليس هنالك من قانون ثابت يحدد حركة هذا الشعب أو ذاك. فهنالك من الشعوب من تمتلك حساً ثورياً كبيراً، ورغبة في انتفاضة جماهيرية كبرى، ولكنها لم تتحرك ولم تبادر كما هو المجتمع العراقي، مع توفر الكثير من عوامل حركة المجتمع. بينما كان المجتمع الإيراني الذي أكلته بهرجة الغرب في سبعينيات القرن الماضي أن يقول كلمته في ذلك العام ويطيح بخامس قوة في العالم كما يتحدثون عنها.

وكذلك الأمر مع الشعوب الغربية التي لها حساب خاص من الصعوبة لنا في أن نقارنها بما لدينا في مصر أو في تونس والتي سنترك الحديث عنها عسى أن نوفق في المستقبل للكتابة عن ثوراتها وخصوصاً ثورات انتزاع أنفسها من براثن القدرة السوفيتية العملاقة.

غالباً الشعوب ليس لها من علامات أو مؤشرات ثورية (Indicators) يمكن لنا أن نراها أو نتحسسها، فذلك الذي يمتلك قدرة التحسس هو من يمتلك قدرة معرفة الحركة الثقافية والحضارية لمجتمع ما، وليس بالضرورة أن يتمكن من اكتشاف مؤشرات الشعوب على الأرض. نعم هنالك تخصص في اكتشاف تلك المؤشرات لا يعرفها إلّا المتخصصون العارفون الذين غاصوا في ثقافات الشعوب وحركتها. . . . فلم تتمكن أعتى القوى العالمية أن تتنبأ بما حصل في مصر، مع أن مصر كانت مهيأة

لتغيير ما، ولكن مقاييس التغيير ومعاييره تتغير كما تتغير أساليب الفحص الطبي السرطاني أو الالتهاب البكتيري[1].

فعلم الشعوب لا يختلف عنه في الطب من ناحية آليات التشخيص بالمقارنة. فمن الصعوبة أن نطبق اليوم أسلوب التشخيص القديم الذي مر عليه أكثر من ألف سنة أو ما شابه كما لا يمكن أن نقارن ثورة الكاسيت بثورة الفيس بوك والتويتر وغيرها. فلكل زمانه وتأثيراته.

ثقافتين محمد علي باشا وعمر مكرم: كان محمد علي باشا شخصية غريبة عن المجتمع المصري (ألباني المولد) قد جلب معه فرقته الخاصة (الأجنبية) (Elite) العسكرية المخابراتية التي لم تكن تتناسب مع طبيعة الشخصية المصرية، فقد تمكنت من أن تعيث في المجتمع المصري الفساد والقتل[2].

---

(1) فلقد تطور التشخيص السرطاني خلال أقل من عشرين سنة من مرحلة إلى مرحلة متقدمة فصار الآن هنالك (PET-Scan)، وكذلك (Gama Knife) وغيرها من الأجهزة التي لا تقارن بما كان موجود في السابق.

(2) فقد استعمل المعتصم العباسي (ت 227) ذات الأسلوب في بغداد عندما وصل إلى الحكم باستقدام فرقة كبرى مسلحة تركية (أجنبية) حتى ضجت بغداد من ممارسات تلك الفرقة مما اضطره في نقل مركز الجند إلى سامراء في 229 والتي تحوّلت فيما بعد إلى عاصمة. حيث كان الحاكم الفعلي في الدولة هم هذه الفرقة التي تتكون من أتراك تم استرقاقهم وتنشئتهم بطريقة فقط للقضاء على الفكر المعارض للسلطان. وقد لعبت هذه الفرقة على مدى أكثر من قرنين من الزمن دوراً مؤلماً في القتل وفي سفك الدماء وفي قتل الخلفاء وغيرها. والشيء الغريب هو أن التأريخ الإسلامي كان قد كتب معظمه في القرن الثالث للهجرة فترة قوة تلك العصابات الأجنبية المملوكة، مثل كتاب الطبري (ت310)، والبخاري (ت 256)، وأبي داوود (ت 257)، وأبن سعد (ت 270)، وابن ماجة (ت 275)، والترمذي (ت 279) وغيرهم كثيرون حيث لم يكن أمام =

وقد نلاحظ ذات الشيء في الغرباء الوافدين إلى الأرض المصرية من قبل العثمانيين المسلمين وهم فرقة (الدلاة) وهي فرقة مدربة على القتل عناصرها مشابهة لعناصر الفرقة الألبانية معظمهم من العبيد المسروقين من المناطق التي استولى عليها العثمانيين من صغار السن لا يعرفون آباءهم وأمهاتهم ولا نسبهم وهؤلاء هم كما جاء في التشريع الإسلامي (التسنن السياسي) بأنهم مماليك أو بأنهم ملك يمين أو عبيد، كما تجد الشيء ذاته في النساء الذين سرقوا من مجتمعهم خصوصاً الدول التي دخلها العثمانيون والذين أطلق عليهم في المقولات الإسلامية (ملك يمين)[1].

= المؤرخ أو الفقيه إلا أن يلتزم بما تم فرضه وبما يتناسب مع واقع الحكم وسطوته. هذا في الوقت الذي لم يبادر المتنورون من الكتاب الإسلاميين حديثاً في التطرق إلى ذلك الواقع بعين الموضوعية في النظر إلى تأثير الجانب السياسي وجانب الإرهاب السلطوي على نوعية الفكر الذي كتبوه والذي فرض على الأمة على أنها مفاهيم تضم مادة فكرية أكبر من حجم تفكير المسلم العادي والتي تتسم بصفة العصمة مما لا يمكن التطرق إلى الشك في مصداقيتها وهي التي سميت بالصحاح.

(1) شخصياً ليس هنالك من جانب إنساني أو مما يمكن الاقتناع به في استرقاق البشر وسرقة الأطفال من أمهاتهم، أو التسري بكذا عدد من النساء. ولا أتمكن من أن أصل إلى قناعة بأن الإسلام قد أباح ذلك وحاشا على رب العباد الرحمن الرحيم أن يسلط الإنسان بهذه الصورة من الذل على أخيه الانسان. ولذلك فإنني ومن خلال دراسة التأريخ لم أجد بأن النبي ولا أئمة الثقافة الشيعية كانوا قد مارسوا هذا النوع من التجارة بالبشر، وبتلك الدرجة من الإذلال. أما الحوادث القليلة المتفرقة في حياة النبي وفي الأئمة فقد كانت عملية إنقاذ لظلم كان قد مورس مع نساء فرض عليهن أن يكن سراري، أو على فتيات أو فتيان أن يكونوا عبيداً عن طريق التزوج بهم بالطريقة العادية لكي يتم تحريرهم من عبودية اجتماعية قاسية كما هي قصص كثيرة. ولعل أصل هذه الممارسة =

هذه الطبقة من المجتمع قساة، ذوو قلب استوحى جفوته من فقدان العائلة، ومن طريقة التدريب على القتل من قبل الجيوش الإسلامية التي كانت ترى فيهم بأنهم أكثر بلاءاً في المعارك من المواطنين الآخرين، وهي قضية طبيعية في العرف البشري بأن تمنح إنساناً شاذاً مقطوع النسب لم يتربى إلّا على لغة القتل وسفك الدماء سلطة استباحة شعب أو استباحة أمة.

لم يكن أمام المصريين وبوجود عنصر القوة وسفك الدماء من قبل قوة كبرى كالدولة العثمانية التي تحكم باسم الإسلام إلّا أن ينتظروا القادم الجديد، أو التغيير الذي ينقلهم من حال إلى حال. جاء محمد علي الذي كان يُعتقد بأنه الشخصية التي تمتلك نسباً وأصلاً وتأريخاً، مع أنه كان يتشارك مع المماليك في الكثير من الصفات كفقدان الأم والأب وغيرها.

وصل إلى الحكم بعد أن قاد التغيير عمر مكرم الشخصية ذات الثقافة الشيعية[1] بعد أن طلب من الدولة العثمانية باسم المصريين أن يقروا محمد علي على مصر، ولكن الأخير وبمجرد أن تسلم الحكم

= هي من بقايا ثقافة الأعراب القرشية والتي استمر الحكم في ممارستها بعد وفاة النبي، وهو حكم لم يكن بمختلف عن ثقافة البداوة العصبية إلّا بالاسم، فليس هنالك من دليل أكبر من قصة زوجة مالك بن نويرة (الصحابي) زعيم بني يربوع في اليمامة التي قتل زوجها جيش الصديق ودخل بامرأته قائده في ذات اليوم بعد اتهامه بالردة.

(1) الشيعة في نظرتهم إلى الدولة العثمانية هي ذاتها إلى الدول التي تحكم باسم الإسلام في ضرورة مساندتهم والدفاع عنهم، باعتبارهم مسلمين مع المراهنة على توفر عنصر التغيير باتجاه ثقافة السلم الشيعية سواء أكانت ضمن الإطار السني أو الشيعي المذهبي، وتجربة العراق في ثورة 1915 و1920 شاهد كبير على ذلك.

ضايق مكرم ثم نفاه بعد أن حاول أن يدس إليه السم وذلك بسبب تميزه في حب الشعب المصري له[1].

وقد شجع محمد علي على الاستمرار في قتل كل المخالفين لمذهب الأحناف في مصر وخصوصاً الشيعة بعد أن تلقى الضوء الأخضر من المفتي الديني في الأستانة[2]. ولكن محمد علي الشخصية التي خبرت المصريين وعرفت نقطة ضعفهم ومكمن السيطرة عليهم ولو وقتيّاً، لجأ إلى سياسة الجزرة والعصا، فبين يديه عصابات قوية جداً جاء بهم من ألبانيا لا يتورعون عن قتل أي من المصريين أو المعارضين لحكمه وهم شبيهون في المنطوق الحديث بجهاز المخابرات السيء الصيت في زمن صلاح نصر (ت 1982) أو المرتزقة مع الاختلاف في الانتماء ما بين الجهازين.

(1) راجع تأريخ عمر مكرم في موقع: (/http://egypthistory.net)

(2) فرض محمد علي ضرائب جديدة على الشعب فهاج الناس ولجأوا إلى عمر مكرم الذي وقف إلي جوار الشعب (قارن بين التاريخين آنذاك و30 يوليو 2013) وتوعد بتحريك الشعب إلى ثورة عارمة. استغل محمد علي محاولة عدد من المشايخ والعلماء للتقرب منه وغيره من بعض الأعيان من منزلة عمر مكرم بين الشعب كالشيخ محمد المهدي والشيخ محمد الدواخلي، فاستمالهم محمد علي بالمال ليوقعا بعمر مكرم. فأرسل يستدعي عمر مكرم إلى مقابلته، فامتنع عمر مكرم، قائلاً: إن كان ولا بد، فاجتمع به في بيت السادات. وجد محمد علي في ذلك إهانة له، فجمع جمعاً من العلماء والزعماء وأعلن خلع عمر مكرم من نقابة الأشراف (الطالبيين) وتعيين الشيخ السادات معللاً السبب أنه أدخل في دفتر الأشراف بعض الأقباط واليهود (باعتبارهم مواطنين مصريين) نظير بعض المال، ثم أمر بنفيه من القاهرة إلي دمياط. وبنفي عمر مكرم اختفت الزعامة الشعبية الحقيقية من الساحة السياسية، وحل محله مجموعة من المشايخ الذين كان محمد علي قادراً في السيطرة عليهم إما بالمال أو بالاستقطاعات، وهم الذين سماهم الجبرتي (مشايخ الوقت)، أو كما يسميهم العراقيون (علماء الحفيز).

هذا في الوقت الذي بنى جيشاً جديداً وأقام نظاماً ضريبياً وفتح البعثات إلى الغرب وما إلى ذلك من أعمال ساعدته في تثبيت حكمه في مصر[1] . مات محمد علي بعد أن أصيب بداء (Alzheimer) وبشكل شديد جداً بحيث أن أولاده وعائلته رفضوا البقاء معه أو إعانته على مرضه ودفن في مصر.

جاء بعده أقرباء له وأولاده مع مساندة من قبل الدولة العثمانية التي بدأ المرض ينخر في عظامها، ولكن المصريين كعادتهم ليسوا من الشعوب التي تغيّر أنظمتها من خلال القتل والعصبية، بل تعلمت في خلال الفترة ما بعد وفاة محمد علي عام 1845 إلى حين عام 1952 في التكيّف مع التغيرات العالمية وخصوصاً بعد الحربين الكبريتين الأولى والثانية.

وكان في كل فترة من الفترات من ثوار كبار وعظماء مشهود لهم بالوطنية منهم أحمد عرابي ضد الخديوي توفيق، وكما ذكرت فإن عرابي كان رجلاً ينتمي إلى آل الرسول حسني النسب شيعي الثقافة سني

(1) حكم محمد علي 43 سنة مصر تمكن فيها من أن يحول مصر إلى دولة حديثة ولكن ضمن نظام دكتاتوري قمعي، وليس ببعيد أن نرى التشابه بينه وبين مبارك الذي حكم 30 سنة اعتمادا على ظاهرة اشبع المصريين وسيطر عليهم، وهي ظاهرة مع أنها ليست مقتصرة على الشعب المصري، وإنما هي صفة تشترك بها كل الشعوب ولكن المصريين باعتبارهم من الشعوب المسالمة فإن تلك المقولة ربما تظهر واضحة في تأريخ مسيرة مصر أكثر من بقيّة الشعوب. وبمتابعة لسلوك الشخصيتين ونهايتهما وطريقة تقريبهما أبنائهما وغيرها تجد وكأن التأريخ يعيد نفسه في قضايا كثيرة من الممكن على القارئ اللبيب إدراكها من خلال الاطلاع على مسيرتهما.

المذهب[1] ومصطفى كامل (ت 1908م)، وسعد زغلول (1927م)، ومصطفى النحاس (ت1965م)، وكان كل من تلك الأسماء عبارة عن ثقافة سلمية في التغيير وفي إعادة لحمة الشعب وتوحيد قوميته وجمع شتاته المجزأة في دخول الغرباء من المماليك والألبان وغيرهم إلى أن

(1) أنظر المحاورة الشهيرة بين الخديوي توفيق (ت 1892) حاكم يمتلك دولة قوية هي الدولة العثمانية خلفه وكذلك بريطانيا عندما قال لعرابي قي خطبته الشهيرة: كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي، وما أنتم إلّا عبيد إحساناتنا.... فكان أن رد عليه عرابي الشخصية التي تتسلح بالشعب وثقافة السلم قائلاً: لقد خلقنا الله أحراراً، ولم يخلقنا تراثًا أو عقاراً، فوالله الذي لا إله إلّا هو، لا نُورَّث، ولا نُستعبَد بعد اليوم...... كما قارن ذات الكلمات التي قالها الثائر وهو في أشد لحظات المضايقة خصوصاً بعد أن ألقي القبض عليه خيانة من قبل البريطانيين مقارنة بما قالها جده الكبير (الحسين ت 61) وهو في عرصات المعركة قائلاً: والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر لكم إقرار العبيد، ألا وأن الدعيّ ابن الدعيّ (يعني بن زياد) قد ركز بين اثنتين بين السلة (السيف) والذلة، وهيهات منّا الذلة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله وأنوف أبيّه ونفوس حميّة أن نقبل طاعة اللئام على مصارع أبناء النبي الكرام... (أنظر المواقع العربية الانكليزية لسيرة البطل عرابي). كما في ذات الوقت من الممكن أن نلحظ النهج السلمي لواقع المجتمع المصري الذي لم يدفع الحاكم إلى قتل عرابي أو قتل من هم جاء بعدهم في عام 1952 وإنما جل ما عملوه هو نفي الثائر أو نفي فاروق. بينما من الصعب جداً أن نجد في ثقافة العنف البدوية المتعصبة التي يلتزم بها (الأشاعرة) في التعامل مع الآخرين بهذا النوع من التصرف المتسامح. وأفضل ما يمكن أن نقوله في هذا السياق قول الرشيد هارون (ت 193) إلى ابنه ووريث عرشه المأمون (ت 218): يا بني لو نازعتني على الملك لأخذت الذي فيه عينيك (يعني رأسه). أو كما يقول معاوية (ت 60) فيما هو على المنبر: من قال لنا برأسه هكذا (علامة الرفض)، قلنا له بسيفنا هكذا (يعني قطع الرأس).
http://en.wikipedia.org/wiki/Ahmed_%E2%80%98Urabi.

حان الوقت للتغيير في ثورة 23 يوليو من عام 1952[1] وكان آخر ملوك السلالة الباشوية هو الملك فاروق الذي لم يكن أمام الثوار الجدد إلّا أن خيروه بين البقاء وبين المغادرة[2].

سلبية الثقافة وجذورها في زمن ناصر: اعتقد عبد الناصر والضباط الأحرار بأن الشعب ممكن أن ينسى ثقافته، أو أن الثقافة لها عمر محدد كما هي الخلية البيولوجية، واعتقد بأنه يستلزم منه في أن يستعمل القوة والشدة والمخابرات في تطويع شعبه بالدرجة التي كان قد فهم خطأً بأن الكل يتآمر على مصر، وأن مصر دولة مستباحة من قبل الجميع في الوقت الذي لم يراهن في عمله على قدرة هذا الشعب، لأنه لم يفهمه حق فهمه، ولم يقرأ تأريخ مواقفه وعمقه في حركة المنطقة، فتراءى له بأن من الأفضل اعتماد الأسلوب المخابراتي بدلاً من

(1) وأذاع البيان الأول للثورة أنور السادات (ت 1981) وأجبرت الحركة الملك فاروق (ت 1965) في التنازل عن العرش لولي عهده الأمير أحمد فؤاد (عمره ستة شهور) ومغادرة البلاد في 26 يوليو 1952. وشكل مجلس وصاية على العرش ولكن إدارة الأمور كانت في يد مجلس قيادة الثورة المشكل من 13 ضابط برئاسة محمد نجيب (ت 1984) كانوا هم قيادة تنظيم الضباط الأحرار ثم ألغيت الملكية وأعلنت الجمهورية في 18 يونيو 1953.

(2) في ثورة العراق في تموز عام 1958 اجتاحت الغوغاء القصر الملكي، وارتكبت مجزرة كبرى بالعائلة المالكة وبرئيس الوزراء نوري السعيد بحيث قطعوا أعضائهم ووزعوها على شطري بغداد، كذلك ارتكبت نفس المذابح في عام 1963 بثورة 14 رمضان وعملوا بقاسم مجزرة مروعة جداً، وهكذا الجيل الثالث الذي توالى إلى أن وصل البعث إلى الحكم في عام 1968 في 17 تموز. والغريب في الأمر بأن رئيس مجلس السيادة في العراق بعد ثورة 1958 كان يحمل ذات الاسم محمد نجيب الربيعي. (أنظر كتاب كنت طبيباً للرئيس، علاء بشير).

الاستعانة بالشعب وثقافته، هذه هي مشكلة العسكري دوماً الذي يعتقد بأن الحلول تتأتى من القوة.

فقد شهد عبد الناصر أحداث 1948 وأدرك بأن الشعب العربي المصري ليس الشعب الذي يقاتل عدواً ما لم يدرك بأن العدو هو عدو حقيقيي، بل أن الحرب ستكون أولاً بأسلوب السلم لا بأسلوب العنف. فالجيوش العربية جيوش مشتته ضعيفة فاقدة القدرة على فهم مغزى الحرب في الوقت الذي كان عبد الناصر يستشعر أهمية أن يحمي مصر من واقع غربي يريد به السوء، هذا في الوقت الذي كان الإخوان يمثلون التيار المنظم الوحيد في مصر، فقد حاولوا اغتياله في حادثة المنشية الشهيرة في عام 1954 ثم جاءت بعدها بسنتين أحداث السويس وتأميمها ومشكلة الديون المترتبة على الدولة الفتية، فلم يكن منه إلّا أن فكر في أن يحوّل الدولة إلى دولة بوليسية، وهكذا فعل، ولكنه في ذات الوقت طوّر من قدرات الوطن بشكل كبير على مستوى الواقع العالمي والواقع العربي وكذلك في علاقته مع المحيطين به، ويذهب العارفين بشخصية جمال بأنه كان يميل في الكثير من الأحيان إلى الجانب النظري في التغيير، مع اعترافهم في ذات الوقت بأنه كان نهماً على القراءة في فترة ما بعد إصابته بطلق ناري في جبينه في مظاهرات عام 1936 في الإسكندرية، كما كانت من أهم الكتب المؤثرة في حياته هو كتاب (عودة الروح) لتوفيق الحكيم وهو الكتاب الذي أثر على ناصر باتجاه السلوك غير المدروس دراسة كاملة، بل كان يرى في التغيرات الدولية مسيرة تقررها جوانب بعضها غيبية وبعضها شخصية.

والشيء الغريب في تفكير ناصر هو أنه أغفل قراءة واقع المجتمع المصري، بل قرأ عن الشخصيات الكبرى في التاريخ مثل أتاتورك، نابليون (ت 1821)، بسمارك (ت 1898)، غاليباردي (ت 1882) وغيرهم، وكان اعتقاده بأن التغيير الذي أحدثه نابليون أو أتاتورك هو قوة ذاتية يمتلكها ذلك الشخص، بينما الحقيقة هو أن المغيرين لا يمكن لهم إحداث عملية التغيير بدون وجود ثقافة متأصلة في الشعب.

فنابليون لم يكن ما هو عليه في عملقته لولا أفكار العظماء الفرنسيين مثل عمانوئيل كنت (ت 1804) وجان جاك روسو (ت 1778)، وفولتير (ت 1711) وغيرهم، وهو المرض الذي يصاب به العظماء في محيطنا العربي عندما يعتقدون بأن التغيرات يصنعها أشخاص مرئيون، وهي ثقافة في الواقع نابعة من الخلفية البدوية التي نشأ المجتمع العربي عليها في عملية (الشخصنة) المتحجرة[1].

فقد كان عبد الناصر يعتقد بأن سبب سيطرة الأمم على مصر متأتٍّ من قدرة القائد بالدرجة الأولى وقوة السلاح. فكان ينظر إلى خالد بن الوليد وإلى عمرو بن العاص وإلى أولئك الذين غزو مصر نظرة الإعجاب الشخصي.

وقد انعكس كل ذلك على مدى تفهمه لواقع الثقافة المصرية وعمقها في التأثير السياسي وخصوصاً الثقافة العلمية وثقافة الحوار وثقافة السلم وثقافة المواطنة. . كان عبد الناصر قد اتخذ خطوات هي

(1) قول الشاعر المتنبي: أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي/ وأسمعت كلماتي من به صمم، أو عمرو بن كلثوم في معلقته: إلّا لا يجهلن أحد علينا/ فنجهل فوق جهل الجاهلينا.

ردود أفعال وليس توجهات مدروسة أحاطت بشخصيته الكثير من ضبابية عبادة الشخصية.

تدرج ناصر هنا وهناك وبدأ يميل في شخصيته إلى ظاهرة القوة كعامل مغيّر للشعوب خصوصاً بعد حادثة عام 1942 عندما أقدم السفير البريطاني (كايلز لامبسون) على احتلال قصر الملك فاروق وحاصره بالدبابات، وأمره بإقالة رئيس الوزراء حسين سري باشا بسبب تعاطفه مع قوات المحور، وقال عن ذلك: أنا أخجل من أن جيشنا لم يصدر أي رد فعل ضد هذا الهجوم، نلاحظ هنا نحن أمام ظاهرة جديدة في تفسير جمال عبد الناصر إلى محاولة عنف أقدمت عليها قوة غاشمة متسلطة، بالمقابل نرى بأن الشعب المصري وبفطرته ونوعية ثقافته كان يدرك بأن المواجهة ليست هي الحل على الدوام، وخصوصاً في ذلك الوقت بالذات التي كانت الحرب العالمية الثانية تستعر في العالم.

هذا التجاذب بين عقلية القائد وعقلية المجتمع كان له أكبر الأثر في تعامل عبد الناصر مع الأحداث العالمية ومع إسرائيل، ومع أحداث اليمن والعراق وغيرها من الأقطار التي مُنّي بها بخسارات كبرى ولم يتمكن في أن تنجح في أي منهم.

الثقافة المصطنعة: بعد نكسة حزيران عام 1967 أدرك ناصر الواقع، وعرف بأن الشعب المصري هو شعب ذو ثقافة عميقة، وليس بالضرورة أن يكون التغيير يأتي عن طريق الرصاصة والقوة ولا عن طريق العنف والمخابرات، أقول بالضرورة لكي يتضح المعنى، فالذاكرة الشعبية للمصريين عميقة وتدرك من خلال فطرتها ومن خلال قادتها ومفكريها ومؤسساتها العلمية والدينية والجامعية بأن السلم

ورفض العنف هو أهم وأقوى وأمض سلاح ممكن للشعب المصري أن يستعمله.

فالقدرة التي يتمتع بها في الجانب الفكري واللوجستي ومفهوم الوطن تجتمع بطريقة توافقية لكي تعطي الأولوية إلى المصريين في أن يكون السلم قوة مكتسحة. . . . بالتأكيد إن كان ذلك وارداً في الشعب المصري فليس بالضرورة أن يكون ذاته فاعلاً في الشعب السوداني على سبيل الفرض، مع اعتبار أن السودان تشترك مع مصر في الكثير من القضايا الثقافية والفكرية[1] كما في ذات الوقت لم يكن لشعب الحجاز أن يحوي ذات قدرات الشعب المصري، فلكل منه من ثقافة ومن آليات تساعد تلك الثقافة على النمو.

فالأزهر المدرسة الكبرى والعريقة هي ركيزة مهمة من ركائز المادة الثقافية المصرية، وكذلك تأريخ مصر بعمقه ثم ثقافة الإسلام بنوعيها الشيعية (السلمية) والسنية (العصبية) ثم بعدها الجانب السيكولوجي الخاص الذي يتمتع به المصريون، وخصوصاً جانب القناعة التي تراها بارزة في تعاملاتهم وفي نظرتهم إلى السياسة وإلى الاقتصاد وإلى مشاكل الحكم بالطريقة التي أحياناً تتحول إلى ظاهرة سلبية وأحياناً إلى جانب إيجابي.

عبد الناصر كما يبدو لي، لم يدرك كامل تفاصيل الجانب الثقافي للشعب المصري وجزئيات وعوامل تلك الثقافة، وليس أبرز من دليل توجهه إلى إحياء ثقافة جديدة في مصر كان قد أطلق عليها ثقافة

---

(1) استقلت السودان عام 1956.

(الإسلام والاشتراكية)، مع أن هذه عبارة عن تسمية ليس إلّا ، وأن الثقافة هي ليست من قبيل أن تزرع في أمة بطريقة كما تزرع بقيّة الأفكار العلمية أو الاقتصادية. . . . فالثقافة تبنى على مدى قرون وتأتي من خلال تفاعل عدة مؤثرات وعوامل بعضها تفرزها المجتمعات وبعضها تفرزها الطبيعة وأحياناً بمساعدة السماء في بعض الأوقات.

كان لانتشار الثقافات (المصطنعة) في العالم الإسلامي والعربي دور مؤثر سلبي على مجمل مسيرة الشعوب وعلى مستقبلها، فقد اعتقد الحكام الذين جاءوا إلى السلطة في فترة الحرب الباردة بأن الثقافة تبنى كما يبنى الاقتصاد والتكنولوجيا والسياسية، واتخذوا من واقع دول المعسكر الشرقي وخصوصاً الاتحاد السوفيتي وقدراته أنموذجاً من نماذج الثقافات المصطنعة، مع ظنهم أن تلك الثقافة التي سادت دول العالم الشرقي هي الباقية لأنها حديثة باعتبار أن الحداثة جانب إيجابي، والقدم جانب سلبي، وهو تصور فيه الكثير من الخطأ في التقدير.

فالمجتمع السوفيتي في روسيا قد بنى أسس ثقافته على ماضي سحيق وعميق من القدرة الثقافية التي عمرها ما لا يقل عن عمر ولادة المسيح تقريباً إن لم تكن أعمق من ذلك، وربما العهد الهيليني في أثينا. فالرؤية عن إدراك الثقافات الشرقية في مسيرة العالم في ذلك الوقت يبدو تضليلاً بأنه جديد مع أن الحقيقة تقول بأنه مصطنع وهو سرعان ما يتهاوى في أول مواجهة مع قوى أخرى عسكرية كانت أم ثقافية أم تكنولوجية أو أي تغير يحدث في العالم.

بيئية الثقافات وجذورها: لم تكن الدول العربية وهي الخارجة تواً

من رحم معاهدة (سايكس بيكو) ومن عصر الاستعمار المباشر من قبل الأتراك أولاً ثم من قبل الدول الغربية والذي قبلها كان تبعاً ذليلاً إلى الدول التي كانت تنادي بإسلاميتها كالسلاجقة والمماليك وما شابه من مسميات كثيرة. وقد كان لهذا الظرف من تأثير كبير على التفكير بهدوء تجاه الموضوع الثقافي للدول العربية أو للدولة المصرية.

فالثقافات عموماً عندما يتم معارضتها اجتماعياً أو فكرياً أو عسكرياً فإنها لا تقاوم التغيير بالشكل العنيف بل تستجيب وتطاوع التغيير بشكل من الأشكال، ولكن المشكلة تكمن في رد فعل ذات الثقافة التي لا بد وأن تنتفض يوماً ما (Backslash) على كيان الدولة أو كيان المجتمع بشكل مدمر، وهو فعل طبيعي مشابه كثيراً لمحاولات تغيير البيئة أو تغيير التوازن الحيوي في الحياة، أو في جسم الإنسان. . . .

فليس لنا في أن نقوم بانتزاع البكتريا كلها من أجسامنا، مع أننا ربما كنا قادرين على ذلك، ولكن انتزاعها كلها سوف يدمر الجسم بطريقة أخرى من خلال تفاقم الكائنات الأخرى الميكروبية كالفطريات والفيروسات وبقيّة العوامل المرضية (Agents) وتهاجم الجسم بشراسة كبرى تحطمه خلال فترة زمنية قصيرة، كذلك ينطبق ذات المثال على التوازن البيئي في الطبيعة ما بين الحيوان وبين الإنسان وبين النبات، وهي معادلة اتزان عمرها بعمر الكون، فالاضطراب في مسيرتها وتقوية جانب على حساب آخر يعود على الطبيعة بالدمار وهو رد الفعل الفطري للتغيير في البيئة أو التركيبة البيئية للخلق.

فلم يكن الربيع العربي إلّا عنواناً واحداً من عوامل رد الفعل الطبيعي الفطري الثقافي والذي جاء بقدرة مدمرة في حادثة الأولى من

نوعها في تأريخ الإنسان في أن يتجمع 30 مليون إنسان على بقعة جغرافية قريبة من بعضها البعض، وفي وقت واحد، وأن يحطم كيانات كبرى تتدرع بقدرات هائلة من أسلحة وغيرها، وهذا المثال ينطبق ليس على مستوى الربيع العربي فحسب، بل أنه ينطبق كذلك على السقوط السوفيتي وعلى دول المعسكر الشرقي بكاملها التي تهاوت كما تتهاوى الأحجار من قمة جبل أشم.

اعتقد العرب وقادهم ناصر ببساطته العفوية وبحبه استعجال التقدم إلى مطب خطير جداً وساعده على ذلك الخط الديني المسيس والاتكالية وقلة المعرفة والتأخر إلى تبني سياسة اكتشاف الثقافة المصطنعة أو الثقافة الجديدة التي وضعوها في أطر متنوعة وأسماء متعددة كالثقافة الاشتراكية، والثقافة العربية والثقافة الاتحادية وغيرها من مسميات واستدعوا لذلك الكثير من المفكرين الذين يدورون في بطانة الحكام لكي يحسنون لهم صنعا. فجاءوا لهم بثقافة غريبة كل الغرابة عن المجتمعات العربية وعن المجتمع المصري الذي يحوي أقدم وأهم حضارة على وجه الأرض[1] خصوصاً وأن تلك الثقافة القديمة قد تم ذكرها في القرآن ولكن بنوع يتناسب مع ظرف الكتاب السماوي باعتبار أن الكتاب العزيز ليس كتاب تأريخ، ولكننا من الممكن أن نستنبط منه الكثير من الأحداث الكبرى التي وقعت في مصر وبشكل يقدم لنا ارتباط الثقافات العالمية في تلك البقعة من الأرض.

لم تتمكن الثقافة المصطنعة تلك من أن تنقذ الإنسان المسلم

(1) توينبي ارنولد، مختصر دراسة التأريخ الجزء الأول. المصدر السابق.

والإنسان المصري، فقد سرت العدوى إلى كل الأقطار العربية ابتدءا من العراق وإلى سوريا ثم مصر والجزائر واليمن والبحرين وتونس إلى أن انتهت إلى جدار صلب استيقظ بعدها الحكام العرب على نكسة كبرى كانت مدمرة لنفوسهم ونفوس شعوبهم. . . لم تكن نكسة حزيران عام 1967 نكسة عسكرية بالمعنى الأول، وإنما كانت نكسة ثقافية ألمّت بواقع كل العرب وكل البلدان والتي على أثرها اعتقدت الشعوب بأن السبب هم شخصيات الحكام ذاتهم، وأن السقوط هو سقوط ما سموه بالعمالة أو بالضعف أو الصهينة أو اللاوطنية، فقد تاه العرب في محيط هائل عميق الغور لا يُعرف أين هي شطآنه ومراكز الأمان فيه، فتأخرت أمة العرب كلها بل المسلمين عموماً وصاروا يحتلون الموقع المتأخر في أمم العالم مع أنهم كما نعلم يملكون أثرى بقعة في العالم، ولهم مكوّن ديني يربطهم بالسماء بطريقة قد لا تمتلكها بقيّة الأمم.

تذكر الأخبار بأن الرئيس ناصر كان في الفترة ما بعد النكسة إنساناً قد أدرك بعد عناء بأن كل ما بناه كان قد أقيم على جرف نهر هار، فقد طالب زكريا محي الدين أن يتولى المنصب في رئاسة الجمهورية لأنه أخفق في قيادة ثقافة أفضل أمم الأرض، وعندما مات زكريا توجه إلى السادات ليطلب منه تولي الأمر بعدما أجهدته ثقل الاحباطات الاجتماعية والدولية.

شخص الثقافة.. أم ثقافة الشخص...؟: جاء السادات بعد وفاة ناصر عام 1970 وتوجه بشكل ملفت للنظر إلى سياسة مختلفة فيما يخص إعادة ثقافة المصريين إلى مصر بعد أن استبدلت خلال عقود من الزمن بالثقافة المصطنعة، ولكي تُعاد - أي ثقافة - فإنها تستلزم أن

تتوفر أجواء طبيعية، وأهمها هو جو الحرية الشخصية والاجتماعية. وقد أقدم السادات على إتباع أربعة محاور ثقافية مهمة:

- *طرد السوفيات 17000 خبير عسكري من مصر والاستقلال بالقوة المصرية لذاتها.*
- *إصدار دستور جديد للبلاد في عام 1972.*
- *فتح باب الحياة السياسية الحزبية وإطلاق سراح جميع سجناء الرأي.*
- *تبني الأسلوب السلمي في عملية حل النزاع العربي الإسرائيلي.*

الشيء المميز في شخصية السادات هو قدرته الثقافية أعني الفكرية، فهو صحفي أولاً وقارئ للتأريخ، ومطلع على مسيرة الأمم والشعوب، كما أنه من أكثر الرؤساء المصريين أو العرب عموماً له ممارسة في السجون لكثرة الأعوام التي قضاها فيها مدافعا عن ما يؤمن به.

وقد كانت جدته السودانية من أتباع آل البيت نسباً وربما انتماءاً، كانت لشخصيتها الدور الكبير في نشأته، بالإضافة إلى أمه وهما اللتان ربتاه في قرية ميت أبو الكوم[1] باعتبار أن أباه كان في السودان يعمل في الفريق الطبي الرياضي. وعندما نلاحظ تأريخ السادات في هذه النقطة نجد هنالك الكثير من التشابه في تأثير الأم على نشأة القائد فيما بينه وبين دور أم (نيلسون مانديلا) في إشعاره بأهمية الثقافية الوطنية للقيادة[2]

(1) البحث عن الذات، أنور السادات.

(2) رحلتي الطويلة من أجل الحرية. نيلسون مانديلا، المصدر السابق.

وخصوصا في التوجه السلمي في التغيير الذي كان يجمع كلا القائدان. وهي الصفة التي تولدت من خلال قدرة الأم وإفاضتها قوة الشعور بالأمان على ابنها.

فقد حاول السادات في عام 1941 وأثناء الحرب العالمية الأولى بمطالبة البريطانيين أن يشاركونهم المصريون في القتال ضد دول المحور، ولكنهم رفضوا وفرضوا عليهم نزع أسلحتهم، فما كان من السادات إلّا أن نظم مسيرة تبدأ من فندق (المينا هاوس) تتكون من الضباط المنسحبين من مرسي مطروح ويلتحق بهم المجموعات الأخرى لتسير إلى القاهرة من أجل إسقاط الحكومة الموالية لبريطانيا سلمياً، ولكن الأمر لم يتم بسبب الإخفاق في التحاق المجاميع الأخرى، ومع أن الخطة تبدو ساذجة في عُرف مفاهيم اليوم، ولكنها كانت خطة ذات أبعاد سلمية للقيام بعملية التغيير.

في أثناء حكمه وخصوصاً في بداياتها أثبت الشارع المصري بأنه شارع ذو ثقافة جامعة، وأن السنين العجاف لم تمض في نوعية وحدة ثقافته السلمية، فقد اجتاحت المظاهرات العارمة التي انتشرت في مصر في أعوام 1975، 1976 وأشدها في عام 1977 اعتراضاً على تقنين أسعار المواد الغذائية، وهي المظاهرات الوحيدة خلال ربما منذ عام 1952 التي تجتاح مصر والتي لم يقابلها السادات إلّا بنوع من فتح الحوار مع الطلاب ومع نقابات العمال ولم يفتح السجون ثانية أمام تلك الملايين.

كانت هذه المظاهرات بمثابة مؤشر إلى السادات في أهمية صلابة الثقافة المصرية الجامعة، وأن مصر مهيأة إلى أن تعيد قدراتها الفكرية

في السيادة. مع أن المعترضين على السادات كانوا يرون بأن اليسار المصري العنيف كان وراء أعمال العنف التي انتشرت في الأثناء وذلك بسبب طرد المستشارين السوفيت من مصر. مهما كانت الأسباب موافقة لتصوراتنا أم مخالفة في التوجه الإيديولوجي ولكنها تبقى الظاهرة كما هي مجردة لا تعبر إلّا عن وجود ثقافة جامعة سلمية وطنية.

مشروع السادات كان في الواقع مشروعاً شخصياً نبعت فكرته من ذات أفكاره، وهكذا مشاريع ثقافية مهمة لأمة من الصعوبة أن يتم هندستها ضمن قدرة الشخص الواحد، فالمشاريع الثقافية نتاج مجموعة فكرية تبدأ ربما من شخص، ولكنها من المهم أن تتحقق على مستوى الأمة.

السادات كان ذي ثقة بنفسه إلى الدرجة التي كان يعتقد بأنه سيحقق حلم عودة المشروع المصري الثقافي إلى واقعه في خلال مدة قصيرة وربما في فترة حكمه، ولكنه كان واهماً في الوقت الذي سجل في طريقة تعامله مع المشروع المصري الثقافي خطوات كبرى جداً أمام إنضاج المشروع العملاق في الربيع العربي المصري الذي توج في عام 2011.

هذا مع قولنا في أن الأمم من الصعوبة لها أن تبني مشروعها الثقافي بحادثة مستقلة أو خطوة منفردة، فالثقافة تبنى في سلسلة طويلة من الإخفاقات والنجاحات والمبادرات يذهب ضحيتها الكثير من حسني النية، ويتزعم قسماً منها أصحاب النيات السيئة، ثم تسير ضمن برنامج تفرز فيه القدرات إلى أن تصل إلى نقطة النضوج عندها تنفجر

بشكل منسق كما هو حادث الربيع العربي الذي انطلق في القاهرة في 25 يوليو 2011.

وأمام عظم المسؤولية التي حمّل السادات نفسه بها، لم يكن أمامه إلّا أن يضعف كما ضعف من قبله في مواجهة الأحداث التي تسير على النسق الطبيعي ضمن السنة الطبيعية، فتغيّرت نفسيته باتجاه السلبية في التعامل مع الأحداث، وتوجه إلى الكثير من القيادات المعارضة له فزج القسم منها في السجون وتعامل مع الأحداث بأسلوب مختلف جداً عن الأسلوب الذي بدأه قبلاً.

اغتيل السادات على يد المتطرفين الإسلاميين[1] في الحادثة المشهورة في السادس من أكتوبر من عام 1981 وخلفه نائبه حسني مبارك. وقبل الانتقال إلى فترة الشخصية التي نضجت فيها ثقافة السلم لا بأس في أن نلقي بعض اللمحات على مسيرة السادات وكيف ساهم مشروعه في تنشيط ثقافة السلم التي استشرت ما بين الشعب المصري.

سننيّة الثقافة المصرية السلمية: من السذاجة الاعتقاد بأن الثورة الأمريكية ونجاحها في عام 1787 كان يعود إلى سبب واحد، فالمشاريع الثقافية الكبرى للأمم هي حصيلة تكاملية (Accumulation) لمجموعة

(1) من الصعوبة أن أتمكن من هضم الرواية التي تقول بأن الاغتيال كان بتخطيط شخصي من قبل الإسلامبولي ومجموعته، نعم من الممكن أن تكون المجموعة تلك هي اليد المنفذة، ولكن التخطيط كان تخطيطاً أكبر من فكرة قتل السادات، إن هدف عملية الاغتيال كانت ترمي إلى منع مصر من أن تأخذ واقعها التاريخي في قيادة المنطقة خصوصاً وأن عوامل النهوض التي أظهرها الشعب المصري منذ مجيء السادات كانت ايجابية باتجاه بقاء الأمة المصرية حية وذو قدرات يمكن لها من أن تقود المنطقة.

من المعارف ومن الأحداث لا يمكن لذلك المشروع أن يتحقق إلّا بعد استكمال مفردات كثيرة يقام عليها كل مشروع حياتي أو سياسي.

فهو حلقة مترابطة من المعلومات ومن الأحداث ومن الشخصيات، وقد من الممكن أن يكون غياب عنصر واحد كاف لتأخر المشروع الثقافي المنشود. فالثقافة المصرية السلمية الحضارية لم تكن بالتأكيد قد نضجت في حكم مبارك ولا في حكم السادات ولا في حكم أي من السلالات الفرعونية في العصور القديمة، وإنما هي حالة من التفاعل ما بين عوامل عديدة يفضي كل منها إلى الآخر بشكل ترابطي وتكاملي تتحكم بها سنن الحياة، وسنن الإنسان مع مساندة سماوية أحياناً لتوفير متطلبات النجاح.

فالسادات جاء لفترة زمنية مهمة من تأريخ مصر، وهو زمن الانعطاف في التوجه الحضاري المصري في أن يذوب في الثقافة التي عبّرت عنها سابقاً الثقافة المصطنعة، بعدما اعتقد ناصر بأن المصريين القدماء أو المسيرة التاريخية لمصر لم يكن لها من تأثير في الجينات المصرية الثقافية للشعب. . . وكان من الممكن على المصريين أن يتحولوا إلى مجتمع أقرب إلى الواقع الخليجي مع الفارق في التشبيه في أنه يفتقد لأرومة فكرية وثقافية.

ومع أننا لا نؤمن بأن الشعوب يمكن لها أن تتحلل من ثقافتها بملىء إرادتها، لأنّ الثقافة أمر خارج عن سيطرة إرادة الشعوب. كما هو الشخص الذي لا يمكن أن يُغيّر من مسيرة أجهزته العضوية في العمل وفي حركة الحياة. . . نعم من الممكن أن يتحلل الفرد من ثقافته، ولكن ليس الأمم والشعوب.

فالانفتاح الذي أقره السادات تجاه الأفكار الدينية السياسية المتباينة عملت على خلق جو من التصادم فيما بينها بدرجات متباينة مع اتجاه تضعيف إحداهما للأخرى أمام قوة الدولة التي كانت في ذات الوقت لا تمتلك أكثر من حركة القوة العسكرية التي تتحلى بها مصر منذ زمن بعيد المتمثلة بالمخابرات والجيش والشرطة.

هذه التوجهات الثلاث لم تكن هي التي تملأ فراغات واقع مصر من الناحية الثقافية. . . . . فقد اعتقدت قوى الإسلام السياسي بأنها قادرة على خلق ثقافة السيطرة البديلة سواء أكانت بالعنف أو بغير العنف، بعد أن صار مؤكداً بأن التيار الديني المصري المتمثل بالإخوان هم من تمكن من غزو كل بلدان العالم، وأنه آن الأوان له في أن يتحول إلى قوة سياسية فعلية لها ثقافتها الخاصة التي لا تتعلق بما يحمله كل التأريخ المصري منذ القدم.

بل كانت تلك القوى ترى في أن الثقافة البدوية التي جاء بها العرب أيام عمرو بن العاص (ت 45) ومعاوية بن خديج (ت 52) وعبد الله بن أبي سرح (ت 37) هي الثقافة البديلة للثقافة المصرية القديمة والحديثة أيضاً، فلم تعتقد تلك التنظيمات بوجود شيء اسمه ثقافة مصرية، وإنما ذلك الاسم كان له من وجود ولكنه ذاب في الاسم الجديد وهو ثقافة القوة العربية الإسلامية التي وضع أسسها تلك الأسماء الثلاث مقتدية بسنة النبي كما يعتقدون وهي سنة القرآن التي أوحي بها إلى نبيه.

فقد كانت التوجهات الإسلامية السلفية والاخوانية بل كل

الإسلاميين المصريين ولنسمه جيل ما بعد نكسة حزيران عام 1967 يرى بأن تأريخ مصر قد بدأ منذ أن وصل الإسلام أو الغزو العربي إليها. فتأريخ المصريين يبدأ من فترة 20 هجرية، وبذات المذهب والأصول والتوجهات، وهي ثقافة التعصب البدوية القرشية ضمن أسماء محسنة وليست تلك الأسماء مثل الفتح الإسلامي، عصر الخلافة، الخلافة الراشدة وغيرها.

هذه الأفكار ليس من الصعب تسويقها في مجتمع مثل المجتمع المصري في وقت السادات لما لذلك من توفر لأرضية طبيعية وسيكولوجية.

أما قوى التغريب فإنها كانت حالمة في عينة أو نخبة كانت تعتقد بأنها قادرة على قيادة مصر ضمن قوى اقتصادية وقوى تكنولوجية. وهذه في الحقيقة مع أنها ذو تأثير كبير ولكنها ليس بذي فعالية.

أما الحكومة المصرية فأنها اعتقدت بأن عملية الصلح مع إسرائيل ستكون العقدة التي تفتح أمام مصر باب التطبع من العالم، وأن ذلك سيحرر طاقات المصريين باتجاه مستقبل البلد وبنائه. فقد كانت الطريقة السلمية التي اتبعها السادات في إعادة سيناء وإعادة الأجزاء التي احتلتها إسرائيل في حرب 67 قد غيّرت من تفكير ابن الشارع المصري في أهمية قدرة الحوار وقدرة الحل السلمي على تحقيق الأهداف، ولكنه أي الشعب المصري لم يفهم ذلك إلّا من خلال عنصر القوة التي حققتها حرب اوكتوبر 1973، فالقوة هنا هي التي حققت حسابات السلم، ولولا الحرب لم يتمكن السلم من أن يحقق رسالته. هذا هو

المفهوم الشعبي الذي فهمه المصريون. بالتأكيد كان ذلك رسالة ولكنها رسالة مقروءة نصفها، وهو في مسيرة الحضارات والشعوب أمر مقبول ما دامت التصورات تسير باتجاه بوصلة الحل السلمي، لا باتجاه العنف والحرب.

فالسادات هنا وفي فترة حكمه أجاب عن سؤالين مهمين وهما:

- الشعب المصري لازال لم يفتقد ثقافته (المصرية) المميزة.
- السلم أقرب طريق إلى القوة وليس العكس.

هذان المفهومان من الصعب تحقيق بنائهما في عقلية المصري من خلال النظريات والأفكار والكتب والمحاضرات، إنهما أمران يتم تبنيهما وصحتهما من خلال عمل أو فعل أو مجازفة، وهو ما حققه السادات بالذات الشخصية التي تأثرت بثقافة آل البيت وثقافة السلم التي سار عليها من قبله في مجتمع كان يعتقد هو بأنه فقد أصالته في تفهم مصطلحات التغيير السلمي بسبب عنصر الزمن وعنصر توالي الحكومات المختلفة. ولكنه أدرك وكما يبدو بأنه كان على حق في أن المصريين لا زالوا شعب أصوله هي أصول تشترك مع ثقافة (التشيع السلمية) وليس مع (ثقافة التسنن العصبية).

ثالث القوم مبارك: جاء الرجل إلى السلطة في (فلتة) من التأريخ بعد أن سارت السنن باتجاه التغيير المنشود بطريقة أقرب إلى الإعجاز، فلولاه يعني لو كان ناصر آنئذ في السلطة أو السادات لما كان للربيع العربي الإعجازي أن ينطلق من عقاله. فقد كان مبارك شأنه كشأن عثمان بن عفان (ت 35) ذو النورين وتأثيره في مسيرة التغيير التاريخية

بغض النظر عن صحة أو عدم صحة أرائه أو قراراته أو طريقة حكمه، لأننا نتحدث في هذا الكتاب عن تحليل المخرجات التاريخية وليس عن صحة أو خطأ فعل ما لشخصية أو لدولة.

وهنا نرى الرجل جاء إلى الحكم في عام 1981 (نافجاً حضنيه بين مثيله ومعتلفه وجاء معه بنو أبيه فطفقوا يقضمون مال الله قضم الإبل نبتة الربيع). . . . فالثقافات ولكي تجد لها متسعاً من النمو يجب أن يكون هنالك أنموذج مناقض للحالة الثقافية، فقد كان مبارك تماماً هو الحالة المخالفة لثقافة - بغير إدراك منه - التطور الثقافي المصري الحضاري، بل عن حسن نية وقصور في فهم الذهنية المصرية.

لم يكن مبارك شخصية سيئة بل كانت أميل إلى البيروقراطية منه إلى الوطن. فقد أحاط نفسه بقدرات علمية واقتصادية وفكرية وغيرها، ثم طوّر مصر باتجاه التحديث في الوقت الذي لم يحمل في إيمانه مستقبل ذلك التطوير، حيث كان يعتقد بأن مصر مهددة من الداخل من قبل الثقافة الشيعية أو ربما الشيعة كمذهب، وهو وهم أضافته على مخيلته مسيرة الثورة الإسلامية في إيران وصراعه معها إلى الدرجة التي دخل معها في مواجهة ليس لها من فائدة على الوطن، وقد شجعه على ذلك الخط الثقافي المتسنن الذي له جذور كبرى في مصر وقربه من السعودية التي تبنت أسلوب تصدير المشاكل إلى خارجها لئلا تصيبها في عقر دارها.

حارب مبارك الشيعة ولكنه لم يدرك بأن المصريين هم في دواخلهم ذو ثقافة شيعية تميل إلى الصبر والتأني وتحمّل الحاكم بدرجة ما، فقد

كانت المسيرة العلمية والتكنولوجية في العالم قد انتقلت إلى مصر بصورة أكثر منه في البلدان العربية الأخرى ربما ما عدا لبنان. والتي تمكنت تلك المسيرة من أن تمزج الثقافة السلمية بالثقافة العلمية التكنولوجية، فكان المصريون من الأوائل في نبش التأريخ ومعرفة نقاط التقائهم مع الماضي الإسلامي أو الغزو الذي وصل إليهم، فقد تمكنت النقاط (الحارة) (Hot Points) في التأريخ الإسلامي أن تظهر على السطح، وأن تناقش في الإعلام[1] وعلى مستوى الجامعات ومراكز البحوث والأزهر.

فالتناقض في التركيبة التاريخية مع العقل وفي مسيرة طبيعة الإنسان بدأت تناقش بشكل أكثر انفتاحاً في مصر منها إلى أي من الأقطار الإسلامية التي تحظر هذا النوع من التفتح الفكري على التأريخ وعلى الموروثات الدينية التي وصلتنا. كما بدأ الباحثون في التوجه إلى دراسة الجزء (المعصوم) سواء أكان ذلك على مستوى الشخصيات أو على مستوى الفقه الإسلامي أو على مستوى أحاديث القرآن، فوضعوها ثانية على طاولة البحث والتنقيب لا بدافع الانتقاص وإنما بدافع إعادة البحث عن الحقيقة. ودخلت معهم القوى الدينية المتطرفة في نزاع وصل إلى المحاكم وتم انتزاع أحكام قضائية بحق أولئك المتنورين.

---

(1) أنظر قضية اغتيال فرج فودة ثم محاكمات الشخصيات التي صبت آرائها في التصورات القديمة للتأريخ الإسلامي أمثال: فرج فودة، نصر حامد أبو زيد، خليل عبد الكريم، أحمد صبحي منصور، علي عبد الرازق، طه حسين، جمال البنا. كما انظر الموقع التالي: http://en.wikipedia.org/wiki/Farag_Foda.

كل أولئك المجدّدون في الفكر التاريخي والفكر التراثي كانوا شخصيات ليست من العامة بل هم من عينة القوم ومثقفيه. كما تم في الفترة تلك من مزاحمة فكرية حضارية كانت تقوم به مجموعة من علماء التشيع الإيرانيين والعراقيين ليس بدافع الإقناع في التحول المذهبي وإنما بدافع التقارب ورسم سياسة جديدة للأخوة الإسلامية. هذا في الوقت الذي كان التنظيم الإخواني وبقيّة التشكيلات المتبرعمة منه لا تخلو من تفهم أصول الشخصية والثقافة المصرية والعمل بشكل حثيث لانتزاع بقايا ما يسمونه الفكر الجاهلي منها وهو الفكر الحضاري الذي يشمل التاريخ المصري بكامل سياقاته. . . . . . وهنا التقى الفكر الاخواني مع الفكر السلفي في تغييب وقتل العمق الثقافي للأفكار الأخرى التي تتزاحم مع مبادئ الفلسفة السلفية فيما يخص حرية الاعتقاد وحرية مناقشة التاريخ ورواياته وطريقة الاجتهاد في فهم الدين.

وكمحايد أنقل رأيي في ذلك وأقول بأحقية مبادرات الجماعات الإسلامية المصرية في صيانة الفكر الذي يعتقدون به لا من خلال بناء مناعة داخلية بل من خلال عزل الفكر خوفاً من إصابته بما هو مضر فيما يعتقدونه من علم وموقف، وهي إستراتيجية مختلفة عن استراتيجيات أصحاب الأفكار في العالم في صراعهم على حلبة الممارسات الفكرية بعكس مبادئ الثقافة القرشية البدوية التي ترمي إلى التخلص من المنافس بطريقة أسهل من التعايش معه على أمل الفوز أو الخسارة.

فلم تتحرك المنظمات الإسلامية المسلحة المتمثلة بعناصر السلفية إلّا في عام سبتمبر 1981 في عيد الأضحى والتي راح ضحيتها أكثر من

118 من عناصر المخابرات، وكذلك أحداث ما يسمى بالأمن المركزي في الجيزة عام 1986 والتي امتدت إلى أسيوط بشكل أكثر عنفاً[1]، تبعتها أحداث أبريل 6 من عام 2008 التي بدأت في المحلة الكبرى وانتشرت في عموم مصر[2]. مع أن الحدثين الأخيرين كانا ذي دوافع مختلفة غير فكرية.

مشكلة مبارك هو أنه من المدرسة القديمة المذهبية التي انطلقت ما بعد الحرب العالمية الأولى التي كانت ترى في التشيع بأنه رأس الانتفاضات العربية أو الإسلامية وهو ذات التصور الذي عاشته أمريكا إلى حين سبتمبر من عام 2001 عندها تبدلت القناعات وأصبح العالم لا ينظر إلى الخلفية الدينية أو المذهبية، بل أنه بدأ ينظر إلى الثقافة التي نشأ عليها ذلك المذهب أو ذلك الدين.

فبعد أن ضربت الثقافة المتسننة السياسية أمريكا في عقر دارها، كان ذلك إنذارا لكل المعاهد العلمية العالمية أن تغير من مفاهيمها القديمة وأن تفكر بمصطلح جدي برز إلى الأحداث العالمية حديثاً ذلك هو (ثقافة التسنن) بدلاً من (مذهب التسنن) أو (مذهب التشيع) مع أن كلي المصطلحين يأخذ أحدهما من الآخر بشكل كبير، ولكنه لا يمثله كله بما يحمل المصطلح من مفاهيم، فليس كل السنة هم ذو ثقافة سنية، كما ليس كل الشيعة هم ذو ثقافة شيعية، في الوقت ذاته هنالك الكثير من السنة يحمل ثقافة التشيع، ويحمل ثقافة التسنن الكثير من المنتمين إلى المذهب الشيعي.

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/1986_Egyptian_Conscription_Riot.
(1) http://en.wikipedia.org/wiki/2008_Egyptian_general_strike.

كان مبارك من المدرسة القديمة التي لا تميز بين (ثقافة) و(مذهب)[1] فاعتقد بأن الخطر هو خطر شيعي وخصوصاً أن الثقافة الشيعية متأصلة في مصر بصورة تكاد تسود أصحاب الفكر والكتاب وشيوخ الأزهر والصحفيين وأساتذة الجامعات[2].

(1) كما هو الطبيب القديم الذي لا يميز بين البكتريا (كرام سلبية) وأخرى (كرام ايجابية)، أو بين فيروسات (H1N1) وفيروس (H1N6).

(2) مثل الشعراوي (العالم المفسر المعروف)، ومحمد الغزالي (الكاتب والعالم المشهور)، وعالم الاجتماع الكبير د. سيد عويس (صاحب نظرية الحل السلمي المصري)، وسعد الدين إبراهيم (الكاتب المعروف)، ونصر حامد أبو زيد (صاحب نظرية دراسة النص القرآني)، ومحمود أبو رية (صاحب روايات أبو هريرة)، والبرادعي (السياسي المعروف والعالم الفيزياوي وحامل جائزة نوبل)، وخليل عبد الكريم (الكاتب والأستاذ المشهور)، وأحمد منصور (السياسي والكاتب المعروف)، والسيد القمني (صاحب نظريات الاركيولوجي الإسلامية)، وعلي عبد الرزاق (صاحب نظرية الحكم في الإسلام)، وفرج فودة (المؤلف والكاتب القبطي المعروف)، وطه حسين (الكاتب والمفكر وسيد الجيل)، وجمال البنا (الشقيق الأصغر لحسن البنا). وصالح الورداني (المحامي المشهور والكاتب البحاثة)، واحمد راسم النفيسي (الأستاذ والكاتب)، ومحمد الدريني (الشخصية العملاقة)،و حسن شحاتة (الشهيد العالم)، ومحمد يوسف إبراهيم (العالم الكبير)، ومحمد الطباطبائي (الأستاذ المعروف)، محمود دحروج (الأستاذ الكبير)، والدمرداش العقالي (مستشار ملك فهد ومبارك سابقاً)، وسعيد أيوب (المؤلف والأستاذ)، وحسين الضرغامي، ومحمد أبو العلا، والسيد فرغلي، وأحمد هلال، وإحسان بلطجي، وعبد السلام شاهين، وهشام أبو شنب، ومحمد أبو نحيلة، والدسوقي شتا، وفهمي الشناوي، وأمين الهويدي. ورجب هلال حميدة، ود. الأستاذ عبد الرحيم السايح (عميد جامعات الأزهر وكان يخفي تشيعه وقد توفى رحمه الله)، والشرقاوي (الكاتب الكبير)، وعبد الفتاح عبد المقصود (البحاثة) وغيرهم كثيرون. وهؤلاء ليس بالضرورة أن يكونوا شيعيي الانتماء المذهبي، بل ربما أكثرهم هم سنة أحناف أو موالك، ولم يكن منهم من اعتنق التشيع مذهبا إلّا اللهم اسمين أو أكثر بقليل.

فبالقدر الذي يضغط مبارك باتجاه محاربة ما يدّعيه هو بأنه فكر تطرفي شيعي فإن الفكر المتنور والميل إلى السلمية في الخطاب يزداد تأصلاً في طبقات المثقفين من أبناء الشعب ومن المنتمين، بحيث أن الكثير من المنتمين إلى حركة الإخوان قد شكوا إلى قادتهم بالخشية من اختراق الثقافة الشيعية لجسم الإخوان وثقافته وطريقة نظرته خصوصاً إلى مسائل الحكم، ومسائل التغيير السلمية. فقد عزل الإخوان البعض من منتميهم ممن كان يمتلك ثقافة شيعية من بين صفوفهم خوفاً من انتشار ثقافة السلم ما بين التنظيم. هذا في الوقت الذي لم تكن الجماهير المصرية لتدرك عمق مغزى الخوف من التيار الإسلامي الجديد الذي يحمل مفاهيم السلم بعيداً عن مفاهيم الجماعات المتطرفة التي نشأت ما بعد مجيء السادات إلى الحكم[1].

وهنا صار المشهد كالتالي:

- الحكومة تستأنس بالعنف الصادر من الجماعات لأنه سلاح قوة السلطة.
- الإخوان محرجون أمام ظاهرة (الإسلام السلمي) و(إسلام الحكم) المعنونين بالعنوان الثقافي الشيعي[2].

---

(1) عدد المنتمين إلى مذهب الشيعة المصريين هم تقريباً مليون ونصف فقط هذا بدون عدد السادة أو الهاشميين أو الطالبيين الذين يصلون إلى أربعة أو ستة ملايين على اختلاف التقارير. مع أن الخط الفاصل ما بين عقيدة آل البيت وبين التشيع خط واهٍ جداً. أنظر تصريحات سعد الدين إبراهيم على الموقع التالي:
http://www.ahl-alquran.com/arabic/printpage.php?doc_type=1&doc_id=1399.

(2) الدمرداش العقالي المستشار السابق للرئيسين فهد ومبارك والذي تحوّل إلى =

- السلفيين من أكثر الجماعات التي تخشى الثقافة الشيعية وهي ترى ضرورة استدراجها إلى ساحة العنف.
- الصوفية حركة سلمية ذو قلب مخفي من التشيع السلمي.
- الشيعة المذهبي الانتماء ليس لهم دور يذكر وهم ذائبون في الجماهير المصرية.
- الحركات الجديدة (ككفاية) وغيرها كانت ذو توجهات علمانية تميل إلى السلم بعيداً عن العنف.

وهنا بات واضحاً بأن الانقسام لم يكن انقساماً مذهبياً ولا دينياً، بل هو انتماء ثقافي، في جهة هنالك جماعة عنف مقابل جماعة سلم وهو الشيء الذي تميّزت به التشكيلات التي شاركت في المجتمع الذي كان يقوده مبارك.

كان مبارك غارق إلى شحمة أذنيه في سفسطائية لها أول ولكن ليس لها آخر، وخصوصاً عندما صرح إلى قناة العربية في مقابلة متلفزة في نيسان 2006 بأن شيعة العالم ولاؤهم هو لإيران، بغض النظر عن دوافع هذا التصريح السياسية فإنه في ذات الوقت يعتبر فرضاً حتى مع واقعيته فهو لا يخدم موقعه، أو أي موقع آخر ولذلك فإنني أعتقد بأن مبارك كان يرمي إلى شيء آخر في تلك المقابلة، لأنه ليس رئيس عادي أو شخصية مريضة لا تفقه ما تقول، ولذلك فإنني انفي عنه بما معنى ما ظهر على قناة العربية. في الوقت الذي يوجد رأي آخر لو افترضنا انه

= المذهب الشيعي يرى بأن مبارك قد عقد صفقة مع الأخوان بوساطة أرودوكان من أجل تعاون مستمر على حكم مصر بطريقة ما. أنظر التالي على:
http://alwatan.kuwait.tt/ArticleDetails.aspx?Id = 129884.

كان يعني بما قاله هو فقط انتماءه إلى المدرسة القديمة في فهم التشيع مذهباً وليس ثقافة[1].

ولئن كان الخليفة الثالث عثمان قد خلق من خلال طبيعة ممارسات الحكم التي اتبعها في قيادة الأمة (11 سنة) إلى تميز الثقافات بعضها عن البعض الآخر، والتي أدت كما يرى البعض من المطلعين بأن يتحول التشيع إلى حركة مميّزة عن الجسم العام الإسلامي وهو الذي أوصل علي إلى الحكم[2]، ولعل من أهم ما يميز تلك الفترة هو التكالب على المال العام من قبل حفدة عثمان ومقربيه، وهو ربما أحد أهم العوامل التي فرزت المجتمع إلى مجتمع ينادي بالعدل الذي قاده أبو ذر (ت 35) في ذلك الوقت ضد مجتمع ثقافة السلطة القرشية الأموية وضد العنف، وهو الذي كان بنو أبي معيط (انتماء عثمان) يقودونه من خلال طيبة وسماحة الخليفة.

ويتشابه أمر مبارك في الواقع المصري بعد أكثر من ألف وأربعمائة سنة على الحادثة المذكورة تواً في أن يحوّل هذه الأرض التي اقتطعها عثمان إلى صهره مروان ابن الحكم إلى أرض بيد مبارك ومقربيه مع الاختلاف في الطبيعة الاستثمارية التي كان الطرفان ينوون العمل به.

كان الشغل الشاغل لمبارك بعد أن استسلمت العرب لقيادته طوعياً

---

(1) هذه النوعية من التصريحات قد ساعدت كثيراً وكرد فعل (Backfire) في انتشار الثقافة الشيعية في داخل الحركات المصرية بالصورة التي لم يتمكن أي من دور النشر من توفير المادة الثقافية للقارئ المصري في تلبية زيادة طلبه على الكتاب الشيعي.

(2) أننا نختلف في طريقة تفسير الأحداث مع اتفاقنا في التشخيص.

أن يكون الشخصية التي لا يمكن لأحد من منازعته في موقعه القوى الذي اكتسبه من خلال عوامل كثيرة ساعدته على تحقيقه، كما لم تكن الحرية النسبية التي منحها إلى الإخوان في مصر اعتقاداً منه بأنه يتمكن من أن يضرب بهم الحركات الجهادية الإسلامية بالإضافة إلى تقليل التأثير الثقافي الشيعي الذي بدأ يقفز ويحتل مراتب متقدمة في مراكز العلم ومراكز السياسة. وهو ذات التصور الذي غالبا ما يخفق الحاكم في تشخيصه، كما في رؤية جيمي كارتر في عام 1977 عندما نادى بفكرة حرية الأديان وحرية الأفكار وحقوق الإنسان ولأول مرة في التأريخ السياسي الأمريكي، وسببت تلك التصريحات إلى توفّر جو خصب لإنطلاقة الثورة في إيران وانتصارها فيما بعد في عام 1979.

ذات القصة تكررت ولكن بالشكل المعاكس مع الرئيس الأسد الابن عندما قرّب التيارات الإسلامية الجهادية في سوريا أملاً منه في أن تقف سداً منيعاً ضد التدخل الأمريكي في العراق في عام 2003 تجنباً لمحاولات أمريكا من زعزعة النظام في سوريا، فانقلب كما يقولون السحر على الساحر وتحولت تلك القوى إلى قدرات كبرى لتوجيه حرابها إلى الأسد ذاته.

فقد كانت أميّة مبارك الثقافية بالشعوب واضحة على طبيعة إدارته إلى الحكم، وفي مواقفه من التنظيمات الإسلامية ومن التنوعات الفكرية، فقد كان رهانه مبني على مفهوم الحداثة الذي اجتهد كثيراً في أن يفعّلها في المجتمع المصري، مع أن الحداثة أمر ليس له علاقة تناقضية مع المفاهيم الثقافية أو الدينية، بل أن الحداثة صورة محسنة من ثقافات الشعوب، وليست بديلاً لها.

فقد نجد من الغرابة في أن يقوم رئيس عربي كشخصية مبارك، بل أهم رئيس أفريقي كذلك أن يترك كل الاهتمامات التي تخص مصر وتحدياتها ويلتجىء إلى مواجهة مسلمين لا يمثلون من نسبة كل مصر إلّا 0.02% من نسبة السكان. مع عدم وجود ما يثبت ميلهم إلى العنف أو إلى الثورة أو التعطش إلى الحكم.

هذا إذا افترضنا بأن عدد الشيعة مليونا نسمة، وأنهم كلهم يعيشون على وتيرة فكرية واحدة، أو توجه سياسي مشترك في إسقاط النظام. وهذا الفرض مع عدم واقعيته لا يدع مجالا للشكل في أن مبارك لم يكن يحارب الشيعة المصريين ولا الشيعة في العالم كمذهب، وإنما كان يرمي من ذلك إلى مواجهة التوجه الثقافي الشيعي الذي بالفعل لو كنا واقعيين فإنه يمثل خطراً ليس على مبارك فحسب، بل على كل من يخرج عن منطق الديمقراطية والتعددية الحزبية العادلة من الحكام.

ثمة شيء لا بأس بالإشارة له هنا وهو أن شيعة مصر المنتمين إلى المذهب ليسوا هم بنفس عقلية شيعة إيران وشيعة العراق من الناحية الاعتقادية، فكما يختلف الشيعي الإيراني عن الشيعي العراقي، فانه يختلف بالتأكيد الشيعي المصري عن الشيعي الإيراني، وهي قضية تكاد أن تكون واضحة في عُرف الشيعة في العالم أجمع، وخصوصاً فيما يتعلق بواقع نظرتهم إلى ما هو خارج عن نطاق الفتوى والمرجعية الدينية، فالكل ربما يتفقون على مبادئ التشريع فيما يتعلق بالصلاة والصيام والحج والعبادات الأخرى مع وضوح ملحوظ في اختلافهم السياسي والاجتماعي والفكري ونظرتهم إلى مستقبل العالم ومستقبل البلد.

فالمصري الشيعي وخصوصاً المتشيع هو عبارة عن نموذج خاص وعيّنة مميزة في العقل الإسلامي عموماً، لما اكتنزته تجربته من قدرات كبرى ومعرفة موسعة اكتسبها من المحيط المصري حيث تتعانق فيه الأفكار بشكل يتمكن منه الإنسان أن يشبع طموحه في الطرح العلمي والفكري.

وهو بالتأكيد لا يرمي في مشروعه الشيعي إلى الانتفاض على الحكم أو الوصول إلى حكم مصر أو منافسة التيار السني المذهبي أو أي من التيارات الأخرى كما هم شيعة لبنان والسعودية على سبيل الفرض، فأقاويل أن هنالك من تقدم إلى تكوين حزب شيعي في مصر هو رأي يستبطن المطالبة بحقوق الشيعة، وليس انتزاع ما يملكه الآخرون، وهو كما اعتقد ليس بالأمر المستغرب في الدول الديمقراطية، أو الدول التي تحترم حقوق الإنسان.

فكندا أو ربما كل دول العالم الديمقراطي تقدم إلى الأديان وجالياتها مساعدات سخية من أجل تنشيط الممارسات الدينية لإدراكهم بأن الدين بما هو عام هندوسياً كان أم إسلامياً، أو يهودياً يصب في النهاية في نهر القيّم والفضائل وهذا ما ينعكس بالتالي على حالة المواطنة واحترامها للوطن ولحقوق الآخرين من الجاليات ومن التنوعات الفكرية[1].

(1) في كندا، يعتبر سب وازدراء الأديان جريمة بموجب المادة 296 (1) من القانون الجنائي. وهي جريمة جنائية يعاقب عليها بالسجن لمدة لا تزيد عن عامين، وتخضع المادة 296 للمادة 2 من الدستور الكندي للحقوق والحريات، كما يمكن قراءته مع المادة 1 من الدستور. انظر التفاصيل في:
http://en.wikipedia.org/wiki/Blasphemous_libel.

مادة الثورة: إنّ الثورات في العالم عبارة عن حالة من التطور شبيهة بالجنين الذي يبدأ في بطن أمه ثم يمر بأطوار من النمو ثم يولد وينمو كما نعلم، البعض يرى في الثورات أنها انفعالات، نعم هنالك من الثورات انفعالية ولكن معظم ثورات العالم المتقدم أو الثورات التي غيّرت وجه التأريخ حالة تطورها شبيهة بمراحل نمو الجنين.

كذلك تصاب الثورات بما يصاب به الجنين من مشاكل الوراثة التي تبدأ وهو في بطن أمه والتي تحتاج إلى رعاية في العلاج أحياناً أثناء وجوده في بطن أمه، وأحياناً في الأسبوع الأول من الولادة وأحياناً فيما بعد.

كل ذلك متعلق بصانع الجنين أو صانع الثورة، فالكثير من الثورات يصنعها شعب بائس ينتفض من خلال حادثة وقتيه فتتولد ثورة مملوءة بالأمراض تحتاج إلى رعاية طبيّة من قبل المتخصصين الذين غالبوا ليس لهم من وجود، فتبقى الثورة عليلة ومريضة إلى أن تموت بأمراضها.

فقد كانت الثورة المصرية قد تم التوقع لها في أن تكون من قبيل الثورات التي تولد وهي محكوم عليها بالفناء، كما الجنين الذي يولد صحيحاً، ولكن العمق الوراثي للأمراض لن يدعه يعيش فيموت خلال فترة قصيرة.

وقد كان ذلك التوقع سائداً لدى تفكير الكل ممن شارك أو لم يشارك في صنع الثورة، ولم نجد هنالك من قال بعكس ذلك، في أن جنين الثورة سيولد صحيحاً سالماً له القدرة على تجاوز عُقد الثوار الآباء.

فالمجتمع المصري يمكن رؤيته من الخارج على أنه مجتمع لا

تجمعه ثقافة عامة وطنية، بل هنالك ثقافة إخوانية، وثقافة سلفية، وثقافة حداثة، وهذه الثقافات الثلاث تتصارع في انتزاع القوة من يد مبارك الذي تمكن من أن يبني لمصر موقعاً مميّزاً بين أمم العالم، كما هي طريقة السادات وناصر. ولكن مبارك كان الأكثر تفهماً فيما يتعلق بما أسميناه حداثة الدولة، وربما السبب في ذلك هو ابناه وخصوصاً جمال وزوجته[1] الذين كما هو معروف كانوا أكثر من أثّر على مسيرة قراراته وعلى حياته فيما يتعلق بإدارة البلد[2].

ليس لنا أن نحدد زمن ولادة الثورة في رحم المجتمع المصري، هذا في الوقت الذي من الصعب لنا في أن نحدد الفترة الزمنية التي تلاقحت فيها الأفكار التي صنعت الثورة، فلئن كان الجنين الإنساني يستغرق في مسيرة الرحم تسعة أشهر أو أقل فإن عمر حمل الثورات هو قرون بل أجيال، فالجنين الثوري لا يشابه الجنين الإنساني في البعض من صفاته بينما يشابه الخط العالم لأجنة البيولوجي الأخرى في النبات الذي قد يبقى قرون من الزمن منتظراً لحظة النمو والتبرعم.

---

(1) سوزران مواليد عام 1941 من أم بريطانية هي (ليلي ماي بالمر) وأب مصري. كذلك الشيء تجده في جيهان السادات التي ولدت من أم بريطانية كذلك.

(2) وهو أمر ليس بمستغرب لا في التأريخ العالمي، ولا في التأريخ الإسلامي، فقد تمكنت زوجات وأولاد الكثير من الشخصيات من تغيير قناعات أزواجهم بدرجة معاكسة لما كانوا يؤمنون بها مثل الزبير بن العوام ابن عمة النبي صفية، وزوج أسماء بنت أبي بكر الخليفة وكذلك علاقته بولده عبد الله. كما أن كتاب تأريخ مثالب العرب للكلبي فيه الكثير ما يغني الإنسان في هذا الموضوع، مع اعتراضنا على البعض مما جاء في ذلك الكتاب من حوادث تاريخية.

إنّ تكوين الجنين هو العملية الصعبة التي تستلزم دقة متناهية أي (نوعية) (Qualitative) بينما النمو هو بالإضافة إلى أنها نوعية فإنها عملية (كمية) (Quantitative). فالزارع للجنين هي الثقافة وهي الأب الحقيقي التي يتوجب أن تحمل أنصاف العدد من (الكروموسومات)، أي بمعنى آخر فكرة الاشتراك وليس فكرة الفردية، كما هو لدى الإنسان حيث يأتي النصف من الأبوين فقط خمسين بالمائة لكل منهما، فالتناسق ما بين المكونات الجنينية (الثقافة بتنوعاتها) مهمة جداً إلى نوعية ذلك الجنين (الثورة).

فقد يبدو لي بأن الزمن الذي بدأ الجنين به في التشكّل هو نهاية العصر الفاطمي، أي في سنة 1171 م وسبب استنتاجي من تحديد الزمن في ذلك الوقت هو قوة النوعية الثورية وطبيعة التفهم لطبيعة الثورة ومحتوياتها والتي لم تكن موجودة أو متوفرة إلّا بعد سقوط الدولة الفاطمية.

أي أن آباء الثقافات يجب أن يكونوا ذوي قدرات كبرى في تمكن الثقافة من شخصياتهم ونفوسهم ونوعية مفاهيمهم التي نشأوا عليها، فعلم المنطق يقول بأن الجزء لا يكون أكبر من الكل. هذا في الوقت الذي كانت مراحل النمو لجنين الثورة يمر بعقبات متعددة بعضها مرضية وبعضها صحية إلى أن صار الزمن في القرن العشرين عندها ظهرت أول علامات الثورة في حركة 1952 والتي لم تكن تمثل كل ما تحمله الثورة من مفهوم، وإنما كانت الظاهرة تلك هي ولادة قبل نضوجها في مجتمع لم يكن مهيأ للتعامل مع الجانب السلمي لأن السلم لم يكن له من قوة في مسيرة المجتمعات ما بعد الحرب العالمية

الثانية وإلى تقريباً عصر التكنولوجيا عندما اجتاحت تلك القدرة الصامتة وتمكنت من أن تسكت المدافع وتخرس الرصاص.

ثم بعدها وربما في زمن مقارب كان سلاح الإعلام وهو أيضاً من نوعية أسلحة السلم الفتاكة التي دخلت عصر صراع الأفكار.... ثم كان بعدها عامل عصر الشخصيات التي برزت بسبب قدرة الجسم البيولوجي أن ينتج عقلاً وقّاداً منتجاً كما هو عقل انشتاين (ت 1955)، وبيل كيتس، وغاندي (ت 1948) والخميني (ت 1988) ويوناس سولك (ت 1995)، ونلسون مانديلا (ت 2013)، في الوقت الذي كانت الشخصية ليس لها من تأثير على مسيرة المجتمع بسبب ضيق الأفق الإعلامي، والأفق التكنولوجي، وخوف السلطات من أن تتمكن الأسماء الكبرى تلك من أن تغيّر الواقع الموجود من خلال التأثير الشخصي الجماهيري.

ولكن باجتماع التكنولوجيا والإعلام والذكاء الشخصي وبتوفر أنظمة ديمقراطية متعددة في العالم أصبحت الشخصيات لها قدرة تأثيرية أكثر من السابق، فقد كان تأثير غاندي على العالم في وقته أقل كثيراً من تأثيره اليوم، كما كانت تأثيرات العالم الكبير يوناس سولك الذي أنقذ العالم من مرض شلل الأطفال[1] ومعجزته اليوم أعظم من ذي قبل في تأريخ اكتشافه عام 1955.

---

(1) عدد المصابين بشلل الأطفال في أمريكا وحدها في عام 1916 هو 27 ألف طفل، في عام 2014 انخفض المرض بنسبة 99% ولم يبق في كل العالم كله إلّا 220 حالة فقط بسبب اللقاح الذي اكتشفه د. سولك الذي كانت المؤسسات الأمريكية ترفض تعيينه بسبب اسمه اليهودي حتى تمكن أحد أساتذته من أن يتعطف عليه ويعينه في مخبره.. أنظر الموقع التالي: http://en.wikipedia.org/wiki/Jonas_Salk.

جنين الثورة: ولعلنا اليوم نحتاج إلى تلك الشخصيات بصورة أكثر من ذي قبل بسبب إدراك الحاجة إلى دورها وأهميتها وبسبب المحيط الديمقراطي الذي سمح للشخصية المبدعة بأن تأخذ دورها في تغيير المجتمع.

فشخصية البرادعي وغنيم لولا ظاهرة التكنولوجيا والواقع الديمقراطي لم يكن هنالك من يعرف من يكونان وما دورهما. فقدرة الشخصية لم يكن لها من دور في بداية إبداعاتها لأن المجتمع يعيش في حالة الفرق ما بين القادة وبين العوام وتلك الحالة لا تدع المجتمع وأفراده يدركون ماذا تعني تلك الشخصية، حتى متى ما نضج المجتمع ووصل إلى النقطة التي يقترب بها مع قدرة تلك الشخصية فعندئذ يدرك أهمية العطاء الذي قدمته في الأوقات السابقة[1].

وكما ذكرنا فإن الثقافة لا يولدها أب واحد كما هو البيولوجي مع أنه لمن الممكن أن يتحقق ذلك في حالات محددة جداً مثل ثقافة التوحيد التي ترتبط بأبيها الكبير النبي إبراهيم، وكذلك الثقافة اليونانية على سبيل الفرض والتي من الممكن تحديد أسماء آبائها[2] مع أن الأبوة لا تقتصر عليهم ولكن للسهولة لنا أن نقرأ مسيرة الثقافة اليونانية أو الإبراهيمية من خلال مسيرة الشخصية الأب.

فالثقافة المصرية الثورية التي انطلقت في أحداث الربيع العربي كان

(1) الناس ثلاثة: عالمٌ رباني، ومتعلمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق.

(2) هوميروس، سقراط، أفلاطون، أرسطوطاليس، الاسكندر، يوليوس قيصر.

الآباء قد وضعوا في رحم المجتمع المصري جنين الثورة منذ عهد صلاح الدين الأيوبي وعهد المماليك. وهذا يعني بأن التفاوت في النمط الحياتي ما بين عصور التأريخ له أن ينتج آباء لثقافات ربما بصورة مفردة، وربما بصورة مجموعة، فالتحول ما بين العصر القرشي وبين العصر الإسلامي كان عطاء تلك الفترة أن تتولد آباء لثقافة وهم الخليفتين الصديق والفاروق، كما أن التحول ما بين العصرين الراشدي والأموي كان هنالك آباء تولدت ليرسموا ثقافة جديدة، وأكثرهم معرفة هو الحسين ومعاوية، وهكذا عندما نسير في التأريخ نكتشف بأن التغيير المميز ما بين العصور من خلال نقلة أو من خلال حركة تاريخية أو ما يعبر عنها طفرة وراثية (ثقافية) فإن الزمن كفيل بإنتاج أب جديد لثقافة جديدة، ولكن الأب الجديد هذا لا يعني بأنه قادر على تنمية واحتضان الثقافة التي جاء بها، ولكنه يعني بأنه الأب لنقل عنه بالمصطلح لتقريب المعنى (الشرعي) لأننا إن شخصنا الآباء بأسمائهم فقد سهل علينا متابعة جزئيات تلك الثقافة من خلال قراءة فكر الأب لحد ما[1].

ففي المأثور ولا أدري هل لذلك علاقة بحديثنا قول الرسول: بأن الله يهيء للأمة على رأس كل مائة سنة أن يجدد مسيرتها[2] وهو أمر

(1) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾ [آل عمران: 33-34]. بالتأكيد العلم لا يورث، وإنما هو جانب حصولي. وما تريد الآية الإشادة إليه هو أن أسلاف أجيال الثقافة هم الذرية في علو الثقافات.

(2) إن الله يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها. (المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، 1998م. الجزء الخامس كتاب الملاحم والفتن).

أقرب إلى العقل في أجيال الثقافات، وهذا القول ربما سُنّة تنطبق على الكثير من العلوم كعلم الطب وعلوم وضعية أخرى، ولكن ليس بذلك الرقم المائة ولكنه أمر ممكن الركون إليه في تسهيل دراسة مراحل الثقافات.

وهل لنا أن نحدد أسماء الآباء للثقافة المصرية الجديدة (الثورية) بعدما افترضنا بأنهم كانوا قد عاشوا في زمن ما بعد سقوط الدولة الفاطمية في مصر. .؟ من ناحيتي ليس لي قدرة على تحديد هذا الأمر وليس لي من منفذ أن افترض اسم معين، فأنا أتعامل مع الحوادث من هذا القبيل بمنطوق التخصص لا بمنطوق (الرواية)، كما أتعامل مع الحدث العلمي الذي يتطلب بحثاً خاصاً لتفسير ظاهرة مرضية أو دوائية، فإذا عجز أحد الباحثين عن إدراك نوعية البحث الذي يقوم به للتوصل إلى تفسير تلك الظاهرة المرضية فإنه ينتظر باحث آخر من له القابلية أن يكمل ذلك البحث.

وهنا أترك الأمر من ناحيتي وأعتذر عن ضيق قدرتي في الاهتداء إلى آباء ثقافة الثورة المصرية الذين عاشوا في زمن انهيار الدولة الفاطمية وإلى حين وصول المماليك إلى الحكم، ولكن عدم معرفة مسببات الحدث لا ينفي المستحدث باعتبار أن الثقافة هي مسيرة لن تتوقف وأنها مستمرة سواء أقام الإنسان باكتشاف عواملها وأسبابها وآلياتها أم لم يقم، كما هو قانون الجاذبية الموجود منذ الخليقة يعمل بقانون ثابت سواء اكتشفه الإنسان ما قبل نيوتن أو لم يكتشفه.

ولكي لا نذهب بعيداً في تفسير أطر الثقافة وصعوبة اكتشاف آلياتها والتي ربما قد تأخذ من سطور هذا الكتاب الشيء الكثير، لنا أن ننتقل

مباشرة إلى معاني الثورة الجنين الذي بدأ يتنفس في عهد السادات ثم يكتمل شكله في عهد مبارك في يوم الثلاثاء 25 يناير 2011 الموافق 21 صفر 1432. ثم ليطل برأسه على عالم مصر وعلى مستقبلها لكي يترجم الماضي بحكاية الحاضر وبرموز المستقبل.

فكانت السنن قد حتّمت على الجنين أن يخرج إلى النور فهو محكوم بقانون الآن كما هو الجنين الإنساني. إما أن تنطلق الثورة أو تموت. . . . . فليس هنالك خيار ثالث بينهما، فالجنين لو مات افتراضاً فإنه يتطلب من الشعب المصري ربما مدة زمنية لا تختلف عن الفاصلة ما بين عصر نهاية الفاطميين الدموي وبين عام 2011 وهي تقريباً 830 سنة وهو رقم قصير في عمر الثورات والثقافات في تغيير الأمم.

ففرصة الثورة هي واحدة فقط، إما أن يعيش الجنين أو يموت، فقد هيأت السنن الثقافية الماضية الجنين لكي يصل إلى هذه المرحلة المتقدمة من العمر بعد أعوام عجاف ثمانية قرون أو أكثر حتى إذا ما وصل إلى هذه المرحلة كان على الظرف أو الثقافة السائدة في عام 2011 أن تتبناه، وأن تتعامل معه بذات الظروف التي يحتاجها في النمو، فلو ولد هذا الجنين في بولونيا أو العراق أو في السعودية على سبيل الفرض لما كان له أن يعيش أو أن يولد، بل لمات من ساعته. في الوقت الذي سوف لا يعلم بموت تلك الفرصة التأريخية (جنين الثورة) من الناس إلّا القليل جداً لا يتعدون عدد أصابع اليد الواحدة من الذين يعيشون فيما بين الأمة. أما عوام المجتمع فإنه لمن الصعوبة لهم أن يتحسسوا بموت جنين ثقافي ثوري تغييري، بل يمر مرور الكرام على الأمة وكأن شيئاً لم يكن.

وهنا يأتي دور أولئك القادة العظام الذين هم في الواقع ليسوا من سنخيّة البشر العوام بل هم هبة السماء للأمة، وهنا نتذكر ما قلناه سابقاً من أن الثقافات تشترك بها السماء بطريقة أو بأخرى في صنع مسيرة الأمة، لأنه لمن الصعوبة جداً أن نتصور ثقافة أمة أن تكون منفصلة عن السماء أو ثورة ثقافة أن تكون مركونة إلى الأرض فقط. . . . . هذه الشخصيات المهمة جداً والتي هي أحياناً لا تعرف لماذا قادها قدرها إلى أن تكون في موقع اكتشاف الثورة الثقافية[1] عمق مسؤوليتها تستلزم عليها تلتقّف جنين الثورة الذي مازال عوده طرياً غضاً لا يقوى أن يحبو على الأرض، عليها أن تعينه حتى يستوي عوده وتتصلب عظامه.

فقد أعلن الإخوان المسلمين بأنهم متحللون من رعاية الجنين أو أنهم ليسوا ممن يساندون رعايته ما لم تكن من صنع أيدينا (أنظر إلى

(1) لولا (تشرشل) لسقطت بريطانيا بيد ألمانيا ولكان العالم قد تغير كلياً، فنجده بعد التحرير قد توجه إنساناً عادياً إلى مزرعته بعد أن خسر الانتخابات لشعب قام هو بتحريره. كذلك ينطبق الأمر على (جون آدمز) محرر أمريكا الذي أرسله القدر في لحظة معينة من التأريخ وليس في غيرها من اللحظات عندما أصدر هنري الثامن قرار إعدامه هو ومجموعته الخمسين ثم خفف الحكم عن الباقين وبقي هو وحده مشمول بالقرار، فلم يكن منه إلّا أن دعا إلى اجتماع لقادة التحرير الأمريكي الخمسين ثم أغلق الباب ووضع المفتاح في جيبه ولم يدع أحد بالخروج إلّا بعد التوصل إلى قرار إما الموت أو التحرير، فقرر الكل الاستمرار في مواجهة الموت فتحررت أمريكا. هذه الحادثة كان التأريخ القديم في عام 61 هجرية قد رسمها لنا عندما وافقت الأمة على بيعة رجل غير مؤهل فتملص الجميع من المسؤولية ولم يبق إلّا شخصية واحدة كان لها أن تقول لحاكم المدينة الوليد بن عتبة في القول: يا أمير، إنَّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فَتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل شَاربُ الخُمور، وقاتلُ النفس المحرَّمة، مُعلنٌ بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله.

عمق الثقافة القرشية) (والثقافة الأموية) أو بالتحديد (ثقافة التسنن) أو (العقيدة الأشعرية) التي تنطلق من على صفحات لسان منتمي تلك الثقافة بدون شعور منهم ماذا يعني قولهم هذا.

كما أنظر فلسفة (الفرقة الناجية) التي خوّلت لنفسها في أن يكون لها الحق وحدها في أن تحصل على تغيير الشعب وامتلاك الجنين لكي تنال ثواب آخرتها، أما الآخرون فهم ليسوا من الفرقة الناجية لكي ينالوا هذا الشرف.

من الجهة الثانية أنظر إلى موقف شخصيات بسيطة تعيش بثقافة المصري العادي الذي تشرّب حب ثقافة السلم ثقافة (التشيع) (وبدون علم منه) كما هو المثال الأول أن يتحرك الشاب اللوذعي محمود غنيم، أو إسراء عبد الفتاح في الدعوة إلى إضراب (سلمي) ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: 28] هنا قرار الحسم، والوثيقة الصعبة.

فقرار تبني الجنين هو القرار الحاسم والصعب والذي تترتب عليه الكثير من الأحداث المستقبلية، فجنين الثورة جنين لا يحتمل العنف، لأنّ العنف ظاهرة ليس بالإنسانية ولا هي من النوع الذي تتوافق مع محيط العقل ومحيط الفهم والعقل العادي للبشر، فضلاً عن رقة عود الجنين الصغير.

فقد رفضت القوى العتيدة تبني جنين الثورة وأصرّ الكثير منها على أن يكون الجنين مولوداً في أصلاب أرومتها هي وليس في أصلاب الثقافة المصرية الطبيعية التي تعود إلى سبعة آلاف سنة. . . . . فقد

أنكرت القوى الإسلامية فرعونيّة مصر، ولم يقولوا بقدرات هذا الشعب في أنه أقدم شعب على الأرض، بل بدأوا يكتبون التأريخ المزور من حين وصول ثقافة التسنن إلى مصر مع رفض مستمر للتنوع الثقافي والديني، وهكذا لم يكن لجنين الثورة بداً إلّا أن تتبناه الأمة المصرية. . . . ومفهوم الأمة المصرية هنا هو مفهوم جديد بعد أن كانت الأمة تعرف بأنها جمهور يجمعه فكرة، ولكنه أمر خارج عن نطاق الحاضر أو الماضي أو المستقبل بل هو شيء خارج عن مسيرة الإنسان، وكأنه شيء معنوي لا يمكن التعاطي معه، ولكن في مفهوم الثورة المصرية تحوّلت الأمة إلى شيء يترجمه مسيرة التكنولوجيا والعلم، فصارت الأمة هي المفهوم الذي يجمعها (التويتر) و(الفيس بوك) و(الياهو) و(الفايبر) ومن قبله كان (الكاسيت) في إيران، فصارت الأمة مفهوماً ملموساً يتمكن به الإنسان التعامل معه في الأخذ والعطاء والفعل.

فلو كان الجنين قد تبنته الجماعات الإسلامية التي سادت الساحة آنذاك ما قبل الثورة لكان الفارق الثقافي واسعاً جداً بين ما يحمله الجنين من عمق وفهم وبُعد نظر، وبين خلفيات الثقافة (الأشعرية) التي تحملها تلك التنظيمات، ولكنها أدركت منذ البداية بأن الثورة التي انطلقت ستبوء بالفشل، بل كانوا يراهنون على فشلها بعدما كانت تصريحاتهم تقول بأنهم هم فقط الوحيدون من يصنع التغيير للشعب، كما هو الرأي العام السائد في العالم الإسلامي أو العالم العربي في أن التغيير يأتي فقط من الإسلاميين، أو أن الحكم إما أن يكون إسلامياً أو ليس هنالك من حكم، لأنهم ينظرون إلى مسيرة الإنسان من خلال النظرة الدينية التي

يفهمونها، وليس من خلال المنظور العالمي للإنسان، وطبيعة تكوينه، ومفهوم الدين كفطرة وحاجة إنسانية تتولد مع البشر، أي تكوينية لا يمكن التخلص منها حتى ولو ادّعاها الإنسان المتبجح.

انظر هنا صراع الثقافات بأجلى صورها، والجنين الثوري الآن في طور الخروج إلى الدنيا ليأخذ دوره في تغيير الشعب المصري، فهنالك من رأى فيه وليداً غير شرعي لأنه لم يولد من رحم السليقة الاجتماعية التي تعوّد المجتمع أن يولد فيها، ومثله كمثل ولادة الرسول في مجتمع غير المجتمع الذي ولدت فيه الأنبياء وهو محيط بني إسرائيل، هذا أولاً.....

النقطة الثانية في صراع الحضارات هو العنف، فكل من حاملي لواء التغيير في الثقافات السابقة كانوا قد جاءوا من خلال سياسة العنف وخصوصاً من هم في مسيرة (ثقافة التسنن) كعمرو بن العاص ومعاوية بن خديج وصلاح الدين الأيوبي ومحمد علي باشا. مع إغفال انتسابهم إلى المذهب السني، لأنّ ثقافة التسنن ليست المعنى الذي نقصد به المذهب الفكري (للسنة). فلو كان جنين الثورة الجديد ذو أصل لكان عليه أن يتمشدق بالعنف، ويجرد سيفه في التغيير كما هي كل ثورات العنف في التأريخ. ولكنه وكما يبدو قد نمت في داخله ثقافة التشيع التي انطبع المجتمع المصري بها، وهي الثقافة السلمية في التغيير، حتى وإن كان الشعب المصري أو الفرد المصري ليس له علم بنوعية انتمائه الثقافي الشيعي، لأنّ الثقافة سلوك لا يعلم بها الإنسان كيف دخلت إلى ذاته أو إلى تفكيره، وكما هي المكونات الكيماوية الفعالة في داخل الإنسان التي تدفعه إلى عملٍ ما مثل طلب الطعام أو طلب

العنف أو طلب النوم والتي لا يعلم ذات الإنسان من أين جاءت إلى دمه تلك المركبات لكي تطالبه في أن ينحى هذا المنحى في الحب أو في البغض أو في المبادرة إلى الغضب أو غيرها.

فالثقافة الشيعية تحوّلت من مفهوم اعتقادي إلى مفهوم ذاتي شأنها كشأن ثقافات الشعوب الأخرى كما هي ثقافة المصري في تفاعله مع مفهوم القناعة التي يتصف بها المصريون.

أنسال الثقافات: فقد يستغرب الأمريكي في اتهامه بأنه مسيحي الثقافة بروتستانتي المبادرة مع أن الكثير منهم بعيد أصلاً عن الانتماء الديني فضلا عن المسيحية، فهذه الصفات التي تأتي عن طريق السلوك الاجتماعي والخلفية الثقافية هي صفات تتفاعل ذاتياً مع العقل الإنساني، مصرياً كان أم غير مصري. . . . نعم من الممكن أن يعترض البعض من المصريين في اعتبار ثقافة التسامح والسلم التي يتحلى بها المصريون ليست ذات أصل نابعة من التشيع ثقافةً، وإنما نابعة من أصول غير ذلك. وهنا يحير الإنسان في انتساب تلك الصفات إلى مرجع فكري أو سلوكي، في الوقت الذي يقرر علماء الشعوب بأن ثقافات الشعوب مردها إلى مكون فكري كان الشعب قد سنحت له الفرصة في المرور به.

فليس من الواقعية في أن نُحمّل شعب ثقافة ما بدون أن ننسبه إلى حالة ثقافية أو فكرية أو ما إلى ذلك. فالخلفية المسيحية مثلاً للشعب المصري أفاضت عليه صفة التحمل في تقبل الآخر، وهي ثقافة ملازمة للمصري عندما يواجه المواقف في شكل استجاباته.

وأقرب ما يمكن أن نشابه به ذلك هو الانطلاقة الكبرى لشعوب الجدار الحديدي السوفيتي في أعوام التسعينيات عندما تحررت من القوة السوفيتية من خلال حركة سلمية كبرى كانت قد استلهمت من العالم الغربي الرأسمالي أسس ثقافته مع أن العالم الشرقي كان بعيداً جداً عن العالم الغربي الرأسمالي بما هي الممارسات والتقاليد والنظم والشكل السياسي، بينما في الواقع هو أن الفرد الشرقي كان قد بنى في داخله ثقافة الغرب وبمرور الوقت بدون وجود الشعور بأنه يمارس تلك الثقافة في داخل نفسه. ولم يتمكن أن يدرك في أنه يحمل تللك الثقافة الغربية إلّا بعد أن انتفض بحركته الكبرى وأسقط الاتحاد السوفيتي وخرج من طور إلى طور آخر عندها بدأ البعض من الثوار المحررين يتحللون من تهمة غربيّة الثقافة التي ألصقت بهم من قبل ذات الشعب الذي أفنى ذلك القائد عمره في تحريره. . . .

فلو عدنا إلى الاسباب العميقة لسقوط الاتحاد السوفيتي لوجدنا بأنها كامنة في قوة الثقافة الغربية وقدرتها من أن تحتوي قدرات الإنسان في روسيا أو بولونيا أو كازاخستان أو ليثوانيا وأ أوكرانيا. أما ما قيل عن التخطيط العسكري أو الاقتصادي بأنه كان خلف عملية السقوط فإنه لو كان كذلك فإن لتلك العوامل الدور الثانوي مقارنة بقدرة الثقافة الغربية الليبرالية. فالحقيقة التي لا غبار عليه هو أن الثقافة الغربية التي نشأ عليها المجتمع الشرقي بالرغم من محاربة النظام لها كانت هي المحرك وهي الجنين الذي تولد في تلك اللحظة من الزمن.

وليس هنالك من دليل أنصع من رؤيتنا لاستمرار ذات الثقافة

(الغربية الليبرالية) التي أسقطت الاتحاد السوفيتي أن تستمر في تلك الأقطار الشرقية كلها وكأن الثورة هنالك لم تكن إلّا حدثاً تفعيلياً وليس تكوينياً لما شاهدنا من تفاعل مستمر مع الثقافة الأمريكية الغربية.

وهذا لا ينطبق على مستوى دول الاتحاد السوفيتي فحسب، وإنما في الصين كذلك بعد أن وجد القادة الصينيون بأنهم أعجز كثيراً عن مواجهة قدرة الثقافة السلمية الأمريكية في التغيير فاستسلمت لها بطريقة مخالفة عن حادثة الثورة في الأقطار الأخرى بعد حادثة (تينيامين)[1] الشهيرة. فتحولت الثقافة الأمريكية اليوم في الصين إلى ظاهرة مستمرة وكأنها ولدت طبيعياً من رحم التركيبة الصينية الكونفوشية التي تتشابه في الكثير مع مفردات الثقافة الأمريكية المسيحية الغربية.

فلا الشخصية الجيورجية أو الأوكرانية أو الصينية كانت على علم في أن التغيير كان نابعاً من قدرة تمكّن الثقافة الأمريكية الغربية السلمية الديمقراطية من نفوسهم وأفكارهم، ولا الأمريكان ذاتهم مالكي تلك الثقافة كان لهم القدرة على كبح قدرات تلك الثقافة في أن تصل إلى الشعوب الأخرى وتغيير أنظمتها.

فعل سُنّة الثورة وغرابتها: يوميات الثورة المصرية وأحداثها وطريقة التعاطي مع التغيرات تبدو بل بدت لكل من راقبها من الخارج ومن

(1) المظاهرات الوطنية التي حدثت في جمهورية الصين الشعبية، بين 15 ابريل، 1989 و4 يونيو، 1989، وتمركزت في ساحة تيانانمن في بكين التي كانت محتلة من قبل طلاب جامعيين صينيين طالبوا بالديمقراطية. أنظر الموقع التالي:
http://en.wikipedia.org/wiki/Tiananmen_Square_protests_of_1989.

الداخل العرب وغير العرب بأنها عبارة عن سيمفونية موسيقية رائعة، هنالك عرّاب يقودها سواء كان الشعب قد حفظ السيمفونية تلك أم أنها تعيش في حركة يديه في النغم وفي الإيقاع فقط[1].

ولازال البحث ما بين المصريين وغير المصريين وإلى اليوم أو في الكتب التي كتبت عن الثورة وبعد مضي أكثر من أربعة سنوات على اندلاعها[2] الأول في عام 2011. أو ربما ما قبل ذلك التأريخ[3] بقليل في مرحلة ما قبل إطلال جنين الثورة على العالم المصري. أو ما بعد وصول الإخوان إلى الحكم في 30 يونيو 2012 عن سؤال مهم بالنسبة للعالم وهو من القائد للثورة..؟. هذا السؤال كان هو ذاته الذي بقي مفتوحاً أمام علامات الاستفهام الكبرى التي تساءلت عن سر القائد وهويته وفيما إذا كان ذلك من صناعة البشر أم أنه أمر غيبي.

لحين الآن لم أتمكن من أن أعتقد بأن الثورة كانت قد اندلعت بدون شخصية القائد، فكل ثورات التأريخ على الإطلاق بدون استثناء

---

(1) في التأريخ العربي منذ بدايته أي منذ مبعث الرسول لم تنطلق ثورة جماهيرية شعبية سلمية ضد الحكام، ولم يكتب لنا التأريخ بأن هنالك الثورة قادها شعب (مع أنها موجودة) وإنما الحركات هي حركات مسلحة ثورية دور الشعب هو فقط التضحية والاستجابة. وقد أدى هذا الفقر الفكري بصناعة الثورات إلى غيابه من تراث العرب تماماً، بل أن معظم الانتفاضات التي قادها زعماء شعبيون قد تم تشويه صورهم بالطريقة التي تنسبهم إلى الزندقة والكفر وما إلى ذلك.. لتفاصيل ذلك يمكن مراجعة كتب النحل والملل. أو كتب الغارات.

(2) التغيير الآمن. عمار علي حسن مسارات المقاومة السلمية من التذمر إلى الثورة. دار الشروق 2012.

(3) لماذا لا يثور المصريون..؟ علاء الأسواني، دار الشروق، مصر، 2010.

ما عدا الثورات العفوية الوقتية كان القائد حاضراً في عقله وفي جسمه وفي طريقة تعليماته في الساحة، شخصية كانت أم هيئة، فلقد حار التأريخ ولحين الآن في أن ينسبوا هذه الثورة إلى أسماء محددة، وهو ذات السؤال الذي أطلق على الثورة على عثمان في عام 35 هجرية مع غرابة التأريخ في أن يكون الثوار الذين جاءوا من كل أمصار العالم الإسلامي كان المصريون على رأسهم، وليس الكوفيون أو البصريون أو حتى من المدينة.

في العصر الحديث أي منذ أول ثورة شعبية في التأريخ الكبير وهي ثورة البلاشفة في عام 1917 وإلى حين الوقت الحالي لم أجد وجه مقارنة في شكل الثورة المصرية إلّا ربما الثورة الإسلامية في إيران التي بدأت أولى باكورتها في عام 1975 ونجحت في عام 1979 فبراير.

أعني في التشابه هو الجانب الانضباطي ووحدة المفهوم وقوة التصميم. مع اختلاف الشعب الإيراني عن الشعب المصري في وجود قائد إيراني كان يواكب الثورة ساعة بساعة انقادت له الأمة الإيرانية كلها وربما بمختلف فئاتها وهو الإمام الخميني (ت 1988) من خلال عصا المايسترو آنذاك وهو الكاسيت الذي كان يحرك بها الشارع الإيراني.

ليس لنا هنا في هذا النوع من التحليل في أن نضع نقاط الاختلافات بين الثورات التي ذكرتها، وليس هو مقصد بحثنا، وإنما نبحث في ثنايا تأريخ الثورات عن نقاط التشابه حتى يمكننا من الجواب على السؤال المهم جداً وهو من المحرك للثورة المصرية..؟ شخصاً أو فئة أو حزباً

أو طائفة. .؟ إنها سر من أسرار الخلق ليس أمام أي من المحللين في الجواب عليه، فهو سر يبقى قائم في غموضه كبقية أسرار الطبيعية أو أسرار حركة الجماهير لكي تبقى الجماهير المادة الكبرى هي المحرك لرفض الظلم كما قررها هابيل، وليس العنف والقتل وإباحة دم الإنسان الآخر كما قررها قابيل.

فلو تم حل اللغز الآن لنسته الشعوب في المستقبل القريب، ولكن حكمة الباري قررت أن تبقي الأحداث الكبرى سراً عميقاً، مع أن البعض حاول تفسيره بالتدخل الغيبي، لكي يبقى عامل الإنسان في مسيرة البحث دائباً في انتشال الحل الصحيح لمحاولات تغيير سنن الإنسان وسنن الطبيعة.

كان الجسم الكبير من المصريين يتفاعل مع الثورة وكأنها سيمفونية سماوية يعزف على أنغامها كاتب السيناريو، في الوقت الذي لم ينتفض أي منهم على طريقة اللحن السماوي المميز.

كان الجميع قد اتفق بدون أن يعلم أي منهما مع الآخر على سلميتها أو لا عنفيتها. . .

ولا أدري هل أن الخيار السلمي الذي تحلى به الشارع المصري كان ثقافة أم أنه جاء بسبب قوة وسطوة النظام، لأنّ العاجز أحياناً لم يجد أمامه إلّا السلم في مواجهة الظالم بسبب افتقاره إلى القوة، ولكنني لا اعتقد بما يقوله الشارع ذو الثقافة المعاكسة.

إنني أعتقد بأن ثقافة السلم هي ثقافة القوة وثقافة الواثق من نفسه وثقافة العارف بذاته وقدراته، فالثائر غالباً في دول العالم الثالث عندما

يتحدى السلطة في مصر أو السعودية أو البحرين أو سوريا أو في العراق ما قبل عام 2003 فليس هنالك أمامه إلّا احتمال القتل المباشر إما تحت عصا البوليس الحربي، أو برصاصة متقنة في الرأس.. هكذا مواطن لابد وأنه كان قد قرر الموت أو السجن على أبسط الاحتمالات، فلماذا إذن لا يحمل أدوات الموت والدفاع عن النفس مع سلطة ستواجهه بذات أدواتها لقتل وزهق الأرواح...؟.

إن المقولة بأن السلمية خيار العاجزين كما يقول منظري ثقافة العنف هي مقولة بائسة ليس لها من واقع في حساب صانعي الثورات، إنه من السهولة على الثائر أي ثائر في أن يحمل سلاحاً حتى وإن كان سكيناً من أن يصبر على القتل وعلى الرصاص الحي، بل أن الخيار الثاني خيار السلم هو من أصعب ما يمكن أن يصبر عليه الإنسان. فضلاً عن العربي أو المسلم أو ذو التراث الذي بني على المواجهات وعلى الشجاعة وعلى القوة.

ليس هنالك من احتمال في تبني أسلوب السلم في المظاهرات المصرية إلّا أن نضع خيار (ثقافة المصريين السلمية) التي بنيت على مدى قرون من الزمن من تأريخ وصول الاسكندر[1]، ثم دخول جوهر

(1) غزا الاسكندر مصر في عام 332 ق. م. لم يقاومه المصريون لأنه خلصهم من حكم الفرس ولم يفرض البطالمة (خلفاء الاسكندر) طريقة حكمهم وتقاليدهم الرومانية على المصريين، بل أن التأريخ يذكرنا بأن اليونانيين قد تأثروا بالثقافة المصرية أكثر مما هو العكس بسبب روح السلم والتشوق إلى التعايش مع الآخر. وقد تم في ذلك الوقت بناء مكتبة الإسكندرية الكبرى... راجع كل ذلك من خلال الموقع التالي:
http://www.digitalegypt.ucl.ac.uk/chronology/index.html.

الصقلبي[1] الإسكندرية، ثم وصول نابليون[2]، ثم انتفاضة عمر مكرم[3]، ....

(1) خرجت الحملة في سنة 358 من مدينة القيروان بقيادة جوهر الصقلبي ودخل الإسكندرية فسلمها أهلها بدون قتال. وكتب عهداً بنشر العدل وبث الطمأنينة وترك الحرية للمصريين في إقامة شعائرهم الدينية. وفي 17 شعبان دخل جوهر الفسطاط عاصمة مصر وخرج الوزير جعفر بن الفرات وسائر الأشراف والعلماء في استقباله ورحبوا به. وعسكر جوهر في الموضع الذي بنا فيه مدينة القاهرة وهكذا زال سلطان الخلافة العباسية والحكم الإخشيدي في مصر بدون قتال ولا ضربة سيف واحدة، وأصبحت مصر ولاية فاطمية في دولة تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً. كانت الدولة الفاطمية أعظم الدول الإسلامية في وقتها حيث انتشرت جميع أنواع العلوم من الطب والفلسفة والاجتماع والاقتصاد، إلخ. ولم يعطِ التاريخ الفاطميين حقهم كما أعطى الدولتين الأموية والعباسية.

(2) وصلت الحملة الفرنسية إلى الإسكندرية ونجحت في دخول المدينة في 2 يوليو 1798م بعد مقاومة من جانب أهلها وحاكمها السيد محمد كريم دامت ساعات، وراح نابليون يذيع منشوراً على أهالي مصر تحدث فيه عن سبب قدومه لغزو بلادهم وهو تخليص مصر من طغيان البكوات المماليك الذين يتسلطون في البلاد المصرية. ودخل القاهرة في 25 يوليو من الشهر نفسه.

(3) يقول الجبرتي وصعد السيد عمر مكرم أفندي نقيب الأشراف إلى القلعة فانزل منها بيرقاً كبيراً أسمته العامة البيرق النبوي، فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه ألوف من العامة. ويعلق الرافعي على ذلك بقوله: وهذا هو بعينه استنفار الشعب إلى التطوع العام، بعد هجمات الغازي المغير والسير في طليعة المتطوعين إلى القتال. وعندما سقطت القاهرة بأيدي الفرنسيين، عرض عليه الفرنسيون عضوية الديوان الأول إلّا أنه رفض ذلك، بل فضل الهروب من مصر كلها حتى لا يظل تحت رحمة الفرنسيين. ثم عاد عمر مكرم إلى القاهرة وتظاهر سلمياً بالاعتزال في بيته ولكنه كان يعد العدة مع عدد من علماء الأزهر وزعماء الشعب لثورة كبري ضد الاحتلال الفرنسي، تلك الثورة التي اندلعت في عام 1800م . . فيما يعرف بثورة القاهرة الثانية، وكان عمر مكرم من زعماء تلك الثورة، فلما خمدت الثورة اضطر إلى الهروب مرة أخرى خارج مصر حتى لا =

ثم عرابي الحسيني[1].

من الصعب معرفة الدوافع الحقيقية وراء انتهاج المصريين لخيار السلم في الثورة والذي هو أمر معقد وصعب وبعيد المنال وبطيء التأثير. الشيء الغريب هو أن الشعور السلمي كان مشتركاً في كل القطاعات اليمين واليسار والقوميين والإسلاميين المعتدلين والمتدينين والبسطاء والمثقفين وكل منهم قرر ومن عندياته أن لا يواجه إلّا من خلال الخط السلمي.

فكانت التظاهرات الأولى والتي استفزهم الأمن والمخابرات لكي

= يقع في قبضة الفرنسيين الذين عرفوا أنه أحد زعماء الثورة وقاموا بمصادرة أملاكه بعد أن أفلت هو من أيديهم، وظل السيد عمر مكرم خارج مصر حتى رحيل الحملة الفرنسية سنة 1801م.

(1) في 9 سبتمبر 1881 اندلعت الثورة العرابية المدنية السلمية بعد أن تجاوزت النطاق العسكري، فقد شملت المدنين من جميع فئات الشعب فشارك الشعب المصري بكامل طوائفه مع الجيش بقيادة عرابي الذي أعلن مطالب الشعب للخديوي توفيق: زيادة عدد الجيش المصري إلى 18,000 جندي، تشكيل مجلس شورى النواب على النسق الأوروبي، عزل وزارة رياض باشا. فقال الخديوي: كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي، وما أنتم إلّا عبيد إحساناتنا. إلّا أن عرابي قال: لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثاً أو عقار فوالله الذي لا إله إلّا هو لن نُورّث، ولن نُستعبد بعد اليوم. استجاب الخديوي لمطالب الأمة، وعزل رياض باشا من رئاسة الوزارة، وعهد إلى شريف باشا بتشكيل الوزارة، وكان رجلاً كريمًا مشهودًا له بالوطنية والاستقامة. ولكن بريطانيا بدهائها تدخلت ونفت القائد الهاشمي الحسيني عرابي إلى سريلانكا وبقي هنالك 20 سنة إلى أن أصدر العفو عنه، فعاد وهو يحمل بيده شجرة المانجو لكي يزرعها كعنوان من عناوين العمل والعطاء والسلم والاستمرار في الحياة.

يتحول فيها الشعب إلى كتل مقاومة تستلهم العنف المضاد قد فشلت فشلاً ذريعاً، فقد صمم الثوار أن يلتزموا الخيار السلمي خيار الحق. . . . الشيء الغريب هنا في هذه الثورة أنها لم تكن ثورة طبقة معينة أو فئة شعبية، فالثورات غالباً ما تندلع في محيط ولا تشمل محيط معين آخر، فالمواطن المسلوب حقوقه هو الذي يتحرك، أما غيره الذي لا يعلم حال الآخرين فإنه لا يزعج نفسه في الخروج إلى الثورة. أما هنا فإن أعلى سلطات الدولة قد نزلت إلى الشارع وخصوصاً رجال القضاء العملاقة، والعلماء والمفكرين وأساتذة الجامعات والمؤلفين والكتاب وهو أمر في غاية الغرابة من الصعب أن تجده في ثورة ما إلّا كما ذكرت الثورة الإسلامية في إيران التي كانت ثورة ذو دوافع معظمها دينية التزاماً مذهبياً برأي (المرجع الفقيه) وهو الإمام الخميني، هذا بالإضافة إلى الروح الوطنية العالية التي يتميز بها العنصر الفارسي الإيراني، وهي صفة قد تكون مشتركة حصراً مع العرب المصريين، وليس مع العرب الآخرين من دول الخليج أو العراق أو الشمال الأفريقي.

بعكس الثورة الإسلامية في إيران فلم يكن الحس الديني هو المحرك الأساس للثورة المصرية في تلك الأثناء، بالتأكيد كان للحس الديني تأثيراً، ولكنه مختلف عن الحس الإيراني في الثورة في عام 1979 الذي كان يعتبر الدافع الأول والرئيسي في إشعال الثورة التي قرر الإمام الخميني منذ أيامها الأولى أن تكون دينية سلمية مائة بالمائة.

ولعل تلك الثورة هي التي أعادت الثقة للشارع المسلم والعربي في إشعاره بالقدرة على استعمال قوة (السلم) في مواجهة قوة (العنف). قبلها ليس هنالك من نموذج في التأريخ من استعمل هذا الأسلوب على الشكل الحديث.

ومع أن الغربيين وعلماء الاجتماع لم ينفكوا في ربط هذه بهذه أي من ناحية الأسلوب ومن ناحية الثقة بقدرة استعمال مفهوم السلم أمام حكومات قوية ذات شوكة وقدرة على سحق الناس.

ولكن العزة التي يحملها المصريون والثقة بأنفسهم كانوا يفتخرون - ولهم الحق - في أن استعمال مفهوم السلم في إسقاط الحكومة المصرية ومبارك هو من متبنيات أفكارهم وليس من الثورة الإيرانية كما يقول أولئك الغربيون، أو بما يفتخر به صناع الثورة الإيرانية الإسلامية.

بالتأكيد لكل وجهة نظره في هذا المجال، فالثورة الإسلامية في إيران كانت قد اندلعت ما قبل 32 سنة، فأجيال الشباب الذين قادوا ثورة مصر لم يكونوا في ذلك الوقت إلّا ربما في بداية أعمارهم، أو ربما سمعوا بها، أو قرءوا عنها، ولكنهم لم يشاهدوها أو يتابعوها على الواقع الحي، مع أنني شخصياً كما هو ميلي في القول بتأثر الثورة المصرية بالثورة الإيرانية، ولكنني في ذات الوقت لا أستبعد تأثير سقوط دول المعسكر الشرقي متتابعين وخصوصاً بولونيا الكاثوليكية، ثم دول جنوب شرق آسيا من تأثير على عقل المصري الثوري في تشكيل وجه ثورته وفي إخراجها.

فالشعب المصري بما يتميز من قدرات ومن طاقات فإنه شعب منفتح على العالم كما هو شأنه على مدى العصور ومنذ القدم، فالحدث العالمي من السهولة أن تجد له من تأثير في مسيرة المجتمع المصري، بعكس بقيّة شعوب المناطق العربية الأخرى كالسعودية مثلاً أو العراق أو الجزائر أو ليبيا أو سوريا بسبب نوعية التفهم واتساع أفق وعالمية الذهنية المصرية التي عُرِف بها منذ القدم.

يوميات انطلاق الثورة وتفاصيلها كتب بها الكثير، وتكلم عنها الجميع، وهو ليس موضوع هذا الكتاب والتي هي بالتأكيد مهمة في بعض الأمور التي تتعلق بما نريد أن نشير إليه في الكتاب في أصول ثقافة السلم وارتباطها بثقافة التشيع التي يتحلى بها المصريون.

افتراق الثقافتين: ليس هنالك من يشك في أن إحجام الإخوان عن المشاركة في التغيير السلمي منذ البداية كانت له أسبابه الثقافية، وربما الأسباب كثيرة منها سياسية ومنها اجتماعية ولكن أهم عامل من عوامل الامتناع عن المشاركة كما سنأتي عليه هو عامل الثقافة الشيعية وسوف نوضحه بشكل من السرد.

يبدو الصراع اليوم في العالم الإسلامي وفي الحركات المتطرفة المسلحة وفي نزاعات بعض الدول هو صراع التخلص من الشيعة من المحيط الإسلامي. . ليعذرني قارئي العزيز أن أدخل شيئاً ما في المستنقع الطائفي، ولكنه مدخل أعتقد بأنه يخدم هدف النتيجة التي نريد أن نتوصل إليها.

بدأ تطرف الحركات الإسلامية على أنقاض التأخر الإسلامي، في

الواقع كانت مقدمات اعتقادهم بأسباب الانحسار الإسلامي خاطئة. وخطأ المقدمات الافتراضية نابع من مفهومين خاطئين وهما:

أولهما: هو أن العالم الإسلامي كان متقدماً في السابق على بقيّة دول العالم. ومنبع وتعريف التقدم لذلك الفهم متعلق بعدد الغزوات أو عدد الدول التي احتلتها دول الإسلام. وكذلك عدد الحروب التي خاضتها وعدد الدول التي كانت ترهب دول الإسلام، فالغزو والقوة هما المؤشر الذي من خلاله يبرز مفهوم قوة الإسلام وقوة الدولة. وهو بالتأكيد مفهوم مع ما فيه من واقعية على الأرض، فإنه في ذات الوقت مفهوم خاطئ في عُرف المفهوم العالمي للدولة اليوم. مع أنهم - أي الحركات الإسلامية - لا ترى في تعريفات المجتمع الدولي والأمم المتحدة لمفهوم الدولة القوية إلّا نوعاً من التزييف للحقائق. . . . .

فلم تنظر الحركات الإسلامية إلى واقع الدولة ولا إلى واقع المجتمع وإلى حالته الفكرية والديمقراطية ومدخولاته الاقتصادية وعلاقاته مع المجتمع الدولي بشيء، بل تعتبر كل ذلك هراء. وما التكنولوجيا والقانون المدني وحرية الفرد وحالة الديمقراطية في التفكير وفي انتقاء الحاكم إلّا عبارة عن مفاهيم جوفاء لا يعترف بها أولئك الإسلاميون من منتمي تلك الحركات.

ثانياً: تسييس المعلومة: وعندما جاءوا إلى تحليل أسباب الانحسار وجدوا أمامهم تراث ضخم كتب في زمن ما بين سقوط الدولة الفاطمية 567 هجرية وبين انهيار العصر العباسي 909 هجرية المصادف 1919 ميلادية. معظم ما كتب في تلك الفترة كان منبعه

سياسي وليس فكري، بسبب الصراع الذي كان يدور في محيط السيطرة على الحكم. وهنا تداخلت السياسة بالفكر فكان الفكر هو المغلوب والسياسة هي المنتصرة.

في الفترة ما بين انهيار الدولة العباسية إلى فترة بداية العثمانيين والتحاقهم بمفهوم الخلافة في عام 916 ثم قوتها في الأعوام التي هددت فيها أوروبا ودخولها الدول الغربية برزت صراعات بين تلك الدولة وبين قريناتها في المنطقة كانت تتناوب كلا المجموعتان الفكر السياسي الإسلامي والمذهبي تبعاً لحالة الصراع وليس تبعاً لحالة الفكر. فكتب في ذلك الوقت أيضاً تراث ضخم جداً من أدب الطائفية دخل بصورة أو بأخرى في التشريع وفي الفقه الإسلامي بصورة لا يمكن التخلص منه إلى أن وصل إلى الفترة التي سقطت فيها الدولة العثمانية منهارة أمام ضربات الغرب، وهذا ما بنى الاعتقاد لدى الذهن الإسلامي للحركات الجديدة بأن مشكلة انهيار الإسلام هم الصليبيين ويعني بهم الغرب من الخارج، والشيعة من الداخل.

وهنا تحوّل هذا الأدب السياسي وبمرور الوقت إلى تراث متأصل في مسيرة التشريع وليس في أدبيات السياسيين فحسب، فلم يكن في ذلك الوقت من أدب سياسي مستقل أو فكر سياسي كما هو اليوم، وإنما كان الذي يكتب بالسياسة هو رجل الدين، إما المفتي أو القاضي أو الإمام، وهذا ما حوّل مفاهيم السياسة إلى مفاهيم دينية وتشريعية في تكفير الآخرين ممن يعارض الحكم سواء أكانت المعارضة بسبب ظلم أو بسبب تغيير أو بسبب تشريع. فكان علماء السلطان يضعون المواد

الدستورية للحط من كل المعارضين مقابل نوعيات العقاب الدنيوي والأخروي الذي ينتظرهم.

جاءت الدولة العثمانية ودخلت في صراع مرير مع التشيع الذي كان ينتشر في العالم بصورة كبيرة بعد أن تحوّل التشيع إلى دول وإلى طرق صوفية وإلى مدارس فكرية وإلى قدرات متباينة، فلم يكن من الدولة السياسية إلّا أن تفكر بما فكر به الأوائل من الحكام في التعامل مع الفكر المخالف وهو الذبح والقتل (شرعاً) فأوقع بهم مذابح كبرى كانت أشهرها مذبحة مراد الأول في مقتل أربعمائة ألف تركي شيعي، ثم مذابح الانكشارية الذين كانوا يمثلون التوجه الصوفي لآل البيت، وهو ما ألزم الحاكم في الطلب من البطانة العلمائية في تسقيط الفكر الإمامي وتسفيه التشيع كلياً من خلال أدبيات وتراثيات وفقه قام به علماء التسنن في كل أرجاء العالم.

في الربع الأخير من القرن الماضي وفي عام 1979 اندلعت أكبر ثورة إسلامية على الإطلاق ومصادفة كانت تلك الثورة هي في محيط الانتماء المذهبي الشيعي، مع أنها لم تكن شيعية أكثر منها إسلامية، وإنما كان التشيع هو مدرسة فقهية بررت للثورة في أن تنطلق لتسقط الشاه أعتى قوة في المنطقة.

كان هذا التغير ناقوس خطر كبير وتغير صميمي فيما بين منظري العالم السني (السياسي) الذي يمثل الأكثرية في المحيط الإسلامي، فتغيّر الأمر إلى خوف بدل من أن يتحول إلى اطمئنان، وهذا الخوف منشأه أيضاً وهمي في الاعتقاد بأن الشيعة بثورتهم سيحيون ثارات القتل

الذي مارسه فيهم السنة في القرون المنصرمة، وعليهم فإنه يجب أن يبادروا في الرد الثوري مبكراً خوفاً من استفحال التشيع ومن ثم قتلهم. . . . هذا بالتأكيد كله وهم في وهم، بُنيّ على وهم وكانت نتيجته وهم.

ثم استمروا في السيناريو النظري في اعتبار التخلص من الشيعة داخلياً خطوة أولى ما قبل التوجه إلى الغرب وتحطيمه حضارياً. أما موقفهم من اليهود ومن إسرائيل فإنه مؤجلّ إلى حين الانتهاء من عدو الداخل وتسقيط الغرب عندها تكون إسرائيل ساقطة لا محالة. . هكذا هو مسار الاستنتاج.

وهنا تصايحت الحركات المتطرفة الإسلامية في إعلان تشكيلاتها ثم محاربة التشيع باستعمال ذرائع ومسميات تحت أسماء كثيرة منها الروافض ومنها الخونه ومنها ومنها وهو عبارة عن وهم أوقعوا به أنفسهم لإيجاد مبرر لإشباع غريزة القتال العصبية البدوية والتي سوف أتطرق إلى أسبابها فيما بعد.

فقدساير الإخوان تلك الصيحات وتحولت إلى حرب فكرية عقائدية اجتماعية التي انطلقت من رحم السياسة وحتى من غير السياسية في محاربة التشيع مع افتراض وجوده أو عدمه في ذلك البلد، كمصر مثلاً حيث التشيع المذهبي لا يمثل إلّا 0.02% مقارنة ببقية عدد السنة وهي نسبة في غاية الضآلة.

ويبدو لي بأن التحاق الإخوان بمسلسل محاربة التشيع ربما ينطلق من:

- التأريخ المصري الشيعي والخوف من عودة التشيع مذهباً.
- أو الخوف من التشيع ثقافةً باعتبار أن الشعب المصري يحمل ثقافة شيعية وقريب من مفاهيم الاعتقادات الشيعية. وهذا الفهم لو كان له من وجود فعلي فهو إدراك متقدم لا يمكن التنبه له بشكل طبيعي، مع افتراض أن ذلك ربما كان بمساعدة عوامل خارجية.
- أو أنها ذريعة لمماشاة الواقع العالمي وإيجاد عدو افتراضي لكي يعدوا العدة إلى استعمال أسلوب العنف في سلوكهم.

الحقيقة المرّة: ونخرج قليلاً من نطاق المذهبية إلى نطاق التحليل الثقافي لنجد بأن الإخوان وهو الحزب الوحيد القادر على حسم الأحداث وتنظيم الجماهير وتسييد الشارع قد فشل في توقعه بموت جنين الثورة المصرية. وكان أسوء ما كان الاخوان يراه بإنه سيولد مشوهاً كما يقولون ويقاربون ذلك بالجنين الإيراني (كما يعتقدون)..... باعتباره ليس جنيناً زرعته الأفكار الاخوانية أو الأفكار التي تتوافق مع مسيرة التأريخ العربي تأريخ الثقافة القرشية والأموية...

ولكن الشيء المفاجئ الذي حيّر تيار العنف الايديولوجي وقادتهم هو الاستمرار المطّرد لنمو الثورة المصرية وبشكل أغرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة، فقد كانوا يراهنون بأن الإخوان هم فقط العامل المحرك والعامل الشعبي الكبير في التظاهرات والانتفاضات وذلك منذ أن قالوا بلى كما يقول المثل، ولكن في هذه اللحظة بدأت هنالك أمة أخرى أو تركيبة اجتماعية أخرى لم يكن لها من وجود، بدأت تتشكل

من عوام المجتمع المصري العادي، وكأنّ هنالك شيئاً داخلياً كان كامناً في نفوس المجتمع وبدأ في النمو والاتساع والتشكل والاقتراب بعضه مع البعض الآخر، شيء لم يكن ما قبل ذلك التأريخ، بل لم يتوقعه الجميع، ولم يكن على علم به، وليس هنالك ربما في العالم من له القدرة أن يتوقع ذلك الجنين البطيء النمو الذي بدأ يخرج من رحم المجتمع المصري بكافة أطيافه ليطل على العالم برأس الثورة وليقول لأمم الأرض ها أنذا ولدت فعليكم أن تقتدوا بي. .

لم يكن الإخوان أمام هذه الصدمة ومن ورائهم العالم (المتسنن السياسي) إلّا توقع بأن الحركة هذه هي حركة معادية أولاً للتوجهات الإخوانية، ثانياً أنها في أكثر الأحيان شيعية الميول والهوى وإن لم تكن كذلك فهي شيعية الثقافة[1].

بالتأكيد كان توقع الإخوان نابعاً من دراية ومعرفة بالشعب المصري الذي من المستحيل له في أن يخرج بملايينه بدون أن يكون هنالك

(1) الإسلام السياسي بعمومياته سنياً كان أم شيعياً أو غيره، هو أميل إلى نظرية المؤامرة في طريقة استنتاجاته إلى دراسة الأحداث، وهذا تابع إلى طبيعة وفلسفة المنطق الفكري الذي تأسست أدبياتهم عليها. نظرية عودة الإسلام مثلاً بخلفائه أو بتركيبته في شكل الحكم عبارة عن وهم مطلق، بل هو مخالف لطبيعة التركيبة العالمية والإنسانية، ولكنهم ومن خلال السفسطائية الحزبية السياسية يرون ذلك رأي العين. وقد انعكس هذا المنطق في شكل نظرتهم إلى الأحداث على طريقة سلوكهم في الحياة وعلى كل مجالات العلاقات الاقتصادية أو الاجتماعية أو العلمية. أما إذا ناقشنا نظرتهم إلى الأديان الأخرى وطريقة التخلص منها فإننا قد نواجه موقفاً فيه الكثير من التجني على الإسلام.

تنظيم ورائه وبهذا الشكل من التوحد والانضباط والقدرة على ضبط النفس في التزام فلسفة السلم ونبذ العنف.

إنه لمن الصعب جداً تقرير عبثية الانطلاقة أو عفوية التظاهرات بما تحمله من معاني متنوعة. فشل الإخوان بل كل التشكيلات الإسلامية في تفسير الحدث، بل معظمهم ألقى بالتبعة على إيران وعلى التشيع عموماً[1]، ولكن أين هي المشكلة التي تواجه هذا الاتهام....؟ المشكلة تكمن في وجود التشيع عدداً في مصر الذي لا يتجاوز كما ذكرت أكثر من 2% أو أقل وإذا استثنينا مناطق خارج القاهرة فإن الرقم في داخل القاهرة ربما لا يتجاوز عشر ذلك الرقم يعني 0.2% هذا على فرض مشاركة كل الشيعة في التظاهرات وهذا أمر مستحيل.

فربما مصر هو البلد الوحيد في المنطقة العربية بعد الأردن لا يضم بين سكانه عدد مقدر من الشيعة، ولا أدري هل مصر أولاً أم الأردن، ولكن على العموم كان التصور الذي افترضه الإخوان ومن ورائهم الحركات المتطرفة المتسننة هو الهاجس الشيعي وهو خوف كما ذكرت موهوم (Phobia) ليس له من واقعية[2]. لا باعتبار الحدث ولا باعتبار أصل التشيع فكلاهما كما يقول المناطقة سالب بانتفاء الموضوع.

كان على الإخوان في هذه اللحظة أن ينزلوا إلى الشارع، وأن

---

(1) في بدايات القرن الماضي كانت أدبيات الإسلام السياسي توجه اللوم في التغيرات الاجتماعية على الصليبية، ثم وفي وسط القرن على الشيوعية، ثم في الربع الأخير منه على الصهيونية، وفي بدايات القرن الحالي على التشيع.

(2) ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175].

يركبوا الموجة خوفاً من أن يتحول الأمر معكوساً، وكان كذلك بعد أن اتخذ القرار وبمساعدة أطراف دولية، ويبدو أن السيد أرودوغان رئيس الوزراء التركي كان هو المايسترو. نزل الإخوان إلى الشارع وغيروا من المعادلة وتمكنوا من أن يفوزوا برئاسة الجمهورية بطريقة ما باعتبارهم الحزب الوحيد الموجود على الساحة.

أما البقية فقد كانوا عبارة عن تشكيلات ليس لها من جامع موحد، فقد نزل الإخوان إلى الانتخابات موحدين معهم السلفيين ومعهم الكثير من فقراء الشارع المصري ففازوا في الكثير من المواقع، وهو شيء متوقع لهم باعتبارهم كما ذكرت الحزب الوحيد، مع أن الفارق كان ضئيلاً جداً فيما بين مرشحهم وبين مرشح المعارضة الذين لم يحسنوا اختياره جيداً.

كان السم الزعاف الذي تجرعه الإخوان هو الحكم وهو أول تجربة (سميّة) في عموم العالم العربي (تونس قبلها) وسنتحدث عنها لاحقاً. في الوقت الذي كان الجو مهيأ جداً لتقبل فكرة وصول حزب إسلامي عريق في المنطقة إلى الحكم، وهو الذي قدم الكثير من التضحيات في سبيل الوصول إلى هذه اللحظة التاريخية.

فقد كان العالم العربي والإسلامي مستعداً لتقبل فكرة وصولهم الديمقراطي إلى الحكم بل كان ذلك التأثير لو بقي كما كان مقرراً له وكما هو الطريقة المثلى لقيادة السلطة لكان العالم العربي والإسلامي قد اتخذ من تجربتهم مثالاً يحتذى به في كل زمان وآن.

خطأ الفكر بمليون.....: فالإخوان المصريون لهم من الطاقات

الكبرى ما لا يمكن مجاراتها في عموم العالم وفي حزب عالمي له علاقة مع السماء بشكل يكفل لهم الشرعية والوطنية وما إلى ذلك من مؤهلات كانت تغيب عن بقيّة حركات العالم. وكان أمامهم من مستقبل لا يمكن إدراك أبعاده الثقافية على الإنسان وعلى الطبيعة، ولكان ذلك كله قد صب في اتجاه نمو مستقبل البشرية ومستقبل السلام في الأرض.

والإخوان قوة عظمى رضينا بذلك أم أبينا شاركناهم الرأي أو اختلفنا معهم، فهم ذو طاقات وقدرات ليس لهم من نظير في نطاق التشكيلات الحزبية أو الفئوية، وهم الوحيدون القادرون على تغيير واقع التوجهات العربية بما يخدم السلام في العالم وفي تقديم الوجه الإسلامي ناصعاً إلى أمم الأرض، بل كان وصولهم ومشروعهم إلى الحكم من المفترض أن يكون كفيلاً في حل الكثير من الإشكالات التي كانت تراود الثقافات والأمم الأخرى، ولكان برنارد لويس الشخصية المفكرة قد حل لغز سؤاله الكبير (أين الخطأ..؟).

إذن أين هي القشة التي قصمت ظهر البعير...؟ وأين مشكلة الإخوان فيما بعد سنة من حكمهم...؟

وهل فعلا تعاون العسكر على إسقاطهم كرهاً بالإسلام أو بالإخوان..؟ وأن أمريكا أو الغرب أو أعداء الإسلام كانوا وراء كل ذلك..؟ كما هي مقولات الكثير من الإسلاميين...؟

كل ما قيل عن الوضع وعن الأسباب له من واقعية بشيء ما في تفسير إسقاط الإخوان في مصر، ولكن المشكلة التي لم يتمكن من

حلها الآخرون وفي التوصل إلى معرفة مكامن الخطأ هو النظرة الثقافية للإخوان، كمن يشخص مرضاً ما، ولكنه لم يناقش الجانب الجيني الوراثي، وإنما اشتغل فقط في جانب المضادات الحيوية وعلم الأمراض، وعلم المناعة، بينما الأمر يحتاج إلى إضافة علم آخر، وهو علم وراثة الجرثومة.

الإخوان المسلمين بعد حسن البنا (ت 1949)[1] وبالتحديد في زمن الهضيبي (ت 1973) صار هنالك توجه من قبلهم في تحديد الهوية، وما أن طلّت بداية الثمانينيات حتى تحوّل الإخوان إلى تشكيلات تنتمي إلى ثقافة التسنن، وهي الثقافة التي تتبع الثقافة (القرشية) (الأشعرية) (الأموية) وذلك بدون علمهم، بمعنى آخر لم يكن أمامهم من خيار ثان لتبني ثقافة أخرى، فالثقافة الموجودة المقابلة للإخوان هو التغريب أو التحزب المجرد وهو أمر مناقض للتوجهات الإسلامية أصلاً. . . . أو ثقافة آل البيت وثقافة التشيع لا غير. نعم

---

(1) يقول المطلعون على شخصية البنا والمعاصرين لتطور فكره بأنه كان شيعي الثقافة وليس لديهم من دليل على مذهبيته إن كانت سنية أو شيعية، ولو كانت كذلك فإنه بالتأكيد سيخفي تشيعه خوفاً من الواقع الاجتماعي الذي يعيش مع التشيع وتقييمه بالمنظار الذي رسمته أدبيات التسنن على أنه فكر مرفوض شرعاً وسياسة. هنالك عدة أدلة على ذلك، أولهما هو أنه كان من ملازمي الصحيفة السجادية (زبور آل محمد) كما يذكر الدكتور الدمرداش العقالي. وثانيهما هو أن أحد قياديي الإخوان لم يحضرني اسمه قال له بأنني صرت شيعياً أجابه بابتسامة، فلذلك كان يقول بأن البنا هو ما شجعني على التشيع. ثالثاً تأسيسه لجماعة التقريب المذهبي مع الشيعة، رابعاً غموض حادثة اغتياله في الكثير من المواقع أهمها هو تصريحات ابنه سيف الإسلام. . . . .
http://www.ahl-alquran.com/arabic/show_article.php?main_id=11094.
http://en.wikipedia.org/wiki/Hassan_al-Banna.

كانت ثقافة السلفية في بداياتها ولكنها لا تنطبق على واقع حزب يرى في نفسه بأنه المنظّر لبقية التفرعات الإسلامية. فليس من المعقول أن يستلهم نظرية السلفية طريقة له في كسب الشعوب.

ومع أن الإخوان وهم سنة كلهم، وبدون استثناء كانوا يرون في أن (المذهب) الذي يسيرون عليه هو (الثقافة) فلم يجهدوا أنفسهم في البحث عن ثقافة أخرى في المحيط الإسلامي لأنّ ذلك كما يعتقدون قدح في أصل فكر التمذهب السني الذي بنى الإخوان نظرتهم عليها. هذا في الوقت الذي كانت الثقافة الشيعية تسير بصورة قوية ومؤثرة في أوساط الأزهريين وبين المثقفين وأساتذة الجامعة والكثير من الذين يعيشون فوق نبرة (العصبية)، بينما ألزم الإخوان أنفسهم في أن تكون عقيدتهم (أشعرية) ومذهبهم (سني - حنفي) وثقافتهم (قرشية - أموية) وهذا الثالوث لن يسمح لهم بأن يفكروا في البحث عن ثقافة أخرى خارج نطاق سجن هذا المحيط الذي فرضته الأجواء الاخوانية المغلقة باعتبارهم حزب.

فقد كان الشهيد البنا (ت 1949) وفي زمانه يختلف في نوعية ثقافته عن الحزب الذي تبرعم منه، فقد كان رحمه الله يستطلع الثقافات الأخرى وخصوصاً ثقافة التشيع التي تتميز بالتسامح، والشفافية، فقد كان يواصل قراءة أدعية الصحيفة السجادية للإمام السجاد[1] يومياً كما كان عضواً في جمعية التقريب بين المذاهب الإسلامية وهو الذي يعني

(1) أنظر المقابلة مع الدمرداش العقالي أحد أعمدة الإخوان:
http://alwatan.kuwait.tt/ArticleDetails.aspx?Id=129884.

التقارب مع الثقافة الشيعية، فقد كان له الوقت في أن يطّلع على تلك الثقافة ومعرفتها في الوقت الذي كانت طبيعة حركته لم تكن سياسية، وإنما كانت رد فعل لعامل التغريب الذي اجتاح المنطقة، فثقافة حسن البنا كانت مختلطة، مع أنها لم تمنع التزود من ثقافة التشيع كما يقرر ذلك الكثير من مواقفه ومن سلوكياته وتصريحاته.

بعيد اغتياله وعندما طُرح موضوع الهوية الإخوانية لم يكن أمام الإخوان إلّا أن يلتزموا سلوك الثقافة المتوفرة لديهم في أدبياتهم وهي الثالوث الثقافي للتسنن، كما هو الحال في موضوع الثقافة السنية التي التزمت بها الأحزاب الشيعية العراقية عندما واجهوا موضوع الحكم في العراق في عام 2003 أو ربما قبله بقليل.

فقد تربى جيل أو جيلين تقريباً من الإخوان على الثقافة الأشعرية القرشية العصبية التي تنطلق جذورها بالأساس من ثقافة البداوة الأولى للعرب ما قبل قريش، أو أثناء وجود قريش في مكة، والتي انتقلت كما ذكرنا من خلال التطور التاريخي من الشكل القرشي الواضح إلى الشكل المعروف حتى وصلت إلى آل أمية فتطبّع التأريخ الإسلامي والثقافة الإسلامية بالطابع الأموي ونشأ معها الفكر الأشعري والذي كان مؤسسه بالحقيقة هو النعمان أبو حنيفة (ت 158)، مع أن واضع برنامجه فيما بعد هو أبو الحسن الأشعري (ت 324) في القرن الثالث الهجري.

في كل ذلك الوقت منذ أن توفى البنا وإلى الوقت الذي ظهرت فيه الحركات المتطرفة فيما بعد عصر الثورة الإسلامية في إيران، لم يكن

أمام الإخوان من قدرة على تغيير برنامج الهوية، فقد ذهبت الحركات السياسية المتطرفة إلى أقصى يمين الأشاعرة وهم الخوارج (غير الاباضية) وتعاملوا مع مفهوم الهوية بالصورة المتشنجة المعهودة في تكفير الآخرين ووجوب قتلهم، بينما لم يجد الإخوان في مستقبلهم غير البقاء على ما هم عليه، مع أن الكثير منهم انتهج نهج الحركات المتطرفة خوفاً من الاتهام بغربيّتهم وبعدهم عن الإسلام، فبقي الاخواني شخصية بين ناري التطرف والتغريب، وهذا ما دعاه إلى اتخاذ الموقف الأول.

وما أن حلت أواخر سنين حكم مبارك خصوصاً ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، بدأ الإخوان يبحثون عن تراثيات تبرير عملهم من خلال دراسة التأريخ ثانية على ضوء ذات الثقافة وهي الثقافة الأشعرية القرشية، أما أولئك الذين رفضوا أو أرادوا تعديل المسار فإنهم خرجوا من الإخوان إما طوعياً أو أنهم أبعدوا من التنظيم فصاروا قيادات كبرى فكرية تميل إلى ثقافة غير الثقافة الأشعرية وهي الثقافة الشيعية ثقافة آل البيت التي درسوها وانتهلوها من مجريات التأريخ مع بقائهم على المذهب التعبدي السني.

وبرزت في ذات الوقت مقولة (التسريب Infusion) الفكري الاخواني والخشية من أن تسقط الثقافة الاخوانية إما بيد التطرف أو بيد الثقافة الشيعية التي وجدت لها محلاً متقدماً - وبدون ذكر الاسم - إلى قادة إخوان كبار وعمالقة ولهم تأثير على مجرى الأحداث، فصار موضوع ثقافة التشيع معضلة بل مسألة يخشاها الإخوان ويعتقدون بأن المستقبل الإسلامي سيكون من خلال مظلة التشيع الثقافي، مع أنهم

يدركون جيداً بأن القدرات العددية للشيعة في مصر قليلة جداً، ولكنهم من خلال اطلاعهم على التراث الشيعي وبالخصوص بعد عصر الانفتاح والتكنولوجيا كان هنالك نقص واضح في التعادل الثقافي والفكري بين الموقفين وبين تراث الفكرين لصالح الثقافة الشيعية وقدراتها الفكرية، وخصوصاً فيما يتعلق بمواضيع الاجتهاد ومواضيع العصمة وتفسير التأريخ والفقه وإشكالات الحكم وغيرها.

فالمصريون عموماً إخواناً كانوا أم غيرهم، ذو حس عال تجاه الفكر المتنور، وهي سمة تجدها مشتركة لدى معظم من يعمل في ساحات التكنولوجيا والفكر والبحوث. وهذا ما دعا الكثير من الإخوان أن يثيروا كجزء من عامل الضغط في التغيير أمام حزبهم موضوع التشيع فكراً وأدباً وثقافة وفقهاً.

ولكن كل ذلك كان يواجه بنوع من الرفض من قبل القادة لأنه عبارة عن مسيرة صعبة الولوج في منحنياتها في تلك الظروف، ومسرب كبير لتشتت الحزب بعموميته بل تجزأ الوحدة الفكرية التي تربطه وهو أمر لا يخلو من الواقعية.

هذه الحالة تركت التنظيم الاخواني يعيش في حساسية كبرى من كل فكر أو ثقافة شيعية، وليس بالضرورة أن تكون تلك الحساسية نابعة من رفض أو استهجان، وإنما منطلقها يأتي من خلال التخوف من تسرب الفكر الثقافي الشيعي الذي أصبح يهدد أطروحة الإخوان من جذورها، لا باعتباره مذهباً بل ثقافةً وسلوكاً وطريقة من طرق التعامل مع أحداث الدين.

وهنا نرى بأن التمييز بين الثقافتين السنية والشيعة باتت أقرب إلى الرؤية بالعين المجردة عندما وصل الإخوان إلى الحكم، والتي من خلالها ظهر الوضع جلياً في محيط سيادة التشيع بين المصريين. . . . كمن يضع لوناً مخالفاً للون لوحة ذو تناسق فني، عندها تبدو الفروق بين اللون الموضوع الجديد وبين الألوان التي تناسقت بها يد الرسام، وهذا ما ترك المصريون حائرين أمام ألف سؤال وسؤال عن طبيعة الفكر الاخواني، مع أن الفكر الاخواني هو فكر لا يختلف عن فكر أي مصري آخر إسلامي سني حنفي، ولكن السؤال هو أين هي الفواصل الاخوانية عن فواصل المجتمع المصري. . ؟ لماذا إذن ظهر الإخوان وكأنهم قطعة (Craft) غريبة مزروعة في جسم بشري. . ؟ فبدوا لعوام الناس حتى الذين كانوا على علاقة طيبة معهم، وحتى مؤيدوهم من الصحفيين والمثقفين والسياسيين يرونهم وهم في سدة الحكم قطعة غريبة عن جسم المجتمع المصري في الوقت الذي كان عمق الإخوان في مصر منذ الأربعينيات من القرن الماضي، ومنذ أن بدأ البنا دعوته في هذا المضمار جزء لا يتجزأ من كيان المصريين.

الشيء الجديد الذي بادر إليه الإخوان بعد وصولهم إلى الحكم كان منطلقه نابعاً من:

- التستر على نوعية الثقافة التي يحملونها وهي ثقافة (العصبية) (الاشعرية) المخالفة لثقافة الجمهور ثقافة آل البيت.
- مبادرات أزمة وليست مبادرات بناء وكأنهم على موعد مع سياسة اجتماعية رافضة، مع أنهم جاءوا من خلال فوز شرعي في الانتخابات.

- غياب فكرة الأمان (Security)[1] من خلال أخونة الدولة وفرض الفكر (الحيازة) و(الغزو) على الشعب المصري انطلاقاً من مفهوم ذات الثقافة (الفرقة الناجية) التي تربوا عليها منذ الأيام الأولى لنشأة الحزب.

الشعب المصري من جهته ليس على اطلاع بكل ما قلته، ولم يدرك عملية الصراع الثقافي ما بين الثقافتين إلّا نفر قلائل من الجانبين كانوا قد توقعوا ما جرى، وعرفوا النتيجة قبل أن تقع. لأن الشعب المصري وإلى الآن ليس له القدرة على التمييز بين الثقافة والمذهب، كما هو الشعب العراقي، أو الشعب اليمني، أو التونسي أو غيره من الشعوب. بينما تجد ذلك شبه واضح لدى الشعوب الغربية في تفهمهم لواقع ومسيرات الثقافات وطريقة عملها وسننها[2].

---

(1) مقتل العالم الكبير د. حسن شحاته بعد الحشد الطائفي والحشد الفكري من خلال الشعور بقصور القدرة الفكرية للثقافة السنية الاخوانية على مضارعة الفكر الشيعي على مستوى البحث والتطوير. وقد كانت الأيادي الأثيمة التي اغتالته هي سلفية، بينما كان المنظرون هم الإخوان بسبب فقدان عامل الأمان لدى ثقتهم بثقافتهم. وخصوصاً إذا أدركنا بأن الضحية كان إخوانياً متحولاً إلى التشيع. طريقة القتل لم يألفها المجتمع المصري خلال تأريخ ربما قرون، فقد كانت وحشيتها بالطريقة التي تقترب مع وحشية القتل لآل البيت في القرون الأولى من الإسلام أمثال الحسين الشهيد وزيد الثائر وحسين العابد بطل فخ، ومحمد ذو النفس الزكية، ومحمد بن أبي بكر وغيرهم.
http://en.wikipedia.org/wiki/Hassan_Mohamed_Shehata_Moussa.

(2) لا بأس بالاطلاع على نظرية (الدين المدني) للفيلسوف الكبير روبرت بيلاه (ت 2013) الذي يرى بأن الدين في المجتمعات هو ثقافة تكونها مفردات المجتمع مع إضافة عامل الجانب الغيبي إليه. . للاطلاع يمكن مراجعة خلاصة أفكاره على:
http://en.wikipedia.org/wiki/Robert_Neelly_Bellah.

اليوميات الثقافية لثورة 25 يناير **2011**

- اليوم الأول: الثلاثاء 25 يناير 2011 (يوم الغضب): تنادى الشعب المصري عبر المواقع الاجتماعية فلبى آلاف المحتجين الدعوة. شملت المظاهرات بالإضافة إلى القاهرة العاصمة مدن: دمياط وأسيوط والمحلة الكبرى والإسكندرية والمنصورة والسويس والإسماعيلية وطنطا. قتل ثلاثة من المتظاهرين في مدينة السويس، وعشرات المصابين. مئات المعتقلين.

- الأربعاء 26 يناير: الشعار الشهير الموجه إلى مبارك ارحل... عشرة آلاف متظاهر بميدان التحرير حسب التقديرات الحكومية، وفرقتهم وطاردتهم قوات الأمن عبر الشوارع الفرعية... كما قامت السلطات المصرية بمنع موقعي الـ (فيسبوك) والـ (تويتر) وكرد على ذلك تم اختراق مواقع وزارة الداخلية المصرية والحزب الوطني الديمقراطي والموقع الرسمى لرئاسة جمهورية مصر العربية وتعطيلهم. حصيلة اليوم الثاني: وصل عدد الضحايا إلى 7 قتلى.

- اليوم الثالث: الخميس 27 يناير: تظاهرات أمام «مجمع المحاكم»، في مدينة طنطا بلغ عدد المتظاهرين فيها حوالي 5,000 شخص. وقد اقتحم متظاهرون في صباح اليوم نفسه بوابات وزارة الخارجية المصرية، اختفى وائل غنيم رئيس القسم التسويقي لشركة (جوجل) في مصر، في ظروف غامضة. الأقباط والمسلمون خرجوا بمظاهرة في وقت واحد.

- جمعة الغضب 28 يناير: أصدرت وزارة الاتصالات أمرا بوقف خدمة الإنترنت والرسائل القصيرة (sms) والاتصال عبر الهواتف المحمولة في جميع أنحاء الجمهورية المصرية. تظاهرات شعبية واسعة في عدد من المدن المصرية، أطلق الأمن في القاهرة القنابل المسيلة للدموع واعترض رجال الأمن المتظاهرين في محاولة لمنعهم من الوصول إلى ميدان التحرير، . إلا أن جموع المتظاهرين واصلت تظاهرها وبدأ المتظاهرون بالتوجه إلى القصر الرئاسي. مع عصر اليوم كان المتظاهرون قد نجحوا في السيطرة بالكامل على مدينتي الإسكندرية والسويس، وتم حرق مقر للحزب الوطني الحزب الحاكم الرئيسيّ الواقع في مدينة القاهرة. بدأت حالات من النهب والسلب تقول الحكومة أنها من المتظاهرين لكنهم في واقع الأمر كانوا من البلطجية والمساجين الذين حررتهم وزارة الداخلية من أقسام الشرطة والسجون العامة لترويع المواطنين وحث المتظاهرين على التراجع. المتظاهرون يقفون بالمرصاد لمحاولة سرقة المتحف المصري ويستنجدون بقوات الجيش لانقاذ المتحف. المتظاهرون يتجاهلون حظر التجول واستمرار التظاهرات طوال الليل.

- السبت 29 يناير: أذاع التلفزيون المصري لمبارك خبراً وعد فيه بحل المشكلات الاقتصادية، كانت ردة فعل المتظاهرين والمعارضة هي رفض البيان الرئاسي بل أعلنت الجمعية الوطنية للتغيير بأنها لن ترضى بأقل من رحيل الرئيس المصري. مع منتصف النهار بلغت أعداد المتظاهرين في ميدان التحرير حوالي

5,000 متظاهر. اقتحام سجن أبو زعبل. استمرار التظاهرات في بعض المناطق في مصر أهمها ميدان التحرير رفضا لتعيين عمر سليمان كنائب للرئيس. محمد البرادعي يعلن احترامه للجيش ولعمر سليمان ويؤكد رفضه لأستمرار النظام وعسكرة مؤسسة الرئاسة. محصلة اليوم 102 قتيل، فيما بلغ عدد الجرحى 1500 مدني و1000 شرطي.

- الأحد 30 يناير: شكّل الأهالي مجموعات لحراسة ممتلكاتهم حاملين العصي وسط غياب تام لقوات الشرطة فيما تكتفي قوات الجيش بحراسة المنشآت الحيوية. د. البرادعي ينضم إلى حشود المحتجين في ميدان التحرير ويقول: نحن بدأنا عهداً جديداً ولا يمكن للثورة أن تتراجع..... وخاطب المحتشدين قائلاً: لقد استرددتم حقوقكم وما بدأناه لا يمكن أن يعود إلى الوراء. وأضاف: لنا مطلب أساسي... رحيل النظام.

- الإثنين 31 يناير: عشرات الالاف من المتظاهرين يحتلون ميدان التحرير بوسط القاهرة ويستعدون لتنظيم صلاة الغائب على أرواح قتلى الاحتجاجات.

- الثلاثاء 1 فبراير: عشرات الآلاف من المتظاهرين في شوارع القاهرة وغيرها من مدن مصر استجابة لدعوة المعارضة لانطلاق تظاهرة مليونية.... وصول عدد المتظاهرين إلى ثمانية ملايين شخص في القاهرة وسائر أنحاء مصر، كما خرجت تظاهرات مؤيدة للرئيس مبارك - قدرت بالآلاف - في مناطق أخرى من

العاصمة ولاسيما حي المهندسين وأمام مبنى التلفزيون. أعلنت جوجل عن عمل أرقام هواتف لتسمح للمصريين لبث رسائل إلى تويتر دون الحاجة إلى الإنترنت. خطب مبارك، وأعلن عدم ترشحه لولاية جديدة، رد المعتصمون برفض خطابه والهتاف بسقوطه.

- الأربعاء 2 فبراير: (موقعة الجمل) هجوم البلطجية على المتظاهرين في معركة الجمل التي قام الحزب الوطني باستأجار بلطجية للاشتباك مع المحتجين مقابل 400 جنيه للشخص الواحد (68 دولاراً تقريباً)، كما شوهد بعض المتظاهرين يتقاضون مبلغ 200 جنيه مصري. . . . . محمد البرادعي يرد على مبارك. القوى المعارضة تدعو إلى مواصلة التظاهر رجال شرطة بلباس مدني يهاجمون الميدان وعرض بعض المتظاهرين هويات شرطة سقطت من المقتحمين. رجال أعمال تابعين للحزب الحاكم جندوا. تجمعات مؤيدة لمبارك ترفع شعاراً لن نكون عراقاً آخر.

- الخميس 3 فبراير هجوم آخر من البلطجية على المعتصمين بميدان التحرير. قالت مصادر وزارة الصحة المصرية أن ثلاثة أشخاص قتلوا وأكثر من 1500 جرجوا وأصدر النائب العام قرارًا بمنع سفر أحمد عز أمين التنظيم السابق في الحزب الوطني، ووزير الداخلية السابق حبيب العادلي، ووزير السياحة السابق زهير جرانة، ووزير الإسكان أحمد المغربي وجاء في القرار تجميد حسابات المصارف لهؤلاء، كما شمل القرار عددًا آخر من المسؤولين. كما صرح مبارك أنه يود الاستقالة لكنه يخشى

الفوضى، وقال أنه مستاء جدًا لمشاهد العنف في البلاد. أحمد شفيق ينتقد الولايات المتحدة ضمناً. عمر سليمان أكد أن الرئيس المصري لا يريد الترشح للانتخابات ولا ابنه السيد جمال مبارك وينتقد الولايات المتحدة أيضاً.

- الجمعة 4 فبراير: أعلنت قوى المعارضة في مصر هذا اليوم كيوم لزحف الجماهير لإسقاط الرئيس محمد حسني مبارك. من جهة أخرى التزمت حكومة أحمد شفيق بوعدها بعدم التعرض للمظاهرات وابطال حركات الحزب الوطني الديمقراطي واختفاء للبلطجة والعنف الذي حدث قبيل ذلك من ثورة 25 يناير. وجه الداعية المصري الأزهري الدكتور محمد الصغير رسالة إلى الرئيس حسني مبارك قارن فيه بين عثمان بن عفان على الرضوخ لمطالب الثوار لم يكونوا على الحق (؟).
- السبت 5 فبراير: وفاة الصحفي المصري أحمد محمد محمود بخيت متأثراً باصابته أثناء تظاهرات يوم 29 يناير وهو صحفي يعمل بجريدة الأهرام، وضع وزير الداخلية السابق حبيب العادلي مع 3 من قياداته تحت الإقامة الجبرية. إقصاء جمال مبارك وصفوت الشريف من الحزب الوطني، وتعين بدراوي أميناً للحزب. إعادة تشغيل خدمة الرسائل القصيرة (sms) بعد توقف دام 9 أيام كما حدث تفجير يستهدف أنبوب الغاز بين مصر والأردن في الصباح الباكر لهذا اليوم. . وإسرائيل تعلق مؤقتاً وارداتها، قدر خبراء اقتصاديون من الشرق الأوسط ثروة عائلة الرئيس المصري حسني مبارك بنحو 70 مليار دولار أمريكي.

- الأحد 6 فبراير: نائب الرئيس سليمان ومجموعة من ممثلي المعارضة والشخصيات الهامة انتهوا إلى التوافق على تشكيل لجنة لإعداد تعديلات دستورية. أقيمت صلاة الغائب على أرواح مَن قتلوا في اشتباكات مع قوات الأمن المصرية منذ انطلاق الثورة الشعبية يوم 25 يناير، وفي وقت لاحق اقام المسيحيون قداساً شهده آلاف المسلمين. وفي المنصورة انطلقت مظاهرة ضخمة قُدّر عدد المشاركين فيها بنحو ربع مليون. كما شدد المنسق العام لحركة كفاية عبد الحليم قنديل على أن الهدف هو اسقاط مبارك، مشيراً إلى تغيّر موقف الإخوان المسلمين بالدخول في حوار مع الحكومة، وذكر أن جماعة الإخوان لم تهيئ للثورة وإنما ساعدتها، وأضاف أن الجماعة أخطأت في توقيت الحوار. مطالب المتظاهرين التي أعلنت في مجملها هي: رحيل مبارك، حل مجلسي الشعب والشورى، تولي السيد رئيس المحكمة الدستورية العليا رئاسة البلاد، تشكيل حكومة انتقالية لتسيير الأعمال يشارك فيها كل قوى المعارضة الوطنية، تولي الجيش حفظ الأمن والحفاظ علي الممتلكات العامة والخاصة، تولي الشرطة العسكرية مهام الشرطة المدنية لحفظ النظام في البلاد، عزل قيادات الشرطة ومدراء الأمن وقيادة أمن الدولة والأمن المركزي ووضع ضباط وجنود الشرطة تحت تصرف الشرطة العسكرية.

- الإثنين 7 فبراير: أطلق سراح الناشط المصري وائل غنيم ملهم الشبان في الثورة وقائد ثورة الشباب.

- الثلاثاء 8 فبراير: في الإسكندرية احتشد آلاف المصريين قرب مسجد القائد إبراهيم مطالبين برحيل مبارك. شهدت المدينة تظاهرات على مدى أربعة أيام. في بور سعيد تم حرق مبنى المحافظة. وائل غنيم الذي يعود له الفضل في تأسيس صفحة في موقع فيسبوك لعبت دوراً مهماً في تنظيم الاحتجاجات خطب قائلاً: لن نتنازل عن مطلبنا في زوال النظام ولن نستسلم. وأضاف: لست بطلاً، إن الابطال هم الذين استشهدوا. مظاهرة وصلت إلى حوالى ثلاثة مليون متظاهر في ميدان التحرير، والتظاهر والاعتصام أمام مجلسى الشعب والشورى، ووزارة الداخلية، والبرلمان.

- الأربعاء 9 فبراير: استقالة وزير الثقافة الجديد جابر عصفور. حركة «صحفيون بلا حقوق» تطالب الصحفيين بالثورة على رؤساء تحرير الصحف القومية الفاسدين، وتطهير نقابة الصحفيين من النقيب مكرم محمد أحمد وعناصر نظام مبارك شعبياً. ارتفاع في عدد القتلى. آلاف يحاصرون مقر محافظة كفر الشيخ، آلاف العمال في حلوان وكفر الدوار وكفر الزيات يتظاهرون ضد الحكومة. وكذلك في منفلوط. السويس وقفة بالشموع بمناسبة ذكرى الأربعين لشهداء كنيسة القديسيين بالإسكندرية. عشرات الموظفين يتظاهرون أمام الهيئة للتأمين الصحي.

- لجنة تعديل الدستور التي تضم 11 شخصية قضائية تجتمع للمرة الأولى في مقر دار القضاء العالي. استقالة أشرف زكي من رئاسة

نقابة الممثلين. عمال المؤسسات الحكومية تعلن إضرابها وتلتحق بساحة التحرير.

- الخميس 10 فبراير: أكثر من 2 مليون متظاهر في ميدان التحرير. مظاهرات في جامعة أسيوط ضد رئيس الجامعة. أطباء القصر العيني. يقودون مظاهرة من أمام القصر العينى، أصدر الجيش المصري بيانه الأول ولوحظ أن الرئيس المصري لم يكن حاضراً في الاجتماع بصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة. ألقى نائب الرئيس عمر سليمان خطاب بعد الرئيس منادياً فيه المتظاهرين بالعودة لديارهم.
- الجمعة 11 فبراير: ألقى الجيش بيانه الثاني. كان المتظاهرون في ميدان التحرير ثائرين ليل الجمعة بعد خطاب مبارك الذي رفض ترك السلطة وهتف المتظاهرون: «يا جيش مصر اختار، الشعب أو النظام». مبارك فوض صلاحياته لنائبه واحتفظ بموقعه رئيساً للبلاد. البرادعي يحذر من انفجار الوضع في مصر داعياً الجيش إلى التدخل.
- صدر بياناً من رئاسة الجمهورية يعلن فيه رئيس الجمهورية بتخلي مبارك عن منصب رئيس الجمهورية وتسليم إدارة شؤون البلاد للمجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية.





تونس



بوعزيزي في لحظات الحرق



خصوصية تونس وتأريخها: تونس بلد عربي غريب في شكل تأريخه وفي شكل قادته، وهو مميز في الكثير من انعطافات التأريخ التي مرت بالعالم الإسلامي. ويمكن لنا أن نقول بأن الفكر الشيعي بالأصل نما في تونس في (المهدية) بعد أن وصل الدعاة الفاطميون الاسماعيليون إليها في الوقت الذي كان يصارع في تونس نوعان من الأفكار وهما الخوارج والفكر العادي العباسي الأموي الذي وصل إليها بعد الفتح الإسلامي.

ولكي نعطي الوضع حقه نمرّ بمحطات مهمة لتونس والتي تعتبر جزءاً مهماً في تفهم طبيعة الثورة السلمية التي قادتها هذه الدولة العظيمة.

الامازيغيون هو السكان الأصليون لشمال أفريقيا كما هم الهنود الحمر إلى أمريكا الشمالية. وكان السكان آنذاك يدعون الليبيون أو اللوبيون الذين أقاموا مملكة ماسيليا (Massyla) في مدينة توقة (Thugga) وذلك في فترة القرن التاسع ما قبل الميلاد. أنشأت بعدها مملكة قرطاج بعد أن قدمت المملكة السابقة التسهيلات إلى (أليسا) الهاربة من جحيم اليونان لتقيم هذه المملكة التي أصبحت أكبر مناطق البحر المتوسط تأثيراً.

وفي القرن الثامن عندما برزت الدولة الرومانية دخلت في صراع مع قرطاج في حروب دموية تسمى في التأريخ (البونيقية)، وأشهرها حملة (هنيبعل) في عام 202 ق.م. بعد أن عبر بفيلته البحر وصار في وسط روما، ثم بعدها اندحر على يد الرومان تماماً واضمحلت مملكة قرطاج بعد أن أحرق الرومان أهم تراث لديها وهو مكتبتها العظيمة. فصارت تونس أول مقاطعة رومانية في شمال أفريقيا في عام 146 ق.م. وقرطاج بعد أن بناها الرومان ثاني مدينة بعد روما.

في القرن الخامس بعد الميلاد عبر الأسبان (الوندال) وهم قبائل بربرية هرطقية (زنادقة) بالمصطلح الإسلامي وسيطروا على تونس إلى أن رجع وحررها الرومان ثانية القرن السادس تقريباً، وهي نفس فترة سيطرة قريش على مكة 500 ميلادية أقل أو أكثر بقليل.

أما الغزو العربي المسمى الإسلامي، فقد تم تقريباً في أعوام 680 م بقيادة عقبة بن نافع وقادة آخرين، تم فيها إبادة الأمازيع بطريقة غاية في الوحشية (كما قتل الاوروبيين الهنود الحمر في امريكا) وقتلوا قائدتهم المسماة (الكاهنة) وأقاموا القيروان بدلاً من قرطاج، ثم أنشأ جامع الزيتونة في عام 737 م، وأصبح الأمازيع بعد ذلك رأس حربة في القتال والتوجه إلى أسبانيا بقيادة طارق بن زياد بعد أن وجد الأمازيع بأن فكرة الغزو الإسلامي ما هو إلّا نوع من التجارة والقوة مما يكسبهم منعة في مواجهة الآخرين.

في العهد العباسي تمكن (الأغالبة) وهم أحناف أن ينشئوا دولتهم لكي تقف حاجزاً أمام المد (الخارجي) الذي انتشر بين السكان

الأصليين بسبب التجاء الخوارج إلى تلك المنطقة هرباً من اضطهاد الأمويين إلى أن سقطت تلك الدولة والتي استمرت من عام (162-296) هجرية.

وفي عام 296 بدأت الحقبة الفاطمية وهم شيعة إسماعيلية على يد كما يسمى أبو عبد الله الشيعي (ت 298)، وتمكن من بناء تونس ولمدة 64 سنة انتقلوا بعدها إلى مصر القاهرة وتركوا على تونس الدولة الصنهاجية.

بعدها جاءت دولة الموحدون وسقطت في عام 668 هجرية ثم جاء بعدهم الحفصيون، بعدهم وصل الاندلسيون إلى الحكم، ثم جاء العثمانيون في عام 973 إلى حين الوصاية الفرنسية في عام 1881.

ولنعد شيئاً قليلاً إلى الوراء لنتعرف على واقع الثقافتين المتصارعتين الشيعية والسنية على أرض تونس، فقد كان أول من وصل إلى تونس هو عبد الله بن أبي سرح عامل عثمان الخليفة، وأخيه بالرضاعة بعد أن أنهى موضوع مصر، وقد ذبح منهم قوم كثيرون واستولى على أطفال التونسيين وذلك في سنة 27 هجرية بعد أن أمده عثمان بجيش عليه بسر بن أرطاة الرجل السفاح في التأريخ[1]. وفي سنة 50 بعث معاوية إليهم عقبة بن نافع فبنى القيروان ثم عزله بمولاه أبو المهاجر دينار.

بعد موت معاوية (ت 61) أرسل يزيد (ت 64) عقبة مرة أخرى فأوقع البربر المذابح وهم السكان الأصليون الذين رفضوا في أن

(1) فتوح البلدان للبلاذري ص 225.

يعترفوا بالغزوات وإسلاميتها، فقتلوا عقبة في (تهودة، الجزائر) بقيادة (كسيلة البربري) باعتباره غازياً سفاحاً.

فالبربر سكان تونس الأصليون قوم موالون لأهل البيت، ولهم فيها ثورات خصوصاً بعد مقتل الإمام الحسين، فقد جرى عليهم بمثل ما جري على أهل المدينة من قبل الأمويين.

في عصر عبد الملك بن مروان (ت 86) أرسل للبربر قائداً هو حسان بن نعمان الغساني، وبعد مقاومة شديدة مع البربر بقيادة ملكتهم (الكاهنة) دخل قرطاج مرتين. أبن خلدون في مقدمته يذكر بأن البربر قد ارتدوا عن الإسلام، وهذا في رأيي ليس له من صحة لأنّ سيف الارتداد كان قد استعمل فيما لو أريد استباحة قوم وسلب نسائهم وأولادهم وهو ما تم بالفعل، فكان العرب يأخذون النساء الجميلات من البربر ويرسلونها إلى الخلفاء الأمويين.

وقد بقيت صورة البربر وهم التونسيون والجزائريون والمغاربة والليبيون لهم صورة كتبها مؤرخو العصر الأموي بشيء من عدم الواقعية والمس بهم ونعتهم بأنهم متوحشون.

يقول أحمد بن الضياف: إنّ أهل أفريقيا يدينون بحب علي وآله، يستوي في ذلك عالمهم وجاهلهم.... جبلة في طباعهم حتى أن نساءهم عند الطلق ينادون يا محمد يا علي[1].

---

(1) إتحاف أهل الزمان، أحمد بن الضياف (ت 1874)، ج 1 ص 151 مأخوذ عن كتاب الشيعة في تونس، انتشار عفوي أم مشروع فتنة، نور الدين المباركي.

أما التشيع[1] فإنه بدأ في خلال القرن الثاني بعد أن تزوج الإمام الصادق (ت 148) امرأة بربرية وهي أم الكاظم الإمام (ت 183) فخرج ثلاث أشخاص، اثنان توجها غرباً وهما ابن أبي الرجال والحلواني والثالث جنوباً وهو أبو عبد الله الشيعي اليمن.

بدأ التشيع في تونس وشمال أفريقيا من قبيلة كتامة، وهي أكبر القبائل البربرية، كما وصل أيضاً اكبر داعيتين للخوارج هو عكرمة (ت105) مولى ابن عباس وعبد الله بن أباض زعيم الحركة المشهورة الأباضية الخارجية (ت 107).

تمكن أبو عبد الله الشيعي فيما بعد من الوصول إلى تونس من اليمن لكي يؤسس الدولة الفاطمية بعد سجالات مع القيادات العباسية في بغداد وفي الأندلس الأموية، في الوقت الذي كان الخوارج قد أسسوا دولتهم في (سجلماتة) الجزائر. تمكن أبو عبد الله القضاء على الأغالبة وذلك في سنة 297 هجرية، بعدها تمكن من أن يقضي على الرساتمة (الخوارج) والأدارسة (الزيدية)[2].

(1) عدد الشيعة في تونس ربما ما بين 30 إلى 50 ألف، أما السادة الحسينيون الأشراف فعددهم مليونين ونصف، وكما ذكرت سابقاً فإن الخط الفاصل بين الأشراف وبين الشيعة خط واه جدا. هنالك في الجنوب التونسي قبائل لازالوا يحتفظون بتشيعهم القديم منذ أيام الفاطميين. كما أن هنالك مدينة (نفطة) على الحدود التونسية الجزائرية تسمى (الكوفة الصغرى) مدينة شيعية بالكامل بالإضافة إلى مدينة (صندفا).

(2) وهؤلاء الأدارسة هم من نسل إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الأخ الأصغر إلى محمد ذو النفس الزكية واستمر حكمهم تقريباً أربعة قرون وانتهى في عام 375 هجرية.

تحول النزاع في أفريقيا ما بين الخوارج والعباسيين من جهة، وبين الشيعة المتمثلة بالفاطميين من جهة أخرى. بعد مغادرة الفاطميين تونس متوجهين إلى القاهرة تاركين عليها الصهانجة بعد مواجهات عنيفة مع الخارجي أبي يزيد مخلد بن كيداد الملقب بصاحب الحمار. ولم يدم حكم الصنهاجيين بعد أن انقسموا على أنفسهم، وفي تلك الفترة دخلت الدعوة المالكية أفريقيا فتحول الصراع إلى صراع مذهبي له ثلاث أطراف: التسنن الموالك، الشيعة الفاطميين، الخوارج.

ومن خلال الصراع بينهم لم يَجد الأطراف الأخرى من بد إلّا أن يقتلوا الشيعة فدخلوا معهم في مذابح كبرى أهمها مذبحة (بركة الدماء) الموجودة آثارها لحد الآن[1] وكذلك (بئر مشارقة) التي تم ذبح الشيعة بالجملة في تونس وفي سجلماتة، كما أصدر العلماء فتوى بقتل الشيعة من قبيل محرز بن خلف (ت 413) القادم من الأندلس الذي استبدل اليهود بالشيعة في السكن في أماكنهم.

بقيت آثار التشيع وإلى اليوم واضحة في تونس في المهدية مثل المسجد الجامع، والسقيفة المعروفة بالكحلة والقصر الفاطمي، كما كان هنالك مناسبات اتخذوها تشابه الشيعة في البعض من العادات مثل التسمية على الأشخاص وعلى المدن وغيرها. وقد يمكن في ذلك مراجعة كتب المقريزي المؤرخ المصري المشهور في كتابه (اتعاظ الحنفا في أخبار الخلفا).

(1) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي ج1ص268.

كما اعتقد بأن التونسيين أقوام لهم باع طويل في التعامل مع الثقافات والأمم، وهم أقوام مالوا إلى سياسة الانفتاح وسياسة تقبل الآخر، ولو لا تلك الصفة لم نجد أن الدعوات التي انطلقت من الشرق وخصوصاً الموتورين منهم قد استقرت في تلك الدولة، وبذلك أصبحت منطقة مهمة للمعارضين للحكام الأمويين والعباسيين.

موزاييك الثقافات: ولو تمكنّا في أن نربط التأريخ القديم منذ أيام قرطاجنة الإمبراطورية العظمى إلى حين الدخول الروماني إلى حين الغزوات العربية وغيرها لاستنتجنا بأن الشعب التونسي أقرب إلى التنوع الثقافي والفكري منه إلى تبني أسلوب التزمت. فقد لا نستغرب في أن نجد بأن هذه الدولة كانت من أولى الدول التي سنت قانون تحريم الرق في الدولة العثمانية وانتشر بعدها إلى مناطق العالم الإسلامي، بينما قامت ثورة كبرى في الحجاز ضد العثمانيين بسبب مخالفتهم لتشريع إسلامي كما يدعون. كما أن الواقع التونسي كان من أول من رفع عقيرة التحلل من الاستعمار من خلال خطوات مرحلية وليس من خلال حرب مستنزفة إلى أن تمكنت من نيل استقلها.

كما أن التونسيين كانوا من أول المبادرين إلى تحديث الدولة بطريقة قريبة من الدول الديمقراطية، ففي 1859 قام محمد باي بإصدار عهد الأمان كأول وثيقة أساسية تضمن حقوق المواطنة، وفي عهد الصادق باي أصدر عام 1861 أول دستور للبلاد وربما في كل البلدان العربية.

ومع أنني أرى بأن الثقافات التي تواصلت والتي تواجهت في طريقة عملها منذ الأيام الأولى لدخول الحكام العرب في عام 27

هجرية وإلى حين وصول الفرنسيين وفرض واقعهم فإن الثقافة التونسية قد تلونت بصورة كبيرة على يد الثقافة الفرنسية أكثر منه مما تلقته من الدول الإسلامية التي تقاتلت وذبحت بعضها بعضاً.

فالفرنسيون عندما حلوا في تونس أو الشمال الأفريقي، توجهوا إلى نشر الثقافة الفرنسية فيما بين المجتمعات وخصوصاً المجتمعات المتحضرة في تونس والمغرب. فطبع سلوك المغاربة والتونسيين بالطابع الفرنسي، وهو التوجه الذي يميل إلى القانون والفن والدولة. وقد كان ذلك بعد أحداث الثورة الفرنسية الكبرى وبعد أن تأثّر العالم بمعطياتها وقدراتها.

فقد دخل الفرنسيون إلى تونس في عام 1881 وغادروها في عام 1956 ولم يفرضوا في دخولهم أي تغيير في شكل السياسة التي يتبعها الحكم، فبقي حكم (الدايات) الذي يستمد قوته من الانكشارية العثمانية كما هو.

ويمكن لنا أن نستنتج عدة ظواهر في الحياة التونسية أهمها:

- القدرة في المعيشة بسياسة التحمل ما بين التوجه الانكشاري والسياسة الفرنسية والتدين الإسلامي.
- رفض التوجه إلى العنف في التغيير.
- الاعتزاز بالوطنية التونسية في تمييزها عن بقيّة أقطار الشمال الأفريقي.

ولكن ذلك لم يضف على تونس وشعبها إلّا أن يتوجّها إلى صوب الجهة الغربية التي تتناغم مع فكره المحب إلى ثقافة الحرية والاعتقاد،

فكان الشيء المميز هو أن يتوجه المجتمع التونسي صوب فرنسا بحيث أن الكثير من القادة التونسيين لم يروا من ضير في أن تلتحق تونس بفرنسا باعتبارها دولة ذات توجهات حضارية متميزة.

هذا في الوقت الذي انفصل التونسيون بثقافتهم عن المواصلة مع الشعوب العربية الأخرى وخصوصاً شعوب المشرق العربي، فصار الوضع التونسي وضعاً مميزاً في شكله وفي ثقافته وفي طريقة تعامله مع الأحداث.

فهي الدولة الوحيدة ربما التي لم تتوالَ بها الثورات الدموية في الصراع على الحكم إلّا بعدما صار هنالك افتراق ثقافي في شكل التوجه الذي كان على تونس أن تتبعه ما بعد أحداث الخامس من حزيران عام 1967، بل كان ذلك قبل عامين 1965 عندما أعلن الحبيب بورقيبة أهمية تفهم الصراع العربي الإسرائيلي ثم الدخول في مفاوضات مع إسرائيل من أجل إيجاد مخرج للقضية الفلسطينية، والتي على أثرها تم تعليق عضوية تونس في جامعة الدول العربية. . . . . .

فقد تمكنت الثقافة الفرنسية من طبيعة الشخصية التونسية بما يحقق ايجابياتها وبما يعتمل مع نظرة الحياة إلى المستقبل.

فمن الصعوبة أن أعزل التغييرات التونسية التي حدثت في تأريخها عن ثلاثة عوامل مهمة جداً والتي كان لها أكبر الأثر في روحية الثقافة السائدة:

1 - الثقافة الفرنسية القانونية وحرية الاعتقاد.

2 - الثقافة الشيعية المتسامحة السلمية.

3 - التصوف الذي نشأ في زمن الاضطهاد.

بالتأكيد قد يعترض البعض على وجود ثقافة التشيع في المجتمع التونسي الذي أنهى قبل أكثر من تسعة قرون الوجود الشيعي المذهبي فيها، وتحولت القضية الشيعية إلى قضية بعيدة عن الواقع العام في الاعتقاد وفي المذهب، ومع اتفاقنا فيما يقوله أولئك فيما سطرته في القول، فإن أصل ثقافة التشيع في المجتمع الشمال الأفريقي هو حب آل البيت، وقد يختلف المفهوم عنه في الشرق الإسلامي الذي اعتبر أن حب آل البيت ليس له من ارتباط بالإسلام لحد ما، بل أن الإسلام يمثله شخصيات مختلفة عن شخصيات آل البيت وهم الخلفاء الراشدون والصحابة الذين يتميزون بالعصمة (Infallible) في تقرير الإسلام الصحيح.

أما المغاربة فهم ذو تطلع يختلف في نظرتهم إلى الإسلام، وخصوصاً وأن الإسلام جاء إلى أرضهم غازياً وهو في الواقع غزو بدوي وليس غزواً فكرياً، باعتبار أن الغزو الفكري ليس له علاقة بالقوة أو بالسيف، وإنما بالسلوك والممارسة وطبيعة المعاملة.

فتجربتهم مع الغزاة الجدد مثل بسر بن أرطاة، وابن أبي سرح كانت غير موفقة، وهذا ما دعاهم إلى اعتبار آل البيت هم النموذج الأمثل. هذا في الوقت الذي كان العرب القادمون من الشرق متصنمين بشكل تعصبي نحو قريش باعتبار أن تكون قادتهم من الشخصيات القرشية.

ولا يقتصر الأمر في هذا الموضوع على التونسيين أو الشمال

أفريقيين وإنما هذا أمر تجده مع كل الأقوام غير العرب من الذين شملهم سيف الغزو العربي المسمى الإسلامي، كالفرس والأتراك والديلم، وكل الشعوب التي دخلت الإسلام بقوة السيف والتي هي معظم الأقطار التي وقعت تحت الحكم الإسلامي في عصر الدول الأربعة.

ولكن أين كانت الثقافة الشيعية في العصور التي تلت مذابح الشيعة على يد الصنهاجي....؟ يبدو لي بأن التشيع في تونس اختفى تحت الأرض وتحول إلى فكر سري، ولا أعني بالسري في العقيدة وإنما على مستوى الشخصيات والانتماء خصوصاً بعد أن تم استباحتهم عددياً من قبل بقايا الأمويين في الأندلس، بالإضافة إلى العباسيين في الشرق.

وهذا قد نجده في الكثير من البلدان التي حورب فيها التشيع مذهباً كمصر بعد زوال الفاطميين وسوريا والموصل بعد زوال الحمدانيين وكذلك في المغرب بعد زوال الأدراسة وغيرها من البلدان، وهو حال شبيه بالمسلمين في الأندلس بعد السيطرة المسيحية وبعد سقوط غرناطة، وأعتقد بأنه أمر طبيعي لدى البشر ولحماية اعتقاده إخفاء ما يؤمن به عن الأعداء.

ويبدو أن الكثير من الشيعة التونسيين إما أن انزووا إلى قرى نائية بعيدة، أو أنهم هاجروا إلى دول أخرى إلى الشرق ولم يبق منهم إلّا شخصيات من الصعوبة لها أن تغادر تونس، أو أنهم دخلوا في الفكر الصوفي بعيدين عن السياسة وتعقيداتها.

ظاهرة السبات الفكري (Hibernation): ويحسبني أن ابن خلدون صاحب (المقدمة) كان رجلا شيعياً، ولكنه كان يخفي تشيعه خوفاً من العامة ومن القتل، وهنالك دلائل كثيرة من الممكن مراجعتها في كتاب الأستاذ الكبير علي الوردي[1] أهمها هو أستاذه (الآملي) كان شيعياً يخفي تشيعه بعد أن سافر إلى العراق، على أثرها نقل تراث العلامة نصير الدين الطوسي (ت 672/ 1251م) إلى المغرب العربي. كما أن هنالك دلائل عقلية كثيرة أخرى من الممكن استنتاجها من كتاب العلامة الوردي[2].

ظاهرة السبات الشيعي ظاهرة مكررة في الكثير من الدول التي تُحارب بها الأفكار الشيعية، والتي ليس بالضرورة أن تكون تلك الأفكار مذهبية، وإنما يشمل الاضطهاد الجانب الثقافي للأفكار

(1) مقدمة ابن خلدون. على الوردي ص 123.

(2) ترتبط ظاهرة الانتماء الشيعي بقرينة أخرى تلك هي الإصرار على التبحر في العلم، وهذه القرينة لم تتأتى من فراغ، لأن أصل التفكير الإمامي نابع من الحرية الفكرية (فتح باب الاجتهاد)، فلعل كل من امتلك الجانب الشخصي في تقدير الحرية الفكرية من العلماء تراه يلتقي مع المفاهيم الشيعية في يوم ما فيتحول شيعياً إما مذهباً بعلمه، أو ثقافة بعمله أو بدونها. فقد أكدت البحوث الخاصة بعلوم التطوير وعلوم النفس بأن الجو الفكري الديمقراطي المتسم بالحرية الاعتقادية يمتلك القدرة على الإبداع في مجال العلوم والتكنولوجيا والآداب. أقرا:
Analyzing the Relationship Between Democracy and Development: Defining Basic Concepts and Assessing Key Linkages. Alina Rocha Menocal. Background note (1) prepared for the Wilton Park Conference on Democracy and Development, 23-25 October 2007. http://www.isn.ethz.ch/Digital-Library/Publications/Detail/?id=91731.

الشيعية كما هو الأمر في تركيا مثلاً[1]. أو في الأردن[2]، وكذلك تجد الأمر يتكرر الآن في تصريحات مبارك من ذي قبل وكذلك الرئيس الأسبق مرسي، والإخوان في تهجمهم على الثقافة الشيعية[3].

ففي السابق كان الشيعة معرضون إلى إبادات في مناطق النزاع، أما في هذا العصر فإن الإبادات قد تتم ولكن من الصعب إخفاؤها عن المنظمات العالمية أو الأمم المتحدة، وهو ما دعا الجناة إلى التردد في ارتكاب مذابح جديدة خصوصاً إذا كان الجاني دولة أو جيشها أو مخابراتها.

وعندما تدخل أي ثقافة في فترة سبات فإنها تفقد القسم الكثير من منتميها بسبب تحوّل الأجيال الجديدة إلى الثقافة المعادية، كما هي تماماً الوضع مع المسلمين في أوروبا والأندلس بعد استيلاء الكنيسة عليها في القرن الحادي عشر الميلادي.

في نفس الوقت تتغير الكثير من ثوابت أفكار تلك الثقافات (الضحية) وتنحاز إلى التطرف بسبب منع استمرار اتصالها بمراكز الفكر الرئيسية. وفي معظم الأحيان تخرج تلك الثقافة بمكون جديد خليط من أفكار عديدة.

---

(1) في نزاع رئيس الوزراء أردوكان مع منافسه (كولن) على المراكز البلدية في شتاء عام 2014 صرح الأول بأن منافسه متأثر بالأفكار الشيعية منها فكرة التقية وفكرة التصوف. مع أن الشيعة في تركيا كعدد لا يمثلون إلّا نسبة لا تكاد تذكر.

(2) أطلق فكرة التخوف من الشيعة أي من ثقافتها من خلال تصريح العاهل الأردني في تسمية تلك الثقافة (الهلال الشيعي). http://en.wikipedia.org/wiki/Shia_Crescent.

(3) http://www.hrw.org/ar/news/2013/06/27-1.

في حالة الثقافة الشيعية في الشمال الأفريقي، كان هنالك عامل حاسم أثّر على واقع الفكر الشيعي في تونس أهمها هو التغريب والفرنسة والتي من خلالها تم دخول الثقافة الشيعية في طور جديد طغت فيه الثقافة الفرنسية على ثقافة التشيع، خصوصاً إذا أدركنا بأن المشتركات الثقافية كبيرة ما بين الثقافات الإنسانية عموماً، فالثقافة الفرنسية تحمل مفاهيم كثيرة ليست لها من تعارض مع متبنيات احترام حقوق الإنسان وحريته التي نادت بها الأفكار الشيعية الثقافية. فقد تم التوصل إلى أن الثقافة الشيعية تزخر بمفاهيم مشتركة مع الثقافة الفرنسية مثل الحرية الفكرية والاعتقادية وكذلك الاتجاه القانوني ثم فصل الدين عن الدولة وغيرها من المشتركات.

الذي حدث هو أن الكثير من الشيعة الأصليين من التوانسة قد غادر تونس إلى أوروبا أو إلى أقطار أخرى وذابوا هنالك في المجتمعات التي لجأوا إليها، في الوقت الذي حاول البعض من أجيالهم استعادة عقائدهم ولكنهم لم يتمكنوا وإلى الآن بسبب بُعد المسافة وعامل التغريب وضغط ظروف الاضطهاد المضاد.

هنالك أقاويل في أن بعض قادة الحكومات التي كانت في أيام بورقيبة (ت 2000م) كانت شيعية التأريخ، ولكن ذلك لم يوثق، ولم يعرف مدى صحته، مع توفر بعض الدلائل على ذلك مثل استعارة شخصية شيعية عراقية هو فاضل الجمالي[1] ليكون مستشاراً إلى بورقيبة بعد عام 1958. أو الانفتاح على إيران في زمن بن علي.

(1) في عام 1949 اختير عضوا عاملاً في المجمع العلمي العراقي، رئيس للوزراء من عام 1953-1954، انتخب رئيسا لمجلس النواب عام 1952 ولمرتين، ممثلاً للعراق =

عموماً، مما لا شك فيه هو أن التشيع السابق كان تشيعاً فاطمياً أي بالمصطلح الحديث سياسياً، باعتبار أن الشيعة الإسماعيليين هم ممن يسعون إلى قيام الدولة بقيادة الإمام المستور وهو سلالة إسماعيل (ت 145). أما الأثنا عشرية فهم لا يشابهون الإسماعيلية بشيء من الناحية الاعتقادية، ومن الصعوبة بمكان أن يتحول الشيعي الإسماعيلي إلى الشيعي الإثني عشري. ومع أن الروايات تقول بأن الإثني عشريين في زمن الإمام الصادق (ت 148) أب إسماعيل، والذي تزوج بربرية من شمال أفريقيا قد أرسل شخصين إلى المنطقة لنشر التشيع الإثني عشري بالتحديد، ولتوضيح مبدأ آل البيت. وهنا يبدو لي بأن التشيع مع أنه كان إسماعيلي السياسة، ولكنه ظهر الآن بالصورة الإثني عشرية بسبب واقع الثورة في إيران وانتصارها وقدرتها في المنطقة.

فالتشيع ليس هو ظاهرة تتعارض مع مبدأ الإنسان المسلم بل تتماشى مع فطرته بطريقة سلسلة وخصوصاً في الأوساط التي تمتلك قدرة حوارية وقدرة ثقافية كما المجتمع التونسي الذي يعتبر من المجتمعات التي تتميز بمعرفتها وثقافتها وعمق تجربتها التاريخية في مسيرة الأفكار.

جنين الثورة: وبما أننا قد حددنا لجنين الثورة المصرية من تأريخ

= في حفل تأسيس منظمة الأمم المتحدة عام 1945، كان من المناضلين في المطالبة باستقلال الدول العربية خاصة دول المغرب العربي من خلال المحافل الدولية الدبلوماسية. حكم عليه بالإعدام بعد الانقلاب العسكري الذي أطاح بالملكية في العراق عام 1958، ولكن لم يعدم بل عفي عنه. أنظر مسلسل تأريخ حياته في بيوغرافيا: http://en.wikipedia.org/wiki/Muhammad_Fadhel_al-Jamali.

لبداية حضانته في رحم المجتمع المصري، فإنه في ذات الوقت نجعل للثورة التونسية العظيمة التي انطلقت في 17 ديسمبر عام 2010 يوماً آخراً يختلف عن اليوم المصري في بداية نمو الجنين في رحم المجتمع التونسي، وهو فترة هجوم قبائل بني سليم وبنو هلال على تونس[1] بعد أن زحفوا إليها من الجزيرة العربية ثم أقاموا في الصعيد إلى أن انتقلوا إلى تونس.

في تلك الفترة كانت الأمة التونسية قد أدركت عمق الثقافة الشيعية التي لم تكن ثقافة صراع سلطوي بل مبادئ كبرى وذلك من خلال نوعية الثقافة التونسية المنفتحة وكذلك من خلال واقع الفكر للزيتونة التي كانت تمثل حاضرة فكرية مميزة في عالم البحوث بما يخص أفكار7 المذهب الشيعي وقدراته الكبرى في تنمية المجتمعات. من الشخصيات التونسية المميزة عالمياً هو د. التيجاني[2] والسيد عماد الدين الحمروني والسيد محمد الرصافي.

أما التأريخ الثاني الذي احتمله في بداية الحضانة الجنينية هو فترة الانتداب االفرنسي، والتي كانت تلك الثقافة عامل ارتباط مع الثقافة الشيعية التي كانت تمثل في ذلك الوقت تصورات متناثرة متبلورة في مثقفي تونس. وباقتراب الثقافتين جغرافياً برزت بداية فكرة السلم

---

(1) قبائل بدوية قيسيين من العرب العدنانية، كانت تقيم في الجزيرة في نجد والطائف وحوالي مكة هاجرت إلى تقريباً كل الأقطار العربية ولكن في القرن الخامس الهجري هاجموا تونس والشمال الأفريقي فتحولت منذ ذلك التأريخ اللغة من أمازيغية إلى عربية. هذه القبائل كانت تمثل أداة وقوة الحرب في التخريب في الغزوات الإسلامية.

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Muhammad_al-Tijani.

وفكرة القانون المرتبط بالدين مع غياب المسمى في أن تكون هذه ثقافة شيعية أو غيرها.

وقد نجد الشيء ذاته في انتفاضة الثورة البولونية (المخملية) في عام 1989 على حكم الروس مع عدم إدراكهم أي الروس بأهمية الثقافة الكاثوليكية التي بنيت في زمن ماض وتلقحت بفكر التسامح الأوروبي وخصوصاً الألماني لكي يخلق ثورة كبرى سلمية بدأها عمال مرفأ (كدانس) بقيادة (ليش واليسا) ثم انتشرت تدريجياً إلى نفوس البولونيين، مع أنه وعندما تسألهم عن تأثير الثقافة الكاثوليكية ودورها في الثورة يقولون لك ليس لها أي تأثير، وإنما كانت أفكار الظلم والتهميش هي الفاعلة في تأجيج الثورة[1].

فالمجتمع وابن الشارع من الصعب له أن يدرك عمق التحركات الجماهيرية كما هو موضوع انتشار مرض غريب مثل أنفلونزا الخنازير (H1N1) الذي من الصعب على الرجل العادي وحتى المصاب به في أن يدرك بأنه فيروس ذو طفرة وراثية تولدت من تفاعلات معقدة وراثية إلى أنّ صار بهذه الصورة من القدرة الوبائية. بعد أن قذفته أسلافه في رحم خلية كانت حاضنة طبيعية له حتى صار مكتملاً.

الثورات من الصعوبة تحليل أبعادها وعمقها من قبل الناس، فالمجتمع البوسني أو الكوسوفي لم يكن قبل تأريخ انتفاضاته في التسعينيات يدرك بأن بقايا الثقافة الإسلامية التركية على ضآلتها كانت

(2) http://www.isn.ethz.ch/Digital-Library/Publications/Detail/?id=91731.

هي التي حركت عامل الثورة، وبالتعاضد مع فكر التسامح الأوربي المسيحي أو الحرية الديمقراطية. . . . .[1].

إن لم تكن الحياة كما أريد فليكن الموت كما أريد: فقد كانت حادثة بو عزيزي وما لحقها من ثورة تستلزم أن نضع درجات من التحليل الاجتماعي والعلمي في تفسير الحدث. . . الشعب التونسي شعب تضحيات والتضحية في ما أعنيها هنا هو رخص الروح أمام مبدأ. وهذه الصفة ليس بالسهل أن تكتشفها في مجتمع تراكمت عليه غبار التغيرات الدولية والنزاعات الداخلية إلى الدرجة التي اعتقدنا بأنه أنساه هويته. وهذا المفهوم التضحوي جاء من منطقة ريفية نائية وليس من حياة مخملية. فهي بالتأكيد حادثة لم تنقدح من خلفية دينية أو قبلية أو عصبية أو أي نوع آخر من الانفعالات. . ولو كانت كذلك لكان هنالك أكثر من طريق أو أسلوب للتعبير عن تجاوزات النظام أهمها هو القتل والثأر وخصوصاً ونحن نتحدث عن مجتمع قبلي مثل تونس.

ويحسبني بأن هنالك من التشابه مع الثوار الفيتناميين البوذ المونك[2] المتدينين الذين قرروا أن يحرقوا أنفسهم في ساحات

---

(1) في الواقع التونسي بل في كل المحيط العربي ليس لدينا متخصص في علم الثورات والانتفاضات كما هو المتخصص في علم الوبائيات (Epidemiology) على سبيل الفرض لأنه أولاً علم ممنوع تداوله في وسط سيطرة الحكام العرب قبلاً وربما إلى الآن. ثانياً ليس هنالك من دراسات مقاربة في جامعاتنا أو في مراكز البحوث تعني بهذا النوع من العلم. فبقي هذا العلم مجهولاً بعيداً عن التطبيق في المنطقة العربية عموماً وفي تونس كذلك.

(1) http://photoblog.nbcnews.com/_news/2013/06/11/18886161-burning-monk-photo-how-a-moment-became-breaking-news-in-15-hours.

سايغون ما لم توقف الولايات المتحدة عدوانها الغاشم على بلدهم، هذا الموقف الفيتنامي لم يكن حالة انفعالية، ولا أزمة نفسية عاشها رجل الدين البوذي (انظر تفاصيل الحرق في الرابط) ولا من تبعه وهم ينتظرون أن يروا رماد حرقه، ولا شعوذة دينية من شعوذات قتل النفس في سبيل تنوع ذنوبها . . . . .

ما جمع هاتين الحادثتين هو مبدأ (ثقافة الرفض) السلمية، فمن الصعوبة على شعب أو على شخص مثل بوعزيزي أن يتصرف في حادثة كبرى كهذه الحادثة في حرق نفسه من خلال انفعال أو غياب المفهوم. . . . والدليل على ذلك هو أن الشعب التونسي كان رد فعله متناسب مع ظاهرة الحرق (الثقافية) (السلمية) من منطلق التفهم وليس من منطلق العواطف.

فبمجرد أن أعلن النبأ وإذا بالجماهير التونسية تتعاضد وكأنها على علم مسبق بالأمر وكأنّ بو عزيزي كان على موعد معها، فانطلقت تنادي ليس انتقاماً، ولا انفعالاً، ولا عقاباً، بل بإعادة حرية الفرد التونسي. وهذا المطلب مختلف تماماً عن شعارات ما رفعه النظام من أن بوعزيزي قد صُفع من قبل شرطيّة، وأن الحرق قضية شخصية مجردة عن واقع السلطة الحكومية التي من المفترض أن تعاقب تلك الشرطية بسبب صفعها لذلك الشاب، ولكن الشرطية تروي الأمر بشكل مختلف تماماً عما روته الحكومة التي حاولت جاهدة أن توجه الخبر لكي تضفي عليه الطابع الشخصي البحت، ولكن عظمة الفهم والإدراك التونسي، واتساع ثقافته هو الذي أبطل مفعول توجهات السلطة.

فقد أدرك الشعب بفطرته الثقافية التي أتحدث عنها هنا والتي أريد أن أشير بأن الحدث الثقافي هو حدث لا يدركه إلّا من امتلك استعداداً ثقافياً داخل عقله وروحه متناسب مع مفاهيم ثقافة السلم في المقاومة.

لقد يستغرب الإنسان في أن يجد بأن كل ثوار العالم وربما بأغلبيتهم حتى المخالفين الايديولوجيين قد فهموا مغزى عمق ثقافة آل البيت في القتل صبراً والثورة سلماً من أجل التغيير، حتى القاتل نفسه كما هي قصة واقع الخليفة يزيد (ت 64) وابنه معاوية الثاني (ت 64) وزوجته. هذا الفهم الذي أشاعته ثقافة آل البيت السلمية لم يكن من العبء على المسلم العادي من إدراك مغزاه وعمق مفاهيمه وبعده في النفس والوجدان. ولعل من الدلائل الكبرى التي تبين عمق تجذر ذلك المفهوم هو العالمية التي تميزت بها تلك الثورة السلمية التي لم تدم إلّا ساعات في صحراء قاحلة في القرن الأول للهجرة وقد انبلجت ثانية في الهند غاندي، ولنكولن أمريكا، وتولستوي وستالين وماو ومانديلا، وكل الثوار تقريباً على وجه الأرض، فهموا المنطلق الثقافي لمقاومة السلم، فهموها مع اختلاف اللغة واختلاف الخلفية، ولكنهم لم يخطأوا في فهمها بما يجب أن يكون.

وهنا هو التأكيد على دور الثقافة أي ثقافة سواء أكانت ثقافة عنف أو ثقافة سلم أو ثقافة تكنولوجيا، فكل منها يملك إشارات واضحة يدركها العقل المقابل ويتفاعل معها بصورة فطرية لا تحتاج إلى الكثير من الألفاظ ومن التوشيحات.

فالشعب التونسي أدرك من أول لحظة من شيوع الخبر بأن هذه

الظاهرة هي ظاهرة ثقافية فكرية، تخص كل تونسي، ولا تخص بو عزيزي ذاته، فهي أكبر من حجم كائن بيولوجي أو مواطن تونسي، فقد تحوّل بوعزيزي إلى ملك للجميع، ولم يعد ملك نفسه الآن، فانتشر الخبر انتشار النار في الهشيم، وخرج الشعب برمته في عزيمة غير معهودة. . . . انظر هنا ما أقوله: (عزيمة غير معهودة) لأنه ذو ثقافة سلمية موحدة، ثقافة تستبطن الرفض وتسستبطن التغيير، وحدثٌ كما هو هذا الحدث من المستحيل أن يجد له من صدى وطني في تونس بدون أن تكون هنالك ثقافة مشتركة واحدة يشترك به التونسيون فيما يخص هذه المسالة، ربما قد يختلف الشعب التونسي في ثقافة العمل أو ثقافة الدين أو أية ثقافة أخرى، ولكنه هنا وفي حادثة حرق بو عزيزي لنفسه لا يمكن تفسير الحدث إلّا بوجود ثقافة موحدة، تلك هي ثقافة التغيير السلمي التي تربى ونشأ عليها المجتمع التونسي منذ قرون.

إنه لمن الصعب افتراض بناء ثقافة أي شعب بين عشية وضحاها، بل تحتاج الثقافات لكي تملأ كيان الإنسان وتتجذر في عمقه إلى عامل الوقت الذي لابدّ وأن يتجاوز حدود العقود إلى حدود القرون من الزمن. يلحظها في أجداده وفي أحفاده وفي الشارع، وفي المدرسة وفي الفن. هذه الثقافة هي ثقافة السلم وثقافة الرفض التي لم أتمكن من أن أجد لها من أب أو سلف إلّا الثقافة الشيعية ما لم يقدم باحث رأي مختلف عما قررته خصوصاً إذا أضيف أكثر من رقم في مسلسل الفرضية وخصوصاً فرضية أن الأقطار التي انطلق بها الربيع العربي هي

فقط الأقطار التي نشأت فيها الثقافة الشيعية، وأكرر ليس المذهب الشيعي، بل الثقافة الشيعية والتي يعتبر المذهب جزءً وليس الكل.

أبقى مع هذا الرأي مع التنبه إلى أن الثقافة الشيعية في عصور ما بعد مذابح (الصنهاجيين) ضد الشيعة وصلاح الدين الايوبي (ت 589) فيما بعده قد تحولوا إلى متصوفة ذوي طرق متعددة في محاولة منهم إلى إدامة وإبقاء جذوة آل البيت في محيط الانتماء، وهنالك أسماء كثيرة جداً ممن عمل تحت هذه الأسماء وأهمهم هو أبو مدين (ت 580) وابن بشيش (ت 626)، وأبن عربي (ت 543) والسيد أحمد البدري والد السيد أحمد البدوي (ت 578) (أيام الناصر العباسي) قبل مغادرته إلى مكة ثم إلى العراق واسط[1]. وقد زار أبن عربي أبن بشيش في تونس في عام 598 قبل أن يذهب إلى مكة، كما أن من أبرز أتباعه في التصوف السياسي الشيعي هو أبن سبعين (ت 669)، وعفيف الدين التلمساني (ت 690)، والقونوي[2].

توحدت ثلاث اتجاهات في تنمية جنين الثورة التونسية ليطل برأسه على الشعب التونسي في أحداث: هي ثقافة التشيع السلمية، الثقافة الفرنسية التنويرية، ثقافة الصوفية والروحية. وهو أمر مختلف لحد ما

(1) انظر طبقات الرفاعية، أبو الهدى الصيادي.

(2) يراجع في دور الحركات الصوفية في المغرب العربي كتاب: الحركة الشيعية السرية في القرنين السادس والسابع قبل البدوي، أولا: بذور الحركة الشيعية في المغرب. ظروف المشرق السياسية في القرنين السادس والسابع.

http://www.ahl-alquran.com/arabic/printpage.php?doc_type=1&doc_id=7986.

عن الثقافة التي أشعلت الثورة في مصر والتي كانت أساساً ذو متبنيات ثقافية شيعية اختلطت بها الصوفية والوعي العالمي السياسي والفكري ليكون قدرة مختلفة عن القدرة التي انطلقت بها الثورة التونسية.

فأسلوب التضحية التي مارسها بو عزيزي كانت مفاجئة إلى الشعب التونسي نضجت في تلك الفترة ثمرة الاقتراب ما بين المكونات الثلاث بصورة أقرب إلى الإعجاز لتنفجر الثورة الكبرى التي كانت بالإضافة إلى كونها ثورة جماهيرية فقد اختلطت فيها القدرة المأساوية لما حملته عملية الحرق من ميل إلى تفاعل الجانب النفسي الذي لا ينفصل عن الجانب الجمالي المستورث من الثقافة الفرنسية التي تمتلئ بالرومانسية المأساوية كانت أم الجمالية، فالدم في عُرف الرومانسية هو قمة الجمال وقد قيل سابقاً بأن الحسن أحمر، وتوزع المشهد بين أن يتحول إلى رومانسية مجردة وبين أن يختلط بمبدأي تراث التوانسة لكي تخرج اللوحة متكاملة في الفكر وفي التراث وفي الثورة..

فكان القرار القدري في أن تكون الثورة هي الأم التي تحتضن بقيّة ثورات العالم العربي ولتغير فيه ما تتمكن من خلال الاقتراب من ثقافة إنسانية عالية المضامين دقيقة التنسيق هي ثقافة القرآن[1] وثقافة آل البيت[2].

---

(1) ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: 28].

(2) فزت ورب الكعبة.. (الكلمة التي قالها علي عندما طعنه ابن ملجم المرادي أثناء الصلاة وكان فيها مقتله).

يوميات الثورة التونسية وارتباطها بسلف ثقافتها: 17 ديسمبر 2010 أضرم محمد البوعزيزي النار في نفسه. . . . . حدث النار في الثقافة الشيعية أمر عميق ومتجذر لحادثتين هامتين هما حرق باب فاطمة في السنة 11 في نفس يوم موت الرسول، وحرق خيام الحسين بعد مقتله عام 61 هجرية (ثقافة شيعية).

- انتفاض مدينة سيدي بوزيد التي تضم قبر الولي الصالح علي بن عون (ت 1025 هج) وهو من أولاد الحسن بن علي، وقد هاجر هذا الولي إلى المنطقة من (نفطة) (الكوفة الصغرى) (المنطقة الشيعية على الحدود مع الجزائر) وكان يخفي تشيعه بعد إصدار أمر السلطات العثمانية بإبادة الشيعة، وقد تأثرت به المنطقة لكراماته. (ثقافة الشهداء)[1].

(1) بعد نجاح الثورة تحركت الثقافة المناوئة لمحاربة ثقافة التونسيين، فقاموا بهدم أضرحة الأولياء وتدنيس وحرق مقام الولي الصالح (سيدي بوسعيد الباجي) الذي يعود إلى القرن الثالث عشر، والذي أعطى شهادة ميلاد قرية سيدي بوسعيد. ولقد اعتبرت اليونسكو هذه الخطوة بمثابة حملة تدمير معالم من الذاكرة الثقافية وتاريخ تونس، وهذا التدمير التراجيدي لا يسيء فقط للتراث الروحي والمادي للبلاد ولكنه يستهدف قيم التسامح واحترام المعتقدات المختلفة والتنوع الثقافي. كما دعت المنظمة السلطات التونسية لاتخاذ الإجراءات العاجلة لحماية المواقع الأثرية التي تمثل ثراءً ثقافياً وتاريخاً في مواجهة أي اعتداء يهدد سلامتها، وأبدت اليونسكو استعدادها لتقديم المساعدة الضرورية لإعادة تهيئة المواقع التي تعرضت للاعتداء. ويقول الدكتور منتصر حشاني - الباحث في التراث الإسلامي: إن أعمال هدم زوايا ومقامات صوفية في البلاد، يمثل جريمة بحق جزء من التراث الوطني في بعديه المادي واللامادي، فإن السلطات المعنية يجب أن تمنع هذه التجاوزات وتضرب بقوة على يد مرتكبيها:
http://alshirazi.com/world/article/2012/344.htm.

- اندلعت احتجاجات سلمية من مدن محافظة بوزيد كلها، شارك فيها كل أفراد العائلة، تطورت التظاهرات إلى محافظات أخرى طابعها ديني صوفي كما هي سيدي بو زيد. (ثقافة صوفية).
- تجمع المئات من النقابيين والحقوقيين في ساحة محمد علي في تونس (ثقافة فرنسية).
- زين العابدين بن علي يعترض على التظاهرات ثم يعدل الدستور (ثقافة فرنسية).
- في مدينة رأس الجبل بولاية بنزرت مواجهات عنيفة سقوط عدد كبير من الجرحى ومقتل ثلاثة أشخاص (ثقافة العنف).
- وفاة محمد البوعزيزي الشاب متأثراً بجراحه بعد 18 يوماً (ثقافة الصبر على القتل، آل البيت).
- السلطات التونسية تعتقل مدونين ومغني راب تونسي والمحامون ينظمون اعتصاما في أروقة المحاكم إضراب 95 بالمائة من المحامين احتجاجا على الاضطهاد الأمني (ثقافة الوطن).
- خطاب جديد لزين العابدين بن علي لمحاولة تهدئة الأوضاع وتقديم حلول للخروج من الأزمة (ثقافة الانهزام).
- وتعليق الدروس في المدارس والجامعات إلى أجل غير مسمى (ثقافة المشاركة).
- المظاهرات تنتشر في العاصمة تونس وتبلغ الأحياء الشعبية التي تعاني الفقر وسوء التجهيزات كحي الانطلاقة والتضامن وباب الجديد والزهروني ووادي الليل والكرم وحي الزهور والكبارية

والسيجومي وباب الجزيرة وقصر السعيد وحلق الوادي. (ثقافة الفقر).

- قمع مظاهرة نظمها الفنانون التونسيون أمام المسرح البلدي في العاصمة (ثقافة المواطنة).
- بن علي يلقي خطابه الثالث الذي قدم فيه تنازلات كثيرة. . . . تصاعدت وتيرة العنف ووصل المتظاهرون إلى مبان حكومية ومراكز حساسة (ثقافة الثورة).
- في يوم الجمعة 14 يناير هرب الرئيس زين العابدين بن علي الذي كان يحكم البلاد بقبضةٍ حديدية طيلة 23 سنة بشكل مفاجئ إلى السعودية (صراع الثقافتين السنية والشيعية).
- تولي رئيس مجلس النواب محمد فؤاد المبزع منصب رئيس الجمهورية بشكل مؤقت (ثقافة فرنسية).
- رفض قائد جيش البر رشيد عمار لأوامر بن علي بمثابة نهاية لحكم الأخير للبلاد. الجيش التونسي دافع عن المواطنين ضد الشرطة في بعض المظاهرات (ثقافة الأمة).
- عاد المعارض منصف المرزوقي. وراشد الغنوشي بعد إصدار قانون العفو العام قرابة الـ 30 ألف سجين رأي (ثقافة آل البيت).
- حسب فريق من مجلس حقوق الإنسان فإن حصيلة القتلى الذين سقطوا خلال اندلاع الثورة بلغ 219 شخصاً، توفي 174 شخصاً خلال المظاهرات التي سبقت 14 يناير، و78 لقوا حتفهم في اضطرابات عمت السجون في يوم 15 يناير (ثقافة السلم).

- استمرت عمليات الحرق في بلدان عربية أخرى تأسياً بالبطل بو عزيزي (ثقافة القتل الموت سلماً).

افتراق الثقافتين: وصل الإسلاميون إلى الحكم من خلال حركة النهضة التي يتزعمها الأستاذ الغنوشي، وهذه الحركة في الواقع هي امتداد لحركة الإخوان ولكنها انفصلت عنها فيما بعد لأسباب أهمهما هو الاختلاف الثقافي الكبير ما بين المجتمع التونسي وبين الفكر الاخواني الذي بنى فلسفته على الفكر القرشي الأشعري، وهو ذات الأمر الذي أدى إلى انفصال المجتمع المصري عن الحركة، ولكن الفرق هو أن النهضة وزعيمها مروا بمراحل للانفصال، بينما بقيت حالة الإخوان أزمة داخل المجتمع المصري حتى حل قضيتها في 30 حزيران من عام 2013.

ذكرنا في الفصل السابق وتحدثنا عن ظاهرة افتراق الثقافتين في مصر وخصوصاً بعد وصول الإخوان إلى السلطة والابتداء في ممارسات لا تتفق مع الثقافة المصرية ومع مفاهيم المجتمع الذي يؤمن بها المصريون بحيث بدا واضحاً بأن هنالك فجوة كبرى بين التوجه الاخواني القديم وبين الحس الوطني الجديد المتوشح بثقافة السلم. فحدث الافتراق الذي تُوّج بالمواجهة الكبرى التي انتهت إلى إزاحة مرسي.

أما في تونس فإن الأمر مختلف فحركة النهضة هي بالأساس حركة تمتزج بها الثقافة المتطلعة بالتدين، وقد كان أساس ذلك هو افتراقها عن الإخوان كما هو شأن حسن البنا (ت 1949) في رؤيته إلى واقع التحزب وواقع الحركة الإسلامية ثم انفصالها عنه منذ زمن.

لعل المشاهد لحالة الانقسام عن الإخوان قد يكتشف بأن الانقسام غالباً ما يتم من خلال شخصيات فكرية عميقة ومثقفة ولها نظرة عالمية في معالجة قضايا العالم الإسلامي، ومن وصل إلى تلك القناعة فهنالك أكثر من طريق في الانفصال عن الحركة الأم، وهو إما بفعل التنظيم أو من خلال الافتراق الطوعي.

حركة النهضة قادها راشد الغنوشي منذ بدايات الستينيات وهو شخصية متنورة ذو ثقافته مختلطة من الثقافة العالمية إلى الثقافة الشيعية، فهو مطلع وذو حس، وبعد نظر في تفسير الأمور.

وقد قضى الكثير من وقته ودراسته في الأقطار الغربية والعربية، فاستمد منها الكثير من المزايا والقدرات التي تؤهله في أن يتحول اخوانيو تونس وهم النهضويون إلى حزب منفتح ذو قدرات وطنية بعيدة عن التوجه الاخواني السلفي الذي ينظر بعين واحدة.

كان فوز النهضة في الانتخابات عبارة عن ناتج طبيعي لرغبة التونسيين الذين لا يجدون في التيار الاخواني أو السلفي من قدرة على إدارة المجتمع التونسي ذو الثقافات المتعددة. فالإخوان هم من تخصص في إقصاء وتكفير الآخرين، بينما لم تتبع النهضة هذا الأمر، وإنما فكرت بعقلانية مناسبة لطبيعة المجتمع التونسي فأعطاهم التونسيون أصواتهم وانتظار ما سينجلي عنه الزمن.

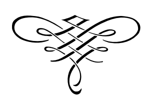
لم يرق للإخوان التنظيم العالمي ولا الفرع المصري قدرات النهضة في احتواء الكل والتمكن من أن يوازن ما بين متطلبات الإسلام وبين الواقع الجديد للعالم. اتهمه الإخوان بتهم كثيرة جداً طعناً في

عقيدته وفي دينه. ولكنه كان ثابت الرأي متفهم لما يدور ما حوله.

في هذا الوقت انبرى الإسلاميون المتشددون إلى إحراج الغنوشي وحزبه من خلال ممارسة أعمال العنف في الداخل وفي الخارج، وهؤلاء هم السلفيون الذين يحملون الثقافة الأشعرية، القرشية، المتسننة السياسية وقد تم زراعتهم في محيط المجتمع التونسي ذو الحرية النسبية، فصار لهم قدرات في تلويث الأجواء السياسية.

فقد أقدم السلفيون على اغتيال شخصيات بارزة من التيارات الوطنية[1] مما حدا بالمجتمع أن يحتج على النهضة مطالبيها بإعلان موقفها من الإسلاميين المتطرفين.

ظاهرة مهمة جديرة بواقع المجتمع التونسي المتحضر هي قلة عدد الاغتيالات السياسية ما بعد الثورة، والتي مقارنة بالبلدان التي شملها الربيع العربي تعتبر أقل القليل مما في الأخرى منها، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على تحضر المجتمع التونسي وميله إلى الحلول السلمية في معالجة القضايا، وهي انعكاس لثقافة آل البيت التي تسود أعماق المجتمع.



(1) شكري بلعيد في 6 شباط ومحمد البراهمي في 25 تموز عام 2013.



اليمن





تأريخ عميق متجذر: مع وضع اليمن الصعب الذي يمر به ما بعد الحرب العالمية الثانية، فإنه قد تحوّل إلى دولة متأخرة تقع في مؤخرة دول الحضارة والتنمية. وبالعودة إلى تقارير الأمم المتحدة تبدو هذه الحقيقة جلية، مع العلم أن اليمن تعتبر من البلدان التي نمت فيها حضارات كبرى ومهمة، ولعبت هذه البقعة دوراً رئيسياً على مستوى العالم، وكان لها دور مهم في العهود الماضية وكذلك في العهد الإسلامي. . . فالعرب في الأصل هم من اليمن ثم هاجروا إلى الشمال بعدها انقسموا إلى العرب العاربة والعرب المستعربة.

تأخّر اليمن حضارياً في الفترة التي تلت القرن الثامن عشر الميلادي له أسباب كثيرة لسنا في مجال تعددها أو مناقشتها، كما أننا سوف لن نناقش الموضوع السياسي إلّا من خلال علاقة السياسة بجانب ظواهر الحضارة من ناحية تفسيرها. بل سنناقش في هذا الفصل ثورة الربيع العربي في اليمن وأسباب نموها في هذا القطر بعد أن افترضنا بأن الثقافة الشيعية كانت هي الأرضية الوحيدة في المحيط العربي أو الإسلامي التي بنيت عليها ثقافة السلم للثورات التي انطلقت في دول الربيع العربي الثلاث. وها نحن نناقش البلد الرابع بشيء من الإيجاز مع اتخاذنا مصر كمنطلق ونموذج للثورات الثقافية وللوضع

والعلاقة مع ثقافة التشيع التي افترضنا نموها في ذلك المجتمع بنوع من الإنسيابية التي توافقت مع مسيرة حضارات البلد التي سبقت العصر الإسلامي.

لا تنفك اليمن عن شكل التأثير المصري في طبيعة العلاقة مع ذلك القطر بأي حال من الأحوال، فاليمن دوماً تعيش ترديدات القطر المصري منذ زمن بعيد إلى حين بدايات القرن الماضي. فالملك تحتمس الثالث 1425 ق.م. كان قد فتح علاقة مع اليمنيين عندما تلقى أول هدية وهي بخور لمعابد الفراعنة، ثم لم تتوقف تلك العلاقة خصوصاً في التأثير الثقافي والديني والسياسي.

فقد كان التأريخ القديم يروي أن اليمنيين كانت لهم لغتهم الخاصة التي تسمى (المسند). وقد توالت على اليمن ثلاث مراحل الأولى مرحلة مملكة سبأ والثانية فترة الدول المستقلة وهي مملكة حضرموت ومملكة قتبان ومملكة معين والثالثة عصر مملكة حمير وهو آخر أدوار التاريخ القديم.

مرت البلاد بعدة أطر من ناحية الفكر الديني بداية بالوثنية وتعدد الآلهة إلى توحيدها من قبل الحميريين.

تأريخ اليمن القديم مليء بالأحداث وبالتغيرات والتي لا تهمنا هنا كثيراً في مسيرة بحثنا هذا ما لم يتعلق الأمر بواقع عمر الثقافة التي توافقت مع مسيرة الربيع العربي وثورته.

فقد سيطر الساسانيون وكذلك الرومان على اليمن هذا بالإضافة إلى ممالك متنوعة حتى العصر الإسلامي، إذ كانت الديانات منتشرة في

اليمن وخصوصاً الديانتان اليهودية والمسيحية واللتان لعبتا دوراً رئيسياً في نقل ثقافتي الديانتين إلى مكة والمدينة.

انضمت اليمن بصورة طبيعية إلى الدولة الإسلامية ثم أرسل لهم النبي علي بن أبي طالب مع معاذ بن جبل، كما أن الحاكم الفارسي عندما وصله كتاب الرسول أعلن إسلامه. وبقي في اليمن جيب (نجران) الذي يمثل حاضرة المسيحيين في ارتباطه بالحبشة.

حادثة المباهلة حادثة رواها القرآن[1] ووعاها المسلمون والتي كانت المفصل الذي دفع القبائل اليمنية في الانخراط بالإسلام حيث شاركت في فتح فارس بالخصوص والتي بعدها انقسم اليمنيون إلى قسمين أحدهما مع علي، والآخر مع معاوية، والتي بقيت هذه التقسيمات مستمرة على مدى تأريخ الصراع الذي بدأ ينفرز في علاقات التوجهات الفكرية لكلا الطائفتين فكانت همدان وغالب مذحج الأقرب إلى ثقافة آل البيت بينما مالت كندة إلى ثقافة قريش والأمويين.

بعد ثورة زيد بن علي (ت 122) على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (ت 125)، ومقتله ثم صلبه ثم حرقه ثم توزيع رماد الحرق في الأقطار، وكذلك ابنه يحيى فيما بعد (ت 125) بالطريقة الشنيعة، أضافت هذه الحادثة رقماً مهماً آخر على وحشية الأمويين ضد آل

(1) ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنْۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61]. راجع تفاصيل الحادثة وعلاقتها مع المنظور الثقافي:
http://en.wikipedia.org/wiki/Mubahala.

البيت، بعد أن مال إلى زيد الكثير من الرواة والتاريخيين باعتبار أن ثورة زيد جاءت في القرن الثاني الهجري عصر التدوين، وهو العصر الذي اعتمد في الرواية على آل البيت من الأئمة وهم الباقون ممن احتفظ بالتراث رواية وكتابة.

نشأ جيل كبير من العلماء في تلك الفترة ممن كان يرى في ثورة زيد بأنها البديل الشرعي للحكم الأموي وبذلك اتبعوه كفقه وكشعار مثل أبو حنيفة (ت 150) وغيره، وبذلك نشأ الفقه الزيدي، وابتدأ منذ ذلك الوقت حيث بدأت الثورات الزيدية تتوالي في طول البلاد وعرضها في أثناء الحكم الأموي والعباسي.

في الوقت الذي كانت مدرسة الإمامة الاثنى عشرية المتمثلة بالأئمة من آل البيت لا يرون في قيام الحكم من شرعية ما لم يتغير المجتمع، وإن الحكم هو عبارة عن حاجة من حاجات الإنسان لحفظ فضائل المجتمع، ولذلك لم يراهن المجتمع في قضية الدولة والحكم على آل البيت من مدرسة الإمامة، بل راهن على أول فقه صدر في التأريخ الإسلامي يعالج هذه الظاهرة الفقهية داخل المدرسة الشيعية وهم الزيدية، فقد كانت المدارس قبلهم هي مدارس غير شيعية كمدرسة الخوارج، ومدرسة الأشاعرة، والأمويين وهكذا.

فكانت أول مدرسة فقهية تهتم بشؤون الحكم والدولة هي المدرسة الزيدية قبل أن يظهر فقه الإسماعيلية في زمن متأخر من حياة الإمام الصادق (ت 148).

انتشرت الزيدية في العالم وكانوا هم السائدين في محيط العدد الشيعي، قادوا ثورات كبرى مثل ثورة محمد ذو النفس الزكية، وأخوه

إبراهيم، وقد أقاموا دولاً عديدة منها في طبرستان أقامها الأطروش سنة 301 هج، والأدارسة[1]، واليمن[2]. وهنا لا بأس بأن نتحدث شيئا ما عن المذهب الزيدي مع أننا كنا قد آلينا على أنفسنا في أن لا نتطرق إلى الجانب المذهبي، ولكننا هنا نتحدث من باب المدخل إلى الثقافة لا إلى الجانب الفقهي للمذهب.

الزيدية هم إحدى ثلاث فرق شيعية (الأصولية، الإسماعيلية، الزيدية)، وهي تختلف مع الأصولية (السائدين الآن في العالم) بشيء واحد، وبما يترتب على ذلك من تبعات: هو أن الإمام من يقوم بالسيف لا بالنص، وهذا معناه نفي العصمة عنه إلّا علي والحسن

---

(1) إدريس بن عبد الله هو أخو محمّد ذو النفس الزكية شارك في ثورة الحسين بن عليّ التي عرفت بثورة فخ والتي قمعها بوحشية الخليفة العبّاسي الهادي، وبعد إخفاق الثورة فرّ إدريس مع قوافل الحجيج العائدين إلى مصر بهوية شخصية مصرية، ومن مصر انطلق نحو المغرب، وهناك أعلن ثورته وتمكّن من حشد التأييد له وتأسيس دولة عرفت بدولة الأدارسة، ولكنّ هارون الرشيد أرسل إليه من يدس السمّ في طعامه وتم اغتياله غير أن هيئة أركان دولته نصّبت ابنه القاصر مكانه ودعي بـ (إدريس الثاني) وقد استمرت دولة الأدارسة مدّة قرن من الزمان.

(2) ثورة يحيى بن الحسن (الدولة الزيدية في اليمن).. في سنة 288 ثار يحيى بن الحسن العلوي الملقّب بـ (الهادي إلى الحقّ) في الحجاز والتفّ حوله الزيديون واستطاع بإسناد القبائل اليمنية من دخول صنعاء وإلقاء الخطبة باسم الإمام الزيدي وبالرغم من اصطدامه مع قبائل يمنية إلّا إنّه تمكّن في النهاية من الإمساك بزمام الأُمور وإرساء دعائم حكم مستقر، وانتهت حياة يحيى مسموماً سنة 298، بعد أن سجّل اسمه كأحد أكبر الشخصيات الزيدية، فقد كان أحد العلماء المعروفين، ومن هنا ارتبط المذهب الزيدي في اليمن باسمه وعرفت فرقته بـ (الهادوية). وأصبح أولاده أئمة الزيدية وحكّام اليمن واستمرّ حكم الزيدية في اليمن حتى سنة 1962 أي إلى قيام الحكم الجمهوري.

والحسين. ويعتبرون الأئمة الأربعة بالإضافة إلى حسن البنا وسيد قطب والإمام الخميني زيدية. أما اختلافهم عن الخوارج والسلف فهو أن الكفر لا يمكن له أن يطلق على الشخص حتى ولو جاء بالكبيرة. وهذا البند هو بند تسامحي ومختلف كثيراً عن التوجه الأشعري السلفي الوهابي، وهو ما يشابه وجوده لدى الشيعة عموماً.

الشيعة الزيود كما يسمون يؤلفون في اليمن تقريباً النصف، أو أقل بقليل من ذلك معظمهم في الجزء الشمالي، هذا فضلا عن الحوثيين الذين يعتبرون من المتحولين إلى الشيعة الاثنى عشرية ونسبتهم لا تتجاوز 5% في عموم اليمن. أما السنة، فهم معتزلة العقيدة شوافع المذهب، وهو من المذاهب الأقرب إلى ثقافة التشيع من بقيّة المذاهب الثلاث الأخرى.

عرفت اليمن أنواع خاصة من السفاكين للدماء استولوا عليها كما هو الحال في مصر وفي تونس والعراق، فقد كان بسر بن أرطاة شخصية مريضة سايكولوجياً وهو رسول معاوية إلى اليمن، وبحير بن زياد الحميري، معن بن زائدة، وحماد البربري.

وقد انقسم اليمن إلى قسمين هما بنو همدان الأقرب إلى الثقافة الشيعية سكنة الشمال، ثم سكنة الجنوب ذو التوجه الموالي لآل أمية وهم صنعاء والجند ونجران.

في القرن الثالث والرابع تحرك الإسماعيلية إلى اليمن ليسيطروا عليها مع القرامطة في الجزيرة، وأقاموا أكثر من دولة إلى حين منتصف القرن الهجري السادس. كما تمكن الخوارج من أن يقيموا كياناً آخراً إلى جنبهم.

وهكذا تحوّلت اليمن إلى أرض يقيم فيها الشيعة غير الإمامية كياناتهم السياسية، بينما في ذات الوقت كان للثقافة الشيعية الإمامية مكاناً لنشر الفكر على مستوى المفاهيم وعلى مستوى الانتشار بين الأمة. ولئن كان الشيعة في مصر وفي تونس كمذهب وكممارسة دينية أمراً غير واضح المعالم، فإن اليمنيين هم من أقرب الشعوب بعد الشعوب الشيعية مثل العراق وإيران ولبنان وأذربيجان والبحرين في تفهم التمذهب الشيعي.

فالمذهب الزيدي هو من المذاهب التي تغير خلال القرن الماضي إلى مذهب أقرب منه إلى التوجه الثقافي القريب من الإمامية الاثنى عشرية فيما يتعلق بطريقة انتشاره وطريقة تفهمه إلى الحياة، فلم يعد المذهب الزيدي في هذه الفترة طموحاً إلى قيام دولة أو حكم كما كان في السابق، وإنما جل مسيرته هو الانتشار الثقافي والانتشار على مستوى الأفكار، وهو ذات التوجه الامامي للشيعة، فالولاء في اليمن اليوم هو ليس إلى التمذهب، وإنما يميل إلى نشر الفكر من خلال الوسائل الفكرية والثقافية في الوقت الذي يتأصل فكر الدعوة إلى الحكم بين الوسط القبلي بسبب عدم الرغبة في فقدان التأثير الشعبي.

عمق الجذور الثقافية والاعتزاز بها: اليمنيون بالمقابل شعب يعتز بتأريخه[1] وهو البلد الوحيد في المنطقة العربية لم يدخله الاستعمار

(1) بعد إعلان قيام دولة الوحدة 1990، ظهرت تنظيمات عديدة وصلت إلى ما يناهز الخمسين حزباً وجماعة وجمعية معترفاً بها.

المباشر[1]، وهو مع حالة الفقر التي تواجهه ومشاكل الصراع القبلي وتناحرات التوجهات السياسية اليسارية وغيرها فإن المواطن العادي يبحث عن هوية خاصة به بعد أن ضاعت خلال القرن الماضي، فالزيديون من اليمنيين يرون في أن فكر الانقسام الشيعي إلى زيود وإسماعيلية وأصولية قد عفا عليه الزمن خصوصاً ما بين طبقات المثقفين اليمنيين الذين يمتلكون قدرات كبرى في مسايرة التطور الفكري الحضاري الذي يمر به اليمن.

فغاية مثقفي الجيل من الشباب اليمني الزيدي لم يعد همه الأول هو كيف يسيطر الزيديون على الحكم، وإنما همهم هو كيف يتم اندماج الفكر الزيدي مع الفكر الشيعي الأصولي السائد في العراق وإيران والخليج ولبنان الذي يرمي إلى حفظ تراث الثقافة أكثر من التوجه إلى الصراع السياسي. وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على عمق الثقافة

---

(1) استحوذ اليمن على اهتمام خاص من قبل المؤسس حسن البنا، وكان الشخص المكلف بشؤون الحركة في اليمن هو الفضيل الورتلاني الجزائري، وهو شخصية مثيرة للجدل نظراً لأدواره السياسية الغامضة، وكان الورتلاني يؤكد على خصوصية اليمن باعتباره البلد العربي الذي لم تلوثه القيم الأوروبية المستوردة على حد تعبيره، كما أن انتشار الأمية والجهل يعني بوجه آخر أن العقل اليمني لم تفسده الحضارة المعاصرة. . . . .
وبعيد منتصف الأربعينيات قوي تأثير الإخوان مع اشتداد المعارضة ضد الإمام يحيى حميد الدين، خاصة بعد انضمام نجله الأمير سيف الحق إبراهيم إلى حركة الأحرار المعارضة، وكانت أفكار المعارضة اليمنية الإصلاحية الدينية قريبة من فكر الإخوان المتأثر بفكر رموز النهضة الإصلاحية، كجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا.
http://www.almesbar.net/19_الإسلامية – اليمنية/

التي يتحلى بها الزيديون النابعة من فكر المذهب الذي استورثوه في تحمل الآخر وفي شفافية الانتماء.

كما انه لمن الضروري أن نشير إلى أن الفكر الزيدي يختلف في توجهاته الثقافية عن فكر الشوافع، وفكر المعتزلة الذين يتعايشون مع الزيود في اليمن في طبيعة النظر إلى التغيير، فالشيعة عموماً زيدية كانوا أم اسماعيلية يواجهون واقعاً إلزامياً في ضرورة تغيير واقع الحكم المستند على الفكر القبلي وعلى مستوى القيادة التي لم تتمكن من أن تحفظ ثقافة وكيان المجتمع..... وهذا الشيء هو أمر متأصل في ثقافة المذهب الزيدي والمذهب الاثناعشري خصوصاً في أوضاع مثل اليمن البلد الذي يتدنى اسمه لكي يكون في قعر الدول المتخلفة بسبب الحالة التي وصل إليها من جراء الصراعات وتنازع الدول في الاستئثار به.

ضعف وانحسار: يعتبر اليمنيون أنفسهم بأنهم صاروا تبعاً إلى ثقافة أقوى منهم سادتهم خلال القرن الماضي والحالي، وهي الثقافة الوهابية لما تمتلك من قدرة ومن قوة في مواجهة المد اليمني الذي يتصف بقدرة ثقافية خاصة به، ولكنه يفتقد إلى الانطلاقة وإلى القوة الاقتصادية، ولذلك فإن أمرهم مرهون في معظم الأحيان إلى القوة المجاورة لهم وهي قوة السعودية العربية، التي تفرض الآن موقعها من خلال ثقافتها ومن خلال قدراتها الاقتصادية المتنامية، بينما اليمن يعيش في وضع بائس جداً في مستوى من الفقر والطاقات[1] والتعليم.

(1) وفقا للأمم المتحدة، تجاوز الفقر باليمن 45% من مجموع السكان، وتأتي اليمن في =

مع العلم بأن نصف سكان اليمن أميون[1] كما تجد أن المشاكل الاجتماعية والسياسية وبقية ما يمكن أن ينهض بأعباء الدولة قد تفاقمت بصورة لا يمكن تصورها. فالحكومة اليمنية التي سبقت التغيير الربيعي العربي كانت حكومة قبلية تعيش على حالة التوازن مع السعودية وبقيّة دول المنطقة.

وقد وفرت هذه الحالة واقعا بائساً جداً فانتشرت هنالك أفكار التطرف وأفكار العصبية والعنف والصراع فغدا اليمن في هذه الحالة بؤرة مناسبة لواقع بائس.

كان المؤمل من التغيير أن يكون من خلال حركة أو ثورة عنف تسود البلاد، يتقاتل بها الناس مذهبياً أو قبائلياً إلى أن تصل إلى المرحلة التي تنتصر فيها احدى القوى على البقية لكي تسود على الآخرين... هذه هي ثقافة العنف التي تسود الأطراف السياسية في الساحة....... بالمقابل تمكنت الثقافة الوهابية السلفية السياسية خصوصاً من أن تجد لها أكثر من موقع في اليمن بسبب القدرة التي تمتلكها السعودية[2] ومؤسسات الإسلام السياسي[3].

= المرتبة 151 من بين 177 دولة على مؤشر التنمية البشرية (HDI) وهو مقياس لمتوسط العمر المتوقع والتعليم ومستوى المعيشة. كما تعتبر اليمن أفقر دولة عربية.
Library of Congress - Federal Research Division Country Profile: Yemen, August 2008. (http://lcweb2.loc.gov/frd/cs/profiles/Yemen.pdf).

(1) Stephen W. Day. Regionalism and Rebellion in Yemen: A Troubled National Union. Cambridge University Press. .191 صفحةISBN 9781107379909.

(2) المصدر السابق. Stephen W. Day.

(3) أول من نادى وعارض التدخل السعودي في اليمن هو الرئيس إبراهيم الحمدي =

فاليمن كانت ولحد ما قبل الربيع العربي مجيّرة لحساب التأثير السعودي، فهي كما يعبر عنها سياسياً حديقة خلفية إلى القوة السعودية، في الوقت الذي نسي الشعب الواقع اليساري الذي كان يسود هذه المناطق في السبعينيات من القرن الماضي، والذي على أثره انقسم اليمن إلى شمال وإلى جنوب حتى وصل إلى مرحلة متأخرة جداً في مسيرة الحضارة.

فالرابط بين الحضارة اليمنية القديمة وعمقها في التأريخ كأرض مهمة من أراضي الحضارات والأنبياء تحوّلت إلى أرض تغيب فيها أسس الحياة الكريمة. فقد اعتبر اليمنيين من أكثر الشعوب التي تمتلك أسلحة على المستوى الفردي، وتقع درجتها قي الدرجة الثانية ما بين

= (وكانت مجاميع شباب الثورة ترفع صوره فقط) الذي اغتيل في 11 أكتوبر 1977. فقبل أسبوع من وفاته، تحدث الرئيس مع السفير السوداني في أن ينقل إلى جعفر النميري أن يطالب السعوديين بالتوقف عن التدخل في شؤون اليمن الداخلية، وتعلق السفارة الأميركية أنه ما من شك لديها أن الرئيس الحمدي فقد صبره مع السعوديين والشيخ الأحمر. ساهمت السعودية في الحرب عن طريق المساعدة في إنشاء الجبهة الإسلامية، فكانت معظم الأموال التي وظفتها لهذا الغرض تحت تصرف الجنرال علي محسن الأحمر. أنفقت السعودية بسخاء أموال كبيرة لنشر الوهابية كثقافة مقابل ثقافة الشارع اليمني المرتبطة بحس آل البيت. عارض اليمنيون التبشير الوهابي كونهم اعتبروا التبشير السعودي عاملاً لتفسيرات طائفية للإسلام. دفعت السعودية الأموال لمشايخ القبائل والمدارس الدينية ورجال الدين لنشر الوهابية في شمال اليمن وكان علي عبد الله صالح وهو زيدي أصلاً، يرى في هؤلاء وسيلة لمقاومة الأفكار الاشتراكية... راجع الوثائق السرية في Wikileaks Cables.
https://wikileaks.org/plusd/cables/1977SANA04534_c.html

شعوب 178 دولة[1] ربما بعد الشعب الأمريكي.

الثقافة البديلة للثقافة اليمنية التي ليس لها من هوية قبلاً واليوم هي ثقافة العنف التي تميز الثقافات المجاورة إلى اليمن، وبالتحديد الثقافة القرشية التي تتمحور في الرأي السلفي وفي التسنن السعودي السياسي.

فقد كان الموقف العام في شبه الجزيرة العربية في أن يكون اليمنيون هم رأس حربة الصراع[2] ما بين الثقافة التي يحملها السلفيون المتمثلون بالمؤسسات الدينية السعودية مقابل ثقافات الآخرين خصوصاً الثقافة التي تخشاها السلفية وهي ثقافة السلم، لأنّ السلم يوفر جواً هادئاً وسليماً في تدبّر الأفكار واستيعابها، بينما الجو المتشنج في حمئة الصراع يثير دخاناً كثيفاً يحيط بعقل الإنسان لما يتمكن به من أن يجد طريقه في الوصول إلى أهدافه الكبرى، أنظر قصة أنور العولقي اليمني الأمريكي الجنسية[3].

الخوف الكبير الذي تعيشه الثقافة الوهابية السلفية هو أن اليمن عبارة عن قدرة لا يستهان بها من الناحية الثقافية والفكرية، ولو كان هنالك من ظرف مناسب لانبلاج تلك الثقافة لكان اليمن قد تمكن من أن يحتل الموقف الذي يليق به لما له من عمق في الثقافات القديمة

(1) Karp, Aaron.2007.'Completing the Count: Civilian firearms - Annexe online.' Small Arms Survey 2007: Guns and the City. Cambridge: Cambridge University Press,27 August. (Q5)Full Citation. (http://www.gunpolicy.org/firearms/region/yemen).

(2) http://adenlivetv.tv/articles-14783.html.

(3) http://en.wikipedia.org/wiki/Anwar_al-Awlaki.

والحديثة. فالتخوف من الثقافات هو حق طبيعي لرواد الثقافات المعادية، ولكن ليس من الحق تشويه تلك الثقافة بالطريقة التي تتغير معالمها، والتي من خلال ذلك فإن الثقافة بدلاً لها من أن تجد طريق نهضتها في عدد محدد من السنين فإنها تمتد إلى أضعاف ذلك العدد.

فمع أن رواد ثقافة التسنن السياسي في السعودية يرون في أن الخطر هو خطر مذهبي، ولذلك فإنهم مهتمون جداً في محاربة التشيع على مستوى المذهب، كما هو حربهم المستعرة على الحوثيين الشيعة اعتقادا منهم في أن الحرب هي حرب مذهبية، وهو ذات تصرفهم مع أحداث البحرين في إرسال قوات مدججة إلى دولة صغيرة تبدو نقطة على الخارطة مقابل مساحة السعودية.

دقة المواجهة وضعف المفهوم: ولكن الحرب الثقافية هي غير الحرب المذهبية، ومخطىء من اعتقد بأن تلك القوى من الممكن أن تصاول بذات الأدوات في عملية الصراع ما بين المفهومين، فكلما استعملنا أدوات لا تتعلق بذات المفهوم كلما تعمق الالتفاف حول ثقافة ذلك المفهوم. . . . . . فبالقدر الذي يخطىء الطبيب في تقديم المضادات الحيوية الصحيحة في التخلص من جرثومة ما، كلما قويت شوكة ذلك المرض وكبرت قدرته على الفتك بالجسم، وهذا ينطبق كذلك على مفاهيم حياتية كثيرة في الاقتصاد وفي العلاقات العامة.

فالتخصص مهم جداً في مسيرة الثقافات، فقد حاولت الثقافة السعودية المتمثلة بمفاهيم الوهابية القرشية ذات العصبية المتجذرة في أن تحارب الثقافات الأخرى المجاورة لها بطرق الحرب المذهبية،

ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً، بل أن الثقافات المناوئة ازدادت قوة إلى قوة، وتجذراً إلى تجذر، وذلك منذ بدايات القرن الماضي في استعمال الجانب التشويهي الإعلامي، وجانب الغزو المسلح وغيرها. ولكن ذلك لم يمض من عضد تلك الثقافات على الأقل خلال فترة ثلاث أرباع القرن الماضي الأخيرة.

فقد كان (الكارتيل) الديني في السعودية الذي تسيطر عليه قدرات دينية كبرى (منفصلة لحد ما عن الدولة) والتي هي ذات القدرات التي كانت تسيّر الدولة العثمانية في زمن وجودها. والتي كانت تعادل في القوة قوة الدولة. هذه القدرات خططت إلى جانب الدولة في التخلص من المنافس الثقافي، وهي ثقافة التشيع، وحب آل البيت.

فقد أزالت السعودية كل رمز يتعلق بهذا الاسم سواء أكان ذلك الرمز أركيولوجياً أم فكرياً أم رمزياً أم غيرها، ولكن في الأخير كانت النتيجة تماماً معاكسة إلى التصورات التي وضعتها تلك القوى في استئصال تلك الثقافات. فلم تجد اليوم في مكة أو المدينة من أثر إلى بقايا الرسول سواء فيما يتعلق ببيته أو بموجوداته أو بغيرها من الآثار الإسلامية، وكذلك الشيء ذاته فيما يتعلق بالوحي وبالرسالة وبقايا التأريخ الذي يسجل طبيعة مسيرة الإسلام.

كل ذلك حاولته الثقافة السعودية من خلال مفاهيم الوهابية في أن تزيلها، وفعلاً أزالتها، ولكن هل تحقق هدف تلك المفاهيم..؟ أبداً.. لم يتحقق، بل أن الأمور تبدلت بصورة كبيرة وتعمقت ثقافة آل البيت بصورة تكاد أن تكون انتشرت إلى محيط ثقافة المملكة واقتربت

من مراكز القوة بحيث صارت ثقافة الوهابيين مهددة من داخلها في أن تظهر خوائها أمام ثقافة آل البيت الشيعية.

كان هذا الهاجس هو الهم الكبير للسعودية التي كانت ترى الأمر من خلال المنظار الطائفي المذهبي الضيق، بينما أعمدة الثقافة الشيعية لآل البيت كانت تراها بأنها مواجهات ثقافية، وأن الثقافة تسير ضمن نسق وسنة لا يمكن لأحد هنالك من قدرة في إلغائها أو قتلها، فهي تسير كما هي سنة قوانين الكون الأخرى.

نعم من الممكن تأخير مسيرة ثقافة ما، وهو أمر وارد في الكثير من الصراعات، ولكن الزمن والسنة التاريخية لا تتقبل قتل الثقافة على المدى المستمر. فقد بنت الثقافة السعودية برنامجها الفكري والثقافي على أسس المنافسة مع سياسية آل البيت بما تحمل هذه الكلمة من معنى سواء أكان ذلك على المستوى الفكري أو العقائدي أو الثقافي أو الاجتماعي. فالخوف من الثقافة الشيعية قديم منذ ربما ما قبل صراع قريش مع النبي، وإنما يعود إلى أيام إبراهيم الخليل عندما انحاز الأعراب إلى العنف، بينما توجه الأنبياء العرب الستة[1] إلى سياسة السلم، فما كان من السماء إلّا أن أبادت العرب[2] بطريقة إعجازية ثم

(1) أنبياء العرب هم إبراهيم، إسماعيل، لوط، هود، صالح، النبي الأكرم.

(2) العرب البائدة هم من الأقوام الذين كانوا في نظر النسابين العرب السكان الأصليين للجزيرة العربية، فمنهم عاد وثمود والعماليق وجرهم وطسم وجديس وأميم وعبيل ووبار، وهي أقوام انقرضت كلها قبل ظهور الإسلام، المعلومات عن هذه الأقوام قليلة وغامضة، في بعض الأدبيات يطلق اسم العرب القدماء على العرب البائدة. أنظر: http://en.wikipedia.org/wiki/Ancient_Arabs.

بدء فصل جديد في العالم مع أنبياء جدد، وتوجه جديد عسى أن يشمل التغيير الواقع العربي.

هذه الثقافات تصارعت أيام قصي وما بعده، فانقسمت قريش إلى عبد شمس وعبد مناف، ثم أميّة وهاشم، ثم محمد وأبو سفيان، ثم علي وقريش، ثم الأمويين والأئمة ثم منطق القوة مع آل العباس وبنو هاشم.... وهكذا يصل بنا الوضع إلى أن تتحول سياسات الصراع إلى مادة ثقافية استورثتها الحكومة السعودية التي استولت على الجزيرة في منتصف القرن الثامن عشر وبقيت إلى الآن تصارع ذات الفكرة الثقافية التي كانت جذورها عميقة في التأريخ العربي.

خطورة الدولة الطائفية: في اليمن، السعودية لم تكن في الواقع تصارع ثقافة التشيع، بل كانت تصارع (الخوف) من ثقافة التشيع، وذلك من اعتقاد في عودة هذه الأرض لهم بما فيها من خيرات ودولة بالإضافة إلى الحرمين. ولا أدري هل أن التنبؤات الغيبية كانت تنبئ بأن هنالك في الأفق انهيار بقايا قريش والبداوة وظهور ثقافة الإسلام المتمثلة بآل البيت وبالتشيع...؟ لا أدري فيما أجيب أمام هذا الإصرار العجيب على متابعة ومحاربة ثقافة آل الرسل وبهذه الصورة من القوة والتخطيط[1].

(1) ولعل السعودية العربية كدولة، هي ربما الدولة الوحيدة في الأرض تحكم من قبل قبيلة، وهي ربما الوحيدة التي تقيس المواطن على أساس الانتماء الايديولوجي، لا على أساس المواطنة، وهي الوحيدة التي تمنع طائفة إسلامية من أن تشارك في بناء الدولة سواء أكان ذلك على مستوى الجيش أم على مستوى إدارة الموارد، كما أنها الوحيدة التي تصدر فتاوى دينية في قتل مواطنيها بعد تكفيرهم وإباحة دمائهم.

إنه لمن الصعب ونحن نعيش في القرن الواحد والعشرين أن نجد مبرر منطقي لهذا النوع من الحرب المستمرة التي انتقلت من طور إلى طور أشد، هذا في الوقت الذي لم يعلن التشيع كمواطن بأنه يطمع في إقامة حكم أو استلام سلطة أو محاربة فكر من الأفكار المطروحة. بمعنى آخر أن المنافسة على السلطة والموارد ليست من قبيل طموح الشيعة كمذهب أو كأفراد. . . . . فلم تكتفِ السعودية في محاربة الشيعة على أراضيها فحسب، وإنما تحوّلت الدعوة السعودية في كل العالم إلى حرب على التشيع وبشكل من التشويه الذي لا يتناسب مع وضع دولة كبرى وقادرة وغنية كالسعودية.

إنني أحياناً أترفع أن أشير إلى أن هكذا نظام لم تضعه شخصيات الحكم السعودي الحالية، لأنّ التحديات التي تواجه السعودية كسياسة هي أكبر بكثير من الصراع على فكر ثقافي أو مذهبي. وربما أعزوه إلى قوة داخلية كبرى تتطفل على الدولة وهي كما يبدو لي المؤسسات الدينية التي تعيش على مبررات وجودها في محاربة عدو وهمي لكي تضمن لنفسها حالة اعتماد الدولة على وجودها وفتاواها.

فقد كانت أولى الاعتراضات التي رفعتها الثورة السلمية في اليمن هو الدور السعودي في اليمن وشراء ذمم الناس والقبائل، وتقسيم المجتمع إلى طبقات اعتمادا على المال السعودي. فكانت التظاهرات تندد بشكل كبير بالدور السعودي لا باعتباره دولة تساند النظام فحسب، بل لأنها فرضت ثقافتها على ثقافة المجتمع اليمني[1].

---

(1) عبد الله بن حسين الأحمر كان يتلقى قرابة مليون وسبعمائة ألف دولار شهرياً من =

. . . .

= السعودية، حميد الأحمر قال عن هذه المرتبات التي كان يتلقاها هو ووالده أن هدفها هو تعبير السعودية عن وشائج القربى. أما صادق الأحمر فقال أنه لا ينبغي أن يُغضب أحداً تلقيه المرتبات من الحكومة السعودية، وقال بأن المبالغ تصل إلى ثلاث مليارات دولار سنوياً لكل عملاء المملكة. توقف الراتب المقدم من السعودية للشيخ الأحمر عام 1994 ولكنها عادت مع بدء مفاوضات ترسيم الحدود أواخر العقد الأخير من القرن العشرين ولكن بنسبة أقل، وأشار عبد الله بن حسين الأحمر في مذكراته يشير إلى (اللجنة الخاصة)، وهي لجنة إستخباراتية كان يرأسها سلطان بن عبد العزيز تقوم بتوزيع الأموال والهدايا على عملاء للمملكة السعودية داخل اليمن، هدف اللجنة من توزيع الأموال على القبائل كان لعرقلة الحكومة المركزية من بسط نفوذها على كامل أراض الدولة، ويذكر أن الرئيس إبراهيم الحمدي أراد إعادة هيكلة الجيش لمواجهة الزعامات القبلية الموالية للسعودية. بينما قال حميد الأحمر في لقاء مع قناة يمنية أن اغتيال إبراهيم الحمدي جاء نتيجة (تجاهله للقبيلة مما سهل على المتآمرين اغتياله)، على حد تعبيره. قدرت أعداد متلقي الرواتب السعودية بحوالي (18) ألف شخص، والحكومة اليمنية تعرف ذلك، بل أن علي عبد الله صالح وخلال مفاوضات الحدود مع السعودية، اشترط عليها أن تدفع الرواتب عبر قنوات تتحكم فيها الحكومة اليمنية.. عرضت السعودية في المقابل ألّا تدخل أشخاصاً جدداً في جدول رواتبها..... حزب التجمع اليمني للإصلاح كان (معارضة موالية) لعلي عبد الله صالح، وبديلاً لحزب المؤتمر الشعبي العام سواء أكان في السلطة أو خارجها، وهو ما خلق مناخاً ديمقراطياً زائفاً في اليمن. ويعد الإصلاح الضامن الأبرز لبقاء السعودية في اللعبة..... وهناك المدارس الدينية (وهابية)، (دور القرآن والحديث) أو المعاهد العلمية كما تُسمى، كان عبد المجيد الزنداني مسؤولاً في قطاع التعليم عن طريق (مكتب التوجيه والإرشاد) وأدار هذه المدارس وهابية وإخوان مسلمين على حد سواء مثل: مقبل الوادعي، ويحيى الفسيل..... هذه المدارس من أبرز أسباب ظاهرة الإرهاب في اليمن. كما تمون الحكومة اليمنية جامعة الإيمان والتي يتهمها الأميركيون بتخريج إرهابيين. السعودية لم تكتفي بتمويل تلك المدارس فحسب، بل قامت بتقديم بعثات دراسية لأئمة يمنيين للدراسة في الخارج ودعم الوهابية هو بالنسبة لها وسيلة أخرى من بين وسائل =

فالسعودية لا تريد الخير لليمنيين وكانت ترفض من البداية الثورة الشبابية وتعتبرها أنها صناعة (إيرانية) وهي التجارة التي تسوّقها السعودية دوماً في تخويف الشعوب من الطائفية[1]، وقد رد شباب الثورة على مقولة التسويق الطائفي السعودي بأنهم أعلنوا بأنهم ليسوا إيرانيين، وليس لهم من اتصال مثل اتصال النظام بالسعودية.

وكانت ترى السعودية بأنها يجب أن تتدخل كما هي تدخلها في البحرين فأعدت العدة لهجوم كاسح على ساحات الاعتصام وإنهاء الثورة السلمية ولكن وبمجرد علم الولايات المتحدة والأمم المتحدة

= متعددة لممارسة نفوذها على اليمن، وإبقائها ضعيفة، فالوهابية والدولة السعودية نفسها يُعتبران عاملاً خارجياً للاضطراب في اليمن. قُدر عدد طلاب هذه المدارس الوهابية الممولة من السعودية بأكثر من ثلاثمائة ألف طالب في أرجاء اليمن، ثلاثة عشر ألف منهم كانوا يتدربون ليصبحوا مدرسين مستقبلاً. نسف الحوثيون عدداً من هذه المدارس خلال معاركهم مع الإصلاح 2013-2014. في السنوات الأخيرة، دخلت دولة أخرى منافسة للسعودية في شبكات المحسوبية الخاصة بها وهي دولة قطر. يتلقى حزب الإصلاح تبرعات من قطر باسم جمعيات خيرية مختلفة تابعة له. وربما عن طريق قنوات أخرى، إذ أنه وبعد الاحتجاجات الشعبية تصاعدت حدة التنافس بين مراكز القوى اليمنية ليس لمجرد السيطرة على الدولة، بل للحصول على مصادر الدعم والقبول الخارجي، وتمكنت قطر والسعودية من تأمين ولاء زبائن محليين بسهولة عقب الاحتجاجات الشعبية 2011. راجع كل تلك المعلومات في مصادر مختلفة بعضها ذكرناها سابقاً، وانظر كذلك:

Laurent Bonnefoy. Returning to political parties?: partisan logic and political transformations in the Arab world: The Yemeni Congregation for Reform (al-Islâh): The Difficult Process of Building a Project for Change. The Lebanese Center for policy Studies. ISBN 9781886604759. صفحة 61-99.

(1) http://countrystudies.us/saudi-arabia/58.htm.

بنيّة السعودية حتى أرسلت إلى الرياض من يحذرها من مغبة الإقدام على مثل هذه الخطوة.

لقد خطا النظام اليمني منذ انتصار الثورة في إيران 1979 تماماً كما هو الموقف السعودي في مقاومة إيران وفي الوقوف إلى صف العراق في حربه ضدها، هذا في الوقت الذي كانت الزيدية وبقيّة الفصائل الشيعية غير الإمامية تدخل في صف الانتماء الجديد الذي تمثله الدولة الإيرانية آنذاك وهم الشيعة الأصولية الاثنى عشرية وهذا الانحسار نحو الإمامية أصبح أمراً منتشراً في اليمن، وكان يقوم به أعمدة المذهب الزيدي أنفسهم مما حدا بالسلطة إلى ملاحقة المسافرين إلى إيران واعتقالهم من المطار كما هو الوضع في الأردن[1].

المشكلة التي تواجهها السعودية هي أن الثقافة التي بنتها في اليمن على مدى ثلاثين عاماً في تحويل اليمن إلى أرض محروقة تنتابها الصراعات القبلية وتنخر بها حفلات القات والانقسامات المذهبية وجدت نفسها وقد تراخى زمام القضية من قبضتها وخصوصاً وأن الثوار الآن هم عينة مثقفة من الشعب اليمني، فهم ليسوا عوام ينعقون مع كل ناعق، بل هم مثقفون انطلقوا من ثقافة جديدة ليؤصلوا ثقافة جديدة.

وقد لعبت السعودية بورقة الحوثيين خير ما يمكن أن يلعب بها سياسي، ولكن اللعبة لم تنطل على أحد، وتبين بأن الثقافة ليس لها من زمن في انتفاضتها، وليس هنالك من محدد لمسيرتها فهي تتحرك متى

(1) http://www.albainah.net/Index.aspx?function = Item&id = 7269&lang = .

ما أوتيت الظروف، ومتى ما أينعت الثمار، وها هي الآن تنتفض بعد أن اكتمل الوعي الشبابي والثقافي والفكري بعيداً عن المسميات القبائلية أو المسميات الدينية أو الطائفية.

فقد كانت ثقافة السلم هي الجامعة بحيث أن القبائل المتنازعة التي كانت تتنازع لأكثر من نصف قرن نزلوا إلى خيام المعارضة الشباب وهم يندبون حظهم في ما مضى في مسلسل القتال والنزاع. فلم تتمكن السعودية من أن تستغلهم ثانية في قتل الانتفاضة بل ساهموا بشكل فعال إلى جانب الثورة، وخصوصاً كبرى القبائل اليمنية التي صارت إلى جانب الثوار مثل بكيل وحاشد والبيضاء، ونهم، وسفيان، وهمدان وخولان، وقبائل الحيمة، وعيال، وسريح بالإضافة إلى بني بهلول، وبني حشيش وبني مطر، وعيال يزيد، وقبائل الحدأ، وقبيلة عبيدة في مأرب، وقبائل العوالق والحوارث في شبوه، وكذلك قبائل رداع وقيفة والرياشية والصباح، والعواض في البيضاء. ولم يستثن الأمر في انضمام القبائل حتى قبائل الصحراء.

من الصعب جداً أن يتم تحشيد هذا العدد الضخم من القبائل ومن المواطنين في نشوب ثورة في اليمن لولا توفر عامل موحد يجمع هذا السيل من السكان في بلد كان يُعتقد بأنه مجزأ ومقسم إلى فئات وقبائل، وهو أمر صحيح جداً في المنطوق السياسي، ولكن المنطوق الثقافي هو الذي حسم الأمر، والذي أعتقد بأن ثقافة السلم هي التي كانت متحكمة في نفوس الشعب اليمني انطلاقاً من عقيدة ثابتة في تأريخ هذا البلد، إنه لمن الصعوبة التمكن من اكتشاف ثقافة أخرى مغايرة لثقافة آل البيت في حشد هذا الكم من المواطنين ذو التوجهات

السياسية المتباينة في نفوس اليمنيين، إنه لمن غير الطبيعي تصور قيام انتفاضة معقدة بهذا الحجم وبهذا التنظيم وبهذا الإصرار بدون افتراض وجود ثقافة عالية المُثل قادرة على احتواء الفكر الثوري السلمي الذي ساد الأحداث الكبرى.

فليس هنالك من ثقافة أخرى إلى جنب ثقافة آل البيت ومن جامع قادر على حسم الأمور لصالح الثوار بدون توفر ثقافة أكبر وأعمق تأثيرا من ثقافة الحاكم أولاً ومن بقيّة الثقافات الأخرى، والتي هي بالحقيقة يمكن لنا أن نضعها في ثلاث فئات: فئة ثقافة التسنن[1]، وفئة ثقافة القبيلة، وفئة ثقافة السلفية السعودية[2] هذه هي باختصار الثقافات

(1) بالإضافة إلى الشوافع الذين يعتبرون شيعة السنة، فإن التيار الصوفي المنتشر فيما بين الزيود وبين السنة يعتبر ذو تمذهب سني ينتمي في ممارساته إلى التسنن في الوقت الذي يحمل في بذوره ثقافة آل البيت، فهم أقرب إلى الثقافة الشيعية منه إلى السنة. التصوف اليمني يعد أحد أكبر حواضر التصوف في العالم الإسلامي منذ القدم، والذي تعود بداياته إلى القرن السابع الهجري مع العالم الرباني محمد بن علي الشهير بالفقيه المقدم، وينتشر تقريباً في كل المناطق اليمنية زيدية كانت أو شافعية والذي انتعش بعد رجوع الأفغان العرب من أفغانستان. أما تنظيم القاعدة الذي يعود لعام 1998 مع أول عملية قام بها التنظيم ضد سياح أجانب، لتبدأ رحلة المواجهة بين السلطة اليمنية والقاعدة، والتي خلفت العديد من المواجهات الدامية. ثم حادثة الهروب الجماعي الكبير لقيادات وأعضاء التنظيم من السجن المركزي، في حادثة غامضة لم يستوعبها المحللون حتى الآن. وهي المشابهة لعمليات الهروب المتعددة التي جرت في العراق في أعوام 2013 و2014 بعد عمليات متقنة نفذتها القاعدة في مختلف مناطق العراق.

(2) يؤكد الباحث الهجري أن المرحلة الفعلية لتأسيس السلفية المعاصرة في اليمن بدأت بدار الحديث بدماج عام 1980 التي أسسها الشيخ مقبل الوادعي عراب السلفية اليمنية، ويستعرض المحاور المهمة في حياة الوادعي بين السعودية واليمن، كما يتعرض الباحث بالتحليل لقضية الانفصال والاتصال بين السلفية وجماعة الإخوان، =

المنافسة أو الموجودة على الساحة والتي تتمحور حول مبدأ واحد ذلك هو رفض المبدأ السلمي في الثورة. فلا يمكن أن تقوم ثقافة سلفية سعودية وثقافة قبلية أو ثقافة سنية شافعية بمسيرة أو بثورة سلمية كما هي ثورة اليمن، لأن السلم في عُرف تلك الثقافات هو أسلوب الضعيف والعاجز، وهو ليس الوسيلة التاريخية التي تمكنت تلك الثقافات الثلاث من سيادة سيطرتها على بقيّة دول العالم وخصوصاً السلفية السعودية.

تطور في القدرة الثورية السلمية: فكأن الثورة اليمنية كانت ثورة على الثقافة السعودية، وليس على علي عبد الله صالح أو بطانته كما هي الثورة البولونية التي استعرت ضد الاتحاد السوفيتي وليس ضد ياروزلسكي أو نظام الحكم. أعجب ما يمكن تصوره في الثورة اليمينية هو الدقة في رفض المواجهة المسلحة والعنف، والأغرب منها هو الشمولية الكبرى التي خرج بها الشعب، مع أن صالح كان ذو قدرات أمنية وعسكرية ليست بالقليلة، وكان يدير حزب وجهاز أمن قوي جداً استورثه من خبرته في الحكم منذ زمن بعيد. فهو شخصية قوية وذات تأثير وله القدرة على مد يد التعاون مع الكثير من الدول خلال تلك العلاقة المصلحية[1].

= وصدى الدعوة السلفية لدى خصومها من الزيدية والحركات المذهبية وبعض التيارات الحركية، التي ترى في السلفية غلواً وتنطعاً في الدين، ولا ينسى الهجري أن يستعرض موقف السلفية اليمنية من قضايا مثيرة وشائكة، كالديمقراطية والتعددية السياسية والموقف من الدستور والبرلمان وغير ذلك. أما الواقع فإن عام الاستقلال في 1962 كان البداية الطبيعية لانتصار قوة التيار السعودي السلفي.

(1) أقارب الرئيس اليمني يحكمون سيطرتهم على الأجهزة الأمنية المدنية، أي =

وبسبب سلمية الثورة وقدرتها على استيعاب الضربات التي كان يكيلها النظام إلى الثوار العزل كان لليمنيين المثقفين أن ينظموا إلى المسيرة السلمية بالإضافة إلى شخصيات الحكومة في المراكز المتقدمة. فقد استقال تقريباً خمسين شخصية مهمة تتكون من وزراء ومن سفراء ومن قادة عسكريين كبار، كما شاركت المرأة بدور فعال جداً في استعار الحماس والمواصلة وهو أمر محير لواقع المرأة اليمنية[1]. وخصوصاً أسم الناشطة المعروفة عالمياً الآنسة توكل عبد السلام كرمان[2] التي كانت من أوائل من ساير الانتفاضة والتي أصبحت رمز من رموز الثقافة السلمية.

= المخابرات وغيرها، فالعميد يحيى صالح نجل شقيق الرئيس السابق يشغل منصب رئيس أركان الأمن المركزي. كذلك أحمد علي صالح نجل الرئيس، يحيى محمد وطارق محمد وعمار محمد في مناصب رئيس الأركان قوات الأمن المركزي، وقيادة الحرس الخاص ووكالة جهاز الأمن القومي، إضافة إلى ابن أخيه توفيق صالح في منصب مدير شركة التبغ والكبريت الوطنية. كما تقدر ثروة الرئيس صالح بخمسين مليار دولار فضلاً عن ثروة المقربين منه في الوقت الذي تعتبر اليمن من أفقر دول العالم وأعمقها درجة في الفساد، إذ يبلغ معدل دخل الفرد الواحد دولارين يومياً.

(1) تاريخياً، في معركة القادسية شاركت سبعمائة امرأة مذحجية في القتال (تاريخ الطبري مج 1 ص 935).

(2) توكل عبد السلام خالد كرمان (7 فبراير 1979) كاتبة صحافية ورئيسة منظمة صحفيات بلا قيود وناشطة حقوقية يمنية الجنسية وهي الحاصلة على جائزة نوبل للسلام في العام 2011، وكانت قبل ذلك أديبة وشاعرة. وهي أحد أبرز المدافعات عن حرية الصحافة وحقوق المرأة وحقوق الإنسان في اليمن وبرزت بشكل كبير بعد قيام الثورة الشبابية الشعبية. يلقبها الثوار والمعارضون اليمنيون باسم أم الثورة والملكة بلقيس الثانية، وهى أصغر حاصل على جائزة نوبل للسلام منذ تأسيسها.
http://www.democracynow.org/2011/10/7/yemeni_activist_tawakkul_karman_first_female.

فقد حاول صالح لأكثر من مرة استفزاز المتظاهرين وخصوصاً عندما استعمل الغاز السام الذي كان يفتك بالمتظاهرين بشكل لم يتوصل إلى كنه طبيعته الكثير من المتخصصين، وهذا أمر يؤكد على أن الرجل شخصية كانت قد هيأت نفسها إلى مثل هذه الانتفاضات. بالتأكيد أنني ويشاركني في الرأي السياسيين الآخرين في القول بأن الرئيس اليمني كان يتحرك بقوة السعودية بالإضافة إلى قوته وأجهزة أمنه.

الشعب اليمني مع انه شعب فقير ذو قدرات محدودة في السياسة، فإنه لم يكن هنالك من يتوقع في أن يدخل في جو الربيع العربي، وأن يحافظ على سلمية التظاهرة وطريقة انطلاقها وتنظيمها، فقد كان أنصار النظام يقومون بمظاهرات مواجهة يستعملون به العنف ضد المنتفضين لجرهم إلى مواجهة دموية وعنف لكي يقال بأن هنالك فئتين أحدها مؤيد والآخر معارض للنظام، وتدخل على أثرها السلطة لاعتقال وقتل المنتفضين.

فقد كان الزيود هم المتصدرين للمشهد من خلال العشيرتين الأكبر في اليمن وهم حاشد وبكيل وهاتان القبيلتان هما من القبائل التي وقفت مع آل البيت على طول خط الصراع ما بين آل البيت وبين الثقافة الأموية والقرشية[1]. أما قبيلة كندة فهي ذاتها كما كانت رئيسها

---

(1) منهم: أبي ثمامة الصايدي وحِبشي بن قيس النهمي وحنظلة بن أسعد الشبامي (نسبة إلى شبام كوكبان) وسيف بن الحرث بن سريع الجابري وزياد بن عريب الصائدي وسوار بن منعم حابس الهمداني وعابس بن أبي شبيب الشاكري وبرير بن خضير الهمداني =

الأشعث بن قيس، الذي أسر مرتين، في الإسلام مرة وفي الكفر مرة، إلى أن عفي عنه في الأسر الثاني وزوّجه الصديق أخته أم فروة فتحولت القبيلة إلى شكل من أشكال الالتصاق بثقافة العنف وثقافة الأمويين، ما عدا شخصيات قليلة[1].

منذ ستينيات القرن العشرين، ارتبطت رموز التيارات الثلاثة التي أسست في ما بعد التجمع اليمني للإصلاح (وهم السلفيون، الإخوان المسلمون، وشيوخ القبائل) بعلاقات جيدة بالسعودية، لمواجهة التيارات السياسية والفكرية الحديثة (اليسارية والقومية)، وبهدف تحويل المناطق الشمالية الغربية من اليمن التي ينتمي كثير من سكانها للمذهب

= وهؤلاء كلهم قتلوا مع الحسين يوم عاشوراء سنة 61، وبقيت همدان تبكي الحسين إلى أيام عبد الملك بن مروان. . أما من كندة فقد انقسمت إلى أقسام أكثرها مع الأمويين منهم الاشعث بن قيس وابنه محمد، وقد حازت كندة ثلاثة عشر رأساً من رؤوس أهل بيت الحسين بن علي. ومذحج سبعة وكان سنان بن أنس النخعي المذحجي من رفع على الرمح رأس الحسين. وكذلك معاوية بن خديج الذي أحرق محمد بن ابي بكر الصديق في مصر بعد أن وضعه في جوف حمار. والشيء بالشيء يذكر كان من قتل علي بن أبي طالب وهو الخارجي عبد الرحمن بن ملجم المرادي من مذحج.

(1) مثل حجر بن عدي الكندي الصحابي الجليل الذي قتله معاوية صبراً بعد أن خيّره بين البراءة من علي أو احتزاز رأسه فكان له الخيار الأول. وقبره في مرج عدرا الشام الذي نسفته القوات السلفية التي حاربت النظام في عام 2012. وكذلك حكيم بن منقذ الكندي الذي شارك في ثورة التوابين عام 65 هجرية، وكان الكنديين هم من شارك في استباحة مدينة النبي في ثورة (الحرة) عام 62 وكان على رأسهم الحصين بن نمير السكوني الكندي. وكان محمد بن الأشعث الكندي في صف مصعب بن الزبير. الآن من كندة كذلك كان العقيد محمد بن عبد الله اليدومي، أحد قيادي الإخوان المسلمين في اليمن وأحد ضباط جهاز الاستخبارات سابقاً. . .

الزيدي، من منطقة عبور ثقافي إلى منطقة عزل ثقافي تحوّل دون نقل أفكار التغيير الاجتماعي إلى سكان مناطق جيزان ونجران وعسير التي استقطعتها السعودية من اليمن عام 1934، وسكانها ينتمون إلى المذهب الإسماعيلي.

الموقف قبل الثورة ثقافياً هو كالتالي:

- السلطة بقيادة صالح (المؤتمر الشعبي العام) متعدد الولاءات والانتماءات المذهبية، وهو ذو ثقافة قمعية بدوية مع أنه يقول باعتماده على إيديولوجية الثورة لعام 1962. ولكنه في الحقيقة ذو ثقافة متفرعة ومتبرعمة من الخط والثقافة السعودية (ثقافة التسنن) التي تميل إلى تجزئة المجتمع وخلق طبقات تدار بأدوات الصراع.
- أهم حزب هو تجمع الإصلاح بقيادة آل الحمر يضم الإسلاميين والإخوان والسلفيين السعوديين، مع انه معارض بالاسم، ولكنه مكمل لمسيرة السلطة توجهه سلفي الثقافة.
- التوجه الإيديولوجي الاشتراكي اليساري وهو التوجه الذي حارب البريطانيين وكان يرأسه علي سالم البيض، موجود في الجنوب وهو يتوجه الآن إلى المحافظة على مواقعه في مد جسور علاقته مع مصر ومع السعودية. ومعظم قادته الآن مثقفين ثقافة يمنية يسارية. ويتعاون مع الحزب الاشتراكي فصائل يسارية أهمها هو حزب البعث. . . . . في الأحداث الأخيرة صرح النائب الجنوبي المعارض علي عشال تصريحات وحدوية على مستوى ثقافة الوحدة ورفض العنف.

- القاعدة وثقافتها في العنف، وبقيّة الفصائل التي ترتبط بجهات متعددة هدفها إقامة كيان إسلامي للخلافة في اليمن. وهؤلاء يدينون بثقافة العنف وللسعودية دور لا بأس به في تنظيماتهم، وهم يقاومون التشيع بشكل أساسي مع أنهم لا يظهرونه. فالولايات المتحدة بدت أقل استعداداً لدعم صالح حليفها المقرب، نظراً لأنّ قيمته في مكافحة الإرهاب قد تضاءلت منذ أن عمت المظاهرات البلد. وأشارت التقارير إلى أن بعض الخبراء في الشأن اليمني الذين كانوا يراقبون هيمنة صالح الطويلة من خلال دهاء سياسي تكهنوا بأنه قد يسحب قواته عمداً من ملاحقة القاعدة لزيادة الإحساس بسوء الأزمة وإجبار الأميركيين على دعمه، بدلاً من دفعه إلى التنحي. ونوهت إلى ما قاله وزير الدفاع الأميركي روبرت غيتس بأن الولايات المتحدة كان لديها تعاون كبير في مكافحة الإرهاب مع الرئيس صالح وقوات الأمن اليمنية وأنه إذا ما انهارت هذه الحكومة أو استبدلت بها أخرى أضعف فإننا سنواجه تحديات إضافية من خارج اليمن، وهذا يمثل مشكلة كبيرة.

- الحوثيون: ذوو ثقافة جديدة متناسقة مع ثقافات آل البيت وخصوصاً ثقافة الثورة الحسينية السلمية التي أقيمت في عام 61 هجرية. لم يعلنوا أنهم يرمون إلى قيام دولة امتدادا إلى الدول الزيدية التي كانت في اليمن لقرون إلى أن زال حكم الاماميون في عام 1962. يقاتلون الآن على عدة أصعدة هدفهم الثقافي هو

إيقاف الزحف السعودي الذي في نيته إبادتهم من اليمن، لهم علاقات كبيرة مع إيران ومع لبنان وهم ذوو ثقافة دفاعية.

- القبائل.. وهم قوة كبرى ولكنهم مشتتون بين هذا وذاك، وليس هنالك من جامع في عملهم إلّا من خلال نظرتهم إلى العصبية، ومعظمهم ذو توجهات سعودية ليس بالضرورة أن تكون سلفية.
- الإسماعيلية... موجودون بأعداد قليلة وليس لهم ثقافة مسيطرة، وإنما هم بقايا الوجودات القديمة.
- الصوفية... وهم كثر وينتشرون في كل المناطق ولكنهم ليسوا تجمعاً سياسياً بل هي طريقة في التعامل مع النفس ومع الله، وهي أميل إلى ثقافة السلم وثقافة التشيع.
- منظمات المجتمع المدني.. نشأت بعد ثورة الشباب وهي ذو ثقافة أكثر ميلاً إلى ثقافة آل البيت في التوجه السلمي وحفظ كرامة الفرد اليمني.
- الشيعة.. ليس هنالك من شيعة إثني عشريين الآن، وإنما التحول الهائل في المذهبية من كل التوجهات الزيدية والسنة والإسماعيلية خلق من الشيعة مكوّن ثقافي وليس مذهبي، وهم الآن لا يصارعون من أجل كيان سياسي وإنما لخلق حالة ثقافية سلمية، وكان معظم المشاركين من الشباب في الثورة هم من أصحاب ذلك التوجه، ولذلك فعندما أراد الأحمر الالتحاق بخيام الانتفاضة انهال أعضاء حزبه بالضرب على هذا النوع من الشباب بشكل يكاد يومي لأنّ جماعة حزب الإصلاح هم إخوانيون

وسلفيون ذو ثقافة معاكسة لثقافة التشيع[1]. فصائل شباب الثورة المشاركة في الانتفاضة بالعموم وليس بالتحديد هم: أحزاب اللقاء المشترك، الحراك الجنوبي، الطلاب، تحالف قبائل اليمن، الجنود المنشقون والفرقة الأولى مدرعة، التكتل المدني، لجنة الحوار الوطني، المنسقية واللجنة التنظيمية، الحوثيون.

- الأحزاب الأخرى 26 حزب توزعت ولاءاتهم ما بين السلطة وبين الثورة وقد مال القسم الأكبر منهم إلى ثورة الشباب[2].

كانت يوميات الثورة باختصار[3]. . . . .

- يناير 2011: علي عبد الله صالح (الأحمر)، رئيس اليمن منذ 33 عاماً[4] تنطلق في وجهه وضد نظامه تظاهرة شعبية كبرى تجتاح

(1) Salmoni, Barak A (2010), Regime and Periphery in Northern Yemen: The Huthi Phenomenoñ Rand Corporatioñ ISBN 0833049747.

(2) البرلمان اليمني المسمى مجلس النواب يتكون من 301 مقعداً، آخر انتخابات نيابية في عام 2003 فازت فيها الأحزاب التالية: حزب المؤتمر الشعبي العام 229 مقعداً، الحزب الاشتراكي اليمني 7 مقاعد، حزب التجمع اليمني للإصلاح 45 مقعداً، التنظيم الوحدوي الشعبي الناصري 3 مقاعد، حزب البعث العربي الاشتراكي (اليمن) مقعد واحد، مستقلون 14 مقعداً، مرشح مُزكى من حزبي المؤتمر والإصلاح مقعد واحد.

(1) تفاصيل الثورة اليمنية واسعة جداً من الصعب حصرها في نقاط وقد تمكن من توثيقها مراسلين أجانب وعرب في كتب كثيرة صدرت إلى الاسواق باللغات العالمية. راجع مواقع كثيرة منها: http://en.wikipedia.org/wiki/Yemeni_Revolution.

(2) من أعجب ما لا يمكن استيعابه عندما يعيد التأريخ نفسه في أن صالح في بداية ترشيحه إلى الرئاسة أدعى بأنه الأخ غير الشقيق لعلي محسن الأحمر، وأن الأخير لم يعترض على ادعاءه، وهي مشابهة لحادثة أدعاء معاوية في أن (زياد بن أبيه) أخ غير شقيق له بعد أن أتى أبوه أبو سفيان أمه سمية (من ذوات الأعلام) في الجاهلية وولدته، وفي ذلك =

كل مدن اليمن، وفي خطابه في 23 من الشهر نفسه يقول أن اليمن ليست تونس.

- الأربعاء فبراير 2: بعد تظاهرة يوم الغضب. قدم صالح التنازلات التالية: لا للتمديد، لا للتوريث، ولا لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء، كما تعهد الرئيس اليمني بعدم تسليم مقاليد الحكم لابنه أحمد علي عبد الله صالح بعد انتهاء فترة ولايته.
- في 10 مارس: رفضت أحزاب المعارضة واللقاء المشترك مبادرة

= يقول الشاعر: أتغضب أن يقال أبوك عف\ وترضى أن يقال أبوك زانٍ (أنظر إلى الجذور الثقافية وتأصلها). وكشف المنشقون عن النظام لأول مرة عن اللقب العائلي لعلي عبد الله صالح، (عفاش)، والذي ظلوا يتعاملون معه طيلة ثلاثة عقود كما لو كان سراً من أسرار الدولة، وبات قطاع واسع من الثوار في ساحات الحرية وميادين التغيير يرددون هتاف (ارحل يا عفاش) أكثر من ترديدهم هتاف (الشعب يريد إسقاط النظام). فقد استهوى هذا الهتاف الجماهير الشعبية التي تميل إلى تقبل المقولات والشعارات المهيجة للمشاعر، وهتافات التعبئة والحشد أكثر من تقبلها للشعارات والمقولات المجردة والمحاجات العقلية، حيث وعيها يميل دائماً إلى المحسوس والملموس. وهتاف (الشعب يريد إسقاط النظام) يبدو لهذه الجماهير شعاراً مجرداً، وغير مفهوم، بل يبدو كذلك للكثير من المثقفين التقليديين، الذين كانوا يعلقون متسائلين و(هل هناك نظاماً لنسقطه)...؟! وقد رد صالح على خصومه عبر التشكيك في انتساب بيت الأحمر (شيوخ حاشد) لليمن، وادعاء أن أصولهم ترجع إلى ألبانيا، والكشف عن أن لقب اللواء علي محسن هو (الحاج) وليس (الأحمر)، والادعاء أن جده الرابع ليس يمنياً. وبغض النظر عن صدق هذه الادعاءات أو عدم صدقها، فإنها تشير إلى أن كل مكونات التحالف الأوليغاركي الذي ترأسه علي عبد الله صالح كان يتبنى ثقافة سياسية بدوية مشتركة وهي التي واجهها الثوار في ثقافتهم السلمية. راجع في ذلك مصادر كثيرة أهمها البداية والنهاية لأبن كثير على الموقع التالي:

http://ar.wikisource.org/wiki/ البداية-والنهاية/ الجزء-الثامن/ وهذه-ترجمة-ابن-زياد/

الرئيس ووعوده كما رفضت مبادرات سابقة وكأنها إبراء للذمة. وتنص مبادرة الرئيس على الانتقال إلى النظام البرلماني بحيث تنتقل كافة الصلاحيات التنفيذية إلى الحكومة المنتخبة برلمانياً نهاية عام 2011 وبداية 2012، وتنتقل كل الصلاحيات إلى الحكومة البرلمانية.

- في 15 مارس: في محاولة لامتصاص الغضب الجماهيري أصدرت السلطات اليمنية قرارات تقضي بتغيير مدراء الأمن في ثلاث محافظات. ولاقت هذه التغييرات استياءاً واسعاً في المحافظات الثلاث نظراً لأنها لم تلب طلبات المعتصمين في تلك المحافظات الذين أعلنوا أنهم لن يقبلوا بحلول ترقيعية، وأن مطلبهم واضح، وهو إسقاط النظام ورحيل الرئيس صالح.

- في 18 مارس: مجزرة (جمعة الكرامة).. وقعت بالطرف الجنوبي من ساحة التغيير، بدأ مسلحون ملثمون في إطلاق النار عليهم. كما نشبت مواجهات بين المتظاهرين وقوات الأمن المركزي أمام حي الجامعة القديمة، حيث استخدمت قوات الأمن الرصاص الحي وعربات المياه الساخنة وقنابل الغاز. قتل ما لا يقل عن 45 متظاهرٍ وأصيب نحو 200 آخرين[1].

- أعلن صالح حالة الطوارئ ليلة الهجوم، أمر أيضاً الشعب بعدم

(1) أول جندي رفض إطلاق النار على المتظاهرين يدعى (آدم الحِميّري). وأبدى الحِميَّري أسبابه أن الجنود مجرد رؤوس رماح موجهة في الحروب لمصالح النخب الحاكمة، وتحدث عن حروب صعدة تحديداً. اختفى آدم بعد أسبوع واحد من انشقاقه.

حمل الأسلحة في العاصمة صنعاء. بعد خمسة أيام في تاريخ 23 مارس وافق البرلمان على حالة الطوارئ التي أتاحت الرقابة على الإعلام ومنعت التظاهر وأعطت قوات الأمن سلطات موسعة بتوقيف واحتجاز المشتبهين دون عملية قضائية.

- مسلحي قبائل أرحب ونهم وبني جرموز المؤيدين للثورة تهاجم من قبل حرس الرئيس صالح.

- خرج مئات الآلاف عصر يوم 27 أبريل في مسيرة حاشدة رفضاً للمبادرة الخليجية (باعتبار أن دول الخليج ذات ثقافة بدوية سنيّة مشابهة لثقافة صالح) وللمطالبة برحيل صالح الفوري عن السلطة. اعترضت المسيرة قوات صالح وباشرت بإطلاق الرصاص الكثيف مما أدى إلى مقتل 13 شخصاً وإصابة 210 آخرين عشرة منهم في حال الخطر. وقد تم اختطاف نحو 80 جريحاً ومتظاهراً على أيدي قوات الأمن والمسلحين.

- معركة تعز بدأت بعد أن أعتصم المتظاهرين في الساحة الرئيسية في المدينة. أطلقت القوات الذخيرة الحية على المتظاهرين ورشتهم بخراطيم المياه وقامت بإحراق خيامهم وإخلاء الساحة بالجرافات التي دهست بعض من المعتصمين، ووصفت المعارضة الحادثة كمذبحة.

- في 27 مايو: أعلن الشيخ صادق الأحمر شيخ مشايخ قبائل حاشد تأييده للثورة. . . ارتفاع حصيلة قتلى المواجهات إلى 69 قتيلا وعشرات الجرحى، ورجال القبائل سيطروا على مبنى وزارة

الداخلية ومبنى التلفزيون، ومبنى شركة الطيران اليمنية[1].

- في الثالث من يونيو: استهدف الرئيس اليمني في عملية غامضة مع كبار مسؤولي الدولة، ونقل بعد ذلك إلى الرياض لتلقي العلاج. قتل في الحادثة 11 شخصاً من حراسة الرئيس، وأصيب 124 بينهم عدد كبير من المسؤولين لاسيما رئيس الوزراء علي محمد مجور، ورئيس مجلس الشورى اليمني عبد العزيز عبد الغني.

- سبتمبر 18 مجزرة كنتاكي: هي مجزرة تمت في صنعاء على مدى ثلاثة أيام من الأحد 18 سبتمبر إلى20 سبتمبر 2011 ضد المتظاهرين في ساحة التغيير في 19 سبتمبر قتلت قوات الأمن اليمنية 21 شخصا بعضهم بنيران قناصة من فوق الأسطح، وأصيب 113 محتجاً آخرين وفي 23 سبتمبر بلغ عدد القتلى أكثر من مائة قتيل برصاص قوات القناصة المتواجدين حول ساحة التغيير بصنعاء.

---

(1) أظهر المتظاهرون عدم ثقتهم بالقيادات القبلية والعسكرية التي أعلنت تأييدها للاحتجاجات وبالذات تلك المرتبطة بحزب الإصلاح. وفقا لستيفين داي، فإن هؤلاء الشباب قالوا أن قيادات حزب الإصلاح استغلت تضحياتهم لتحقيق مكاسب سياسية. وأن أي دور مستقبلي لحميد الأحمر وعلي محسن الأحمر وصادق الأحمر وعبد المجيد الزنداني هو أسوأ من حكم علي عبد الله صالح كونهم ليسوا سوى زبائن للسعودية، على حد تعبيرهم. ويعلق ستيفين داي قائلاً أن هؤلاء ليسوا سوى خصوم لعلي عبد الله صالح، ولا يريدون تغييراً سياسياً. ذلك لأنّ النظام في اليمن من وجهة نظرهم، رغم انه جمهوري لكنه لا يشبه الأنظمة العسكرية الأخرى في المنطقة، بل هو نسخة عن النظام القائم في السعودية حيث لا وجود لمؤسسات واضحة، بل مراكز قوى مكونة من نخبة قبلية أو مناطقية حاكمة.

- الجمعة 23 سبتمبر صالح يعود من السعودية بعد رحلة علاج طويلة بشكل مفاجئ.
- نوفمبر: وقع صالح في الرياض على اتفاق نقل السلطة في ضوء المبادرة الخليجية حيث اتفقت الأطراف على تشكيل حكومة وحدة وطنية خلال 14 يوماً وإجراء انتخابات رئاسية خلال 90 يوماً.
- في 25 فبراير 2012 انتهى حكم صالح رسمياً.

ولكن هل هذا هو مطلب الثورة السلمية اليمنية...؟

وهل أن الهدف هو استبدال شخصية علي عبد الله صالح والاستعاضة بنائبه..؟

بالتأكيد ليس هذا هو هدف الثورة في الدرجة الأولى، وإنما الهدف هو رسم مسار ثقافي مستمر إلى الشعب اليمني في أن يختار له طريقة معايشته مع الجار الشمالي الصعب المراس الذي قرر منذ وقت الانتفاضة أن يلغي الثقافة اليمينية، وأن يتمكن من السيطرة على البلد من خلال سيادة الثقافة السلفية التي يتمسك بها، والتي يعتقد بأنها الثقافة التي لها القدرة على إلغاء الثقافات الأخرى.[1].

الملاحظ في اليمن وبالرغم من أن السلفيين ليسوا بتلك القلة التي

(1) وفقا لعادل الشرجبي أستاذ علم الإجتماع بجامعة صنعاء، في إشارته إلى احتمال استبدال صالح بالأحمر أو ما شابه بالقول: هذا يدل على تخلف الثقافة السياسية اليمنية وأن كلا الخصمين يحملان ثقافة سياسية واحدة. أنظر التفاصيل في:
http://arabi.assafir.com/article.asp?aid = 1511&refsite = arabi &reftype = articles&refzone = articles.

تجعلهم خلف الأضواء في تأثيرهم على المجتمع كما هو كائن في مصر، ولكنهم في ذات الوقت ذو قاعدة هشة لا تقبل النمو لما لواقع الرفض السني الشافعي والزيدي لكل شيء يأتي من السعودية، فقد يفضل اليمني إذا فكر في أن يتوجه إلى السلفية كطريقة من طرق التدين فإنه يتصل بالتوجهات التي تأتي من خارج المملكة وليس من داخلها، وهو رفض يكاد أن نجده في الكثير من الثقافات المتناحرة تاريخياً والتي تتنافس على المسيرة أعوام من الزمن كما هي الثقافة الروسية بالنسبة إلى الصرب أو الثقافة الجيورجية بالنسبة إلى الروس.

فالثقافات عندما تنشأ أزماتها، فإنها من الصعوبة معالجتها، وخصوصاً إذا كانت الأمراض والعُقد التي سببت تلك الأزمات قديمة والتي كان لها أن تتحول إلى تداخل في الوضع النفسي للإنسان في رفض الثقافات إحداهما إلى الأخرى.

فمن الصعوبة بمكان أن تتمكن ثقافة ذو توجه استعلائي من السيطرة على بقيّة الثقافات التي تعتبرها أقل منها شأناً وقوة وقدرة، لأنّ الثقافات في صراعها لا تتأثر بأسلوب العنف والفرض كطريقة في التأثير أحدهما على الآخر، بل أن قوة التأثير يتأتى من سهولة تناقل الأفكار واحتوائها لا من خلال إقصائها بالقوة أو بالطرق غير العقلية كاستعراض القوة أو ما شابه.

نعم من الممكن أن ينطبق أسلوب القوة وسياسة الإقصاء في مجتمعين متقاربين في نوعية الثقافة التي يتحلى بها كلاهما، فثقافة البداوة مثلاً تتقبل أسلوب العصبية وسياسة الفرض وتعتبرها من

الأساليب الطبيعية في الصراع الثقافي، كما هو اعتبار صفة السرقة في البعض من ثقافات البداوة بأنها رجولة أو شجاعة يمارسها الإنسان، وكذلك أسلوب الغلبة الحربية التي تعتبر أمراً مقبولاً في صراع المجتمعات بدون النظر إلى إنسانية الأسلوب أو عدمه أو شرعيته. لأنّ الغاية في العرف البدوي تبرر الواسطة.

في تلك المجتمعات من الممكن أن تسيطر ثقافياً وعملياً الثقافة السائدة الأقوى على الثقافة الأضعف منها وهو ما حدث في العصور التي سيطر بها العرب على دول المنطقة في القرون ما بعد السادس الميلادي والتي تسمى أحياناً بالغزوات أو الفتوحات، والتي ما هي في الواقع إلّا غزوات إثبات قوة نابعة من عصبية بدوية عمياء وليس لها من الإسلامية إلّا إضافة مساحيق تجميل على العملية ذاتها.

استمرارية الثورة أصعب من انطلاقها: فالواقع السعودي والواقع اليمني ما قبل التغيير عندما يحتدم صراع الثقافتين فليس هنالك من حدود في أخلاقية التغيير، باعتبار أن كلتي الثقافتين تقتربان من مفاهيم القبلية والبداوة فتكون عندئذ الأساليب غير الأخلاقية من قبيل الاضطهاد وشراء الذمم ليس بالشيء المستغرب. . .

وانطلاقاً من ذلك لم يتحرج رواد الثقافة السلفية السعودية في انتهاج أساليب غير مثالية بل بدوية غاية في التأخر مع المجتمع اليمني، في الوقت الذي تنتهج نفس الثقافة طريقاً أكثر تحضراً مع اللبنانيين أو مع المصريين أو غيرهم. فعلاقة الثقافات وأدوات صراعهما نابعة من شكل أصول الثقافة التي يتحلى بها الأطراف المتصارعة. ولذلك يمكن

لنا أن نشهد وبوضوح قدرة أسلوب السيطرة بالقوة أن يغير من ثقافات الأمم بشكل ملحوظ لأنه المقياس التي تقاس به قوة وقدرة الأمم وذلك لانعدام أي أسلوب أو ثقافة أخرى في تقرير السيادة.

السعودية كانت وزالت تعيش فكرة العصبية البدوية في التعامل مع الآخرين ومع ثقافات الشعوب المحيطة بها، وتعتقد بأن الغزو والهجوم على الآخرين واقتلاع مقدسات تلك الثقافات هي الطريقة المثلى لسيطرة الفكر الوهابي. وبمراجعة بسيطة إلى أفكار الخط السلفي سواء أكان ذلك من خلال أدبيات محمد بن عبد الوهاب (ت 1792) أو من سبقه في هذا الفكر مثل ابن تيمية (ت 1327) وابن القيم الجوزية (ت 1292) وغيرهم ممن لم يعلن سلفيته خصوصاً في أثناء حكم الدولة العثمانية. فليس هنالك من صعوبة في أن نلمس الجانب الفرضي في اضطهاد الثقافات والأمم الأخرى من تلك التي ترى في الثقافة السعودية أمراً منافياً إلى روح الدين.

ولم ينطبق التعامل الثقافي في المنظار السعودي على جانب السيطرة السياسية فحسب، بل تجدها أيضاً في عالم المال وعالم التجارة (الناتج النفطي فقط يتجاوز 927,8 مليار دولار سنوياً)[1] وهو رقم كبير جداً وله قدرة كبرى في استيعاب الفقر في العالم أجمع بل في العالم الإسلامي لو فكرت السعودية خارج عقلية الحيازة والبداوة. ولم يقتصر هذا الأمر في التطبيق على مستوى السياسية فحسب، فالعائلة السعودية هي المحتكرة للسلطة والثروة والوظائف والمناصب

(1) http://www.sahafaty.net/news691612.htm.

والوزارات وغيرها من المناصب وهي علامة واضحة على ثقافة البداوة في السيطرة والحيازة الكلية على الموارد وحرمان الآخرين منها، كما هي صفة البدوي الذي يدخل في حرب ودماء من أجل قطة أرض عشبية لمنع الآخرين من الاقتراب منها بدلاً من الدخول في الشراكة على هبة السماء[1].

إننا لا بد وأن نعترف في القول بأن القدرة اليمنية في التخلص من علي عبد الله صالح ليس هو المراد من الثورة أن تفعله أو تقرره، لأن الرجل لا يمثل إلّا عائقاً واحداً أمام عوائق كبرى أخرى من أمراض ثقافية أخرى. لكنها في هذه الثورة كانت ترمي في التأكد من بقاء الجذور الثقافية في نفوس المواطنين اليمنيين منذ أن غابت في الأفق مؤشرات استمرار الثقافات من عدمها، مع أن إدراك جذور حيوية الثقافات في أمة من الأمم له طريقته في الكشف وفي المعرفة، ولكنها تبقى مجازفة كبرى في تعريض الأمة إلى تجربة ذلك الكشف.

فالمجازفة في الثورات من قبل قادتها عامل انتحار خطير استحقاقه ضخم ومليء بالحسرات والدموع. فمن الحماقة الكبرى أن يقدم قادة ثقافة على قيادة ثورة شعبية عارمة أو انتفاضة جماهيرية مع عدم توفر

---

(1) اهتمت السعودية جداً في استثمار الدول التي ليس لها موارد مالية طبيعية مثل اليمن ولبنان ومصر وسوريا وذلك من خلال فرض قدرتها المالية على مسيرة الدولة من أجل السير في خط الثقافة السعودية سواء أكانت تلك الثقافة نابعة من مذهب فكري، أو سياسة اجتماعية، ولكن كل تلك الدول الأربعة قد تمكنت وبالتدريج من الخروج عن سيطرة المال السعودي بطريقة أو بأخرى. وما الحرب اللبنانية ومشاكل سوريا إلّا رد فعل للموقف السعودي لخسارته لتلكما الدولتين.

رؤية جلية عملية وتاريخية للنتائج. فالثورات السلمية أو قرارات المواجهات الدامية مرتبطة بعوامل كثرة عديدة وقد يتوقف كومبيوتر العقل عن إدراك ماهيتها وتبعاتها في عقل الشخصية العادية، ولكن نرى أن الوضوح في النتائج البعيدة والقريبة تبدو للقائد رأي العين.

عامل الزمن عامل حاسم في الثقافة، فلو افترضنا بأن بوعزيزي قد أحرق نفسه في عام 1990 وأن الثورة التونسية قد انطلقت في ذلك الوقت، فإنه لمن الصعوبة أن نفترض بأن اليمن ستنتفض كما انتفضت في عام 2011 بل كان افتراضنا في أن الثورة ستتحول إلى دماء وإلى غزوات ليس لها من ناتج إلّا سيطرة القوي على الضعيف.

فقد كانت الثورة اليمنية الحالية نظير الحالة الثقافية التي مر بها اليمن منذ بداية التأريخ في أن يكون الانتقال هو انتقال مرحلي وليس انتقال كلي وذلك بسبب التعددية الكبيرة على المستوى الاجتماعي فيما يخص الحالة القبلية والحالة الاقتصادية، وكأن التباينات الثقافية هي اختلافات فاصلة، فاليمن في الشمال زيدي مع تداخل كبير في طبيعة التنوعات الزيدية تبعاً لواقع المصالح التي تتغير دوماً وبشكل مستمر مع التركيبة الاجتماعية فقبيلة حاشد هي ليست ذات توجه واحد فيما يخص الثقافة مع أن الزيدية هي المذهب، بل أنها تتداخل مع ثقافة التسنن بشكل كبير في الجنوب حسب المصالح.

وكذلك نجد الشيء ذاته فيما يتعلق بوضع نجران وعسير التي هي في الحقيقة عبارة عن مناطق يمنية الثقافة مع انتمائها إلى السعودية بعد السيطرة عليها، وهي المناطق التي انتشر فيها التوجه الاسماعيلي

والذي تحوّل في هذه الأيام أي منذ بداية القرن ما قبل الماضي إلى توجه سلمي ليس له علاقة بالتأريخ الماضي لصراع النزارية والمستعلية التي سادت الأقطار الإسلامية، ولا صراع القرامطة ولا غيرها. بل هم الآن عبارة عن توجه لا يمتلك ثقافة العودة إلى الحكم. وهذا التوجه هو الشيء الذي يتوافق بشيء ما مع الثقافة السعودية[1].

فالرئيس هادي الحالي لم يكن أكثر صورة معكوسة لعملة واحدة مع بقايا صالح والأحمر والسعودية، إذ قامت المبادرة الخليجية بإبقاء السلطة في أيدي الجهات القديمة ومنعت وصولها للقوى الشعبية الناشئة. ولكن هناك عوامل أخرى مَثّل موقف الولايات المتحدة التي تنظر لليمن كحاضن لتنظيم القاعدة في جزيرة العرب وهو ما يتطلب

(1) في الانتخابات الرئاسية لعام 1999 كان الجميع قد اتفق مسبقاً على نصيبه من الحكم، كما هو في العراق ما بعد عام 2003 المسمى (المحاصصة)، وكان العراب في الخلطة اليمنية هي السعودية، كما هو العراب في الخلطة العراقية هي إيران. فقد كان رئيس حزب الإصلاح عبد الله بن حسين الأحمر وأبنائه والسلفي الكبير عبد المجيد الزنداني ومحمد بن عبد الله اليدومي (الكندي)، وعلي محسن الأحمر كانوا جزءاً من (النظام) الذي يتحدثون عنه، وهو ليس كأنظمة عربية أخرى بحزب واحد وحاكم عسكري ومعارضة مضطهدة، بل نظام (تعددي متسلط) ومعارضة موالية للحزب الحاكم. الأفراد في حزب التجمع اليمني للإصلاح قد لا يتفقون مع القيادات القبلية، وبالذات تلك القادمة من المرتفعات الشمالية والتي كانت تربطها علاقات ومصالح أخرى مع الرئيس صالح بعيدة عن التنافس الشرعي في انتخابات حرة. عبد الله بن حسين الأحمر كان أحد رجالات صالح خلال مفاوضات ترسيم الحدود مع السعودية عام 2000.
راجع في ذلك كتاب:
Sarah Phillips. Yemen's Democracy Experiment in Regional Perspective. Palgrave Macmillan. ISBN 9780230616486. صفحة 143.

انتقالاً تدريجياً للسلطة، كذلك قلق الأمم المتحدة من نشوب حرب أهلية بين مكونات النظام علي عبد الله صالح والأجهزة الإستخباراتية التي كان يسيطر عليها وقوات علي محسن الأحمر. لذلك، كان مؤتمر الحوار الوطني في غاية الأهمية نظراً لانعدام الثقة في التغيير عبر الوسائل المتاحة حالياً من قبل الحراك الجنوبي.

الجماهير اليمنية تعلم جيداً وثورة الشباب بأن التغيير في اليمن يتطلب خمسة مراحل لا مرحلة واحدة، وكل من تلك المراحل تعتمد على عامل من عوامل التغيير الذي يجب أن يسود الساحة، فضباط الجيش والنظام عموماً هم أحد أهم العوامل التي يجب توفرها قبل أن تنتقل الثورة إلى المرحلة التي تليها. كذلك يرى الثوار أنه لمن الصعب جداً أن يحدث التغيير بدون أن ترفع السعودية يدها عن اليمن، وهذا هو ضرب من الخيال لا يمكن أن يتوفر ما لم تيأس السعودية من اليمن، أي أن يتحول المشهد إلى واقع خاسر لها على كافة الأصعدة، وهذا لن يحث قبل أن تتحرك معظم القواعد الشعبية في الثورة على النظام السعودي، واعتبار دور السعودية كدور الاتحاد السوفيتي السابق في المجر أو ألمانيا الشرقية أو بولونيا.

فمحاربة تلك الأنظمة بالذات لن يغير من الواقع بشيء، بل المفترض أن تتوجه القوى الوطنية إلى تيئيس نظام الوصاية من الاستمرار في مساندة أنظمة تلك الدول. ولعل ذلك بدا واضحاً في تبني هذا الواقع من خلال السقوط المفاجئ للاتحاد السوفيتي والذي على أثره تغيرت كل معادلات تلك الدول وتحول المشهد بيد القوى الوطنية.

إن اليمن تنتظر بجماهيرها أن يحدث تغيير في القوى السعودية في الدولة ذاتها لا في داخل اليمن. أي أن تتهاوى القلاع المالية والسياسية التي بنيت عليها الدولة السعودية قوتها من خلال صراع داخلي أو ثورة شعبية أو غزو خارجي أو ضغط دولي من قبل الولايات المتحدة أو أوروبا. على أمل أن تتحول السعودية إلى دولة يشترك بها المواطنون في إدارتها ثم تحويلها إلى دولة متعددة الأحزاب والقوى شبيهة بالدولة المصرية على سبيل الفرض أو تركيا مع اعترافنا باختلاف الواقع السعودي عن ذينك الدولتين.

فالثقافة السعودية التي تحكمت في مسيرتها ثقافة البداوة والعصبية هي التي تتصارع مع القوى السلمية والقوى الوطنية التي استلهمت من تأريخ اليمن المحب لآل البيت مساراً لها في عميلة التغيير الوطني، فسياسة العنف السعودية وشراء الذمم والقتل والتهميش هي ذاتها السياسة القرشية التي لم يتمكن الرسول في التخلص منها، وهي ذاتها التي تحكم، والتي تسيطر ربما على معظم القوى الدينية في بلدان العالم بحكم القدرة المالية التي امتلكتها السعودية.

فهذا حسين الأحمر قام بإصدار تحذير لحاشد أن كل من ينضم للحوثيين أو يناصرهم أو ينشر أفكارهم فإن دمه وماله مباح، كما وصفهم خلال المؤتمر. وهذه اللغة هي لغة العنف والتهميش، وهي لغة الثقافة الأموية والثقافة القرشية. هذا في الوقت الذي يعتقد اليمنيون بأنهم يحتاجون إلى شخصية السيسي التي لم تكن موجودة وأن الظروف ليس بقادرة على خلقها في هذا الوقت. وهذا ما جعل شباب الثورة والمجتمع اليمني يلتف حول أية حركة من شأنها أن تنقذهم من

إخطبوط السعودية ومن القوى المتحكمة في مسيرة الحياة اليمنية. ولذلك أيد الكثير من اليمنيين الحركة الحوثية لا لأنها شيعية، ولكنها تشترك مع اليمنيين في عوامل كثيرة أهمها هو التخلص من أعمدة الحكم اليمني الخطرين والذين من السهولة لهم في أن يبيعوا وطنهم أمام مصالح ضيقة شخصية.

المشتركات مع الثقافة الشيعية: عندما انطلقت الحركة الشبابية اليمنية فقد كانت تمثل عينة الشباب الذين لاحظوا وسايروا سلوك آبائهم في ارتمائهم في أحضان التشكيلات التي تقودها قوى التسلط اليمنية الذين بنوا مرحلة حياتهم في الاعتماد على التشكيلات الفئوية التي حكمت اليمن ما بعد الرئيس الحمدي.

وهؤلاء معظمهم من المتعلمين ومن الذين اطلعوا على التأريخ القريب والبعيد بسبب توفر عامل التمدد الفكري إلى البيت، وهو الانترنيت، فاكتشفوا عمق الفداحة التي تواجهها اليمن اليوم بعد أن اطلعوا وتفهموا مسيرة القوى المتسلطة والنفوذ الشخصي والمالي ودور السعودية، يعاونهم في ذلك جماهير الفقراء الكبيرة ثم أنصاف المتعلمين والعاطلين والمهمشين من الشعب.

فكان الحوثيون من أوائل من خرج في المسيرة، وهو ما ظهر جلياً في أن التظاهرات الشبابية هي تظاهرات حوثية، وبعد أن التف حولها الشعب بعمومه كان على القوى المتنفذة أن تسرق الثورة بطريقة أو بأخرى، وقد تصدى صادق الأحمر لسرقة الثورة قبل أن تنقلب عليه، على أمل أن يمارس شخصية القائد قبل أن يتحول إلى رقم مهمل في مستقبل اليمن، وهو الشخصية التي وجدت في الظرف الجديد بأنه من

أفضل ما يمكن أن يحقق له هدفه الشخصي في أولاً السيطرة على إرث النظام القائم (ثقافة الغنائم) ثانياً أن يسرق فكر الثورة وركوب الموجة، فالثوار مهما كانت توجهاتهم فهم شخصيات سلمية لا يمكن خشيتها على حياته وحياة مستقبله، ثالثاً كان الأحمر يرى بأن زعامته ستكون هي محور الثوار كما اعتقد مستوحياً من تجربة بقايا نظام مبارك عمر سليمان وشفيق وعمرو موسى وحتى السيسي. . هكذا كان هدف بنو الأحمر هو سرقة الثورة من أصحابها الحقيقيين.

ولكن الثورة كانت لا كما يعتقد من الضعف ومن الهزال، فقررت أن تبقى على ما هي عليها من سلميتها ومن تفادي كل الصراعات الجانبية التي تدور في اليمن ما بين الفرقاء المتخاصمين.

فسياسة السلم التي كانت في الواقع نابعة من عقيدة خارجة عن عقيدة التدين أو التمذهب أو القبلية اليمنية والتي كما أرى بأنها نمت بصورة كبيرة على مدى على الأقل العقدين الأخيرين من القرن الماضي من الزمن منذ بداية عالم الانترنيت وتوسيع الثقافة في معرفة أصول اليمن وأصول التأريخ الذي تحتله، فكان لثقافة آل البيت السلمية دوراً مؤثراً في العقلية التي سادت شباب الثورة بصورة مستقلة عن الانتماء الديني أو الانتماء المذهبي. هذا أولَا . . . . . . ثانياً الترفع عن الدخول في مهاترات مذهبية مع بعضهم البعض، أو تسويق المقولات التاريخية التي كتبها التأريخ الإسلامي المزيف في ادعاءات موهومة لشخصيات سفاحة مجرمة قادت التأريخ الإسلامي الذي شوهه الكتاب والتاريخيون وثقافات القوى السعودية. وبذلك ترى في أن القدرة الكبرى لوحدة الرأي لم تتمكن قوى العنف من أن تهزها أمام قدرة السلطة التي

استعملت العنف في المواجهة، وهذا بالضبط هو أساس فكر ثقافة التشيع التي لا تدعو إلى مذهب أو مرويات، بل إلى تبني سلوك وطريقة في تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان. بينما حاولت الثقافة السعودية القرشية الأموية السلفية أن تحوّل المشهد إلى صراع طائفي أولاً، ثم إلى صراع قديم وحديث ثم إلى مشهد صراع قومي، كما جرى في الستينيات وما إلى ذلك. ولكن الثوار السلميين كانوا قد أدركوا جيداً أنهم ممنّعين تجاه كل ما تسعى إليه ثقافات الصراع الأخرى وخصوصاً ثقافة النظام التي بنت أركانها على العنف المستورثة من مسيرة الدولة السعودية.

كذلك الأمر في التشابهات مع الثقافة الشيعية فقد العمق الوراثي البيولوجي لو تمكننا من أن نستعير اللفظ من النظرية الداروينية البيولوجية نرى في أن الصفات الثقافية هي حاجة بيولوجية، وحاجة ذاتية تنتقل إما من خلال السلوك، وإما من خلال التطبّع الذي ينتقل بطريقة أو بأخرى مع الجانب الوراثي أو جانب الانتخاب الطبيعي. فاليمن تاريخياً ومنذ القدم أرض حضارية استسلمت على يد عمد من أعمدة ثقافة السلم وهو علي بن أبي طالب، ولكنها رفضت الدخول في الإسلام مع قطب ذو ثقافة قرشية هو خالد بن الوليد ومعاذ بن جبل، وعلى هذا أرسل النبي علي مرتين لدعوتهم إلى الإسلام.

كما بقي اليمنيون مع علي إلى حين قُتل، ثم ثاروا أكثر من مرة على الأمويين ثم دخلوا في أول حركة شيعية (زيدية) هي ثورة زيد وبقوا على ما هم عليه. وقد استخدم الأمويون اليمنيون كأجراء حرب في الكثير

من الحروب الداخلية لحبهم إلى القتال ولوجود شخصيات معروفة بالشجاعة في ذلك المحيط، بعكس سكان قريش الذين كانوا لا يحسنون الحرب وخصوصاً المكيين الذين لم نسمع بوجود شجاع لهم في العرب ولنا من خسارتهم في بدر وأحد والأحزاب وحنين خير شاهد على ذلك[1]. هذا التأريخ اليمني خصوصاً بنوعية الالتزام الزيدي وثقافته التي هي جامع من التشيع والقسم الأقرب من أجنحة التسنن وهم الشوافع قد خلقت حالة مركبة لم تكن لها من وجود في بقيّة البلدان خصوصاً إذا أدركنا بأن الزيود اليمنيين هم الوحيدون الباقون في العالم اليوم لأدركنا أهمية الميل إلى ثقافة آل البيت السلمية التي ترفض مبدأ العنف وترفض في ذات الوقت مبدأ التسلط والذل والتهميش.

وقد شاءت الظروف في الثورة اليمنية في أن تكون الثقافة المناوئة للزيدية هي ثقافة يسارية العنف ويسارية الميل إلى تهميش تلك الثقافة وهي السلفية التاريخية التي تدين بها السعودية، فخرجت الثورة بتركيبة معقدة وبتأريخ معقد ليس من السهولة أن تحقق أهدافها في حقبة زمنية قصيرة، بل هي عبارة عن نموذج فريد من نماذج الثقافات المهددة بالانقراض والتي تسعى إلى أن تقاوم حتى النفس الأخير في استمرار حيويتها وقدرتها.

---

(1) نظرية جبن المقاتل المكي أو القرشي نظرية جديدة في الاستنتاج ولها مصاديق كثيرة، خصوصاً إذا قسم العرب حسب القبائل والانتماءات. أما أهل يثرب فكانوا أحسن حظاً بقليل بسبب الظروف التي مرت على المدينة.

توقعات مستقبل الثورة: من الصعب جداً التنبؤ بمستقبل الواقع اليمني المعقد الذي يختلف في تركيبته عن أي قطر من أقطار العالم في التركيبة الجيوسياسية والثقافية. ومن الصعوبة كذلك أن نتوقع لثورة الشباب في أن تحقق كل أهدافها التي ثارت من أجلها ما لم تكن هنالك أكثر من ثورة تمر بمراحل زمنية متعددة، كما هو واقع معالجة المريض بالسرطان الذي يتطلب منه أن يمر بمراحل معقدة ومتعددة في خطوات العلاج. كما من العسير على الطبيب الحاذق أن يقول ما هي الخطوة اللاحقة ما لم يتبين نتائج الخطوة السابقة، مع أن الموت في مثل هذه الحالات نسبته 50% دوماً. وعلى ضوء البقية من النسبة وهي الخمسين بالمائة الثانية فإن الطبيب يضع برنامجه.

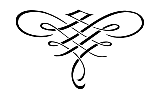
الصراع في اليمن بين معسكري العنف والسلم أو الحضارة والبداوة من الصعب جداً حسمه خلال القرن الحالي لصالح فئة من فئتي الصراع لا عسكرياً ولا ثقافياً، وعلى المريض المصاب بالسرطان أن ينتقل إلى بلد تتوفر ظروف العلاج بصورة أكثر مما هو متوفر في بلده الحالي، وهذا في عموم الثورات من المستحيل له الحدوث مع احتمال واحد في عالم الثورات هو التغيير الداخلي لكي يكون مشابهاً لظروف البلد الجديد الذي يُنقل إليه مريض السرطان. وهذا يحدث في اليمن على مرحلتين:

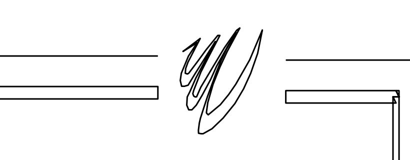
المرحلة الأولى: امتلاك زمام القرار بيد اليمنيين، فمع وجود الجارة القوية السعودية يعتبر هذا الأمر صعب، ولكنه ليس مستحيلاً، ما لم تتغير ظروف السعودية كما تغيرت الحبشة في سيطرتها على الصومال وأرتريا في عام 1980 وعندها صارت الظروف تدور في

أجواء مختلفة عما كانت عليه في أثناء قوة أثيوبيا وهيلاسهيلاسي (ت 1975).

المرحلة الثانية: هو تنشيط ثقافة يمنية جامعة تعيش هم الوطن، وهذا أيضاً ليس مستحيلاً أمام تجارب شعوب كثيرة مرت بهذا الطور، وربما التطور الاقتصادي والعلمي والاجتماعي هو أحد أهم عوامل تلك الثقافة.

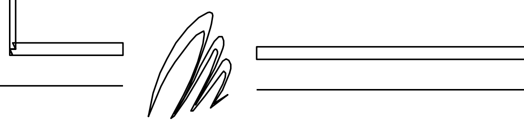
من خلال نظري أجد هنالك الكثير من اليمنيين قد تمكنوا من إثبات قدراتهم العلمية والفكرية في أنحاء العالم وهم مرشحون في أن يعيدوا ثقافة اليمن العصماء التي كانت تمثل قمة ما هو كائن في المنطقة العربية.





ليبيا





خلفية تأريخية: لا تنفصل ليبيا عن الواقع المصري والتونسي بكثير، فهذه الدولة تتأثر بصورة مباشرة في كل ما يحدث في تلكما الدولتين، فقد كان المصريون القدماء يطلقون على سكنة مصر الغربية من قبيلة الليبو (الليبيون)، وقد تمكنت إحدى الأسر التي احتفظت بالعرش لقرنين من الزمان (من القرن الثامن إلى القرن العاشر قبل الميلاد) بقيادة الملك شيشنق الأول أن يوحد مصر، وأن يجتاح فلسطين ويستولي على عدد من المدن ويرجع بغنائم كثيرة.

دخول الإسلام كان على يد نفس الفاتحين الذين دخلوا مصر وتونس وهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي سرح ومعاوية بن خديج. وهؤلاء وصلوا إلى مصر ثم امتد نفوذهم في الغزوات إلى ليبيا بعد أن تمكنوا من إحداث مذابح كبرى في صفوف الامازيغ وفي المسيحيين القديسين الذين كانوا في الأعم الأغلب في طرابلس وهم بقايا الدولة الرومانية التي كانت تسيطر على ليبيا معتنقة الديانة المسيحية.

بعدها أقيمت دولة الأغالبة تحكم المنطقة تونس وليبيا والبعض من الجزائر منذ عام 126 هجرية أيام المهدي العباسي إلى أن تم إزالتهم علي يد الفاطميين. الأغالبة كانوا مسلمين ذو ثقافة سنية تؤمن بإخضاع

الشعوب بالقوة زال حكمهم في عام 296 علي يد عبد الله الشيعي الفاطمي. فقد ثارت طرابلس لأكثر من مرة على الأغالبة لسوء معاملتهم لهم، وأخرج عاملهم سفيان بن المضاء. كما ثاروا أكثر من مرة على العباس بن أحمد بن طولون بعد أن دخلها غازياً.

تسلسلاً، دخل المذهب الأباضي ليبيا في سنة 94 هجري على يد الإمامين عاصم السدراتي (ت 141)[1]، ودرار الغدامسي (ت 211) راجع تأريخ علماء الاباضية وجبل نفوسة في ليبيا[2]، حيث انتشر المذهب بجبل نفوسة وأجزاء من طرابلس والجنوب التونسي والأطلس والميزاب بالجزائر، ومن أئمتهم كان الشيخ على يحي معمر، والدكتور عمر النامي. كما انتشر المذهب المالكي في المنطقة الشرقية والوسطى من ليبيا والشمال التونسي وغرب الجزائر، وهذا التوزيع الجغرافي للمذهبين لا يزال حتى الآن قائماً بالرغم انحسار المذهب الأباضي في الكثير من المناطق بعد القرن الرابع الهجري (الحادي عشر الميلادي) بسبب هجرات بني هلال وبني سليم إلى شمال أفريقيا.

وخلال القرنين الماضيين انتشرت الكثير من الحركات الصوفية إلى جانب المذهبين الأباضي والمالكي مثل الفرقة الأسمرية والزروقية والعيساوية والسنوسية وغيرها.

قاد الأباضيون أكثر من ثورة على الحاكم العام عبد الرحمن بن حبيب، وقد تم سيطروا على طرابلس الغرب وعلى مناطق واسعة

(1) http://www.tourath.org/ar/content/view/1285/41./

(2) http://istiqama.net/nafusa// إسماعيل-بن-درار

امتدت إلى تونس، إلى أن تمكن عبد الرحمن بن رستم أن يقيم الدولة الرستمية الأباضية، كما حكم أبو الخطاب طرابلس التي ظلت لعدة أعوام المقر الرئيسي للاباضية البربر.

أرسل المنصور العباسي محمد بن الأشعث (رمز من رموز ثقافة العنف هو وأبيه) لقمع الثوار الاباضيين، فهاجم أباضيي نفوسة وهوارة والضريسة بتاورغاء واستولى على طرابلس، وأرسل كتائب لقمع الثورة في تلك المقاطعة إلى أن استولى على زويلة وقتل الزعيم الأباضي عبد الله بن سنان سنة 160 هجرية، ولم يكد عبد الرحمن بن رستم يعلم بالخبر حتى ترك القيروان وانتقل إلى تيعرت الجزائر حالياً وأقام دولته الخارجية التي ظلت مدة تقرب من 130 سنة حتى ظهور الفاطميين.

من أشهر الشخصيات الأباضية الأمازيعية هو د. عمر خليفة النامي الباحث والكاتب الذي اعتقلته السلطات الليبية وقتلته بطريقة غامضة[1].

في منتصف السبعينيات قام السادات بتشجيع الحركات الإسلامية بمصر والسماح للإخوان بممارسة نشاطهم من أجل تحجيم دور الناصرية كمركز قوى في الدولة المصرية، وساهمت السعودية في ذات الوقت على انتشار الحركات السلفية الوهابية، وبذلك صعد نجم الإخوان المسلمين والسلفية في الكثير من دول شمال أفريقيا والشرق الأوسط والأدنى.

وقد استفاد القذافي كثيراً من الدعوة السلفية عندما بدأوا بالصدح

(1) http://lequotidienalgerie.org.

في حرمة معارضة الحاكم (حتى وإن جلد ظهرك)، حتى أن سيف الإسلام القذافي كان قد سمح لهم في فتح قناة تلفزيونية في ليبيا. وفي أعقاب الثورة الليبية ردت السعودية على الثوار في عدم الاعتراف بالمجلس الثوري، كما قام الوهابيون السلفيون بهدم الكثير من قبور الأولياء الصالحين الذين يحترمهم الليبيون بعد أن وجدوا الفرصة مواتية إلى القيام بهذا العمل.

الثقافات الليبية وتوزيعها: يحتل سكان ليبيا 10% من المساحة الكلية للقطر، معظمهم يسكن المدن أي أن نسبة الحضر هو تقريبا 80%، ويتوزع معظم السكان على الساحل. معظم الثقافات التي توجد الآن هي ثقافات مهاجرة وصلت إلى ليبيا في قرون مختلفة من الصراع والتي يمكن أن نلخصها حسب ثقافاتها[1] إلى:

- العرب ذو الثقافة القرشية القديمة وهؤلاء هم المسيطرون على الحكم إما من خلال قبائلهم أو من خلال تأثيرهم الثقافي، من منتمي ذات الثقافة هم بنو سليم وبنو هلال وهم الفئة الطاغية في البداوة وفي العصبية والذين تشترك توجهاتهم الثقافية مع العرب الآخرين الذين جاءوا إبان الغزو العربي. ينتمي إلى هذه الثقافة قبائل (التبو) وهم سكان واحات الجنوب الشرقي والغربي الليبي في مناطق القطرون وتجرهي ومرزق وأم الأرانب والكفرة وهؤلاء ميالون إلى ثقافة البداوة.
- العرب الأشراف وهم سلالة الادراسة، والادراسة هم زيديّو

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Demographics_of_Libya.

المذهب من أبناء أدريس من القبائل هي المسماير والشواعر والقطارنة، ولكن ذلك لا يعني بأنهم زيديّو الاتجاه، بل أنهم يعتزون بانتسابهم إلى آل الرسول كما هم الأشراف في مصر وفي تونس، وهؤلاء ذو ثقافة مقاربة لمفاهيم آل البيت في الابتعاد عن العنف والقتل والمواجهة والعصبية. كما أن هنالك تمركز للأشراف في مدينة (ودان) و(زويلة)، وكذلك (القطرون) في وسط ليبيا وهم من سلالة علي بن أبي طالب منتشرون في معظم أنحاء ليبيا.

- البربر وهم قسمين مداغيس وبرنس، ويعيشون في الجزءين الشرقي والغربي من ليبيا معظمهم أباضيّو الثقافة، ينتمون إلى المذهب الاباضي. منهم زناتة وهي قبيلة أمازيغية كبيرة تنتشر في مختلف دول المغرب العربي، وتتركز في مناطق متفرقة من الساحل وبعضها في تونس.
- ثقافة الزنوج وهم أحفاد العبيد، ولكن عندما أعلن وقف تجارة العبيد في ليبيا في القرن التاسع عشر في المدن الرئيسية أدمج أغلبهم مع سكان ليبيا وأصبحوا يشكلون بشكل رسمي جزء من السكان بعد الاستقلال أي في عام 1951 م، ثقافتهم تميل إلى البداوة مع أن القسم الكبير منهم مندمج في ثقافة الصوفية.
- الثقافة الصوفية وهم الأقرب إلى أصول فكر آل البيت، منهم الفرقة الأسمرية والزروقية والعيساوية والسنوسية وغيرها وهؤلاء يميلون إلى السلمية في العمل الاجتماعي، ويعتقد بأنهم في الأصل كانوا شيعة بدّلوا التزامهم بسبب الاضطهاد الذي تعرض له الشيعة على

يد صلاح الدين الأيوبي (ت 589)، فتحولوا إلى فرق صوفية. كما ينتمي إلى ذات الثقافة عشيرة (المنفه) تعيش في أقصى الشرق الليبي تنحدر من المرابطين أفرادها يفتخرون بانتمائهم إلى المرابط الولي الصالح مناف الذي استوطن بعد الفتح الإسلامي منطقة دفنة ومنها شيخ الشهداء عمر المختار (ت 1931).

- ثقافة الكراغلة وهم ينقسمون إلى أربعة أقسام وهم (تركمان، أكراد، شركس، ألبان) يعيشون في المدن الكبيرة مثقفون ذو توجهات وطنية تميل إلى السلم في عملهم وفي طريقة معيشتهم.
- الثقافة الأوروبية ويسمون هنالك (القريتليون) أو شعوب الدول الأوروبية وخصوصاً اليونانيون الذين كانوا في البلاد قبل الغزو العربي.
- الثقافة القبلية وهي الثقافة التي تتناوب بين الجامع الأكبر من الثقافات الأخرى وتعتبر القاسم المشترك في مسيرة العادات الاجتماعية التي يألفها المواطن الليبي. كما أنها تحوّلت إلى ثقافة القوة التي تتسيد المشهد السياسي.
- الثقافة الجعفرية الاثناعشرية وهي ثقافة ليس لها من وجود في ليبيا بعد أن تم تصفية الشيعة في القرن السادس عشر الميلادي على يد صلاح الدين الأيوبي، عدد ما تبقى من الشيعة ربما لا يتجاوز بضعة آلاف على حسب بعض التقارير المنشورة على صفحات الانترنيت[1] وهؤلاء هم متشيعون على يد الأطباء العراقيين

(1) http://www.sunni-news.net/ar/articles.aspx?article_no = 25849.

والمدرسين وغيرهم ممن عمل في ليبيا في زمن القذافي. وقد توجه كما هو معروف أعداد كبيرة من الليبيين في الاطلاع على تراث الأئمة من آل البيت من الاثنى عشرية بعد الهجمة الوهابية السلفية التي انتابت ليبيا والتي كانت مساندة من قبل القذافي بسبب تراثيات القبول بالحاكم الظالم التي تقرها تلك الثقافة. ومن هنا نتفهم تصريحات مفتي ليبيا الشيخ صادق الغرياني في اتهامه إيران بالدعوة إلى التشيع داخل ليبيا[1].

مسيرة صعبة في طريق وعر: ثقافات الأمم تنمو تبعاً للحاضنة والوسط الذي تنمو فيه حتى وإن كانت الثقافات التاريخية غير متناسقة مع حالة الوسط الجديد. لأن الثقافة هي سلوك، وهذا السلوك دوماً يضيف على مسيرة الثقافة بصمات طبيعتها سواء أكانت تلك الثقافة من نوعية ذلك السلوك أم لم تكن، وخصوصاً إذا أدركنا بأن الثقافة هي مسيرة لا بد لها من أن تمر أو أن تعبر من فترة إلى فترات تاريخية أخرى سواء أكان ذلك العبور آمن أم أنه محفوف بالمخاطر، لأنّ الثقافة مسيرة وأنه لمن المستحيل لها أن تتوقف عند نقطة ما، وقد مثلناها بالالكترونات في الذرات التي لا تتوقف عن الحركة أبداً في حياة الذرة سواء أكانت الذرة ناشطة، أو غير ناشطة، وتبقى تلك الالكترونات تبحث عن مصدر تزيده شحنة أو أن تفقد شحناتها لذرات أخرى وتتحول من نوعية معدنية إلى نوعية أخرى وهكذا.

فالثقافة الليبية عبارة عن ثقافة تميزت في الفترات التي تلت عام

(1) http://alburhan.com/main/articles.aspx?article_no = 4836#.U8ABPPmSxr0.

وصول معمر القذافي إلى الحكم بالعنف، والتضييق والشدة في مواجهة الثقافات الأخرى المناوئة لها أو التي تقف إلى صفها. فقد حاول القذافي وهو صاحب السلطة المطلقة في أن يغيّر من الثقافة الليبية بكل ما فيها من معاني حتى ثقافة الدين، واستبدلها بثقافة ما يسمى بالزحف أو بالكتاب الأخضر، هذا بغض النظر عن طبيعة الثقافة الخضراء الجديدة إن كانت ثقافة متطورة أم غير متطورة. المهم إنها ثقافة مواجهة مخالفة لواقع الشعب الذي تسوده الكثير من النكوصات والتي أهمها هو التأخر الثقافي والانفتاح الفكري على العالم. فقد حوّل العقيد هذا البلد إلى مجتمع من نوع آخر يعيش في حالة من التذبذب في أن يدرك عمق هويته وموقعه في العالم.

فقد تمكن العقيد من أن يحوّل هذه الدولة إلى دولة بوليسية، وإلى كيان يضم كل عتاة الإرهابيين والخارجين عن القانون استوردهم من الخارج الذين كانوا يرون في ليبيا أرضاً مهمةً لهم من أجل تطبيق أفكارهم في استعمال العنف في مواجهة دول أخرى مثل أبو نضال (ت2002) وماركوس وغيرهم. وهذا النوع من توجهات العنف كفيل في أن يغيّر من النظرة العامة لعامل الثقافة السائدة. فالملاحقات الأمنية والسجون هي أحداث مستمرة يومية يمارسها النظام بمؤسسات رعب كبيرة وقوية بحيث فرضت تلك الأحداث إلى تغيير في شكل الثقافة الجديدة المنشودة التي يبحث عنها الليبي.

الليبيون لم يتمكنوا من تغيير النظام خلال أكثر من ثلاث عقود من الزمن، مع أن الشعب الليبي ليس من الشعوب الخانعة التي تستسلم للحاكم، فهو شعب قبلي في سلوكيات العلاقة مع الحاكم، لكن ولاءه

إلى الفئة الصغيرة الضيقة كالقبيلة أو التجمع الذي ينتمي إليه. مع اختلاف في شكل ذلك الولاء عنه في حالة العراق أو سوريا مثلاً. فالحاكم العام مثل القذافي بالنسبة إلى الشعب الليبي ما هو إلّا عبارة عن شخص يمثلهم في تحقيق مطالبهم، وما دام هذا الشخص امتلك مواهب القوة بطريقة أو بأخرى فهو رجل يتزعم مجموعة قبائل، وفي هذه الحالة فإن معارضته ليست بذي جدوى ما لم يأتِ من يمتلك قوة أكبر من قوته عندها يتحول الولاء إليه. وهذه هي النظرية التي تلتزم بها أدبيات المذهب السني تقريباً بكامل تفرعاته ومدارسه. فتغيير النظام بالنسبة إلى الليبيين ليست من قبيل أمر مهم كما ينظر إلى ذلك من قبل المصريين أو العراقيين. فالنظرية الإسلامية التي أقرتها المذاهب كلها كانت متطابقة بشكل كبير إلى منطق البداوة في التعبد بالقوة واعتبارها العامل الحاسم في تقرير نوعية الحاكم. وقد كان السلفيون من خلال دخولهم إلى ليبيا عنصر مساعد لتنشيط هذه النظرية بشكل أو بآخر.

بدأت المعارضة الليبية لحكم العقيد عندما اختلفت المصالح وتنازعت الاتجاهات من داخل النظام عندها تفرعت ثم التجأت إلى الخارج لتقود معارضة مشتتة ليس لها من قدرة على تبني أسلوب أو ثقافة مميزة باتجاه تغيير النظام. فالمعارضة الليبية قد بنت برنامجها منذ زمن ليس بقريب مع الحذر في الاقتراب من شخصية القذافي الخطرة في المعارضة، فكانت تدعو إلى تغيير ضمن النظام، وليس إلى إزاحة النظام، وبقيت هذه الحالة إلى أوقات متأخرة.

أهم ثلاث أحداث في التأريخ الليبي هي: مجزرة سجن أبو سليم عام

1996، ومجزرة مشجعي كرة القدم عام 1996، ومظاهرات بنغازي عام 2006. كما شهدت مدينة البيضاء في 1 سبتمبر عام 2006 احتجاجاً عارماً أثناء الاحتفال بانقلاب 1969 أو ما يعرف بالفاتح، وقام بعض المواطنين بالهجوم على عربات بها دبلوماسيين والعقيد القذافي احتجاجاً على الأوضاع الاقتصادية بالمدينة[1]. آخرها كانت أحداث مدينة يفرن في 24 ديسمبر عام 2008 وهي المدينة التي تعد حاضرة أمازيغ ليبيا، وقد كان الحدث الأخير هو الرد الثقافي بعدما تعرض القذافي إلى الثقافة الأمازيعية من أجل تفريغها وتضعيف الفكر الثقافي الأباضي.

الخليط الذي أنتج الثقافة الليبية كان في عموميته ثقافات تميل إلى السلم وهي مستورثة من تأريخ الشعب الليبي الذي امتزجت فيه ثقافة الاباضية التي تميزت عن البقية الباقية من فرق المسلمين بأنها ثقافة حوار، وثقافة ابتعاد عن العنف، هذا في الوقت الذي يرفض الاباضيون اعتبارهم (خوارج) أو من الفرق الأخرى (النجدية)، أو (الصفرية)، أو (الأزارقة)، أو (العجاردة)، أو (الثعالبة)[2]. . . . فهم ذو توجه خاص يميل إلى ثقافة آل البيت بشيء كبير، وهم في الواقع

---

(1) يوجد مليون ليبي فقير وتوجد 180 ألف أسرة تعيش على 100 دينار ليبي في الشهر وهذه الأسر لا تقل عن عشرة أفراد. وبطالة الليبيين بلغت 30 % وخلال عام 2005 كشفت القناة الليبية عن وجود عائلات ليبية تعيش داخل أكواخ من الصفيح وفي وضع صعب للغاية بدون ماء ولا كهرباء رغم أن ليبيا تصدر على الأقل 2 مليون برميل من النفط يومياً. http://www.libya-watanona.com/letters/v2007a/v24mar72.htm.

(2) http://en.wikipedia.org/wiki/Khawarij.

استورثوا هذه الثقافة من معلمهم وهو علي الذي قال فيهم لا تحاربوا الخوارج بعدي فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه، وهو قول مشهور جداً، بل طريقة عمل للتعامل مع ثقافات أخرى تحمل دافع فكري.

فلقد نشأت الاباضية في البصرة بعد أن تحاورت مع النظام الأموي من خلال قادتها الكبار الذين يختلف المؤرخون في انتماء الاسم إليه مع أن عبد الله بن أباض (ت 107) هو الاسم الأشهر، هذا في الوقت الذي يُسمون أيضاً بأهل الإسلام، وأهل الحق، أو جماعة المسلمين، كذلك لهم تسمية القعدة (أي الرافضين للحرب)، وكذلك المحكّمة، وهي التسمية التي تطلق على كل الذين قبلوا بالتحكيم في صفين[1].

المهم هذه الفرقة الوحيدة من غير الشيعة الإمامية الاثنى عشرية لم تدخل في حروب مع الدولتين الأموية والعباسية ما لم يفرض عليها القتال، أي بمعنى آخر لم تحوي أدبياتهم تكفير المسلم وحلّيّة قتله كما تدعي بقيّة الفرق الخارجية والأشعرية وغيرها من فرق السنة. وكذلك السلفية والأحناف. فهي فرقة مسالمة ترمي إلى التفاوض، مع أن البعض يتهمها كما يتهم الشيعة بأنها فرقة تؤمن بالتقية[2].

---

(1) الحركة الاباضية في المشرق العربي، نشأتها وتطورها حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مهدي طالب هاشم. دار الإسلام، جامعة الإمام الصادق، بغداد 2009.

(2) التقية مصطلح قرآني معناه هو النهي عن كل فعل أو قول يؤدي إلى إراقة الدماء أو تشويه المعتقد وهدمه أو إيجاد الفرقة والخلاف بينك وبين أخيك الإنسان بأن تتقي كل ما يؤدي إلى الاختلاف والتنازع بينك وبين من يختلف معك في المعتقد أو الجنس والعيش معه بسلام ما دام هو لم يعتد عليك (ثقافة التحمل Tolerance). وهو مصطلح مخالف =

الثقافة الاباضية: انتشرت الأباضية في عمان أولاً، وفي اليمن وحضرموت والحجاز وفي المغرب العربي وزنجبار، واتخذت لها مواقع كبيرة في نشر الفكر الإسلامي ما بين الشعوب، وأقاموا دولتين إحداهما في المغرب العربي الدولة الرستمية[1] في تاهرت سنة 160 هجرية ودولة عمان 177 هجرية، بينما فشل كل تصنيفات الخوارج من إقامة دولهم، بل دخلوا في حرب عنف كبرى راح ضحيتها الكثير من المسلمين من كلي الجانبين. ويشير بعض المؤرخين في عدم قدرة المذهب الأباضي على النمو في محيط المجتمع الشيعي مثل خراسان والكوفة وغيرها، وقد نرى انطباق هذه الظاهرة ليس فقط على المذهب الأباضي وإنما هي صفة عامه تشترك بها كل التشكيلات الفكرية الإسلامية ما لم يتم استعمال العنف ضد الشيعة[2]. في ذات الوقت كان الانتشار للمذهب الأباضي قد تم في الوسط البربري الوسط الذي أوصى به الرسول كما في بعض الروايات[3].

= للفكر السلفي أو العقيدة الأشعرية التي تؤمن بتكفير الآخر والقتل للمخالفين الذين لا تتفق أفكارهم مع الفكر السلفي أو العقيدي. والتقية أمر عقلائي أكدت عليه الشريعة، وله نماذج كثيرة في تاريخ الرسل والأنبياء، وعليه شواهد كثيرة في القرآن الكريم والسنة الشريفة وأقوال علماء الفريقين. ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [آل عمران: 28]. (التقية، نزيه محي الدين. دار القلم، بيروت. 2006).

(1) يشير ابن خلدون إلى أن عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة هو من ولد رستم الفارسي الذي قاد الفرس بعد معركة القادسية ثم استقر في أفريقيا واعتنق المذهب الاباضي. (ابن خلدون، العبر المجلد 6، بيروت 1959، ص 246).

(2) الحركات السرية في الإسلام، د. محمود إسماعيل، ص 31.

(3) من الأحاديث الموضوعة على لسان النبي نقلها الأزكوي قال: (جاءني جبرائيل، =

ثقافة الشعوب كما مثلناها من ذي قبل كعامل المناعة (Immunity) التي توجد في جسم الإنسان والتي يتعامل معها الجسم في حالة مواجهته إلى الأمراض بنوعية مختلفة تبعاً لواقع اكتسابه لآليات المناعة المتنوعة، والتي في ذات الوقت ليس لهذا الإنسان أن يدرك من أين اكتسب المناعة، ومتى، وما هي نوعيتها، وإلى أي مدى ممكن أن تستمر، فالمناعة تعمل عملها بدون شعور الإنسان الممنع وتساعده في التخلص من الأمراض أو بعكس ذلك فيما لو أصيب الجسم في حالة غياب المناعة وفي الحالتين فإن الإنسان سيفقد القابلية على إدراك كل ذلك، وإنما فقط يرى النتيجة. فتعامل الشعوب مع الثقافات تشابه تماماً القدرة المناعية للإنسان في الجسم. فقد ينتفض الجسم كله لمنع حالة سرطانية خطرة قاتلة، وقد يضعف أمام مواجهة فيروس واحد، كل ذلك تابع لما تمكن الجسم من اكتسابه خلال سنين من عمر ذلك الفرد.

وهنا نلاحظ بأن الشعب الليبي الذي في حقيقته يمتلك ثقافة المناعة، ولكنها ثقافة سلمية في نوعيتها كما هي المناعة الهادئة (Humor)، وبسبب ظرف العنف الذي نمآ فيه المجتمع فإنه لا يمتلك

= وقال يا محمد أوصيك بتقوى الله والبربر)، وهنالك حديث قريب من ذلك هو أن الإمام علي قال: يا أهل مكة أوصيكم بتقوى الله وبالبربر خيرا، فإنهم سيأتونكم بدين الله من المغرب بعدما تضيعونه، هم الذين ذكر الله في كتابه (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) (كتاب تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، سرحان بن سعيد الأزكوي العماني، تحقيق: عبد المجيد حسيب القيسي، وزارة التراث القومي والثقافة، الطبعة الرابعة، 2005). . . . . منقول عن موقع: https://archive.org/details/tarikh_3oman.

القدرة على ضبط نوعية المواجهة في التغيير السلمي تماماً لأنّ الثقافة قد احتوت في تشكيلاتها على مكونات عنف وهو أمر طبيعي في كل ثقافة ليبية كانت أم غيرها.

وهذا هو الذي يفسر لنا سبب عدم سلمية الثورة الليبية في المواجهة مع النظام، مع أنها بدأت سلمية، فقد كانت جماهير ليبيا حريصة أن تستمر على سلميتها في حادثة 15 فبراير 2011 إثر اعتقال محامي ضحايا سجن بوسليم (فتحي تربل) في مدينة بنغازي، فخرج أهالي الضحايا ومناصريهم لتخليصه وذلك لعدم وجود سبب لاعتقاله، وهنالك ارتفعت الأصوات مطالبة بإسقاط النظام، وإسقاط العقيد القذافي شخصياً. ولكن النظام استعمل أشد أنواع القسوة بإطلاق الرصاص الحي على النساء والرجال مما حدا بالجماهير في الانتقال من مرحلة إلى أخرى وبالتدريج، وهو أسلوب العقل السلمي المخطط ذو الثقافة السلمية في أن لا ينتقل في مرحليته مباشرة إلى السلاح القاتل. فقد انتقل إلى مرحلة وسطية وهو الهجوم على الممتلكات التابعة لقوى الأمن لتحطيمها في الزنتان وبنغازي وجبل نفوسه ويفرن ونالوت والرجبان. ولكن النظام أجاب بما هو أعنف وأشد حتى وجد الثوار أنفسهم والشعب عموماً بأن الاستسلام أمام قوة النظام عملية انتحارية، فهم ليسوا الحسين الذي صبر على مراحل القتل، أنهم أناس عاديون يعيشون لعوائلهم وأهليهم ولوطنهم فالصبر بتلك الدرجة من التهذيب قد لا يتوافق مع مرحلة نظام القذافي، وبذلك توجه الشعب إلى التسليح، بعدها بادر القذافي إلى اعتماد المرتزقة في استباحة المواطنين وهي القوات التي لا تعرف الرحمة ولا تعرف معنى

المواطنة[1]. . . وهنا تحوّلت الثقافة الليبية المسالمة إلى عنف مفروض بدأ منذ الخامس عشر من فبراير 2011 إلى حين سقوط النظام ومقتل القذافي.

يوميات الثورة باختصار...

- 15 فبراير 2011: بعد ما نجحت ثورة مصر وإجبار حسنى مبارك على التنحي، تحرك الناشطين في ليبيا وتظاهروا في بنغارى وطالبوا بالإفراج على المعتقلين السياسيين منهم المحامى فتحي تربل والبلوجر فرج الشرانى.
- 17 فبراير: نزل آلاف الليبيين للتظاهر في مناطق ومدن مختلفة في ليبيا وحصلت اشتباكات كبيرة في بنغازي وقام الليبيون في الخارج بمظاهرات.

(1) ثقافة الحكومات التي سيطرت على الواقع الإسلامي كالأمويين والعباسيين والأتراك اهتموا بشكل كبير بالمرتزقة الذين سموا فيما بعد (بالمماليك) وكانوا هم ممن يجندهم النظام لاستباحة الثورات وقتل شخصياتها والانتقام بالصورة الدموية التي نقرأها في كتب التأريخ، فقد جاء معاوية بن أبي سفيان بمجموعة من المرتزقة المسيحيين من قبيلة بني كلاب التي تنتسب إليه زوجته أم يزيد ليكونوا هم بلاط ومقربي الحكم، واستمر الحال إلى عهد نهاية الدولة الأموية بعد أن استبدلهم النظام الأموي بالخصيان، إلى أن جاء عصر المعتصم جيء بالأتراك وهم صبيان يتم سرقتهم أو سبيهم أو استرقاقهم من بيوتهم، أو أن تؤخذ العائلة بكاملها لاستخدامها في (التسري) وتجارة (الجنس) (Sex Slave) والعبيد والقتال، فيتم تدريب أولئك الأطفال فيتحولوا إلى قوة غضب وقسوة على كل فرد في المجتمع الإسلامي، وقد استعمل النظام العراقي في انتفاضة 1991 في كربلاء مرتزقة أجانب قاموا باستباحة قبر الحسين والعباس وقتل الآلاف ثم تهديم القبة الذهبية.

- 18 فبراير: سيطر المتظاهرون لحد كبير على مدينة بنغازي.
- 19 فبراير: استمرت المظاهرات لثالث يوم.
- 21 فبراير: استقال وزير العدل المستشار مصطفى عبد الجليل ودخل المتظاهرين مبنى التلفزيون والإذاعة الرسمي في طرابلس.
- 21 فبراير تكلم القرضاوى واستباح دم العقيد وقال: من استطاع أن يقتل القذافي فليقتله، ومن يتمكن من ضربه بالنار فليفعل ليريح الناس والأمة من شر هذا الرجل المجنون.
- 22 فبراير: القذافي تكلم وقت الخطبة التي خرجت منها أغنية زنجه زنجه... قال أنه ليس رئيس لكي يستقيل إنه قائد الثورة إلى الأبد، وأن صورة ليبيا شوهت في العالم.
- 23 فبراير: فرض الاتحاد الأوروبي عقوبات على ليبيا تتضمن تجميد أرصدة وأصول، والتوقف عن منح تأشيرات دخول (فيزا).
- 3 مارس: طالب أوباما بوقف العنف في ليبيا. أعلن المدعى العام في المحكمة الجنائية الدولية (لويس مورينو أوكامبو) فتح تحقيق عن احتمال حصول جرائم ضد الإنسانية في ليبيا، وأن القذافي وأولاده وعدد من المسؤولين سيتحملون تبعاتها.
- 7 مارس: استمرت المعارك العسكرية بين قوات القذافي والثوار وشنت طائرات غارات جوية على الثوار في منطقة راس لانوف. فرنسا أعلنت أن الجامعة العربية موافقة على فرض حظر جوى فوق ليبيا. أوباما أعلن أن حلف الأطلسي يدرس التدخل العسكري في ليبيا.

- 8 مارس: اتفق أوباما ورئيس الوزراء البريطاني ديفيد كاميرون على وضع حد للعنف وخلع القذافي من السلطة.
- 10 مارس: أعلنت فرنسا كأول دوله اعترافها بالمجلس الوطني المؤقت.
- 17 مارس: أعلن القذافي في خطبة أنه سيقاتل حتى لو هاجمه كل العالم بأسلحة نووية، ووصف الثوار بأنهم (إرهابيون) دخلوا من مصر ودول ثانية، وقال أنه تلقى صرخات واستغاثات من أهالي بنغازي تناديه (وامعتصماه).
- 18 مارس: وافق مجلس الأمن على مشروع قرار يقضي بفرض حظر جوي فوق ليبيا، تمت الموافقة على القرار 1973 الذي تقدمت به فرنسا وبريطانيا والمجموعة العربية بأغلبية عشر أصوات وامتناع خمس عن التصويت منهم روسيا والصين وألمانيا.
- 19 مارس: صواريخ توماهوك أطلقها الأمريكان على مواقع القذافي. وشنت الطائرات البريطانية غارات على أهداف تابعة للقذافي.
- 20 مارس: فرنسا أعلنت أن قطر تشارك في الهجوم على ليبيا بأربع طائرات حربية قطرية.
- 21 مارس: التلفزيون الليبي ذكر أن طرابلس تتعرض لقصف جوي صليبي غاشم.
- 22 مارس: قوات التحالف الدولي قصفت منشآت رادارية في

قاعدتين للدفاع الجوى للقوات الموالية للقذافي في شرق بنغازي معقل المعارضة.

- 24 مارس: استمرت قوات التحالف في العمليات العسكرية في ضرب قوات القذافي الذي بدأ مهاجمة الثوار بشراسة.
- 25 مارس: قطر وضعت أربع طائرات عسكرية في كريت لخدمة قوات التحالف.
- 26 مارس: استولى الثوار على مدينة أجدابيا الاستراتيجية في شرق ليبيا.
- 27 مارس: طائرات التحالف شنت غارات على مدينة مصراته، وكتائب القذافي ارتكبت مذبحة هنالك. طائرات فرنسا من طراز (رافال) طارت من حاملة الطائرات شارل ديجول الراسية في جنوب إيطاليا وهاجمت مركز قيادة مهما الليبي على بعد 10 كم جنوب طرابلس.
- 28 مارس: مدينة سرت مسقط رأس القذافي وقعت في أيدي الثوار.
- 20 أكتوبر وقع القذافي في أيدي الثوار وقتل وانتهى حكمه الذي دام حوالي 42 سنة ومعه قُبر نظام (الجماهيرية).

العبر في خبر من غبر: ليس من الصعب تفهم وإدراك أهمية المشاركة الغربية في إنهاء سيطرة النظام، ولولا تلك القدرة العسكرية لما تمكن الشعب الليبي من أن يتخلص من طاقة وقدرة عظمى وسلاح متطور، وقوات أمن ومخابرات كالتي يمتلكها القذافي. فحروب القوة

يحسمها السلاح والعدة، نعم كان من الممكن أن يذبح نصف الشعب يعني 3 ملايين ليبي بيد القذافي تحت صمت عربي أولاً، ودولي ثانياً كما يحدث الآن في البحرين من فضائع كبرى على أيدي القوات السعودية التي تسللت إلى البحرين. وكان من الممكن أن يتحول المشهد إلى ما كان يحدث فيما قبل في العراق في انتفاضة 1991 عندما هاجمت القوات العراقية بشراسة منقطعة النظير الثوار في العراق والجنوب خصوصاً أمام مرأى ومسمع من قوات التحالف الأمريكية، وتمكنت من أن تبيد ما لا يقل عن نصف مليون عراقي دفنتهم في مقابر جماعية تم اكتشافها تباعاً ما بعد عام 2003. أو في مذابح سربينستا البوسنية في عام 1993 على يد الصرب.

القوة ليست هي الخيار المطلوب من الجماهير، وثقافة السلم قد تعمل في شعب ولكنها أسلوب فاشل في شعب آخر، فعندما يواجه الشعب شخصية سفاكة قاتلة مستحلة لا ترعى ذمة ولا أخلاق أو مبادئ فإنه لمن الصعوبة أن يتمسك الشعب بخيار السلم فقط، بل عليه أن يتدرع بالقوة كحل آخر بديل للحل السلمي. فليبيا تشابه في واقعها عمليات تحرير البوسنة والهرسك التي استمرت من عام 1992 إلى عام 1995 والتي تدخلت الولايات المتحدة بصورة مباشرة في دك أركان النظام اليوغسلافي السابق بقيادة سلوبودان ميلوشيفيتش[1] من خلال مشاركة حلف شمال الأطلسي بعد ارتكاب مذابح هائلة من قبل القوات

(1) الرئيس اليوغسلافي السابق ألقي القبض عليه ثم قدم إلى محكمة الجنايات في لاهاي، بعدها تم العثور عليه ميتاً في زنزانته في عام 2006.

الصربية المتشددة بقيادة كارافان كاراديتش (لازال في محكمة لاهاي) قدّرت الأمم المتحدة أن عدد الضحايا من المسلمين فقط هم 300 ألف مسلم مع مذابح يندى لها جبين الإنسانية أشهرها مذبحة سربينستا[1].

وقد تكرر الأمر ما بين الصرب (الارثوذوكس) وبين مسلمي كوسوفو منذ عام 1999 بعد أن تدخلت الولايات المتحدة إلى جانب المسلمين لمنع مذابح كبرى يقوم بها الصرب المتشددين من خلال توفير غطاء جوي وغطاء سياسي استمر 78 يوماً من القصف المستمر الذي انتهى أخيراً باستقلال الإقليم في عام 2008[2]. وربما وجدنا

(1) مجزرة شهدتها البوسنة والهرسك عام 1995 على أيدي القوات الصربية وراح ضحيتها حوالي (8) آلاف شخص ونزح عشرات الآلاف من المدنيين المسلمين من المنطقة. تعتبر هذه المجزرة من أفظع المجازر الجماعية التي شهدتها القارة الأوروبية منذ الحرب العالمية الثانية. تم قتل واغتصاب الكثير من المسلمات حتى الموت تحت مرأى من القوات الهولندية التي كانت مُكلفة بحماية المدنيين بالمدينة، وقد اتهم كثير من الناجين من المذبحة القوات الهولندية بتسليم من فر من المدنيين لها إلى الصرب ليتم قتلهم لاحقًا. أقرا المواقع:
http://www.amnesty.org/ar/news-and-updates/report/women-raped-during-bosnia-herzegovina-conflict-waiting-justice-20090930.

(2) بعد الحرب العالمية الثانية وتحديداً عام 1946 ضم إقليم كوسوفا إلى يوغوسلافيا الاتحادية، وفي عهد الرئيس جوزيف بروز تيتو ووفق دستور 1947 عاشت كوسوفو حكماً ذاتيا ضمن إطار اتحاد الجمهوريات اليوغوسلافية إلى أواخر السبعينيات من القرن العشرين. في عام 1989 ألغى الرئيس الصربي سلوبودان ميلوشيفيتش الحكم الذاتي الذي كان يتمتع به ألبان كوسوفا وحَكَم الإقليم بالحديد والنار، مستخدماً أساليب بوليسية وقمعية عنيفة. نظم أهالي كوسوفو أنفسهم لمواجهة الاضطهاد الذي يتعرضون له بعد إلغاء الحكم الذاتي واتخذ تنظيمهم طابعاً قومياً أكثر منه دينياً =

ذلك قد تكرر في العراق ما بعد عام 1991 وبعد أن تمكن صدام من استعادة سيطرته على العراق والذي كان يأمل أن تتمكن قواته من الزحف إلى إقليم كردستان لارتكاب مذابح كبرى في الشعب الكردي الذي هرب كله إلى الجبال باتجاه إيران وتركيا مما استدعى قوات التحالف إلى فرض غطاء جوي على تلك المنطقة بالذات لمنع صدام من إبادة الشعب الكردي[1].

= بقيادة الأديب والأستاذ الجامعي إبراهيم روغوفا، وكان يتخذ من النضال السياسي السلمي منهجاً له، في يوليو 1990 أجرى أهالي كوسوفو استفتاءاً عاماً كانت نتيجته معبرة عن رغبة الغالبية العظمى في الانفصال عن صربيا. في الرابع والعشرين من مايو عام 1992 انتخب الألبان إبراهيم روغوفا رئيساً لجمهوريتهم التي أطلقوا عليها اسم جمهورية كوسوفو ولم تعترف بها صربيا. حاول إبراهيم روغوفا المعروف بنهجه السلمي كسب تعاطف المجتمع الدولي ونيل اعترافه بجمهورية كوسوفو لكنه لم ينجح، فكون الشباب الألباني خلايا عسكرية سموها جيش تحرير كوسوفو. كان عام 1998 هو العام الذي لفت أنظار العالم بقوة إلى خطورة الأوضاع في كوسوفو حيث دخل جيش تحرير كوسوفو في صراع مع الجيش الصربي فارتكب الأخير مجازر وحشية ضد المدنيين الألبان مما أجبر المجتمع الدولي على التحرك. في مارس 1999، شن حلف شمال الأطلسي غارات جوية على صربيا ما أرغم ميلوشيفيتش على الانسحاب من كوسوفو وفقدت بلغراد السيطرة الفعلية على الإقليم الذي وضع تحت حماية الأمم المتحدة والحلف الأطلسي الذي ينشر نحو 17 ألف عسكري فيه. أنظر الموقع التالي:
http://en.wikipedia.org/wiki/Kosovo.

(1) بعد انتهاء حرب الخليج الثانية عام 1991 م فرضت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا حظراً جوياً داخل العراق فيما عُرِف بمناطق الحظر الجوي شمالي العراق (وليس جنوبه) لحماية الأكراد فقط. وانسحبت فرنسا عام 1996. واستندت هذه الدول إلى القرار رقم 688 والصادر عن مجلس الأمن أبريل 1991، مع أنه لا ينص على فرض الحظر الجوي، ويتعلق بالأكراد، شمالي العراق فقط، ويطالب العراق بالكف عن ملاحقتهم واحترام حقوق الإنسان... إلخ. أصرت الولايات =

وهنا نجد أن ثقافات السلم الموزعة بين دول العالم تقترب في عملها المبدئي بالرغم من ابتعادها عقائدياً أو دينياً أو قومياً. وهذا المفهوم هو من المفاهيم المهمة التي دعت إليه الأمم المتحدة والتي نرى تفعيلها مستمراً في مواقع كثيرة في العالم. فالدول الغربية التي تدعو سياستها إلى تغيير السلطات الحاكمة بالوسائل السلمية فقط ترى لزاماً عليها وهي تعيش أحداث ليبيا في ضرورة المبادرة إلى مد يد المساعدة إلى قوة يمتلكها القذافي أمام شعب أراد التغيير باستعمال الأسلوب الشعبي السلمي وهو جانب مهم من جوانب الاقتراب الفكري الثقافي وتجاوزه للكثير من التبعات الإيديولوجية الدينية والعقائدية.

فقد قاد البوسنيون والكوسوفيون مسيرتهم السلمية ضد الصرب ذو الثقافة التي تمتلك قدرات القوة والعنف وهم بقايا الدولة الرومانية

= المتحدة والمملكة المتحدة على أن الطلعات الجوية لمراقبة المنطقة تعتبر شرعية وتستند على قانون مجلس الأمن الدولي رقم 688، في 5 أبريل 1991 والذي يشجب فيه مجلس الأمن (عمليات الاضطهاد) التي تمارسها الحكومة العراقية ضد المدنيين في بعض مناطق العراق. كانت لمنطقة حظر الطيران دوراً رئيساً في قيام الأكراد في الشمال بإجراء انتخابات محلية وتشكيل برلمان وإقامة كيان أطلقوا عليه اسم إقليم كردستان العراق والذي كان أشبه بالكيان المنفصل أو المستقل عن العراق. امتدت منطقة الحظر شمالاً من خط العرض 36 وجنوباً حتى خط العرض 32، وفي أواخر عام 1996 م تم توسيع منطقة الحظر الشمالية إلى خط 33 والذي كان أقرب إلى حدود العاصمة بغداد. وأتى هذا التوسيع بعد دخول وحدات من الجيش العراقي محافظة أربيل التي كانت واقعة ضمن منطقة الحظر لحسم نزاع داخلي بين الأكراد.

http://en.wikipedia.org/wiki/No-fly_zone.

الشرقية التي تخلت عن اسطنبول، وهم ممن وقع تحت سيف الحكم التركي، فكانت ردت فعلهم كبيرة إلى الدرجة التي تمكنت تلك المقولات التاريخية من أن تحوّل الصربي إلى شخصية عنيفة ضد ابن قوميته الذي يختلف معه في توجهه الوطني.

ومع أن المسلمين البوسنيين والكروات والكوسوفيين هم بالأصل شعب أوروبي تحوّل بفعل القوة والاضطهاد العثماني إلى مسلم بسبب الاحتلال وعدم ترك خيار آخر له في اعتقاده، فإنه في واقعه ليس له من رغبة في اعتناق الإسلام الذي أدى به إلى هذه الحالة من العنف مع الآخرين، ولذلك تجده يعتبر الاسم قومية وليس دين وعقيدة، والتي على أساسها اعتبرت الأمم المتحدة بأن المسلمين في كوسوفو وفي البوسنة هم قومية والتي على أساسها تم الاعتراف بكيانهم على شكل دولة، فالدين لا يعتبر جامع للدولة في أن تقام الكيانات على أساسه.

فبقي الكوسوفيون والبوسينيون والكروات عبارة عن شعوب تمتلك الثقافة المسيحية والتي هي ثقافة تسامح بدلاً من ثقافة التسنن التي كان العثمانيون يحملونها في احتلالهم لبلدان أوروبا التي تتميز بالعنف والقتال والعصبية. وهكذا تراهم قد انسجموا مع المجتمع الأوروبي بشكل أقرب من انسجامهم مع المجتمعات العربية أو الإسلامية التي تتميز عموماً بثقافة العنف والشدة والعصبية التي استورثتها من بقايا ثقافات الأمويين والاشاعرة وقريش التي تميل إلى القتل والسطوة والحيازة.

وهنا نرى بأن تلك الثقافة التي تحلى بها شعب البلقان المسلم هو

الذي دفع العالم الديمقراطي والولايات المتحدة إلى تفهم واقعهم ونصرتهم في ساعات المحنة من خلال الغطاء الجوي الذي مارسته قوات الحلف في منع الصرب من إبادتهم.

ولعل مأساة الصرب اليوغسلاف لا يختلف عن مأساة كل الشعوب التي تعاني من حكم ديكتاتوري عندما تم تحويل ثقافتهم الدينية السلمية إلى ثقافة عنف بعد أن صاروا ضمن منظومة الستار الحديدي في المعسكر الاشتراكي منذ عام 1945 فتحول إلى شعب يؤمن بسياسة العنف بسبب الحالة السياسية المشابهة لواقع الشعب الليبي الذي فرضت عليه ثقافة العنف من قبل النظام.

ولكن الصرب أنفسهم أولئك الذين كانوا يتمسكون بثقافة القتل تغيّروا خلال الفترة ما بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وانعتاقهم من ثقافته التي تدعو إلى العصبية والإيديولوجية المتشددة إلى أن صارت اليوم صربيا وبقيّة الدول والشعوب المتشددة المنتمية إلى الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية إلى شعوب تميل إلى السلم وإلى المعايشة وتحمّل الآخر. كما نلاحظ ذلك اليوم في المجر وبلغاريا وألمانيا الشرقية وبقيّة الدول التي انعتقت من السلطان السوفيتي.

تماماً تنطبق حالة مسلمي البلقان على الواقع الليبي في شكل تقارب ثقافة الشعب مع الشعوب الغربية التي تؤمن بسياسة السلم في التغيير السياسي والاجتماعي. فالولايات المتحدة وأوروبا ليس لهما قدرة على أن تتدخل في ظروف التغيرات الاجتماعية السلمية والصراع على مستوى البرلمان أو الأحزاب ولكنها تجدها تستعمل أقصى قوتها

عندما تكون حياة الثقافة السلمية على المحك[1]. فسياسة الغرب لا تؤمن بغير الحل السلمي طريقاً للتغيير، وذلك من خلال الضغط على الحكومات في أن تسلك ذلك الطريق. وكما نعلم بأن الثقافة الغربية هي ثقافة مسيحية، تلك الثقافة التي مرت بعصور متعددة من التغيير إلى أن استقر بها الحال في تبني سياسة التسامح وخصوصاً بعد عصر التنوير الذي اجتاح أوروبا ما بعد الثورة الفرنسية عام 1789 وبعد أن ابتلي العالم بحربين عالميتين وبالتحديد بعد سقوط المعسكر الشرقي.

فالدول تميل إلى السلم في حل مشاكلها من خلال التوثيق والمحاكم والرأي الدولي. فهذه الصين ليس هنالك من يقول في عدم قدرتها على إرجاع (تايوان) فهي دولة عالمية عملاقة هائلة، ولكنها لا تستعمل أسلوب العنف ما لم تبادر تايوان نفسها إلى ذلك، ونفس الشيء استعملته الصين مع (هونك كونك) في استعادتها من بريطانيا بعد 156 عاماً[2]. كذلك تجد الكثير من مناطق النزاع التي تنشب الآن في العالم والتي تتمكن الدول ذات الثقافة السلمية إلى حلها بطريقة سلمية بعيدة عن العنف.

---

(1) يتبادر إلى ذهني ما يفكر به القارئ العربي في مقارنة ما أتكلم به على الواقع الإسرائيلي وكذلك الواقع البحريني ولكنني أعد كل القراء بأنني سوف أناقش الموضوع عندما نأتي إلى فصل طرح مشكلة ثورة البحرين في الفصل القادم.

(2) احتلت بريطانيا هونك كونك من الصين بعد حرب الأفيون الأولى عام 1841 ثم اليابان أثناء الحرب العالمية الثانية بعدها عادت إلى بريطانيا إلى أن تم استقلالها بمفاوضات مع بريطانيا على شرط أن يكون لها حكمها الذاتي المستقل عن سياسة الصين في عام 1997.

وهنا نرى بأن الاقتراب بالمفاهيم السلمية هو الذي دفع الغرب إلى مساعدة الثوار الليبيين عسكرياً، مع أن البعض يعتقد بأن السبب في ذلك هو مواقف القذافي السابقة المعادية للغرب، بالتأكيد كان لذلك من أثر، ولكنه ليس هو الدافع الأساسي للمساعدة الغربية للشعب الليبي، وإنما أصل فلسفة المساعدة هو التوجه السلمي للشعب الليبي والتقاؤه مع ثقافة الغرب السلمية في حل النزاعات، وهذا الموقف هو ذاته الذي دفع الغرب في الوقوف إلى جانب الشعب العراقي وتحريره من صدام في عام 2003 بعد أن صار واضحاً أنّ ثقافة العراقيين التي تنتمي أصلاً لآل البيت هي ثقافة سلمية لا تؤمن بالعنف في قيادة دولها، وهو ذاته الموقف الذي تبناه الغرب في الوقوف إلى جانب شعب استبيح وهو الشعب الكويتي بعدما تمكن صدام من احتلال أرضه في عام 1990.

فثقافة السلم وتقارب الشعوب هو العنوان الذي تجمع أهداف الشعوب ويبعد الفرقاء ويحوّل العالم إلى كيان واحد يؤمن بالحل السلمي في تناول خلافاته. وهي ذاتها التي أقرتها الأمم المتحدة في مقرراتها في التعامل مع دول العالم.

فقد بنت ليبيا ثقافتها على مدى قرون من الزمن على ركيزتين مهمتين وهما ثقافة التأريخ الموالي لآل البيت وثقافة التميّز الليبي المختلط بمبادئ القبيلة التي اكتسبتها من بقايا تراث البربر الذي كان يطمح في المعايشة مع الواقع بما يمتلكه من قرب في الرغبة إلى توحد اجتماعي على شكل الدولة.

ولم تكن المراقد التي تعود إلى آل بيت الرسول إلّا علامة مميزة

من علامات الثقافة السلمية التي سادت ليبيا من خلال التجمعات الصوفية ومنتمي آل البيت من الأشراف. . . . فقد أدركت قوى العنف أهمية المشاعر المقدسة في إشاعة ثقافة التسامح، ولذلك فقد فجر السلفيون المؤمنون في بلدة زليتن قبر السيد عبد السلام الأسمر[1]، كما أضرموا النار في مكتبة تاريخية في جامع قريب وأحرقوا آلاف الكتب في الساعات الأولى من الهجوم. كذلك الأمر مع ضريح السيد أحمد زروق، الذي ولد في قرية تليوان بالمغرب، ويعد من السادة المالكية ومن أولياء الله الصالحين. تكرر المشهد في طرابلس مع هدم مسجد سيدي الشعاب، ويوجد حوالي 50 مقبرة لصوفيين داخل وخارج مسجد الشعاب، من بينها مقبرة العالم الصوفي الليبي عبد الله الشعاب[2]. وقد استنكر المفتي الليبي وشيخ الأزهر هذه الأعمال وأدانها الشعب الليبي واعتبرها نوعاً من الاستفزاز العقائدي لما يؤمن به الشعب الليبي من سياسة دينية وثقافية.

وبعد التخلص من القذافي صار الصراع بين الثقافتين واضحاً، وكلتاهما الآن تقفان على نقاط التماس. فقد كان القذافي هو الحاجز الذي يفصل الثقافتين أما الآن وبعد زواله فإن ثقافة العنف لها شخصياتها المتمثلة بالقدرات والقوى السلفية الوهابية التي تمتلك

(1) بن سليم الفيتوري الإدريسي الحسني (ت 981 هج) يرجع نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء. مع أنه كان سني المذهب، فهو يعدّ من أهم علماء ودعاة الإسلام في القرن العاشر الهجري، فهو من فقهاء المالكية، وأحد أهم ركائز الحركة العلمية والدعوية في المغرب الإسلامي.

(2) http://arabic.rt.com/news_all_news/news/593176/.

مساندة من السعودية وقطر ومن الكارتيل الديني المنتشر في العالم الإسلامي والباكستان والهند والإمارات وتركيا وغيرها من البلدان التي تسعى جاهدة إلى فرض سيطرتها الثقافية من خلال العنف. وهو الوسيلة الأساسية ولعلها الوحيدة لإثبات الذات في تلك الثقافات، والتي استورثتها تاريخياً منذ قرون خلت، ربما ما قبل الصراع ما بين النبي وبين قريش، بل أنها ترجع إلى نسب هاشم وأمية، مع أن البعض يعتبرها أقدم من ذلك بكثير.

فقد نمت تلك الثقافة على أسس ومبادئ من الصعوبة التخلي عنها، فهي امتداد بعيد المدى يستند على إلغاء الآخر والتخلص من المناوئين ومن المعارضين لفكرة السيطرة. يقود هذه الثقافة في عالم اليوم السعودية التي غالباً ما تتحالف مع أي قوة ترمي إلى العنف بطريقة أو بأخرى[1]، فقد كانت تلك الثقافة في زمن القذافي تعيش في رحم

(1) بثت محطة (اقرأ) (المملوكة إلى الوليد بن طلال) برنامجاً تلفزيونياً لمدة ساعة حول الأباضية، وتبارى العلماء المشاركون من بينهم عالم جزائري متشدد في اتهام أتباع هذه الطائفة بالكفر والخروج عن الملة والأمة، وأنهم خوارج، واستعان أحدهم بأحاديث قال أنها تبيح إزهاق أرواحهم واستباحة أعراضهم. وذلك على أثر مظاهرات انطلقت بتأريخ فبراير 2004 في مدينة غرادية الجزائرية التي تقع في قلب الصحراء الجنوبية التي ينتمي سكانها إلى المذهب الأباضي رداً على سوء الحالة المعاشية للسكان.. وقد استاءت عمان غاية الاستياء من تصرفات السعودية الطائفية، وقد أرسلت يوسف بن علي للاحتجاج على الأمر. راجع التفاصيل في:
http://www.raialyoum.com/?p=66320.
البرنامج أعيد بثه في 17 آذار عبر القناة نفسها، مما أشعل فتيل الصدامات مجدداً في غرادية، وبدأت بعدها الاحتجاجات والاتصالات لتطويق الأزمة ولجم قناة (اقرأ) وسط تكتم شديد عليها ونتائجها.

القدرة التي يمتلكها النظام بطريقة أو بأخرى، كما أن لها القدرة على تغيير ثوبها بالطريقة التي تتناسب مع الواقع، فما دام هنالك عنف فهي تبقى في الظل تنتظر اللحظة التي تنتفض أو تتحرك متى ما تحركت ثقافة السلم لتنتشر في المجتمعات. وكأنّ الأمر هو أمر توازني طبيعي ما بين الجهتين كما هي التوازنات في الظواهر الطبيعية الأخرى التي نعيشها.

لم يتمكن الليبيون من أن يتخلصوا من ثقافة العنف في وقت قصير مادامت هنالك أرضية مناسبة لهذا النوع من الثقافة، وأهمها هو الضعف الفكري للأمة وعدم القدرة على التمييز والرؤية الواضحة ضمن برقع الدين، فالدين يوفر حالة من التستر من الصعوبة على أفراد المجتمع من أن يميّزوا بين العنف أو بين أدوات الشيطان وبين الحق[1]. كما هي ظاهرة الغبش التي تصيب الطبيب في تمييز الخلايا السرطانية التي تهاجم الجسم عن الخلايا العادية، ما لم يتم الاستعانة بفحوص دقيقة ومختبرات متطورة لعل ذلك يساعد في التشخيص الدقيق لتمييز الخلية السرطانية عن الخلية العادية[2]. وخصوصاً في غياب العلامات الواضحة في التمييز.

فقد تمكنت ثقافة العنف بقدراتها أن تخرج من نطاق الأسلوب القديم من أساليب محاربة ثقافة السلم، فكانت تحاربه بالأفكار اليسارية أو الإلحادية أو ما شابه حتى إذا ما تم تمييز ضلالة تلك

---

(1) ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: 16-17].

(2) في دعاء مرو: اللهم أرنا الحق حقاً والباطل باطلاً، ولا تجعله علينا متشابهاً فنتبع الهوى بغير هدىً منك.

الأفكار كانت تلك القوى قد توصلت إلى أن تتبرقع ببرقع الدين في سبيل نشر ثقافة العنف وثقافة القتل التي يستدلونها من خلال أحاديث وآيات يصطنعونها لتضليل المجتمع في سبيل خلط الحق بالباطل.

وتمر ليبيا الآن في حالة من الغبش الفكري ليس لها من قدرة على أن ترى بوضوح الحالة كما هي، وهي ستدخل في نفق آخر لا يقل خطورة عن النفق الذي سارت به فيما قبل سيطرة القذافي خلال 43 سنة حتى نضجت الثورة، نفس الفترة ستتطلبها دورة السُنّة التاريخية من حين أن تسقط البلاد في دوامة قوى العنف إلى حين حدوث انتفاضة ثانية. وهي تحتاج إلى نصف قرن آخر من الزمن للتخلص من تلك الثقافة. فإصابة الجسم بالسرطان وانتشاره ربما لا يحتاج أكثر من سنة أو سنتين ولكن التخلص من المرض قد يأخذ سنين بل عقود وربما تتكلل بالنجاح أو تفشل في التخلص من ذلك المرض، ذات الدورة الآن هي ما تحاول بها الورقة السلفية استعمالها التي انبلجت في ليل مظلم لكي تحطم الثورة التي لازالت فتية، والتي تتجه إلى بناء وطن تسوده كرامة المواطن وحريته. وهنا لم يكن أمام الليبيين إلّا إشاعة مفاهيم الحرية والديمقراطية والثقافة ومعرفة الدين بصورة أوسع مما قد وصلنا.

طاقة الثورات السلمية الكامنة: فالثورة عبارة عن حدث طبيعي يسير بقدرة داخلية كبرى (مع توفر مستلزماته)، وهذه القدرة شبيهة لأية طاقة من طاقات الطبيعة، يتوجب توجيهها وترشيدها نحو هدف محدد، وبعدم توفر ذلك فإن الطاقة تتحول إلى ضرر على الإنسان. . . . ولكي نقرّب المعنى إلى ذهن الإنسان، نمثل ذلك بطاقة الحرارة مثلاً التي من

الممكن أن تقدم خدمة إلى البشرية كبيرة وكذلك من الممكن لها أن تتحول إلى قدرة فناء لذلك الإنسان.

فالثورة الليبية أو أي ثورة انطلقت بعد أن حتّمت الحسابات التاريخية والمستلزمات المنطقية أسبابها لكي تتحول إلى حادثة تحريرية لتلك الطاقة، ولو لم تنطلق الثورة الليبية في ذلك الوقت لارتفع مستوى العنف السلطوي إلى درجة أكبر من مستواه الذي كان عليه، ذلك العنف هو أيضاً طاقة، ولكنها طاقة ذو توجيه آخر مختلف عن توجيه طاقة الثورة.

انطلاقة الثورة كان لها أن يرافقه عاملان مهمان وهما عامل الإنسان وعامل العقل، الإنسان يقرر شكل التوجيه (الكمية Quantitative)، والعقل يقرر (النوعية Qualitative) التوجيه، فعنف الثورة الليبية كان كما ذكرنا مشابه لعنف الدولة وسطوتها، فبالتأكيد يجب أن تكون عنيفة كما هو حجم عامل المنع الذي كان قبل انطلاقها. وهنا نرى بأن عامل الإنسان قد تم فعله في الثورة الليبية، ولكن عامل العقل قد تم افتقاده بسبب العجز عن قدرة استعمال العقل في الاعتقاد بأن الثورة ذات مسيرة ذاتية تقف فيما تقف أمامها حيطان الصد، ومع أن ذلك يبدو صحيحاً لحد ما، ولكنه غير صحيح بالمنطوق التاريخي الثوري.

الثورة الليبية وبسب افتقاد العامل الثاني تسير الآن باتجاه سلبي في تحطيم المجتمع من خلال افتقاد النوعية في التوجيه. وكما يقال بأنها تأكل نفسها، وهو الأمر الحاصل اليوم، والتي لم يحن بعد للثورة اليمنية. . . . فالثورات إما أن تنضج طبيعياً أو تنضج بعوامل خارجية

كمن يعطي سماداً لنبات من أجل تسريع نموه، مع الإدراك المسبق في اختلاف الناتجين من حيث النوعية.

فالصورة الليبية والتغيير العراقي في عام 2003 كانا نتاج عملية (سمادية) غير طبيعية في إنضاج الثورة، وهذا في الحقيقة ينطبق على كل قضايا يتم فيها استعمال السلاح (السماد Fertilizer) أو العنف أو عامل القتل من قبل الإنسان لأخيه الإنسان، وكأنها سُنّة طبيعية في أن تلك السنة لن تكتمل بتطبيق أسلوب إبادة المخلوق الذي كرمه الله وهو الإنسان مهما كانت التوجهات العقائدية لذلك الإنسان. وهذا معناه بأن على الإنسان الليبي أو العراقي أن يعاني من ذات الفترة الزمنية التي اختزلها باستعمال السماد (السلاح) في تنضيج الثورة، ما لم يبادر ذلك الإنسان أو الشعب وبشكل سريع على تغيير مضني وبسرعة فائقة لعقلية الشعب نحو مطالب الخير وقواعد علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان.

فقد عانى العراق[1] ولازال يعاني من مشاكل كبرى وجمة وستبقى ربما لأكثر من ربع قرن من الزمن لأنه اعتقد بأنه باختزاله عامل وقت الثورة والتغيير من خلال عامل استعمال السلاح سيوفر له جهود كبيرة في انتظار الفرصة التاريخية المقررة له في ولادة الثورة، وهذا هو طبع الإنسان، الذي لا يمكن له من رؤية مسيرة السنة التاريخية والمسيرة الإنسانية.

(1) أقصد من ذلك التدخل الأجنبي في التحرير في عام 2003، مع أنني كنت من الداعين إلى التخلص من نظام ومن شخص سادي من الصعب جداً التعامل معه أو الاقتراب منه.

فقد يحدثنا التأريخ عن أحد أئمة آل البيت وهو علي الرضا (ت 203) عندما تنازل له حاكم ذلك العصر وهو الشخصية الكبرى المعروفة المأمون (ت 218) عن الحكم بعد أن طالبه وبإلحاح تقبل استبداله هو وإعطاء الخلافة للإمام الرضا وذلك بعد أن توصل عقلياً إلى أن الخلافة هي ليست شرعية[1] بل أن شرعيتها تكتسب فقط من خلال آل بيت النبي من سلالة علي وفاطمة وهم المنصوص عليهم من قبل النبي. ولكن المفاجئة في أن الرضا رفض الأمر، ودفع حياته ثمناً لذلك الرفض عندما قتله المأمون أو بنو العباس بسبب ذلك الرفض. وليس من العسير لنا أن نتفهم السبب الحضاري الثقافي لذلك الرفض في القول بأن التغيير الاجتماعي والثورة هو سُنّة لها عمرها بتوفر آلياتها، وتسريعها أو تأخيرها يؤدي إلى عنف مستشرٍ. فالمجتمع آنذاك

(1) لا نستغرب موقف المأمون قبل تقريباً أربعة عشر قرناً من تأريخ اليوم عندما قرر غورباتشوف في منتصف الثمانينيات الزعيم السوفيتي وبأدلة علمية وعقلية خطأ التركيبة السوفيتية في إذلال الشعوب وفرض منطق القوة والدخول في احتمالات حروب كبرى ضحاياها بالملايين، فبادر إلى تفكيك تلك المنظومة الضخمة بأسلحتها وقدراتها رسمياً في عام 1991 إلى أن وجد نفسه خارج السلطة كرمز من رموز حفظ مبدأ الانسان. وقبيل انهيار الاتحاد السوفييتي بقليل قام عدد من كبار المسؤولين بالانقلاب على سلطة غورباتشوف بهدف إعادة الاتحاد السوفييتي نحو النظام الشمولي المركزي، والتخلص من البريسترويكا التي أقامها غورباتشوف، قد فقدت الجماهير الإيمان بالاتحاد السوفيتي بسبب الانهيار الاقتصادي الشامل. وبانهيار الاتحاد السوفييتي أسدل الستار على أول تجربة لنظام اشتراكي يقوم على أفكار ماركس وإنجلز ولينين. ويبقى الجدل لغاية اليوم: هل كان السبب في انهيار الاتحاد السوفييتي خلل في النظرية الاشتراكية ذاتها أم هو خلل في التطبيق....؟. أنظر الموقع التالي ومواقع أخرى: http://en.wikipedia.org/wiki/Dissolution_of_the_Soviet_Union.

لم يكن مهيأ ثقافياً أو فكرياً لخطوة من هذا القبيل لأسباب لسنا في مجال مناقشتها، كما أن الفكر الإمامي الشيعي لا يمتلك تشريع في جمع السلطتين الدينية والدنيوية في شخصية الإمام[1].

ولو اتخذنا الأمثلة الثلاث أنموذجا لنا في البحث لاستنتجنا بأن الثورة عبارة عن كيان له صفات قريبة من الإنسان في طريقة الولادة طبعاً مع الاختلاف الكبير في منطوق البايولوجيا. فالقوة عامل خطر على مسيرة العقل وعلى مسيرة أمان المجتمع وتنميته، وهو سلاح مع فعاليته، فهو ذو قدرة رد فعلية كبرى لا بد لها من أن تنطلق حسب واقع الزمن وواقع التغيرات.

فالعراق يمر اليوم وفي نهاية عام 2014 في وضع خطر للغاية، فالعنف الاجتماعي وعنف المليشيات وعنف النظام أمر لم تشهده المنطقة ربما لقرون من الزمن لما يتميز بنوعية من القتل لم تألفها البشرية جمعاء[2]، فنوعية قتل المدنيين أكبر من أن يوصف وذلك بسبب الاختلاف العقائدي أو السياسي أو غيرها من اختلافات الاعتقاد. كما تجزأ البلد إلى أقاليم متصارعة في ظل حالة من الوحشية في الانتقام كل طرف من الآخر، مع انتشار عصابات كبرى مهمتها القتل إلى أن دخلت في شهر حزيران عصابات داعش الإجرامية التي هي امتداد تأريخي لحالة العنف الكبير الذي يسود العراق.

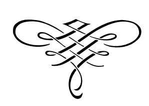
في ليبيا ليس هنالك من أمل في أن تتوقف مسيرة العنف الجارية

(1) نظام الحكم في الإسلام، محمد مهدي شمس الدين.

(2) http://www.hrw.org/en.

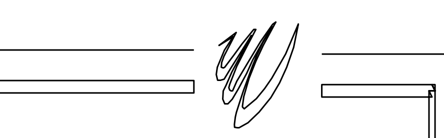
منذ أيام انتصار الثورة ما لم تتغير (النوعية) في توجيه القوة (الثورة)، وهذا من الصعب له أن يحصل ما لم يتمكن المجتمع (بأكمله) من أن يدرك أهمية السلم الاجتماعي، فهنالك الجزء المثبط من السُنّة التاريخية في إيقاف امتداد الثورة السلبية، كما هي الهرمونات البشرية التي تحوي نوعين من التركيبات أحدهما للفعل والآخر لإيقاف الفعل. فإيقاف فعل العنف أو الثورة المستمرة أمر يتعلق بواقع الفكر (السلفي) التاريخي الذي هو عنصر مهم من عناصر استمرار العنف.

فلو كانت الثورة الروسية السلمية التي خرجت من رحم الاتحاد السوفيتي أن تواجه قدراً (سلفياً) أو أي قدر آخر ذو فلسفة عنف لما تمكنت روسيا من أن تبني نفسها مرة أخرى ولبقيت عبارة عن قطر مترام الأطراف تأكل عملية تواصل الثورة (السلبية) أركانه وإلى اليوم. راجع التقرير[1]. كذلك يرحب بمراجعة التقرير العالمي[2].



(1) الثورة الليبية بعد ثلاث سنوات: تحديات في سبيل المستقبل. د. سيدي أحمد ولد أحمد سالم. مركز الجزيرة للدراسات. 2014.

(2) World Affairs Council Resource Packet: Special Focus on Libya - Understan ding the Arab Spring from the Inside February 29, 2012.



البحرين





المذهب.... والثقافة: للبحرين وضع خاص يتميز بأنه يحمل ظاهرة التشيع مذهباً وثقافة، وهو أمر في غاية التعقيد، وهنا تتأتى الصعوبة في الحديث عنه، لأنه أمر متداخل بعضه في البعض الآخر. فهنالك عوامل مذهبية قد تختلط مع العوامل الثقافية وبالعكس، ومن الصعوبة تفريق هذا عن هذا في حالة اقترابنا من التشخيص أو الدراسة.

ومع ذلك فإننا سنحاول بما استطعنا أن نستخلص مراد نظريتنا التي افترضناها في البداية في أن عامل حركة الربيع العربي هو ثقافة السلم الشيعية، وليس التشيع المذهبي. بلحاظ أن الثقافة الشيعية هي ثقافة آل البيت، أي الرسول الذي بعث إلى العالم أجمع لكي ينشر مبادئ السلام[1] لا مبادئ العنف والحرب على كافة الأصعدة النفسية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية والسياسية. . . . . . فليس هنالك من فاصل أو بداية لثقافة التشيع أو تأريخ من الممكن الركون إليه في تحديد الفترة الزمنية لتلك الثقافة ولذلك فإن الثقافة الشيعية لا تختلف عن

(1) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: 208]، ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: 28].

الثقافة الإسلامية ولا تختلف عن الثقافة العربية ولا تختلف عن الثقافة الإبراهيمية التي كانت ترمي إلى مجتمع السلم ومجتمع الابتعاد عن العنف.

وهنا تنطلق البحرين كرقم صعب في مسيرة الربيع العربي وهو من أكثر الأقطار التي ظُلمت في مسيرة الفهم الواعي لثقافات رفض العنف، فقد اتهمت بشيعيّة التمذهب قبل أن يُطلق عليها شيعية الثقافة، في الوقت الذي لم يدرك العرب أو المسلمون ماذا تعني ثقافة التشيع، فلو كانت مصر على سبيل الفرض شيعية المذهب لما وجدنا هنالك من تعاطف مع ثورتها العظيمة، بسبب البغض المتأصل الطائفي في مسيرة المجتمع الإسلامي الذي نمى وتربى ونشأ ضمن مفاهيم طائفية ضيقة عمياء بعيدة عن منطق العقل ومنطق قيم الإنسان، بينما سبقنا الغرب كثيراً في قدرته على تمييز ثقافات الشعوب، شعوبنا في تمييز ثقافاتها السلمية عن ثقافات العنف والقتل التي تتميز بها الأفكار. . . .

فقد مد الغرب يد المساعدة إلى أكبر جيبين إسلاميين في قلب أوروبا وهما بلقان البوسنة وكرواتيا، وبلقان كوسوفو اللذان يكوّنا تقريباً ستة ملايين مسلم في قلب أوروبا، ولكن الغرب والمسيحية لم تخشى أو ترهب استقلالهما بل اعتبرهما مكمل لثقافة أوروبا المسيحية في السعي نحو ثقافة السلم ونبذ العنف[1]. بدلاً من أن يعتبر كلا الشعبان مكمل لثقافة التسنن المذهبية.

---

(1) بالمقابل نجد أن الوضع التركي لا يزال في تأرجح فيما يتعلق بانضمامها إلى أوروبا، باعتبار أن الثقافة التركية لازالت تعيش ولو كان في أيامها الأخيرة على تناغم مع =

فقد ارتفع الغرب في تفكيره وفي تشخيصه إلى حكم منطق العقل في معرفة الثقافة قبل أن يفكر بالمذهبية السنية أو الشيعية أو غيرها، في الوقت الذي وقف موقفاً مناهضاً إلى الصرب أو الكروات الأرثوذكس الذين يكونون الجزء المكمّل لحضارة المسيحية الدينية الكاثوليكية أو البروتستانتية باعتبار أن الصرب ذاتهم وفي تلك الفترة كانوا يحملون ثقافة العنف بالرغم من التشابه في الدين أو المذهب.

وهنا صار لزاماً على مثقفينا وأدبائنا في أن يمتلكوا قدرة التمييز الفكرية الثقافية وأن يرتفعوا بتصوراتهم ونفوسهم إلى عالم أرحب من عالم المذهب وهو عالم الثقافة. ما أدهشني هو التصرف السعودي في انبراءه إلى تكفير أي حدث ثقافي أو حركة احتجاجية أو قول أو برنامج يشم منه أنه يحمل جزء من ثقافة التشيع المتسامحة السلمية، حتى وإن كان الحدث لا يمس السعودية أو يمس الإسلام أو له علاقة بأي هجوم على الفكر الوهابي أو ما شابه. وهو أمر في غاية الغرابة من دولة تعتبر من أكبر دول المنطقة وأغناها.

فالدعوة إلى فكر ليس معناه تسفيه الآخرين من الأفكار المعارضة، فالعقل الإنساني يتسع لكل أفكار إبداعات الإنسان، فليس هنالك من ضير أن تتزاحم الأفكار على مستوى الصراع الفكري في الندوات والبحوث والقنوات التلفزيونية والإعلامية وغيرها على شرط عدم المساس بالفكر الآخر وتسفيهه وإثارة البغضاء ضد متبعيه لكي يتحول

= ثقافة العنف المتمثلة بالفكر الأشعري، أو الفكر التعصبي الذي لا يمتلك توجهاً ثقافياً تسامحياً، بل يميل إلى عنصر الدين أكثر من ميله إلى الثقافة.

المجتمع إلى أدوات لصراعات لا طائل منها. فإثارت النعرات والأحقاد أمر محرم دولياً سواء أكان في الغرب أو في مقررات الأمم المتحدة، وكذلك في الإسلام لأنه يشحن النفوس ضد إنسان أو مواطن آخر. وقد اعتبرت كل شعارات البغضاء في الغرب (Segregation) أو (Hate) أو ما شابه جريمة يعاقب عليها القانون.

قادت السعودية عملية إجهاض ثورة البحرين بطريقة مختلفة عن إجهاض الثورة اليمنية التي تكلمنا عنها، فكانت الطريقة المتعارف عليها في ثقافة التسنن هو القتل والعنف ولذلك أرسلت فرقة مدججة بالسلاح دخلت البحرين بدون علم مجلس التعاون الخليجي لمهاجمة تظاهرات الشباب الذي كان يطالب بحقوق له في تجمعات سلمية في الساحات أو في الشارع. وقد وضعت هذه الدولة كل طاقاتها الإعلامية من أجل إثارة المقولة التي ترددها بقيّة الدول في أن الحركة البحرينية هي حركة شيعية وليس حركة فكرية[1]، وقد انبرى كذلك لهذه المقولة العالم السني القرضاوي ليقول فيما يخالف اعتقاده في التشريع وفي العدل[2]. ومع أننا هنا لسنا في موضع أن نتحدث عن الثورة وشكلها وتأييدنا لها أم لا، بل أننا نتناول وضع حركة الثورة والدوافع الثقافية التي أدت بها أن تنمو وتنبلج في صبح البحرين.

الخلفية الحضارية: بلاد البحرين هي الجزر الممتدة من العراق

(1) البحرين: معضلة الوطنيّة وتفجير الإثنيّات الطائفيّة. د. سعيد الشهابي على الموقع التالي: http://adabmag.com/node/506

(2) http://classic.aawsat.com/details.asp?section=4&article=613210&issueno=11799#.U7-tAfmSxr0.

شمالاً إلى قطر جنوباً، وظلت الجزر مرتبطة سياسيًا بشكل كبير بباقي بلاد البحرين. حضارة البحرين عمرها يعود لأكثر من 5000 عام عندما كانت مركز حضارة (دلمون)، المسيطرة على الخطوط التجارية بين الحضارة السومرية وحضارة وادي الإندوس (السند).

في القرن الأول الميلادي قدم (نيرخوس) لاكتشافها، تنفيذًا لأمر الإسكندر الأكبر. خضعت لهيمنة الساسانيين في فترة ظهور الإسلام، يحكمها والي من العرب. وكان والي البحرين وقت ظهور الإسلام هو المنذر بن ساوى من بني تميم ومقره مدينة هجر (الإحساء الحالية).

كما كانت مركزاً لكنيسة المشرق إلى أن دخلها الإسلام بعد أن أرسل النبي إليها العلاء الحضرمي السنة السابعة للهجرة. رفضت البحرين تسلط العرب البدو وخصوصاً قريش لما كان يعرف عنهم من انحسار ثقافي فشملهم سيف ما يسمى بحروب الردة فأوقعوا بهم قتلاً وتشريداً.

رحب البحرانيون بالخوارج في ثورتهم بسبب بغضهم لقريش ولبني أمية فأقاموا دولهم إلى حين عهد عبد الملك بن مروان. قاوم البحرينيون القرامطة (فلسفة عنف) بشدة وفي حروب مستمرة بسبب تطرفهم الديني وانفصلوا عنهم ثم تكونت عدة دول إلى أن آل الأمر في أن تدفع مملكة البحرين الجزية إلى دولة هرمز في عام 729 هجرية. بعدها جاءت قبيلة (الجبور) البدوية وسيطرت على القطر وكونت العاصمة المنامة الموجودة حالياً، ثم سيطر البرتغاليون عليها في عام 1521 ميلادية لثمانين عاماً ثم احتلها بعدهم الصفويون إلى عام 1783 م وبقيت تحت حكم إيران غير المباشر لفترة طويلة. في تلك السنة قام

العتوب بقيادة أسرة آل خليفة أهل الزبارة في قطر بهجوم بحري على البحرين وطردوا حاكمها نصر آل مذكور شيخ عرب المطاريش وبقوا فيها وإلى الآن.

بقي آل خليفة يدفعون الجزية لإمارة الدرعية وإمارة مسقط لسنين. . . . . في الدولة السعودية الثانية كان البحرين يدفع الزكاة إلى السعودية إلى أن صارت تحت الحماية البريطانية ثم تحررت في عام 1971 بعد أن جرى استفتاء عام 1970 في تبعيتها إلى إيران أو لا.

بدأت الحياة البرلمانية عام 1973، ولكن سرعان ما تم حل البرلمان بقرار من الأمير الراحل عيسى بن سلمان آل خليفة في العام 1975 وأصبح الملك حمد بن عيسى آل خليفة أميراً على البحرين عام 1999 بعد وفاة والده وأقرّ العفو السياسي عن المعارضين بالإضافة إلى انتهاجه إصلاحات أخرى. عدد النفوس هو 1.3 مليون نسمة، نسبة المسلمين هو 70%[1] يمثل الشيعة (المذهبيين) 70%[2] وهي أعلى نسبة في البلدان العربية[3].

كانت البحرين في العصور التي تلت الجلاء البريطاني تعيش

(1) https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/geos/ba.html.

(2) http://www.pbs.org/wnet/wideangle/episodes/pilgrimage-to-karbala/sunni-and-shia-the-worlds-of-islam/1737/.

(3) هنالك 109، 725 شاب في البحرين، 64% منهم مشترك في شبكات اجتماعية. 97% يملكون هاتفاً نقالاً. 83% لم تحقق طموحاتهم في الدراسة، ويطمحون لمواصلة الدراسة ونيل درجة الماجستير أو الدكتوراه. أنظر المصدر:

http://www.byfs.org/ar/index.php?option=com_content &view=article&id=61:64&catid=33&Itemid=710.

هاجس المدرسة القديمة التي سنّتها السعودية في تخويف الدول الغربية من التشيع المذهبي، في تسويق فكرة أن التشيع قنبلة موقوتة في وجه الحكام على الدوام سواء أكانوا حكام ذو عدل أو حكام تسلط. هذه المدرسة أظهرت خطأ منهجها بعد أحداث سبتمبر 2001، والتي تبيّن أن التشيع هو الأقرب إلى المجتمع السلمي وإلى الحياة المدنية منه إلى بقيّة المدارس الفكرية الإسلامية، فهو مدرسة من مدارس الدين لا ترمي بأي حال من الأحوال في الاتكاء على السياسة في تحقيق طموحات المذهب.

إحياء فكرة المرتزقة مجدداً: في تلك الفترة اهتمت بريطانيا في أن تجهز البحرين بنظام مخابراتي قاس يقوده ضابط بريطاني (إيان هندرسون) (ت 2013)[1] يدير أمور الجهاز القمعي البحريني، خلال فترة قاسية من الاضطهاد للشيعة البحرينيين بحجة الانتماء إلى إيران أو بحجة المعارضة. وقد بقيت هذه الحالة إلى حين قيام الثورة الإسلامية

(1) ولد إيان هندرسون في اسكتلندا، وعاش معظم حياته ضابط شرطة للمستعمرات البريطانية في الخارج. وعمل ضابط شرطة في كينيا أثناء الاستعمار البريطاني العام 1950، وفي العام 1954 تم منحه (وسام جورج) من قبل الحكومة البريطانية، وهي أعلى جائزة تمنح لغير العسكريين لدوره في قمع انتفاضة (الماوماو) في كينيا. غادر هندرسون كينيا في العام 1965، وذلك بعد استقلالها عن بريطانيا وجاء إلى البحرين ليعمل في الأجهزة الأمنية، حيث تقلد منصب رئيس جهاز مباحث أمن الدولة في البحرين لما يقرب من 30 عاماً. عاصر هندرسون من خلال عمله في جهاز الأمن الحركات السياسيّة في البحرين منذ ستينيات القرن الماضي لغاية التسعينيات، وأدار سلسلة من الحوارات في السجن مع قادة المعارضة في العام 1995 إبّان أحداث تسعينيات القرن الماضي. . أنظر الوسط:
http://www.alwasatnews.com/3873/news/read/764204/1.html

في إيران عام 1979 فاشتدت الحالة، ثم بعدها خفت بسبب حالة الوطنية التي كان البحرينيون الشيعة يمارسونها في علاقتهم مع الدولة.

لم تتغير الحالة الاجتماعية في تهميش الأكثرية الشيعية، بل مارست السلطات واقع قمعي يعتبر من أعتى ما كان موجود في المنطقة بعد السعودية، فقد غُيّب الكثير من البحرينيين وقتل العديد ثم هاجر الكثير من الشباب المثقف. بعدها أقدمت السلطات على عمليات طرد الشيعة واستبدالهم بجنسيات أخرى مثل الأردنيين والسودانيين والباكستانيين والهنود وغيرها من الجنسيات، وصار أمام السلطة أن تفرّغ البحرين من الشيعة بطريقة أو بأخرى (Ethnic Cleansing)[1] وهي عملية محكوم عليها عالمياً من كبرى الجرائم ضد الإنسانية. . . . . عندها ثارت البحرين في ثورة عارمة (التسعينية) بدأت منذ عام 1994 إلى سنة 2001 بعد أن رفعت القوى الوطنية التي كانت بإمرة الشيخ الجمري مذكرة بتفعيل الدستور المعلق منذ 26 أغسطس 1975 وعودة الحياة النيابية[2]، وجاء الرد من قبل الشيخ عيسى بالرفض[3].

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Ethnic_cleansing.

(2) نص الخطاب بإيجاز: إننا الموقعون أدناه نرفع إلى سموكم هذا الخطاب انطلاقاً من مسؤوليتنا كمسلمين ومواطنين، ومن حقوقنا المشروعة كمحكومين واستناداً إلى نص المادة رقم (29) من الدستور التي تقضي بأن: لكل فرد أن يخاطب السلطات العامة وبتوقيعه. باعتبار سموكم رأس الدولة وطبقاً لنص المادة (23) فقرة (أ) من الدستور، مطالبين سموكم بإصدار الأمر لإجراء الانتخابات للمجلس الوطني عملاً بما ورد من تنظيم له في الفصل الثاني من الباب الرابع من الدستور.

(3) لا تفكير حالياً في عودة المجلس الوطني. . . إننا أمام تجربة جديدة للشورى. في 20 =

منعت السلطات البحرينية الشيخ الجمري من الخطابة وهددته بالإبعاد عن البحرين. هاجمت قوات البوليس ومعظمهم من المرتزقة الأجانب مظاهرة سلمية كانت قد انطلقت في العاصمة وقتلت منهم بالرصاص الحي عشرين شخصاً. . . . .

بعدها وخلال مدة أكثر من ثلاث سنوات حاولت السلطات البحرينية أن تفصل الملف الديني عن الملف الوطني كمبادرة لامتصاص النقمة وتشذيب المعارضة، فقام وزير الداخلية الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة ومدير الأمن العام أيان هندرسون ومسؤول جهاز الأمن والاستخبارات العقيد عادل فليفل بعقد عدة اجتماعات لفصل المعارضة العالمية الناشبة في لندن وفي لبنان وفي إيران عن المعارضة الداخلية، ولكنها لم تتمكن بل بقيت المسيرة سلمية بعيدة عن العنف يقودها الشباب البحريني المثقف عموماً. ولكن السلطات قامت باعتقال 150 ناشطاً منهم الجمري، ثم عادت وأطلقت سراحهم بعد تظاهرات كبرى في أنحاء العالم وضغط الدول الغربية. . . . . بادرت السلطة إلى إشراك 5 وزراء شيعة في الحكومة ثم استبدال هندرسون بالشيخ خليفة.

في عام 1996 تم محاكمة وإعدام المواطن عيسى قنبر 28 سنة بالإضافة إلى وفاة ستين قتيلاً إما برصاص عناصر الأمن أو تحت التعذيب.

= ديسمبر 1992، أصدر الأمير أمره الأميري رقم (9) الذي يقضي بقيام مجلس الشورى، يعين هو أعضاءه، وعددهم 30 عضواً.

وفي مارس 1998 توفى الشيخ عيسى ليخلفه ابنه الشيخ حمد الذي بدأ عهده بإجراءات قاسية وضغوط أمنية وتوقيعات على الإعدامات، راجع تفاصيل انتفاضة التسعينية[1].

الوجودات الثقافية البحرينية: لا نتكلم هنا عن التنظيمات السياسية أو العرقية أو الاجتماعية، وإنما نتناول التوجهات الثقافية التي تلتزم مصطلحي العنف والسلم وتوجهاتها وارتباطات بعضها مع البعض الآخر تبعاً لذينك المفهومين أو ما يقاربه. . هنا مع الصعوبة تحديد دقة التوجه وشفافية التصريحات، أو أدبيات التجمعات التي غالباً ما تتردد في إعلان موقفها فيما يخص العنف أو السلم، بل أحيانا تدعي إحداهما منحاً ثقافياً ولكنه في الواقع يحمل العكس، ولكن عموما فإننا سوف نحاول جاهدين تقييم الأمر بما وصلنا وبما له علاقة بطريقة تأريخها وسلوكها في تلك الفترة أو فيما قبلها من أدبيات:

التركيبة البحرينية هي ما يلي:

- ***ثقافة النظام:*** وتتكون من كل الأجهزة الكبيرة الأمنية والإعلامية والعائلية والعلاقات الدولية والارتباطات الاقتصادية، وهي تبدو للظاهر بأنها ترمي إلى السلم والاستقرار، ولكنها في الواقع حكومة تتميز بقدرة كبيرة متمرسة على العنف المسمى (عنف أو إرهاب الدولة)[2]. هذا المكون الثقافي نقطة ضعفها هو الصحافة

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/1990s_uprising_in_Bahrain.

(2) تعرف الموسوعة البريطانية على الإنترنت الإرهاب عموماً على أنه (الاستخدام المنتظم للعنف لخلق مناخ عام من الخوف في عدد السكان، ومن ثم تحقيق هدف سياسي =

والرأي العام العالمي. يمسك النظام العائلة آل خليفة مع تنوع الأدوار بشكل يبدو بأنها حكومة داخل حكومة وكأن البحرين هم آل خليفة وآل خليفة هم البحرين.

- *التسنن السياسي:* يتكون من حركات الإخوان التي تأسست في أربعينيات القرن الماضي، فمع أن الحركات السنية السياسية ليس لها من حظ في منطقة الخليج، ولكنها تعمل ضمن غطاء ونسق المؤسسات الدينية الكبرى (الكارتيل) الديني الذي يتميز بسطوته في دول الخليج عموماً. بالتأكيد أدبيات الإخوان تابعة إلى المركز المصري وإلى العلاقة مع الدولة. في البحرين يتميز الإخوان بقدراتهم في داخل السلطة وهم لا يختلفون عن التوجه الطائفي أو التوجه الذي يدعو إلى مقاومة التشيع بأي صورة من الصور ولا يبالون باستعمال وسائل العنف أو التهجير أو ما إلى ذلك.

- *التسنن المذهبي:* عبارة عن وجود ضخم لا تجمعه رابطة وهو في عمله متكل على السلطة باعتبارها دولة تلتزم المذهب السني، قادتهم هم أول من أسس الانتفاضات ضد البريطانيين، مع أن

= معين)، وتنص على أنه (الإرهاب غير المعرف قانونياً في جميع الأنظمة القضائية). وتضيف الموسوعة أن (إرهاب المؤسسات، وكثيراً ما يسمى إرهاب الدولة أو الإرهاب الذي ترعاه الدولة، يشير إلى العمل من قبل الحكومات - أو من قبل الفصائل داخل الحكومات - ضد مواطني تلك الحكومة ممن هم ضد هذه الفصائل داخل الحكومة، أو ضد مجموعات أو حكومات أجنبية). . راجع التفاصيل في:
http://en.wikipedia.org/wiki/State_terrorism.

الجسم العام لا ينتمون إلى ذات المذهب. فتجمع (المؤتمر الوطني) الذي تأسس عام 1923 و1932 كان من قادتهم شخصيات سنية أهمهم عبد الوهاب الزياني واحمد بن لاجح اللذان نفيا إلى الهند، وكانت المادة الثورية لهم هم الصيادون والغواصون وهم الطبقة الشعبية التي لا تنتمي إلى التسنن تاريخياً. والتي قادت ثورة أخرى فيما بعد. في الوضع الحالي وبسبب الحشد والتخويف الإعلامي وحاجة السلطة إلى ظهير شعبي تحوّل القسم الكبير منهم إلى اعتماد الرأي السلطوي خوفاً مما كان النظام يقوم بتعبئته في أن الشيعة سيتم طردهم يوماً ما من البحرين. بالتأكيد هنالك الكثير من السنة اليوم من الطبقة المتنورة التي تشارك شباب الثورة في التوجه السلمي وفي فكرة تقاسم السلطة والمسؤولية الإدارية بين طبقات المجتمع.

- ***التوجهات القومية واليسارية:*** وهي الحركات التي سادت عصر ما قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران وبالتحديد ربما أكثر دقة ما قبل نكسة حزيران من عام 1967. تتكون من اليساريين والناصريين المتمثلة بحزب البعث والحزب الشيوعي، وقد ساهمت هذه الحركات بصورة فعالة وكبيرة إلى بناء أساس فكري ثقافي رافض للسيطرة من قبل الآخرين سواء أكان الآخرون هم بريطانيون بوجودهم في البحرين، أو النظام بشكله الجديد. في الأربعينيات قادت هذه الحركات المقاومة المسلحة ضد البريطانيين، وكان المادة الكبرى للتشكيل هم عوام الناس وهم الشيعة أو الطبقة المهمشة. وقد أشار المفكر الكبير أمين

الريحاني إلى تلك الظاهرة عندما زار البحرين في عشرينيات القرن الماضي واستباق هذه الجزيرة لبقية الأقطار العربية الكبيرة لظاهرة العروبة والاستقلال. هذه التوجهات لم يعد لها اليوم من وجود شعبي، بل تحوّل الكثير منهم إلى الحركات الدينية الفكرية خصوصاً بعد تأريخ الثورة الإسلامية الإيرانية.

- ***التوجهات الإيرانية:*** الإيرانيون قسمان كما يسمونهم (العجم) الشيعة، و(الهولة) السّنة، كلاهما يعيش على طرفي نقيض في تطرفه نحو المذهبية. وكلاهما لا يرتبطان بالوطن الأصلي أي إيران، بل هم ممن ذاب في المجتمع البحريني بكل انسيابية، فلم يعد لهاتين الطبقتين من وجود واضح منفصل عن الوجودات الثقافية. الهولة كما ذكرنا كانوا رأس حربة العنف في استخدامهم من قبل النظام في السابق ضد العجم في أعوام الثلاثينيات. في السبعينيات ذابت التوجهات العرقية وسادت التوجهات الثقافية.
أما إيران كحكومة فإنها التزمت جانب نتيجة التصويت الذي تم في سنة 1970 في رفض تبعية البحرينيين إلى ايران، ولذلك فإنها لا ترى في البحرين إلا كما ترى في بقيّة أي قطر آخر عربي أو غير عربي، وهو مخالف تماماً للتوجهات التي كانت في زمن الشاه، فالتعددية القومية مع وجودها ولكنها لا تمتلك توجهاً ثقافياً مرتبطاً بالدولة الأم، وإنما ذابت في التركيبة البحرينية. وقد خلق هذا التنوع الفكري الإثني حالة ثقافية كبرى ومهمة في تنشيط العلوم وتنشيط الترابط الاجتماعي والفكري ما بين الثقافات.

- ***التوجهات العربية الإثنية:*** وهم المتجنسون من الفلسطينيين

والأردنيين والسوريين والسودانيين وهؤلاء لا يختلفون الآن عن شكل التوجه السابق في ذوبانهم في هيكل الحالة البحرينية، وليس ما يتعلق بأصولهم القومية أو الاجتماعية. ولو أضفنا لهم الأفارقة العبيد الذين كانوا في زمن من الأزمان خدماً للطبقات المتمولة الحاكمة فإننا نرى بأن الكل هم من أتباع التسنن المذهبي، وهم يدورون في فلك القوة، وفلك السلطة وليس لهم من توجه متحرر عن توجهات السلطة.

- ***ثقافة العمالة الوافدة:*** تعتبر هذه الثقافة مهمة في الوسط البحريني بسبب قدراتهم على مستوى مسيرة البلد العمالية والتكنولوجية والأمنية وغيرها. هؤلاء لم يكن لهم في السابق من تأثير على مستوى الحدث الثقافي باعتبارهم أجراء، ولكن عندما تقدر نسبتهم إلى نسبة السكان فقد يصل عددهم كلهم آسيويين وعرب إلى تقريباً أكثر من ثلث السكان، فإننا بالتأكيد يجب أن ننظر إلى تأثير ثقافتهم وأهميتها على المجتمع البحريني. هؤلاء تنظر إليهم السلطة على أنهم مُجيّرين إلى السلطة، فمعظمهم يعمل في أجهزة المخابرات والأمن، تلك الوظائف التي يأنف البحريني سنياً كان أم شيعياً في العمل ضمنها لما يمتلك البحريني الأصيل من توجه وطني عال. هذه الطبقة لا تعتبر مكوناً ثقافياً معيناً بل هم (Fat) (دهون) الجسم ليظهر شكل قيافته وتركيبته ليس إلّا. مع الانتباه إلى أن ذلك الدهن قد يتحول إلى جانب سلبي في يوم من الأيام.
- ***ثقافة التشيع:*** وهم الحركات الشيعية والتي ربما يصل عددها إلى عشرة مسميات أهمها هي الوفاق والوفاء والائتلاف. وهم

البحرينيون (الأصليون) أو كما يمكن تسميتهم (الأقدم)، وهي القطب الكبير في الصراع الثقافي مع السلطة والتي بدأت تستقطب الأقسام الأخرى تبعاً لوضوح خطتها في رفض العنف ورفض الاستفراد بالسلطة أو تهميش الآخرين. هذا مع الاعتراف بأن هنالك من تلك الفصائل العشرة من يدعو إلى المواجهة بالرد (المعتدل) العقلائي على السلطة. معظم هؤلاء هم شيعيو المذهب مع قلة مذهبية سنية تمثلها قدرات مهمة مثقفة عالية المستوى من الذين درسوا في الخارج وتعلموا في الجامعات الغربية. يخرج عن التسمية الشيعة غير المتسلحين بثقافة التشيع، وهم كما ذكرت بقايا ممن يعتمد أسلوب الرد المعتدل على السلطة. هذا مع أنني شخصياً لم أصل إلى اسم معين من تلك الأسماء، مع التأكيد على انضواء الكثير ممن كان يميل إلى المواجهة في هذه الثقافة مثل (الشيرازيين)[1] قد دخلوا في حوار

---

(1) الأسم متأتٍّ من الرجوع في استقاء المعلومات الشرعية الدينية من المرجع الراحل السيد محمد الشيرازي (ت 1990)، وهو التجمع الذي كان يرى أهمية الدخول في العملية السياسية من خلال المزاحمة مع النظام بطريقة الحرب الاعلامية والتظاهرات السلمية وغيرها. وهي حركة تفرعت في معظم الاقطار التي يضطهد فيها الشيعة، ولكن إيران بعد الثورة كانت لا ترى من ضرورة لهذا التنظيم لما له من تأثيرات سلبية على الدولة أي إيران، وبذلك وبمرور الوقت تمكنت إيران من تفكيك المنظمة في كل الاقطار العربية وفي العراق كذلك حيث لم يتمكنوا وبعد عام 2003 من أن يكون لهم أي مركز في الواقع السياسي والبرلماني ولا حتى في المدينة التي نشأ فيها السيد الكبير، وبذلك انكفأت فروع التنظيم على نفسها وتبنت سياسة أقرب إلى سياسة بقيّة القوى الشيعية التي تنادي بمفاهيم الالتزام بالمرجع (الأعلى) وعدم الركون إلى الوسائل =

منذ زمن بعيد مع السلطة في التخلي عن المواجهة الساخنة (غير العنف) والعمل على المستوى السياسي (المقارب للنظام) فقط. تعتمد هذه الثقافة على تأصيل مفاهيم التوجه (الإمامي) التاريخي للشيعة وهم آل بيت الرسول والأئمة التابعين لهم، وهم أربعة عشر إماما أو معصوماً يبتدئ تأريخهم منذ بداية البعثة إلى نهاية عصر الغيبة الصغرى عام 329 هجرية. هذا التيار كان مهمشاً بصورة كبيرة منذ تكوين الدولة البحرينية وإلى حين نكسة حزيران عام 1967 عندها ظهر التشيع بشكله الطبيعي المفاجئ وذلك لسببين وهما البحث عن وطنيته التي حاول النظام طمسها، وثانياً الجانب الفكري المتّقد الذي يتحلى به الشيعة بما يتعلق بالجانب الأكاديمي والجانب الثيولوجي.

- ***الثقافة السلفية:*** وهي التي تتناوب في المصطلحات مع الكثير من المسميات التي تصب كلها في توجه واحد تلك هي الثقافة السعودية أو النابعة من ذات التفكير الوهابي الذي يرتبط بفقه الأحناف المتشددين. ولكن وبسبب الوضع الثقافي البحريني وارتفاع نسبة المتعلمين الجامعيين وأصحاب الشهادات العليا تقل نسبة هذا التوجه فيما بين السنة. توجهات السلفية وأدبياتها لا تختلف في كل بقاع العالم عن التزامها العنف في التخلص من المخالفين، وهو أمر شرعي يلزمهم في أتباعه، ولكن الواقع

= التي تثير الحاكم. توجه هذه المجموعة الفقهي مرتبط بالشيرازي والتي انتقلت إلى أخيه فيما بعد انتقاله إلى الباري عزوجل.

البحريني مختلف، فهم في الوقت الحالي منضوون تحت العنوان الكبير وهو النظام. أما السعودية الأم لهذا التوجه فهو معروف من خلال اعتماد العنف والتهميش لإنهاء الأزمة انطلاقاً من هدفين وهما التوجه الطائفي الضيق، وتوجه السيطرة.

- ***الثقافة الصامتة:*** وهي الثقافة التي لا ترى الحالة إلا من خلال الجانب الشخصي (Personalization) واقترابه أو ابتعاده من المنفعة الشخصية. وقد أدى هذا العامل إلى حدوث هجرات بعضها سلبي أي باتجاه الخارج، وبعضها ايجابي إلى الداخل. ومع أن هذه الثقافة الآن تعيش في ضعف ولكنها مؤثرة في الوسط البحريني عندما يتم استخدامهم من قبل قوى المال وقوى السلطة في اتجاه القبول بالأمر الواقع والانتظار إلى حين تقرر السماء ما يجب فعله. معظم المنتمين إلى هذه الثقافة هم الطبقات الاقتصادية الثرية وكذلك الفقراء المعدمين وبقايا الأميين من البحرينيين. وتشجع الثقافة السلفية على انتهاج هذا المنحى وخصوصاً في تسويقها فكرة تجنب الأذى من قبل النظام وقوات السعودية الموجودة داخل البحرين.

الوضع البحريني الهش: يتميز النظام البحريني بأنه امتداد للحالة البدوية التي كانت سائدة في القرون المنصرمة التي يستأثر الشيخ بكل ما في الدولة، هذا في الوقت الذي أهملت المكونات الاجتماعية والعرقية والدينية في المشاركة ببناء البلد. كما في ذات الوقت تعيش الحاكمية البحرينية في مشكلة كبرى تجاه الواقع الوطني الذي لم يعد كما هو في القرون الماضية.

فقدرة الفهم الاجتماعي ما بين المكونات الشعبية وبين النظام صارت واضحة، فعلى المستوى العمودي تجاوز المجتمع القدرة على تحويل تلك التقسيمات إلى واقع ايجابي (العشيرة، القبيلة، المذهب، الدين) كما هو التوجيه الذي تمكنت به الدول العالمية في خلقها نحو المواطنة وليس نحو الفئوية، بينما يعيش النظام في سجن لم يكن له القدرة على الخروج من نفق الفئويات الاجتماعية التي تسير بعكس ما يراه المجتمع وهو أمر سيؤدي إلى حدوث تصدعات كبرى في العلاقة ما بين الطرفين يتوجب من الجهات الاجتماعية ردم الهوة لكي يكون هنالك انسيابية في العلاقة ما بين الطرفين.

وقد رد الحاكم على الوضع المتأزم والهش باستعمال أسلوب العنف من خلال ما يسمى (الفداوية) وهو ما يشبه المليشيات الشعبية أو أنظمة ما يسمى أحيانا (فرق الموت) (Death Squad) وذلك في بداية تثبيت حكم آل خليفة الذي كان يتسم بالدموية في تصفية المعارضين له[1]. فالأغلبية السكانية هم الشيعة الذين يتميزون بقدرات ثقافية كبيرة من التعليم ومن الثقافة العامة، ولكنهم مما يثير الاهتمام بأنهم تجاوزوا الحدود الطائفية ولم يعد التشيع لهم أو الانتماء المذهبي إلّا مدرسة من مدارس رفد الوطن ورفد الإنسان[2].

(1) عباس المرشد، القوى المختفية، (الفداوية) وأنظمة الضبط والسيطرة (4)، نشرة الوفاق (27-11-2009).

(2) وكمثال على قدرة التجاوز الطائفي لدى البحرينيين الشيعة وجدت دراسة بأن انتخاب المرأة للمراكز القيادية كان العامل الطائفي قد لعب بنسبة 3% فقط في تقرير الانتخاب. انظر الدراسة في صحيفة الوطن على الرابط التالي:
http://www.alwatannews.net/default.aspx.

ولم تتأتَّ قدرة الاتساع الفكري وأفقيته وبعده في تقييم الأمور من فراغ، فالبحرين كانت ولحد وقت قريب هي إحدى أهم المراكز العلمية الشيعية في المنطقة عموماً، فهنالك علماء كبار سادوا العالم الشيعي الديني في فترات القرن الثامن عشر والتاسع عشر وتعدّت قدراتهم حجم الجزيرة الصغيرة[1].

فقد كانت هذه الجزيرة على مدى قرون من الزمن منطلقاً للانفتاح على العالم بشقيه الشرقي والغربي، فقد تأصلت عدة ثقافات في مسيرة البحرينيين منذ أيام البرتغاليين ثم البريطانيين، وقد سكن اليهود أيضاً بعض الوقت في هذه الجزيرة لما لها من روح تسامحية كبيرة، قبلها كانت البحرين مركز الكنيسة الشرقية.

كما أن واقع الصراع ما بعد الإسلام ووصول العرب الذين انتحلوا الإسلام من أجل الغنائم كان شاهداً على وحشية العرب في اجتياحهم لمناطق البحرين، وهو ما دعاهم إلى تبني مواقف متباينة في سياسة متناسقة مع واقعية الثقافة التاريخية التي مرت بها البحرين. فمالوا إلى

(1) الشيخ داود بن أبي شافيز، السيد ماجد الصادقي، الشيخ ميثم البحراني، الشيخ يوسف البحراني، الشيخ حسين البحراني، الشيخ علي الستري، الشيخ مفلح الصيمري، الشيخ حسين الصيمري، الشيخ حسين الحارثي، السيد حسين الغريفي، الشيخ أحمد ابن المتوج، الشيخ سليمان الماحوزي، السيد هاشم التوبلي، الشيخ سليمان بن أبي ظبية، الشيخ صالح الكرزكاني، الشيخ عبدالله البلادي، الشيخ أحمد آل حرز، السيد عدنان الموسوي، الشيخ محمد علي المدني، الشيخ محمد أمين زين الدين، الشيخ عبدالحسن آل طفل، السيد أحمد الغريفي، الشيخ سليمان المدني، السيد علوي الغريفي، الشيخ عيسى احمد قاسم، الشيخ عبد الأمير الجمري، الشيخ حسن زين الدين. راجع الموقع الخاص: http://alolmaa.wordpress.com/29-15/.

مذهب آل البيت وهو التشيع، وتمكنوا وفي أثناء فترات الحكم البرتغالي من أن يقنعوا الكثير من البرتغاليين إلى الإسلام.

بقيت هذه الثقافة إلى أن جاء آل سعود في سياستهم البدوية في الدولتين الأولى والثانية فتمكنوا من رقابهم بعد أن غيّروا الكثير من ثقافة البحرين وفرضوا عليهم الجزية والزكاة إلى أن أقنع آل سعود بنو خليفة في أن يزحفوا على البحرين لاحتلالها. ولكن الثقافة بقيت كما هي لم تتغير وهي ثقافة الانفتاح وثقافة العلم والحوار. فقد امتلأت مدراس العلم الشيعية في النجف وكربلاء بالكثير من المهاجرين البحرينيين الذين وصلوا من أجل طلب العلم. فهو شعب يميل إلى تلقي المعرفة والتزود من التأريخ.

وبانقضاء الحرب الباردة لم تعد الدول التي كانت في العهود السابقة التي تحكم بالقانون البدوي لها من موقع في العالم، فقد تبدلت الظروف وجاءت قدرات الأمم المتحدة لتقر بأن الشعوب هي حالة عددية صوت لكل شخص، وأن الأكثرية هي التي تحكم وهو قانون عام مطبق في كل بلدان العالم إسلامية كانت أم غربية. فقد حاولت الحكومة بشتى الوسائل ومن خلال تبديل الديموغرافية أن تضخ في البحرين الكثير من الشعوب التي تنتمي تاريخياً إلى التسنن المذهبي وتمنحهم الجنسية لكي تبقى القبيلة ذاتها تتحكم في ثروات الجزيرة الصغيرة المهمة. فالأجنبي من المتجنسين الأجانب مهما تطور فكره في الوطنية فإن وطنيته تبقى مستعارة وكما يقول المثل ليس المستأجرة كالثكلى.

السكان البحرينيون كانوا على علم بأن الواقع البحريني هو أسير

الواقع السعودي الذي يعشش في عقول قادته ضيق أفق الأفكار الطائفية التي تحرك السلطة في المملكة، هذه السلطة تخشى ثقافة الانفتاح، وثقافة السلم لأنها الثقافة التي تطالب بأن يُعطى لكل مواطن حقه في الدولة وفي الحياة. الثقافة السنية لا تعيش هم التعددية الإنسانية باعتبار أن التسنن مذهباً يؤكد في أدبياته على أن الشرعية الحاكمية تتأتى من القوة، فلا شرعية بدون قوة، ومن يملك بالسيف حتى وإن كان فاسقاً فيجب طاعته، وهذه الثقافة بالتأكيد ليست إسلامية، بل هي بدوية قرشية سارت عليها معظم الدول العربية التي تسمى إسلامية، ولازال حكامها يحكمون الشعوب تحت هذا العنوان.

السعودية في زمن العولمة كان عليها أن تجد مخرج لواقع الحكم الذي تقوده، فقد انتقد السعودية معظم القادة الأمريكان والمثقفين وأساتذة الجامعات[1] معتبرين السعودية دولة ديكتاتورية دينية بدوية تحكم بعقلية ثيوقراطية بائسة قد عفا عليها الزمن وهو ما يوجب تبديل النظام. وقد تطور رفض الفكر السعودي الثقافي وطريقة قيادة دفة الحكم من قبل الشعوب كلها ومن ضمنهم الأكثرية السنية العربية المتنورة بالإضافة إلى التشيع باعتبار أن تلك الثقافة الوهابية السعودية ما هي إلّا عبارة عن مؤشر خطير لنشوء ثقافات عنف كثيرة تنتشر في الوسط الإسلامي. وفعلاً فقد نشأ ـ معظم الحركات المتطرفة من الفكر الوهابي السلفي الذي تتبناه السعودية رسمياً كتوجه ثقافي فكري.

(1) Saudi Arabia: Background and U.S. Relations. Christopher M. Blanchard. Specialist in Middle Eastern Affairs. Congressional Research Service 7-5700. www.crs.gov, RL33533 February 12, 2014.

فالسعودية اليوم في مآزق كثيرة أهمها هو الخاصرة اليمنية التي تكلمنا عنها. أما ما هو أشد من ذلك فهو الوضع البحريني الذي لا يختلف كثيراً عن الواقع اليمني، مع تباين الحدثين. فالبحرين تتميز بالكثير من المزايا التي تحرج السعودية أمام الغرب وأمام المؤسسات الدولية التي تستند عليها في علاقاتها التجارية والسياسية. فأهم ما يميز البحرين هو:

- **أكثرية مهمشة لا غبار عليها.**
- **تطهير عرقي للطائفة المنافسة.**
- **سيطرة قبلية على موارد الدولة.**
- **نظام قمعي بوليسي موثق في طبيعة سلوكه من قبل المنظمات الدولية.**
- **البرلمان شكلي لا يمثل التركيبة العددية الحقيقية للشعب.**
- **وقوف بريطانيا والولايات المتحدة بوجه السعودية في إدارتها لأزمة البحرين.**

فليس من الصعب أن ندرك، أو أن يدرك المتابع السياسي بأن انتفاضة الربيع العربي في البحرين كانت موجهة بالأساس ضد السعودية، وسياستها في احتواء وتقوية السلطة الملكية الخليفية على حساب الشعب. فكل الانتفاضات التي انطلقت في البحرين على مدى عقود من الزمن هي من أجل تخليص القطر من سيطرة الجارة الغربية السعودية التي فرضت قوتها على البحرين بكل ما أوتيت من قوة فتركتها أسيرة توجهاتها السياسية والاجتماعية.

أحداث الربيع العربي البحريني (ثورة الورود):

- 14 شباط 2011 بدأت الاحتجاجات السلمية لكنها واجهت رد فعل فوري من قوات الأمن. أصيب أكثر من ثلاثين من المتظاهرين وقتل واحد كما استخدمت قوات الحكومة البحرينية الغاز المسيل للدموع والرصاص، واستمرت الاحتجاجات إلى المساء.
- 15 فبراير: قتل شخص واحد من الذين حضروا جنازة متظاهر قتل في 14 شباط، ووقع عدد من القتلى وأصيب أكثر من 25 مواطن عندما فتحت قوات الأمن النار على المشيعين. وفي اليوم نفسه، سار الآلاف من المتظاهرين إلى دوار اللؤلؤة في المنامة لإعلان احتجاجهم، وإقامة خيام فيها.
- 16 شباط: اعتقال الناشط الوطني السني محمد البو فلاسا من قبل قوات الأمن مما جعله السجين السياسي الأول للانتفاضة.
- 17 شباط: استعادت قوات الأمن السيطرة على الدوار، مما أسفر عن مقتل أربعة متظاهرين وجرح أكثر من 300 بعد أن استعمل البوليس المكون من المرتزقة والقوات الخاصة الأفريقية وهم مسلحون بمدرعات وأسلحة متطورة.
- 18 شباط: قدم نواب الوفاق، الكتلة الأكبر، استقالاتهم من مجلس النواب في الجمعية الوطنية في البحرين.
- 19 فبراير: شيع 50 ألف متظاهر جثامين الشهداء. وفي فترة بعد الظهر، وعند اقترابهم من دوار اللؤلؤة فتحت قوات الأمن من

المرتزقة النار الحي مما أسفر عن إصابة العشرات واستشهاد متظاهر.

- 21 شباط: نظمت الحكومة مظاهرة مكونة من مرتزقة أجانب ومن كل الموظفين في الدولة بما يصل إلى عدد لا يزيد عن خمسة آلاف متظاهر تحت اسم (تجمع الوحدة الوطنية) وقد ألبست الكثير منهم العقال العربي.
- 22 فبراير: أكثر من مائة وخمسين ألف بحريني شارك في (مسيرة الولاء للشهداء)، وتكريم المعارضين السياسيين الذين قتلوا على يد قوات الأمن.
- 23 فبراير: أفرج جهاز المخابرات عن مجموعة من السجناء كانوا قد سجنوا سابقاً، كما أمر بوقف كل القضايا التي تنظرها المحكمة فيما يتعلق بما سمته الحكومة سابقاً (الشيعة الضالعون بمحاولة قلب نظام الحكم) عددهم كان 308 شخصاً، الشيء الغريب بأن هنالك فقط 23 شيعي من بين ذلك العدد على حد قول الحكومة.
- 25 فبراير: تم الإعلان عن يوم حداد وطني ونظمت مسيرات مناهضة للحكومة وصل عددها إلى 600 ألف متظاهر وهو ما يمثل 40% من المواطنين البحرينيين. في نفس اليوم وأمام هذا العدد الضخم من المتظاهرين أقال الملك أربعة وزراء، هم وزير شؤون مجلس الوزراء أحمد بن عطية الله آل خليفة، ووزير الصحة فيصل الحمر، ووزير الإسكان إبراهيم بن خليفة آل خليفة، وشؤون الكهرباء والماء فهمي الجودر (و هم من الصقور).

- 1 مارس: هاجم المتجنسون الأجانب (المرتزقة) من الهنود والباكستانيين والسودانيين والأردنيين والفلسطينيين شبان الثورة في مدينة حمد. وساعدتهم قوات الأمن في التضييق على الثوار باستعمال الغاز المسيل للدموع لاعتقال المتظاهرين[1].

- 5 مارس: عشرات الآلاف نظموا مسيرة احتجاج توجهت إلى التلفزيون الحكومي متهمةً إياها تعزيز الانقسامات الطائفية.

- 6 مارس: تصاعدت دعوات الثوار في استقالة رئيس الوزراء خليفة بن سلمان آل خليفة الذي يتولى السلطة منذ عام 1971 (عم الملك وهو الشخصية التي تمتلك القوة الفعلية في البحرين).

- 7 مارس: نظمت ثلاث احتجاجات أولها بالقرب من السفارة الأمريكية، والثاني خارج وزارة الداخلية، وثالث أمام مبنى البحرين المالي.

- 8 مارس، ثلاث جماعات شيعية متشددة تدعو إلى تخلي النظام الملكي وإقامة جمهورية ديمقراطية عبر الوسائل السلمية، في حين واصل أكبر مجموعة (الوفاق) في المطالبة بحكومة منتخبة ونظام ملكي دستوري.

---

(1) تستخدم القوات البحرينية أنواعاً كثيرة من الاسلحة ضد المتظاهرين كلّها تسببت في قتل مواطنين، منها سلاح الشوزن القاتل المستخدم في صيد الطيور، والقنابل الصوتية المسببة لجروح عميقة ومؤذية، في حين تستخدم قنابل الغازات السامة كذخيرة حية.
أقرا تفاصيل ذلك في: http://bahrainrights.org/en/node/3864

- 9 مارس احتج الآلاف بالقرب من مكتب الهجرة في المنامة ضد تجنيس الأجانب (المرتزقة) وتجنيدهم في قوات الأمن، بسبب الوحشية الكبرى التي ارتكبوها في القتل والتعذيب.
- 11 مارس: صعد الثوار من الشباب تحركاتهم في تنظيم مظاهرة ضخمة توجهت إلى الديوان الملكي تحمل الزهور والأعلام، ولكن الشرطة واجهتهم بوحشية منقطعة النظير، خلال نفس اليوم شارك عشرات الآلاف في مسيرة في المنامة نظمتها جمعية الوفاق.
- 12 مارس: عشرات الآلاف من المحتجين حاصرت القصر الملكي، في نفس اليوم كان وزير الدفاع الأمريكي (روبرت غيتس) يقوم بزيارة للبلاد مما منع القوات البحرينية من استعمال الوحشية مع الشعب. .
- 13 مارس: استعملت السلطة العنف بإطلاق قنابل الغاز المسيل للدموع والرصاص المطاطي لتفريق المتظاهرين في ساحة اللؤلؤة. ولكن شباب الثورة والمحتجين اشتبكوا مع الشرطة والمرتزقة وأجبروهم على التراجع.
- 14 مارس: هيأت الحكومة حوالي 150 مرتزق من أمن ومن طلاب الجامعة لمهاجمة خمسة آلاف طالب بحريني جامعي كانوا يعدون إلى تجمع سلمي، فادعت الشرطة بأنها تدخلت لفض النزاع باستعمال الغاز المسيل للدموع والقنابل الصوتية والرصاص المطاطي ولكنها في الواقع كانت ترمي إلى إنهاء التجمع البحريني.

- 14 مارس: دعا الاتحاد العام لنقابات العمال في البحرين إلى إضراب عام وأعلن ولي العهد بياناً أوجز سبعة مبادئ التي ستناقش في الحوار السياسي، بما في ذلك (برلمان مع السلطة الكاملة) وحكومة تمثل إرادة الشعب.

- 14 مارس: الشرطة السرية البحرينية تشتبك مع المتظاهرين وتواجههم بعنف باستخدام أسلحة جديدة يعتقد بأنها كيماوية، وفي نفس اليوم طلبت حكومة البحرين المساعدة من دول الجوار. في نفس اليوم ومن خلال مسرحية مفبركة وافق مجلس التعاون الخليجي (GCC) على نشر قوات درع الجزيرة إلى البحرين. نشرت المملكة العربية السعودية حوالي ألفا جندي وساعدت دولة الإمارات العربية المتحدة نحو 500 من ضباط الشرطة، عبرت القوات إلى البحرين عبر جسر الملك فهد وهذه هي المرة الأولى في الربيع العربي تدخل حكومة عربية لمساعدة دولة أخرى. وكان رد فعل المعارضة شديداً واصفاً إياه بأنه الاحتلال، وإعلان الحرب، وطلبت في نفس الوقت المساعدة الدولية.

- 15 مارس: أعلن الملك حالة طوارئ لثلاثة أشهر. سار آلاف من المتظاهرين إلى السفارة السعودية في المنامة يستنكرون تدخل دول مجلس التعاون الخليجي، في حين وقعت اشتباكات بين رجال الأمن والمتظاهرين كانت الأكثر عنفاً في جزيرة (سترة) وامتدت طوال الصباح حتى بعد الظهر مما أدى إلى وفاة شخصين وإصابة أكثر من 200 متظاهر كما أشار إلى ذلك مجمع الأطباء

في السلمانية، حيث قال المتحدث باسم المركز الطبي بأن معظم الإصابات كانت بأعيرة نارية حية. وقد أرسل جيفري فيلتمان، مساعد وزيرة الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأدنى إلى البحرين للتوسط بين الجانبين. والتي أعلنت المعارضة مباشرة بأنها تقبل الوساطة في حين أن الحكومة لم تستجب وأمرت بطرده فوراً.

- 16 مارس: في الصباح الباكر وبعد هجعة النوم بعد صلاة الفجر هاجم أكثر من خمسة آلاف مسلح معظمهم من المرتزقة وقوات الأمن التي تدعمها الدبابات وطائرات الهليكوبتر دوار اللؤلؤة، حيث كان المتظاهرون في فترة النوم داخل الخيم، وكان عدد من المتظاهرين قليل عما هو في الأيام السابقة بسبب عودتهم إلى قراهم لحماية منازلهم وخوفاً من مذبحة كبرى يرتكبها المرتزقة. تراجع معظم المحتجين من الموقع، في حين قرر آخرون البقاء. تم المعاملة مع فئة الرفض بعنف كبير. بعدها قامت قوات الأمن بتطهير وإغلاق الطرق والمركز المالي، وانتقلت إلى السيطرة على مستشفى السلمانية.

- دخل مسلحون مبنى المستشفى بالهراوات والدروع والمسدسات وبنادق هجومية بعد تأمين منطقة وقوف السيارات وتعاملوا مع الكل بشكل خال من القيم معتبرين الجميع داخل المستشفى بأنهم في مسرح جريمة. وقال شهود عيان أن سواق سيارات الإسعاف قد تم القبض عليهم داخل المستشفى وتعرضوا للضرب. كما اقتحمت قوات الأمن العيادات الصغيرة الأخرى التي قامت

بتطبيب الجرحى الذين لم تستوعبهم مستشفى السلمانية مما دفع المحتجين لاستخدام المساجد كعيادات ميدانية.

- ثم انتقل الجيش إلى معاقل المعارضة حيث أقامت عدداً من نقاط التفتيش وآلاف من شرطة مكافحة الشغب، مما اضطر الناس إلى التراجع إلى منازلهم قبل حلول الظلام. نصحت جمعية الوفاق الناس في البقاء بعيداً عن الشوارع وتجنب المواجهات مع قوات الأمن والبقاء في الموقع السلمي. ثمانية أشخاص لقوا حتفهم في ذلك اليوم، وأصيب خمسة بطلقات نارية.

- 17 مارس: تم القبض على أكثر من ألف متظاهر، بينهم سبعة شخصيات معارضة بارزة، من بينهم عبد الجليل السنكيس، عبد الوهاب حسين، إبراهيم شريف، وحسن مشيمع، وعلى إثر ذلك تقدم عدد من المسؤولين الشيعة استقالاتهم. من بينهم اثنان من الوزراء وأربعة نواب وعشرات من القضاة. تجاهل المتظاهرون في عدة قرى حظر التجول، وتجمعوا في الشوارع إلّا أن قوات الأمن اعتقلت 45 من المحتجين حيث تعرضوا لتعذيب وإهانات لفظية. في هذا اليوم اعتقلت قوات الأمن الجراح علي العبد العكري، من مستشفى السلمانية، كما اعتقل 47 من العاملين الصحيين. وقالت إفادات المعتقلين المرضى في الردهات 62، 63 بأنهم يتعرضون للضرب والشتائم من قبل قوات الأمن، وقد تم الاحتفاظ بالمرضى الذين يعانون من إصابات حيث احتجزوا الرهائن، وهم يتعرضون للضرب بشكل يومي لانتزاع اعترافات

منهم. واتهم 42 طبيباً الحكومة أمام منظمات حقوق الإنسان بانتهاك الحياد الطبي، وقالت أطباء بلا حدود بأنهم منعوا المتظاهرين المصابين من الرعاية الطبية في المستشفيات التي تم استخدامها كما الطعوم لكمين لهم. رفضت حكومة البحرين هذه التقارير وقالت بأنها تفتقر إلى أي دليل. وقالت بأنها قامت بنشر القوات فقط في المستشفى للحفاظ على النظام.

- 18 مارس: تم هدم نصب اللؤلؤة في وسط دوار اللؤلؤة بناء على أوامر من الحكومة بعد أن قالت بأن الهدم هو من أجل محو (ذكريات سيئة).
- وفي 22 مارس: النقابة العامة بدعم من الوفاق علقت الإضراب العام بعد أن كان قد أعلن امتداده إلى أجل غير مسمى.
- شيع آلاف جثمان امرأة قتلت في حملة القمع في المنامة. وقد أعلن الناشطين في مجال حقوق الإنسان أن الغارات الليلية على نشطاء المعارضة تواصلت.
- 25 مارس شارك الآلاف في تشييع جنازة رجل قتل على يد الشرطة، وقد قام مئات من الناس بالهتاف الله أكبر من أسطح منازلهم في فترة ما بعد الظهر والليل. المرتزقة من الباكستانيين والجنسيات الأفريقية العاملين في قوات الأمن قالوا أنهم يعيشون في خوف لأنهم تعرضوا لهجوم من المواطنين.
- 28 مارس قاطعت حكومة البحرين عرض الوساطة الكويتية التي تم قبولها من قبل الوفاق، وقالت هيئة الإذاعة البريطانية أن

الشرطة والمرتزقة تتعامل مع المواطنين بشكل وحشي بحيث تحوّلت البحرين إلى ما سمته (جزيرة الخوف). أرتفع عدد الوفيات في مارس لوحده إلى تسعة عشر.

- تلفزيون البحرين أعلن بأنه اعتقل 200 رياضياً بعد أن كال لهم تهم لا تتناسب مع مواطنين بحرينيين، منهم فتيات ومنهم شعراء، كما استهدف التسقيط قطاعات من الطبقة المتوسطة بما في ذلك الأكاديميين ورجال الأعمال والأطباء والمهندسين والصحفيين والمعلمين والشعراء.
- في الأول من نيسان، هدمت الحكومة خمسة وثلاثين مسجداً. وكان مسجد الأمير محمد البريغي الذي بني منذ أكثر من 400 سنة أحدهم.
- 2 أبريل: بدأت الحرب الإعلامية المكثفة في تسفيه وتسقيط الشخصيات الوطنية من خلال نشر أخبار كاذبة وملفقة، ثم أوقفت جريدة الوسط، لفترة وجيزة وتم استبدال رئيس تحريرها منصور الجمري.
- 3 أبريل: تظاهر أكثر من ألفي مواطن في موكب لجنازة في سترة ورددوا شعارات مناهضة للحكومة، ونواب المعارضة في المنامة نظموا احتجاجاً أمام مبنى الأمم المتحدة.
- 9 أبريل: اعتقال الناشط بحقوق الإنسان عبد الهادي بعد أن تم ضربه من قبل قوات الأمن فأصيب بنزيف في الدماغ مما حدا بنسيبه وابنته زينب وجموع غفيرة في إعلان الإضراب عن الطعام. كما مات أربعة أشخاص أيضاً من جراء الضرب وهو ما أكدته

تقارير محطة الإذاعة البريطانية (BBC)[1]. كما نشرت (هيومن رايتس ووتش) ومنظمات حقوق الإنسان بأنهم اطلعوا على أربعة متظاهرين لقوا حتفهم بسبب التعذيب أثناء الاحتجاز بما في ذلك الصحفيين كريم فخراوي وزكريا راشد حسن.

- في 14 أبريل: تحركت وزارة العدل لحظر جماعات المعارضة الوفاق وجمعية العمل الإسلامي بتهمة انتهاك القوانين والإضرار (بالسلم الاجتماعي والوحدة الوطنية)، وبعد انتقادات الولايات المتحدة، تراجعت حكومة البحرين قرارها.
- 16 أبريل: أعتقل محامي حقوق الإنسان محمد التاجر.
- 28 أبريل: حكمت محكمة عسكرية خاصة (محكمة الثورة) تعرف باسم (محكمة السلامة الوطنية) على أربعة متظاهرين بالإعدام وثلاثة آخرين بالسجن مدى الحياة.
- 29 أبريل: طردت الحكومة مئات من العمال من وظائفهم وفي شركة الطيران البحرينية (Gulf Air) بما في ذلك قادة اتحاد العمال لاتهامهم بمعارضة الحكومة.
- 2 مايو: اعتقلت السلطات اثنين من النواب المستقيلين الوفاق، مطر مطر وجواد فيروز.
- 3 مايو: خطابات الكراهية بدأت تملأ صحف النظام استعداداً لمذابح مماثلة للإبادة الجماعية في رواندا (قتل فيها 800 ألف

(1) http://www.hrw.org/en/news/2011/04/18/bahrain-attack-rights-defender-s-home.
AND: http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-13088600.

مواطن) بعد وصف الشيعة بأنهم مثل النمل الأبيض (الذي ينبغي إبادتهم).

- 8 مايو: أحضر أمام محكمة عسكرية 13 من زعماء المعارضة بعد أسابيع من الحبس الانفرادي والتعذيب. كما قدم في اليوم التالي صحفيون يعملون لصحف اجنبية.
- 31 مايو: ملك البحرين يدعو إلى حوار وطني لتبدأ في يوليو تموز من أجل حل التوترات المستمرة.
- 1 يونيو: اندلعت احتجاجات في أنحاء المناطق الشيعية في البحرين للمطالبة في إنهاء الأحكام العرفية وحالة الطوارئ ورفعها رسمياً.
- 11 يونيو: تظاهر عشرات الآلاف في مناطق مختلفة من العاصمة والحكومة تستعمل الطائرات في قمع المتظاهرين.
- 13 يونيو: قدم 48 من المهن الطبية، بما في ذلك بعض من كبار الجراحين في البلاد، في خطوة ينظر إليها على أنها مطاردة هؤلاء الذين عالجوا المحتجين الجرحى خلال الانتفاضة الشعبية التي سحقت من قبل التدخل العسكري من المملكة العربية السعودية.
- وفي 18 يونيو قررت الحكومة البحرينية رفع الحظر على أكبر أحزاب المعارضة.
- 22 يونيو: قدمت الحكومة البحرينية 21 شخصية من المعارضة إلى محاكم أمنية خاصة الذي حكم عليهم بالسجن كذلك ناشطون مؤيدون للديمقراطية لدورهم في الانتفاضة. وحكم على مجموعة

من المتهمين بمدد تتراوح بين عامين وخمسة عشر عاماً في السجن.

- في 9 آب: أعلنت اللجنة البحرينية المستقلة لتقصي الحقائق أن 137 من المعتقلين قد أفرج عنهم، بما في ذلك مطر مطر وجواد فيروز والنواب الشيعة من حزب المعارضة الوفاق.
- 1 فبراير 2012: وفقاً لصحيفة ديلي نيوز الخليج كشفت وسائل الإعلام بأن مستشار الملك حمد نبيل الحمر خطط لإجراء محادثات جديدة بين المعارضة والحكومة.
- في 9 مارس، احتج مئات الآلاف في واحدة من أكبر المسيرات المناهضة للحكومة حتى الآن. وفقا لشبكة CNN، مسيرة (تملأ الطريق السريع) من أربع حارات بين الدراز والمكشة، مصور لرويترز يقدر عددها أكثر من مائة ألف، في حين يقدر نشطاء المعارضة الرقم إلى ما بين مائة إلى مائة وخمسين ألف. وسماها نبيل رجب، رئيس مركز البحرين لحقوق الإنسان مسيرة (الأكبر في تاريخنا). وكانت دعوة التظاهر قد تمت من قبل رجل الدين الشيخ عيسى قاسم، انتهت المظاهرة سلمياً، كما حاول مئات من الشبان تنظيم مسيرة إلى الموقع المهدم دوار اللؤلؤة الرمزي، وقد فرقت قوات الأمن المتظاهرين باستعمال الغاز المسيل للدموع.
- 10 نيسان: جرح سبعة من رجال الشرطة عندما انفجرت قنبلة محلية الصنع في عاقر. اتهمت الوزارة المحتجين بالهجوم.
- 30 تشرين الأول: حظرت الحكومة جميع المظاهرات، مهددة باتخاذ إجراءات قانونية ضد الذين المتظاهرين.

- 14 أغسطس 2013: دعا نشطاء المعارضة البحرينية إلى احتجاجات واسعة اعتباراً من يوم الذكرى الثانية والأربعين لعيد الاستقلال البحريني، وفي هذا اليوم أيضاً شهد سنتين ونصف على الذكرى السنوية للانتفاضة البحرينية[1].
- وفقا لتقرير صادر عن هيئة حقوق الإنسان في البحرين، شهدت البلاد 745 مظاهرة احتجاجية في ديسمبر 2013 لوحده.
- 3 مارس 2014: انفجار قنبلة خلال احتجاجات في قرية الديه بالقرب من المنامة قتل فيها 3 من رجال الشرطة وجرح آخر كما قتل ضابط إماراتي من القوة التي دخلت البحرين، وقد تم إلقاء القبض على 25 من المشتبه بهم.
- مايو: بدأت الحكومة التوجه إلى اعتقال الفتيات في المدارس وذلك كحرب نفسية ضد المعارضة، وقد سمتها الجزيرة بأنها (غارات دورية)[2].
- بحلول منتصف مايو، دمرت الحكومة 28 من المساجد والمباني الدينية الشيعية رداً على احتجاجات مناهضة للحكومة[3]، وذكرت

(1) Toothless Parliament, Powerless Courts, and Omnipotent Incumbents? The Case of Bahrain. Michael Schmidmay. European University Institute, Florence Robert Schuman Center for Advance Studies. Medirerranean Program.

(2) (http://cadmus.eui.eu/bitstream/handle/1814/12681/RSCAS_2009_51.pdf?sequence=1).20 http://jt-iq.com/suspended.html.

(3) Religion in a Political Context: The Case of the Kingdom of Bahrain. Magdalena Karolak. New York Institute of Technology, Bahrain. Asia Journal of Global Studies. Vol 4, No 1 (2010-11), 04-20. (http://ajgs.org/index.php/AJGS/article/view/77).

وزارة العدل أن المساجد دمرت لأنها كانت غير مرخصة، أنظر روبرت فيسك صاحب جريدة (الاندبيندنت) المسيحي الدين، البروتستانتي المذهب، الشيعي الثقافة فيما كتبه عن البحرين[1].

المقتل في الثورة: البحرين هي الثورة الوحيدة في مسلسل الربيع العربي لم تكن وليدة التأثر بواقع رياح الربيع، فقد كانت الأحداث البحرينية أصيلة، أي أنها ليست ثورة جاءت بعامل (الحث) أو عامل الهبّة الوقتية الانفعالية. فقد كانت الثورة السلمية البحرينية مستمرة منذ عام 1994 ووصلت ذروتها في عام 2001 بعد الإعدامات والقتلى في صفوف المتظاهرين.

ولكن أين يكمن مقتل الثورة البحرينية في أن لا تنال حظها من المساندة من قبل الدول العربية. . .؟. . . يكمن في نقطتين مهمتين ولعلهما نقطة واحدة:

- *صدفة أن الشعب البحريني هو شيعي المذهب ذو ثقافة سلمية.*
- *وأن البحرين هي حديقة خلفية إلى دولة تتبنى ثقافة عنف سلفية.*

فبقي حظها متعثراً في الإعلام والمساندة كحظ حجم مساحة الجزيرة في الواقع العربي، فقد تمكن الإعلام العربي من أن يقتل كل خبر صادر من البحرين إلى أن ظهر عالم الانترنيت فتوسعت المصادر الخبرية حتى بات أمر البحرين معروفاً لدى العالم الشرقي والغربي.

ليس من الصعب في أن ندرك حالة العنف المميزة في المواجهة

(1) http://www.independent.co.uk/voices/commentators/fisk/robert-fisk-why-no-outcry-over-these-torturing-tyrants-2283907.html.

البحرينية ضد شعب هو في الواقع أعزل لا يمتلك من وسائل المواجهة كما هو الأمر المحتمل في بقيّة دول انتفاضات الربيع العربي، فقد كان لليبيين والتونسيين والمصريين واليمنيين من الخيارات في مواجهة السلطة بالسلاح، بينما هذا الخيار كان مفقوداً في الثورة البحرينية، فهي جزيرة صغيرة يعرف كل مواطن منهم الآخر، فوسائل السيطرة على السلاح ليس بالأمر الصعب، ولذلك لم تظهر أية قطعة سلاح من قبل المعارضة حتى في أشد ساعات المحنة.

خطوط التماس البحرينية: وعندما تتواجه ثقافتان في مساحة جغرافية صغيرة وفي خطوط تماس مباشرة، تتمحور الثقافتان على شكل دائرة تتداخل أحياناً في أكثر من نقطة وهو ما يؤدي غالباً إلى تبني عامل العنف والقوة، كما هي أحداث راوندا عندما تم ذبح (800) ألف مواطن بالمنجل بسبب أن التوتسي الضحايا والهوتو الجناة كانوا متداخلين في حلقات جغرافية متقاربة وهذا ما أدى إلى حدوث ذلك النوع من العنف اللاأنساني. في حالة البحرين كان الدور السعودي غير موفق في التعامل مع الواقع الثقافي للتشيع، مع أننا لا ننكر حق السعودية التي تعتنق جانب الثقافة المغايرة وهي ثقافة العنف وإلغاء الآخر على حسب الأدبيات الدينية التي تلتزم بها الدولة. ولا ننكر حقها فيما يتعلق بمحاولتها مواجهة الثقافة أو الفكر المذهبي الشيعي الذي يبدو لهم بأنه غريب على محيط السعودية كما يقول بذلك الكثير من المحللين البحرينيين والسعوديين[1].

(1) السعودية أرض مهمة جداً ليس للعالم الإسلامي فحسب، وانما لكل الأديان شأنها =

مع أن التشيع (المذهبي) هو حالة تنتشر ربما في كل المناطق الخليجية، أي كل الدول من الكويت وإلى عمان، ويتكثف في الدمام ومكة ونجران والرياض والمدينة وكذلك في مناطق متنوعة داخل السعودية. ففي البحرين يتجذر التشيع منذ قرون من الزمن، فهو فكرة ليست بطارئة على المنطقة بأي حال من الأحوال. نعم قد نتفق مع أولئك في اعتبار (الثقافة) الشيعية غريبة على الوسط الحاكم سواء في البحرين أو في السعودية، وهو أمر يتفق الكل على واقعيته باعتبار أن الثقافة الحاكمة البحرينية هي ثقافة عصبية بدوية تؤمن بالغزو والغنائم والاستلاب والتسري وما إلى ذلك مما تلتزم به البداوة التي تقرها الثقافة السعودية في طبيعة تعاملهم مع المفردات من هذا القبيل.

فالثقافة البحرينية الحكومية شيء تشاركها في ذلك الحكومة السعودية، وثقافة المجتمع البحريني شيء آخر، فمن الطبيعي أن يستعر

= كشأن أهمية الفاتيكان بالنسبة لأديان العالم. فقبل وصول العثمانيين إلى الحكم كانت الأرض تلك أي الجزيرة هي أرض وكأنها ملك آل النبي الرسول باعتبارها المنطلق للوحي ولمسيرة الإسلام. وقد تعاقبت على حكم هذه الأرض الكثير من سلالات آل البيت كان آخرهم هو الملك الشريف حسين (الجد الثالث لملك الأردن الحالي). وكان الأشراف كما هم في العالم اليوم هم سنيوا المذهب بثقافة شيعية وذلك تجنباً للمواجهة مع الدول الكبرى التي حكمت باسم التسنن في المنطقة العربية والإسلامية وخصوصاً العثمانيين الذين كانوا حساسين من ظهور طرف عربي ينتمي إلى آل البيت لأنه عندئذ سيكون البديل الشرعي لحكم العثمانيين. وقد سرى ذات الأمر إلى البريطانيين عند دخولهم الجزيرة العربية، وبذلك تعاون الطرفين واستنادا على مقولات موهومة في إلغاء فكرة دولة الأشراف الهاشمية ونفي الشريف حسين إلى قبرص ثم موته في عام 1931. أقرأ المزيد في:
http://en.wikipedia.org/wiki/Hussein_bin_Ali,_Sharif_of_Mecca.

الخلاف والصدام ما بينهما، كما تستعر أي صدامات بين مجموعة حضارية ذات توجه بنائي مع مجموعة بدوية لا تؤمن بإبداعات الإنسان، وإنما تؤمن فقط بما تدر عليه أمطار السماء من خيراتها، ومن ماكينة السلب والغنائم والقوة والحرب. وهذا في الواقع هو أصل الصراع، والاختلاف الحضاري ما بين البداوة العربية وبين مثقفي الجيل الجديد الذي ضاق ذرعاً بمقولات تلك الثقافة البائسة فتوجه إلى انتهال ثقافة أخرى كانت تسير بصورة متوازية وفي صراع مع ذلك المنطق.

الكارتيل السعودي الديني: فقد لا نكون قد أذعنا سراً إذا قلنا بأن السعودية بثقافتها البدوية القرشية بدأت هذه الأيام بالانحسار حتى بين منتمي التسنن المذهبي المشاركين لها في التوجه المذهبي الفرعي بعد أن انفتح العالم عن واقع تأريخي جديد، وبعد أن بدأت الأمم تتابع الماضي التاريخي الذي بنيت عليه مفاهيم الدولة السعودية، أو أصحاب الثقافة القرشية البدوية. فأسلوب القتل الوحشي للشباب الثائر بتلك الصورة التي روتها المنظمات المحايدة أمر لا يمكن للمواطن العربي أن يتفهمه، نعم الاختلاف على السلطة هو أمر يحوّل الناس إلى وحوش كاسرة، ولكن في الحالة البحرينية فإن المعارضة لا تطالب بالسلطة وتلزم آل خليفة في التنازل عنها كما هو الأمر مع نظام جنوب أفريقيا ونلسون مانديلا (ت 2013)، بل أن المعارضة تؤمن بنظام ملكية دستورية كما في بريطانيا أو هولندا أو أسبانيا أو غيرها من الكثير من دول العالم، وتطالب السلطة في أن تقدم لهم أنموذجا عالمياً يحترم المواطن، وهي الدول القائمة فعلاً في أوروبا. . . . ولكن الثقافة

البدوية هي ثقافة كاسحة لا تعترف في المشاركة لأنها تستند في أدبياتها ومفاهيمها على عدم الأمان أي (obscurity)، بمعناه في أن الغريم يجب أن ينهي غريمه تماماً، لأنه ربما آتته القوة باجتياحه ثانية، ولذلك فإن العقلية السعودية والحاكمية في البحرين لا تعترف بمقولة المشاركة في السلطة أو المشاركة بأي أمر آخر في الحياة سواء أكان تجارياً أم ثقافياً أم وطنياً.

وعندما نلحظ هذا المفهوم نرى مصاديقه جلية في التركيبة السعودية وفي التركيبة الحكومية البحرينية وهو السيطرة على المال وعلى الثقافة وعلى السلطة وعلى العقل وعلى كل ما من شأنه أن يخلق فكراً مثقفاً أو تركيبة ربما تكون مخالفة لعقلية الدولة المسيطرة. ويحسبني في أن السعودية قد بدأت تدرك بأن المفاهيم التي أقيمت عليها دولتهم لم تعد مقبولة عالمياً ولم تعد هي المفاهيم التي تقرها المنظمات والحكومات العالمية، فبدأت تشعر بصعوبة نشر تلك الأفكار ما بين الشعوب المسلمة لنقل السنيّة لأنّ الشيعة يتحسسون من مفاهيم التأزم الفكري منذ زمن بعيد، بل هو من أسس الثقافة الدينية المذهبية للتشيع.

تستقرىء السعودية من خلال أساطينها ومفكريها بأن العالم السني سيثأر يوماً ما وينطلق في ثورة كبرى ضد مفاهيم الثقافة التي نشرتها السعودية، ويحطم ما بنته جهود تلك المفاهيم، والتي في الحقيقة ليس لها من علاقة بحقائق الإسلام لأنها مفاهيم ضيقة والدين السماوي من المستحيل أن يظلم إنسان على حساب إنسان.

فمن البديهي أن يتحرر العالم الإسلامي ليوم من الأيام ليزيح عنه

غطاء التخدير المالي والطائفي والسلفي ويتوجه لمعرفة الإسلام الحقيقي بثقافته السلمية الإنسانية . . . . . والسعودية تعلم بأنها هي المعنيّة في أي تغيير يحدث في البلدان الإسلامية سواء أكانت البحرين أو تونس أو مصر أو الجزائر أو عمان أو غيرها ، فما تلك الانتفاضات إلّا عبارة عن ثورة على واقع خاطئ لم يتمكن المواطن المسلم أو العربي من معرفة أين خطأه ومن أين جاء الخطأ ، ومثله كما هو المصاب بمرض عضال لازمه لعقود من الزمن بعد أن مرت عليه مرحلة متعددة من العلاجات والأمراض فلم يعد له القدرة في الاهتداء إلى السبب المرضي أو المسبب، بل جل همه الآن هو التخلص من المرض. هكذا تعيش الشعوب العربية والإسلامية ، فهي مضللة لخلال أكثر من قرن من الزمن بسبب الواقع الذي تعيشه من الأمية والفقر والتخلف ، كل ذلك أدى بهذه الأمة أن تخطىء في تقدير مسببات تخلفها .

السعودية تخشى بشكل كبير من نهضة أمة ما ، لأنّ النهضة هو داء (كما تعتبره)[1] ممكن أن يستشري إلى الجميع ، فمشاهد الربيع العربي هو المسار الأول في نعش الثقافة السعودية التي تخطط لاحتواء العالم

(1) تنعت السعودية والكارتيل الديني مصطلحات التنوير والتجديد والبحث بمسمى (البدعة) وهو لقب مسبة للفكر المتجدد ، ولقد قام علماء الدين المتسيسين بتحويل مفهوم البدعة إلى مصطلح شرعي أي يترتب على متبعه عقوبات شرعية ، وهذا شيء لا يختلف عن المسار التي كانت الكنيسة تتبعه في القرون الوسطى مع العلماء والمتنورين ودعاة الاصلاح . وقد تلازم المفهوم (البدعة) لا شرطياً مع (الشيعة) بشكل تلازم ذهني ، فاذا قيل بدعة تبادر إلى ذهن السامع التشيع ، وإن قيل شيعة تبادر إلى الذهن البدعة . . وهكذا .

العربي والإسلامي، فأحداث البحرين واليمن لا يمكن لنا أن نعتبرها أحداث عادية في تقدير الثقافة السعودية، بل أنها كانت خطيرة جداً ولازالت، وكلما تفاقمت ثورات الانتفاضات الشعبية وأحداث الربيع العربي كلما توجهت السعودية إلى ضح عاملين هامين، وهما الإرهاب والسلفية وهذان العاملان بالرغم من أنهما يعملان على النطاق الفكري النظري ولكنهما في الواقع هما عاملان مغيّران من الناحية السيكولوجية والثقافية. وهما من أخطر ما يمكن أن تواجهه المجتمعات في العالم في تشويه تأريخها ومستقبلها.

ولذلك ليس من الصعب أن تلاحظ بأن الإرهاب السعودي يتناسب طردياً مع الوعي العربي والإسلامي، فكلما ازداد الوعي والثقافة والحرية الفكرية والسياسية والدينية كلما تعملق الإرهاب الفكري والسلفي من الطرف المحرك. فقد نعتقد خطأً بأن السلفية هي حركة متمثلة بشخصيات أو بمؤسسات دينية كما هي الأفكار الأخرى التي تظهر على واقع الدول أو واقع الفكر، سنخطىء ألف مرة في اعتقادنا ذلك، بل أن السلفية والإرهاب وثقافة البداوة والثقافة الاشعرية السنية السياسية هي ذات مصدر (ديني مسيس). ويا حبذا لو كانت الأشعرية أو التسنن السياسي ذو توجه فكري ديني، فهو أمر طبيعي جداً في العرف العالمي كما هم البروتستانت والانكليكان أو الكاثوليك أو غيرها من المذاهب الكبرى على وجه الأرض الآن، وإنما كل ما ذكرته هو مجيّر لحساب السياسة ولحساب ثقافة فكرية بدوية قرشية أموية تؤمن بحيازة الكل من خلال استعمال الدين في تزويق ألفاظ تلك المقولات.

فلم تكن البحرين لتتحرك طائفياً، مع أن الثوار كانوا شيعيّي الانتماء فهم يعيشون منذ بداية القرن الماضي مع ذات الوضع، وذات الحكم ولكن ما أختلف فيه هو أن العصر اليوم هو عصر حضارات لا عصر مذاهب، وعصر الثقافات يستوجب أن تدخل الثقافات المتناحرة في مواجهة مع الأخرى تبعاً لطبيعة الشعوب التي ستتواجه فيما بينها، فقد دخلت المذاهب المسيحية في حرب فكرية واقتصادية ومعرفية كما هم طوائف الانكليكان مع الكنيسة الأسقفية (Episcopal)[1]، فالحرب الثقافية في الشعوب المتقدمة تتصارع على المعرفة وعلى التكنولوجيا وعلى الاقتصاد، وهي صراعات طبيعية تنتج بالتالي ما يغني عقل وراحة الإنسان. وعندما تعجز الشعوب المتأخرة عن فهم واقع الصراع الثقافي فإنه عندئذ يتخذ أشكالاً أخرى من خلال استعمال سلاح القتل والإقصاء والإلغاء وهو تماماً ما تمارسه السعودية مع شعوب العالم الإسلامي والعربي، لأنّ الفهم الوحيد الذي يمكن لعقولهم إدراكه في مسيرة الصراع الثقافي هو الإزاحة والتهميش ثم القتل لا غير.

---

(1) الآباء المؤسسون للولايات المتحدة كان أغلبهم من أبناء الكنيسة الأسقفية (Episcopal) مثل جورج واشنطن وبنجامين فرانكلين وغيرهم. واشتهرت هذه الطائفة بكثرة رؤساء الأمريكيين ومشاهير المؤمنين بها، كما اشتهرت بكثرة العلمانيين والليبراليين وقلة محافظين منهم. كما ويعتبر أتباع الكنيسة الأسقفية الطائفة المسيحية الأكثر تعلماً وثراءاً في الولايات المتحدة، ولدى الأسقفيين أعلى نسبة من الحاصلين على شهادة جامعية (76%) فضلًا عن 35% من الأسقفيين لديهم شهادات في دراسات عليا، ويشكلون أيضاً جزءاً من النخبة الثرية والمتعلمة والسياسية في الولايات المتحدة. راجع مادة الكنيسة الأسقفية الأمريكية على الموقع:
http://ar.wikipedia.org/wiki/ الكنيسة – الاسقفية – الأمريكي

ثوار البحرين كانوا ذو ثقافة حضارية لا تتأخر في تبني ثقافة الحوار، ولذلك فعندما وصل توم مالينوسكى مبعوث مساعد وزير الخارجية الأمريكية للشؤون الديمقراطية وحقوق الإنسان والعمل فإن ثقافة المبعوث التقت مباشرة مع ثقافة المنتفضين بينما رفضته وبدون أي نقاش ثقافة السلطة وطردته من البلاد بحجج واهية[1]. كذلك رفضت السلطة وساطة من قبل الحكومة الكويتية التي تفهمت الظرف بسبب تعاملها مع ملف ثقافة التشيع منذ فترة طويلة.

بقي الثوار البحرينيون يواجهون لوحدهم عنف السلطة بشكل فيه الكثير من الإجحاف لحقوق المواطنة، فقد تمكن النظام من أن يمتلك قدرات تسليحية كبرى متطورة في إجهاض الانتفاضات مع مواصلة السجون والتعذيب تساعدها في ذلك القوات السعودية التي تساندها آليات متطورة، فكان من الصعب على شعب أعزل أن يواجه الذبح والقتل بتلك الصورة من الوحشية التي لا تقارن بما واجهه الشعبان اليمني والتونسي.

أين تكمن قوة ثقافة الشعب البحريني. .؟ تكمن في أربعة منطلقات:

- *من خلفيته الدينية الإسلامية (المذهبية) السلمية.*
- *من رموز الصبر التاريخيين الذين يعيشهم الشعب البحريني وأعني به هو الحسين بن علي المقتول في 61 هجرية.*

(1) http://arabic.cnn.com/middleeast/2014/07/07/bahrain-us-thomas-persona-non-grata.

- *من اتساع ثقافته العلمية وضخامة عدد العلماء نسبة إلى حجم نفوس الجزيرة.*
- *من خلفية الحضارات التي توالت على البحرين.*

ومع أن لكل من تلك المنطلقات من حديث ومن مسيرة فإننا نحاول أن لا ندخل في أي منها خشية من أن تخرجنا من صلب الموضوع، مع أن التركيز على الثقافة التي ترتكز على هذه المنطلقات هي ثقافة غالباً ما يكون استقرارها ثابتاً أي أنها تحمل مقومات ثقافة مستمرة، لها القدرة على أن تبقى حية متطورة تنتقل من حالة إلى حالة أخرى تبعاً للظرف والتفاعلات الداخلية.

فالعمر الواقعي للثقافة البحرينية الشيعية قديم، جاء القسم الأقل منه من فترة ما قبل دخول الإسلام، وهو الجزء الخاص بحضارة الأمم، وتميّز بالعمق التاريخي..... بعد الإسلام كانت السياسة البحرينية للشعب هو رفض مبدأ القرشية القبلية العصبية والالتجاء إلى تعاليم الإسلام بدلاً من الانسياق وراء مفاهيم الحكم التي أقرتها الحكومات المتعاقبة بعد الرسول، والتي كانت عبارة عن اجتهادات مرتبطة بفكرة القبيلة لا بفكرة النص الإلهي[1]، وبذلك بقيت هذه

(1) ترى الثقافة الشيعية وتشاركها المدرسة الدينية الشيعية بأن الوحي لا بد وأن يكون له دور في رسم الثقافة والفكر وهو ما تسميه كلا الثقافتين إما (النص) في لغة الدين، أو (السنة) في لغة الثقافة. الفكر الديني يرى باستحالة ترك الأمة بدون نص تعييني من الله كما هو استحالة ترك الإنسان بدون نبي، يسمون شخص النص ذلك (إمام)، وهو أمر متعلق بمفهوم قرآني في الآية: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124]. في اللغة الثقافية هنالك فرز عقلائي لواقع الشخصيات المغيرة الاجتماعية على شرط عدم تدخل عامل القوة وعامل الغرائز في ذلك الترشيح.

الجزيرة في مأمن من الاضطهادات التي تمارس من قبل السلطات، وهو ما وفر ملجأً للهاربين والمضطهدين حتى جاء القرن الثامن عشر ودخول البرتغاليين الذين فتحوا أمام الشعب مجالاً خصباً في الربط مع ثقافات أخرى، في الوقت الذي كانت الصراعات في السيطرة عليها على أوجها بين القوى الكبرى في المنطقة حتى دخل حكام المنطقة في مذابح أخرى مع الثقافة المناوئة لهم وهي ثقافة الوهابيين السلفيين ثانية، ثم صوتت البحرين للحرية بأكملها في رفض الالتحاق بقومية أخرى وهم الإيرانيون مع اشتراكهم معهم في التمذهب وذلك بعد استفتاء طلبت إيران إجراءاه عام 1970 على شرط أن يعترف الطرفان بالنتيجة.

وهكذا كانت الجزيرة من نصيب العرب ليواجهوا وضعاً بدوياً شرساً منذ ذلك التأريخ وإلى الزمن الحاضر. وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على قدرات البحرينيين المتميزين في الحفاظ على ثقافتهم وعلى أسس المبادئ التي استورثوها من ثقافات الأمم التي مرت بهم. أخيراً كان القرار هو تبني التشيع ثقافة مع الاعتزاز بعروبة وسلمية تلك الثقافة لكي تكون هذه الجزيرة الصغيرة نموذجاً فريداً من نماذج الثقافات الشيعية السلمية في العالم.

وماذا بعد...؟: إنه لمخالف لسنن التأريخ أن تموت ثقافة، نعم قد يموت دين أو يموت مذهب أو تموت قومية، أو يموت مجتمع[1]، ولكن من الصعب جداً أن تموت ثقافة، قد تتأخر الثقافة لقرون وقد

(1) ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: 49].

تصل إلى مرحلة متدنية من الضعف ولكن ليس هنالك من خيار في موت ثقافة أمة، ما لم يموت الإنسان ذاته بيولوجياً عندها تموت تلك الثقافة.

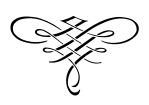
فلا أعرف هل أن الخطة البحرينية في اختيار الطريق الأخير من قبل السلطة هو التخلص من شعب بأكمله..؟ أنا شخصياً لا أعتقد بذلك، ولا أرى من مبرر لحاكم البحرين في أن يقتل مليون إنسان، إن من يفكر بهذا الاتجاه فهو غير عاقل. ولكن المعتقد هو أن حاكم البحرين الشاب المتنور الذي اطلع على الغرب وعرف مسيرة الأمم كيف تعيش في ظل ديمقراطية متعاقبة لا يمتلك كل القرار، وإنما معظم قرارات البحرين بيد العائلة التي تستقي قوتها من الأم الحنون السعودية التي ترى في البحرين خاصرة موجعة جداً لها فيما لو تغيرت الظروف تحت الضغط الدولي كما حدث في أفريقيا الجنوبية وانتقلت السلطة إلى المواطنين الأصليين السود بعد أن حكم البيض أكثر من أربعمائة سنة.

الصراع المستمر ما بين الثقافتين الشيعية السلمية والوهابية السلفية المستمدة من التسنن السياسي لن تكون نتيجته من صالح أي من الطرفين حتى وإن تمكنت الثقافة الأخيرة من أن تمتلك مقومات النصر المادي في الوقت الحالي وفي خلال القرنين الماضيين، فثقافات الأمم لا تقاس بالسنين بل أن مسيرتها تابعة إلى سنن ثابتة كما هي قوانين الميكانيك والحرارة والضغط الجوي، فبالقدر الذي تتقارب الثقافات في نقاط الاشتراك بنفس القدر تزخر كلاهما بالعطاء على شعبيهما باتجاه سعادة الإنسان لأخيه الإنسان، وبالعكس كلما تعمقت نقاط

الخلاف وتنافرت جبهات التماس كلما كان المردود سلبياً على المجموع، ولا يعتقدن البعض بأن السنة التاريخية ستستثني قوم دون آخرين في انطباق القانون[1].

إنه لمن العقل في أن تتوجه السلطة إلى فتح حوار واقعي وليس حوار تكذيبي في اتجاه التمثيل الحقيقي للسلطة مبتعدة بقدر الإمكان عن الأزمات التي تعيشها السعودية والتي فرضت نفسها على الواقع البحريني في هذا الوقت. فليس من قبيل الواقع أن تعتقد الحكومة البحرينية بأن انتصارها في تهديم مجسم اللؤلؤة أو السيطرة على الشعب بقوة سلاح أو سجون أو إعلام سيعيد ساعة التأريخ إلى الوراء، فالثقافة دوماً في مسيرة وإلى الأمام حتى وإن كانت تلك المسيرة أسيرة لثقافة أخرى.

فلو حدث أي تخلخل في شكل النظام السعودي وهو الشيء الذي يتوقعه الجميع من المحللين السياسيين فإن رد الفعل الشعبي سيكون عنيفاً بشكل لا مثيل له وهو أمر ليس من مصلحة إنسان البحرين أن يصل إلى تلك النقطة من الخروج عن منطق البشر.



(1) ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: 25].

التشريع وفي العدل[1]. ومع أننا هنا لسنا في موضع أن نتحدث عن الثورة وشكلها وتأييدنا لها أم لا، بل أننا نتناول وضع حركة الثورة والدوافع الثقافية التي أدت بها أن تنمو وتنبلج في صبح البحرين.

الخلفية الحضارية:

بلاد البحرين هي الجزر الممتدة من العراق شمالاً إلى قطر جنوباً، وظلت الجزر مرتبطة سياسيًا بشكل كبير بباقي بلاد البحرين. حضارة البحرين عمرها يعود لأكثر من 5000 عام عندما كانت مركز حضارة (دلمون)، المسيطرة على الخطوط التجارية بين الحضارة السومرية وحضارة وادي الإندوس (السند).

في القرن الأول الميلادي قدم (نيرخوس) لاكتشافها، تنفيذًا لأمر الإسكندر الأكبر. خضعت لهيمنة الساسانيين في فترة ظهور الإسلام، يحكمها والي من العرب. وكان والي البحرين وقت ظهور الإسلام هو المنذر بن ساوى من بني تميم ومقره مدينة هجر (الإحساء الحالية).

كما كانت مركزاً لكنيسة المشرق إلى أن دخلها الإسلام بعد أن أرسل النبي إليها العلاء الحضرمي السنة السابعة للهجرة. رفضت البحرين تسلط العرب البدو وخصوصاً قريش لما كان يعرف عنهم من

(1) http://classic.aawsat.com/details.asp?section = 4&article = 613210&issueno = 11799#.
U7-tAfmSxr0.

انحسار ثقافي فشملهم سيف ما يسمى بحروب الردة فأوقعوا بهم قتلاً وتشريداً.

رحب البحرانيون بالخوارج في ثورتهم بسبب بغضهم لقريش ولبني أمية فأقاموا دولهم إلى حين عهد عبد الملك بن مروان. قاوم البحرينيون القرامطة (فلسفة عنف) بشدة وفي حروب مستمرة بسبب تطرفهم الديني وانفصلوا عنهم ثم تكونت عدة دول إلى أن آل الأمر في أن تدفع مملكة البحرين الجزية إلى دولة هرمز في عام 729 هجرية. بعدها جاءت قبيلة (الجبور) البدوية وسيطرت على القطر وكونت العاصمة المنامة الموجودة حالياً، ثم سيطر البرتغاليون عليها في عام 1521 ميلادية لثمانين عاماً ثم احتلها بعدهم الصفويون إلى عام 1783 م وبقيت تحت حكم إيران غير المباشر لفترة طويلة. في تلك السنة قام العتوب بقيادة أسرة آل خليفة أهل الزبارة في قطر بهجوم بحري على البحرين وطردوا حاكمها نصر آل مذكور شيخ عرب المطاريش وبقوا فيها وإلى الآن.

❊ ❊

بقي آل خليفة يدفعون الجزية لإمارة الدرعية وإمارة مسقط لسنين. . . . . في الدولة السعودية الثانية كان البحرين يدفع الزكاة إلى السعودية إلى أن صارت تحت الحماية البريطانية ثم تحررت في عام 1971 بعد أن جرى استفتاء عام 1970 في تبعيتها إلى إيران أو لا.

بدأت الحياة البرلمانية عام 1973، ولكن سرعان ما تم حل البرلمان بقرار من الأمير الراحل عيسى بن سلمان آل خليفة في العام

1975 وأصبح الملك حمد بن عيسى آل خليفة أميراً على البحرين عام 1999 بعد وفاة والده وأقرّ العفو السياسي عن المعارضين بالإضافة إلى انتهاجه إصلاحات أخرى. عدد النفوس هو 1. 3 مليون نسمة، نسبة المسلمين هو 70%[1] يمثل الشيعة (المذهبيين) 70%[2] وهي أعلى نسبة في البلدان العربية[3].

كانت البحرين في العصور التي تلت الجلاء البريطاني تعيش هاجس المدرسة القديمة التي سنّتها السعودية في تخويف الدول الغربية من التشيع المذهبي، في تسويق فكرة أن التشيع قنبلة موقوتة في وجه الحكام على الدوام سواء أكانوا حكام ذو عدل أو حكام تسلط. هذه المدرسة أظهرت خطأ منهجها بعد أحداث سبتمبر 2001، والتي تبيّن أن التشيع هو الأقرب إلى المجتمع السلمي وإلى الحياة المدنية منه إلى بقيّة المدارس الفكرية الإسلامية، فهو مدرسة من مدارس الدين لا ترمي بأي حال من الأحوال في الاتكاء على السياسة في تحقيق طموحات المذهب.

---

(1) https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/geos/ba.html.

(2) http://www.pbs.org/wnet/wideangle/episodes/pilgrimage-to-karbala/sunni-and-shia-the-worlds-of-islam/1737/.

(3) هنالك 109، 725 شاب في البحرين، 64% منهم مشترك في شبكات اجتماعية. 97% يملكون هاتفاً نقالاً. 83% لم تحقق طموحاتهم في الدراسة، ويطمحون لمواصلة الدراسة ونيل درجة الماجستير أو الدكتوراه. أنظر المصدر: http://www.byfs.org/ar/index.php?option=com_content&view=article&id=61:64&catid=33&Itemid=710.

إحياء فكرة المرتزقة مجدداً:

في تلك الفترة اهتمت بريطانيا في أن تجهز البحرين بنظام مخابراتي قاس يقوده ضابط بريطاني (إيان هندرسون) (ت 2013)[1] يدير أمور الجهاز القمعي البحريني، خلال فترة قاسية من الاضطهاد للشيعة البحرينيين بحجة الانتماء إلى إيران أو بحجة المعارضة. وقد بقيت هذه الحالة إلى حين قيام الثورة الإسلامية في إيران عام 1979 فاشتدت الحالة، ثم بعدها خفت بسبب حالة الوطنية التي كان البحرينيون الشيعة يمارسونها في علاقتهم مع الدولة.

لم تتغير الحالة الاجتماعية في تهميش الأكثرية الشيعية، بل مارست السلطات واقع قمعي يعتبر من أعتى ما كان موجود في المنطقة بعد السعودية، فقد غُيّب الكثير من البحرينيين وقتل العديد ثم

(1) ولد إيان هندرسون في اسكتلندا، وعاش معظم حياته ضابط شرطة للمستعمرات البريطانية في الخارج. وعمل ضابط شرطة في كينيا أثناء الاستعمار البريطاني العام 1950، وفي العام 1954 تم منحه (وسام جورج) من قبل الحكومة البريطانية، وهي أعلى جائزة تمنح لغير العسكريين لدوره في قمع انتفاضة (الماوماو) في كينيا. غادر هندرسون كينيا في العام 1965، وذلك بعد استقلالها عن بريطانيا وجاء إلى البحرين ليعمل في الأجهزة الأمنية، حيث تقلد منصب رئيس جهاز مباحث أمن الدولة في البحرين لما يقرب من 30 عاماً. عاصر هندرسون من خلال عمله في جهاز الأمن الحركات السياسيّة في البحرين منذ ستينيات القرن الماضي لغاية التسعينيات، وأدار سلسلة من الحوارات في السجن مع قادة المعارضة في العام 1995 إبّان أحداث تسعينيات القرن الماضي. . أنظر الوسط: http://www.alwasatnews.com/3873/news/read/764204/1.html

هاجر الكثير من الشباب المثقف. بعدها أقدمت السلطات على عمليات طرد الشيعة واستبدالهم بجنسيات أخرى مثل الأردنيين والسودانيين والباكستانيين والهنود وغيرها من الجنسيات، وصار أمام السلطة أن تفرّغ البحرين من الشيعة بطريقة أو بأخرى (Ethnic Cleansing)[1] وهي عملية محكوم عليها عالمياً من كبرى الجرائم ضد الإنسانية. . . . . عندها ثارت البحرين في ثورة عارمة (التسعينية) بدأت منذ عام 1994 إلى سنة 2001 بعد أن رفعت القوى الوطنية التي كانت بإمرة الشيخ الجمري مذكرة بتفعيل الدستور المعلق منذ 26 أغسطس 1975 وعودة الحياة النيابية[2]، وجاء الرد من قبل الشيخ عيسى بالرفض[3].

منعت السلطات البحرينية الشيخ الجمري من الخطابة وهددته بالإبعاد عن البحرين. هاجمت قوات البوليس ومعظمهم من المرتزقة

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Ethnic_cleansing.

(2) نص الخطاب بإيجاز: إننا الموقعون أدناه نرفع إلى سموكم هذا الخطاب انطلاقاً من مسؤوليتنا كمسلمين ومواطنين، ومن حقوقنا المشروعة كمحكومين واستناداً إلى نص المادة رقم (29) من الدستور التي تقضي بأن: لكل فرد أن يخاطب السلطات العامة وبتوقيعه. باعتبار سموكم رأس الدولة وطبقاً لنص المادة (23) فقرة (أ) من الدستور، مطالبين سموكم بإصدار الأمر لإجراء الانتخابات للمجلس الوطني عملاً بما ورد من تنظيم له في الفصل الثاني من الباب الرابع من الدستور.

(3) لا تفكير حالياً في عودة المجلس الوطني. . .إننا أمام تجربة جديدة للشورى. في 20 ديسمبر 1992، أصدر الأمير أمره الأميري رقم (9) الذي يقضي بقيام مجلس الشورى، يعين هو أعضاءه، وعددهم 30 عضواً.

الأجانب مظاهرة سلمية كانت قد انطلقت في العاصمة وقتلت منهم بالرصاص الحي عشرين شخصاً. . . . .

بعدها وخلال مدة أكثر من ثلاث سنوات حاولت السلطات البحرينية أن تفصل الملف الديني عن الملف الوطني كمبادرة لامتصاص النقمة وتشذيب المعارضة، فقام وزير الداخلية الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة ومدير الأمن العام أيان هندرسون ومسؤول جهاز الأمن والاستخبارات العقيد عادل فليفل بعقد عدة اجتماعات لفصل المعارضة العالمية الناشبة في لندن وفي لبنان وفي إيران عن المعارضة الداخلية، ولكنها لم تتمكن بل بقيت المسيرة سلمية بعيدة عن العنف يقودها الشباب البحريني المثقف عموماً. ولكن السلطات قامت باعتقال 150 ناشطاً منهم الجمري، ثم عادت وأطلقت سراحهم بعد تظاهرات كبرى في أنحاء العالم وضغط الدول الغربية. . . . . بادرت السلطة إلى إشراك 5 وزراء شيعة في الحكومة ثم استبدال هندرسون بالشيخ خليفة.

في عام 1996 تم محاكمة وإعدام المواطن عيسى قنبر 28 سنة بالإضافة إلى وفاة ستين قتيلاً إما برصاص عناصر الأمن أو تحت التعذيب.

وفي مارس 1998 توفى الشيخ عيسى ليخلفه ابنه الشيخ حمد الذي بدأ عهده بإجراءات قاسية وضغوط أمنية وتوقيعات على الإعدامات، راجع تفاصيل انتفاضة التسعينية[1].

---

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/1990s_uprising_in_Bahrain.

الوجودات الثقافية البحرينية:

لا نتكلم هنا عن التنظيمات السياسية أو العرقية أو الاجتماعية، وإنما نتناول التوجهات الثقافية التي تلتزم مصطلحي العنف والسلم وتوجهاتها وارتباطات بعضها مع البعض الآخر تبعاً لذينك المفهومين أو ما يقاربه.. هنا مع الصعوبة تحديد دقة التوجه وشفافية التصريحات، أو أدبيات التجمعات التي غالباً ما تتردد في إعلان موقفها فيما يخص العنف أو السلم، بل أحيانا تدعي إحداهما منحاً ثقافياً ولكنه في الواقع يحمل العكس، ولكن عموما فإننا سوف نحاول جاهدين تقييم الأمر بما وصلنا وبما له علاقة بطريقة تأريخها وسلوكها في تلك الفترة أو فيما قبلها من أدبيات:

التركيبة البحرينية هي ما يلي:

- *ثقافة النظام:* وتتكون من كل الأجهزة الكبيرة الأمنية والإعلامية والعائلية والعلاقات الدولية والارتباطات الاقتصادية، وهي تبدو للظاهر بأنها ترمي إلى السلم والاستقرار، ولكنها في الواقع حكومة تتميز بقدرة كبيرة متمرسة على العنف المسمى (عنف أو إرهاب الدولة)[1]. هذا

(1) تعرف الموسوعة البريطانية على الإنترنت الإرهاب عموماً على أنه (الاستخدام المنتظم للعنف لخلق مناخ عام من الخوف في عدد السكان، ومن ثم تحقيق هدف سياسي معين)، وتنص على أنه (الإرهاب غير المعرف قانونياً في جميع الأنظمة =

المكون الثقافي نقطة ضعفها هو الصحافة والرأي العام العالمي. يمسك النظام العائلة آل خليفة مع تنوع الأدوار بشكل يبدو بأنها حكومة داخل حكومة وكأن البحرين هم آل خليفة وآل خليفة هم البحرين.

● *التسنن السياسي:* يتكون من حركات الإخوان التي تأسست في أربعينيات القرن الماضي، فمع أن الحركات السنية السياسية ليس لها من حظ في منطقة الخليج، ولكنها تعمل ضمن غطاء ونسق المؤسسات الدينية الكبرى (الكارتيل) الديني الذي يتميز بسطوته في دول الخليج عموماً. بالتأكيد أدبيات الإخوان تابعة إلى المركز المصري وإلى العلاقة مع الدولة. في البحرين يتميز الإخوان بقدراتهم في داخل السلطة وهم لا يختلفون عن التوجه الطائفي أو التوجه الذي يدعو إلى مقاومة التشيع بأي صورة من الصور ولا يبالون باستعمال وسائل العنف أو التهجير أو ما إلى ذلك.

● *التسنن المذهبي:* عبارة عن وجود ضخم لا تجمعه رابطة وهو في عمله متكل على السلطة باعتبارها دولة تلتزم المذهب

= القضائية). وتضيف الموسوعة أن (إرهاب المؤسسات، وكثيراً ما يسمى إرهاب الدولة أو الإرهاب الذي ترعاه الدولة، يشير إلى العمل من قبل الحكومات - أو من قبل الفصائل داخل الحكومات - ضد مواطني تلك الحكومة ممن هم ضد هذه الفصائل داخل الحكومة، أو ضد مجموعات أو حكومات أجنبية).. راجع التفاصيل في:

http://en.wikipedia.org/wiki/State_terrorism.

السني، قادتهم هم أول من أسس الانتفاضات ضد البريطانيين، مع أن الجسم العام لا ينتمون إلى ذات المذهب. فتجمع (المؤتمر الوطني) الذي تأسس عام 1923 و1932 كان من قادتهم شخصيات سنية أهمهم عبد الوهاب الزياني واحمد بن لاجح اللذان نفيا إلى الهند، وكانت المادة الثورية لهم هم الصيادون والغواصون وهم الطبقة الشعبية التي لا تنتمي إلى التسنن تاريخياً. والتي قادت ثورة أخرى فيما بعد. في الوضع الحالي وبسبب الحشد والتخويف الإعلامي وحاجة السلطة إلى ظهير شعبي تحوّل القسم الكبير منهم إلى اعتماد الرأي السلطوي خوفاً مما كان النظام يقوم بتعبئته في أن الشيعة سيتم طردهم يوماً ما من البحرين. بالتأكيد هنالك الكثير من السنة اليوم من الطبقة المتنورة التي تشارك شباب الثورة في التوجه السلمي وفي فكرة تقاسم السلطة والمسؤولية الإدارية بين طبقات المجتمع.

- ***التوجهات القومية واليسارية:*** وهي الحركات التي سادت عصر ما قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران وبالتحديد ربما أكثر دقة ما قبل نكسة حزيران من عام 1967. تتكون من اليساريين والناصريين المتمثلة بحزب البعث والحزب الشيوعي، وقد ساهمت هذه الحركات بصورة فعالة وكبيرة إلى بناء أساس فكري ثقافي رافض للسيطرة من قبل الآخرين سواء أكان الآخرون هم بريطانيون بوجودهم في البحرين، أو النظام بشكله الجديد. في الأربعينيات قادت هذه الحركات المقاومة

المسلحة ضد البريطانيين، وكان المادة الكبرى للتشكيل هم عوام الناس وهم الشيعة أو الطبقة المهمشة. وقد أشار المفكر الكبير أمين الريحاني إلى تلك الظاهرة عندما زار البحرين في عشرينيات القرن الماضي واستباق هذه الجزيرة لبقية الأقطار العربية الكبيرة لظاهرة العروبة والاستقلال. هذه التوجهات لم يعد لها اليوم من وجود شعبي، بل تحوّل الكثير منهم إلى الحركات الدينية الفكرية خصوصاً بعد تأريخ الثورة الإسلامية الإيرانية.

- ***التوجهات الإيرانية:*** الإيرانيون قسمان كما يسمونهم (العجم) الشيعة، و(الهولة) السّنة، كلاهما يعيش على طرفي نقيض في تطرفه نحو المذهبية. وكلاهما لا يرتبطان بالوطن الأصلي أي إيران، بل هم ممن ذاب في المجتمع البحريني بكل انسيابية، فلم يعد لهاتين الطبقتين من وجود واضح منفصل عن الوجودات الثقافية. الهولة كما ذكرنا كانوا رأس حربة العنف في استخدامهم من قبل النظام في السابق ضد العجم في أعوام الثلاثينيات. في السبعينيات ذابت التوجهات العرقية وسادت التوجهات الثقافية. أما إيران كحكومة فإنها التزمت جانب نتيجة التصويت الذي تم في سنة 1970 في رفض تبعية البحرينيين إلى ايران، ولذلك فإنها لا ترى في البحرين إلا كما ترى في بقيّة أي قطر آخر عربي أو غير عربي، وهو مخالف تماماً للتوجهات التي كانت في زمن الشاه، فالتعددية القومية مع وجودها ولكنها لا تمتلك توجهاً ثقافياً مرتبطاً بالدولة الأم،

وإنما ذابت في التركيبة البحرينية. وقد خلق هذا التنوع الفكري الإثني حالة ثقافية كبرى ومهمة في تنشيط العلوم وتنشيط الترابط الاجتماعي والفكري ما بين الثقافات.

- ***التوجهات العربية الإثنية:*** وهم المتجنسون من الفلسطينيين والأردنيين والسوريين والسودانيين وهؤلاء لا يختلفون الآن عن شكل التوجه السابق في ذوبانهم في هيكل الحالة البحرينية، وليس ما يتعلق بأصولهم القومية أو الاجتماعية. ولو أضفنا لهم الأفارقة العبيد الذين كانوا في زمن من الأزمان خدماً للطبقات المتمولة الحاكمة فإننا نرى بأن الكل هم من أتباع التسنن المذهبي، وهم يدورون في فلك القوة، وفلك السلطة وليس لهم من توجه متحرر عن توجهات السلطة.

- ***ثقافة العمالة الوافدة:*** تعتبر هذه الثقافة مهمة في الوسط البحريني بسبب قدراتهم على مستوى مسيرة البلد العمالية والتكنولوجية والأمنية وغيرها. هؤلاء لم يكن لهم في السابق من تأثير على مستوى الحدث الثقافي باعتبارهم أجراء، ولكن عندما تقدر نسبتهم إلى نسبة السكان فقد يصل عددهم كلهم آسيويين وعرب إلى تقريباً أكثر من ثلث السكان، فإننا بالتأكيد يجب أن ننظر إلى تأثير ثقافتهم وأهميتها على المجتمع البحريني. هؤلاء تنظر إليهم السلطة على أنهم مُجيّرين إلى السلطة، فمعظمهم يعمل في أجهزة المخابرات والأمن، تلك الوظائف التي يأنف البحريني سنياً كان أم شيعياً في العمل

ضمنها لما يمتلك البحريني الأصيل من توجه وطني عال. هذه الطبقة لا تعتبر مكوناً ثقافياً معيناً بل هم (Fat) (دهون) الجسم ليظهر شكل قيافته وتركيبته ليس إلّا. مع الانتباه إلى أن ذلك الدهن قد يتحول إلى جانب سلبي في يوم من الأيام.

- ***ثقافة التشيع:*** وهم الحركات الشيعية والتي ربما يصل عددها إلى عشرة مسميات أهمها هي الوفاق والوفاء والائتلاف. وهم البحرينيون (الأصليون) أو كما يمكن تسميتهم (الأقدم)، وهي القطب الكبير في الصراع الثقافي مع السلطة والتي بدأت تستقطب الأقسام الأخرى تبعاً لوضوح خطتها في رفض العنف ورفض الاستفراد بالسلطة أو تهميش الآخرين. هذا مع الاعتراف بأن هنالك من تلك الفصائل العشرة من يدعو إلى المواجهة بالرد (المعتدل) العقلائي على السلطة. معظم هؤلاء هم شيعيو المذهب مع قلة مذهبية سنية تمثلها قدرات مهمة مثقفة عالية المستوى من الذين درسوا في الخارج وتعلموا في الجامعات الغربية. يخرج عن التسمية الشيعة غير المتسلحين بثقافة التشيع، وهم كما ذكرت بقايا ممن يعتمد أسلوب الرد المعتدل على السلطة. هذا مع أنني شخصياً لم أصل إلى اسم معين من تلك الأسماء، مع التأكيد على انضواء الكثير ممن كان يميل إلى المواجهة في هذه الثقافة مثل (الشيرازيين)[1] قد

(1) الأسم متأتٍّ من الرجوع في استقاء المعلومات الشرعية الدينية من المرجع الراحل السيد محمد الشيرازي (ت 1990)، وهو التجمع الذي كان يرى أهمية الدخول =

دخلوا في حوار منذ زمن بعيد مع السلطة في التخلي عن المواجهة الساخنة (غير العنف) والعمل على المستوى السياسي (المقارب للنظام) فقط. تعتمد هذه الثقافة على تأصيل مفاهيم التوجه (الإمامي) التاريخي للشيعة وهم آل بيت الرسول والأئمة التابعين لهم، وهم أربعة عشر إماما أو معصوماً يبتدئ تأريخهم منذ بداية البعثة إلى نهاية عصر الغيبة الصغرى عام 329 هجرية. هذا التيار كان مهمشاً بصورة كبيرة منذ تكوين الدولة البحرينية وإلى حين نكسة حزيران عام 1967 عندها ظهر التشيع بشكله الطبيعي المفاجئ وذلك لسببين وهما البحث عن وطنيته التي حاول النظام طمسها، وثانياً الجانب الفكري المتّقد الذي يتحلى به الشيعة بما يتعلق بالجانب الأكاديمي والجانب الثيولوجي.

= في العملية السياسية من خلال المزاحمة مع النظام بطريقة الحرب الاعلامية والتظاهرات السلمية وغيرها. وهي حركة تفرعت في معظم الاقطار التي يضطهد فيها الشيعة، ولكن إيران بعد الثورة كانت لا ترى من ضرورة لهذا التنظيم لما له من تأثيرات سلبية على الدولة أي إيران، وبذلك وبمرور الوقت تمكنت إيران من تفكيك المنظمة في كل الاقطار العربية وفي العراق كذلك حيث لم يتمكنوا وبعد عام 2003 من أن يكون لهم أي مركز في الواقع السياسي والبرلماني ولا حتى في المدينة التي نشأ فيها السيد الكبير، وبذلك انكفأت فروع التنظيم على نفسها وتبنت سياسة أقرب إلى سياسة بقيّة القوى الشيعية التي تنادي بمفاهيم الالتزام بالمرجع (الأعلى) وعدم الركون إلى الوسائل التي تثير الحاكم. توجه هذه المجموعة الفقهي مرتبط بالشيرازي والتي انتقلت إلى أخيه فيما بعد انتقاله إلى الباري عزوجل.

- ***الثقافة السلفية:*** وهي التي تتناوب في المصطلحات مع الكثير من المسميات التي تصب كلها في توجه واحد تلك هي الثقافة السعودية أو النابعة من ذات التفكير الوهابي الذي يرتبط بفقه الأحناف المتشددين. ولكن وبسبب الوضع الثقافي البحريني وارتفاع نسبة المتعلمين الجامعيين وأصحاب الشهادات العليا تقل نسبة هذا التوجه فيما بين السنة. توجهات السلفية وأدبياتها لا تختلف في كل بقاع العالم عن التزامها العنف في التخلص من المخالفين، وهو أمر شرعي يلزمهم في أتباعه، ولكن الواقع البحريني مختلف، فهم في الوقت الحالي منضوون تحت العنوان الكبير وهو النظام. أما السعودية الأم لهذا التوجه فهو معروف من خلال اعتماد العنف والتهميش لإنهاء الأزمة انطلاقاً من هدفين وهما التوجه الطائفي الضيق، وتوجه السيطرة.
- ***الثقافة الصامتة:*** وهي الثقافة التي لا ترى الحالة إلا من خلال الجانب الشخصي (Personalization) واقترابه أو ابتعاده من المنفعة الشخصية. وقد أدى هذا العامل إلى حدوث هجرات بعضها سلبي أي باتجاه الخارج، وبعضها ايجابي إلى الداخل. ومع أن هذه الثقافة الآن تعيش في ضعف ولكنها مؤثرة في الوسط البحريني عندما يتم استخدامهم من قبل قوى المال وقوى السلطة في اتجاه القبول بالأمر الواقع والانتظار إلى حين تقرر السماء ما يجب فعله. معظم المنتمين إلى هذه الثقافة هم الطبقات الاقتصادية الثرية وكذلك الفقراء المعدمين وبقايا

الأميين من البحرينيين. وتشجع الثقافة السلفية على انتهاج هذا المنحى وخصوصاً في تسويقها فكرة تجنب الأذى من قبل النظام وقوات السعودية الموجودة داخل البحرين.

الوضع البحريني الهش:

يتميز النظام البحريني بأنه امتداد للحالة البدوية التي كانت سائدة في القرون المنصرمة التي يستأثر الشيخ بكل ما في الدولة، هذا في الوقت الذي أهملت المكونات الاجتماعية والعرقية والدينية في المشاركة ببناء البلد. كما في ذات الوقت تعيش الحاكمية البحرينية في مشكلة كبرى تجاه الواقع الوطني الذي لم يعد كما هو في القرون الماضية.

فقدرة الفهم الاجتماعي ما بين المكونات الشعبية وبين النظام صارت واضحة، فعلى المستوى العمودي تجاوز المجتمع القدرة على تحويل تلك التقسيمات إلى واقع ايجابي (العشيرة، القبيلة، المذهب، الدين) كما هو التوجيه الذي تمكنت به الدول العالمية في خلقها نحو المواطنة وليس نحو الفئوية، بينما يعيش النظام في سجن لم يكن له القدرة على الخروج من نفق الفئويات الاجتماعية التي تسير بعكس ما يراه المجتمع وهو أمر سيؤدي إلى حدوث تصدعات كبرى في العلاقة ما بين الطرفين يتوجب من الجهات الاجتماعية ردم الهوة لكي يكون هنالك انسيابية في العلاقة ما بين الطرفين.

وقد رد الحاكم على الوضع المتأزم والهش باستعمال أسلوب العنف من خلال ما يسمى (الفداوية) وهو ما يشبه المليشيات الشعبية

أو أنظمة ما يسمى أحيانا (فرق الموت) (Death Squad) وذلك في بداية تثبيت حكم آل خليفة الذي كان يتسم بالدموية في تصفية المعارضين له[1]. فالأغلبية السكانية هم الشيعة الذين يتميزون بقدرات ثقافية كبيرة من التعليم ومن الثقافة العامة، ولكنهم مما يثير الاهتمام بأنهم تجاوزوا الحدود الطائفية ولم يعد التشيع لهم أو الانتماء المذهبي إلّا مدرسة من مدارس رفد الوطن ورفد الإنسان[2].

ولم تتأتَّ قدرة الاتساع الفكري وأفقيته وبعده في تقييم الأمور من فراغ، فالبحرين كانت ولحد وقت قريب هي إحدى أهم المراكز العلمية الشيعية في المنطقة عموماً، فهنالك علماء كبار سادوا العالم الشيعي الديني في فترات القرن الثامن عشر والتاسع عشر وتعدّت قدراتهم حجم الجزيرة الصغيرة[3].

---

(1) عباس المرشد، القوى المختفية، (الفداوية) وأنظمة الضبط والسيطرة (4)، نشرة الوفاق 27-11-2009).

(2) وكمثال على قدرة التجاوز الطائفي لدى البحرينيين الشيعة وجدت دراسة بأن انتخاب المرأة للمراكز القيادية كان العامل الطائفي قد لعب بنسبة 3% فقط في تقرير الانتخاب. انظر الدراسة في صحيفة الوطن على الرابط التالي:
http://www.alwatannews.net/default.aspx.

(3) الشيخ داود بن أبي شافيز، السيد ماجد الصادقي، الشيخ ميثم البحراني، الشيخ يوسف البحراني، الشيخ حسين البحراني، الشيخ علي الستري، الشيخ مفلح الصيمري، الشيخ حسين الصيمري، الشيخ حسين الحارثي، السيد حسين الغريفي، الشيخ أحمد ابن المتوج، الشيخ سليمان الماحوزي، السيد هاشم التوبلي، الشيخ سليمان بن أبي ظبية، الشيخ صالح الكرزكاني، الشيخ عبدالله البلادي، الشيخ أحمد آل حرز، السيد عدنان الموسوي، الشيخ محمد علي =

فقد كانت هذه الجزيرة على مدى قرون من الزمن منطلقاً للانفتاح على العالم بشقيه الشرقي والغربي، فقد تأصلت عدة ثقافات في مسيرة البحرينيين منذ أيام البرتغاليين ثم البريطانيين، وقد سكن اليهود أيضاً بعض الوقت في هذه الجزيرة لما لها من روح تسامحية كبيرة، قبلها كانت البحرين مركز الكنيسة الشرقية.

كما أن واقع الصراع ما بعد الإسلام ووصول العرب الذين انتحلوا الإسلام من أجل الغنائم كان شاهداً على وحشية العرب في اجتياحهم لمناطق البحرين، وهو ما دعاهم إلى تبني مواقف متباينة في سياسة متناسقة مع واقعية الثقافة التاريخية التي مرت بها البحرين. فمالوا إلى مذهب آل البيت وهو التشيع، وتمكنوا وفي أثناء فترات الحكم البرتغالي من أن يقنعوا الكثير من البرتغاليين إلى الإسلام.

بقيت هذه الثقافة إلى أن جاء آل سعود في سياستهم البدوية في الدولتين الأولى والثانية فتمكنوا من رقابهم بعد أن غيّروا الكثير من ثقافة البحرين وفرضوا عليهم الجزية والزكاة إلى أن أقنع آل سعود بنو خليفة في أن يزحفوا على البحرين لاحتلالها. ولكن الثقافة بقيت كما هي لم تتغير وهي ثقافة الانفتاح وثقافة العلم والحوار. فقد امتلأت

= المدني، الشيخ محمد أمين زين الدين، الشيخ عبدالحسن آل طفل، السيد أحمد الغريفي، الشيخ سليمان المدني، السيد علوي الغريفي، الشيخ عيسى احمد قاسم، الشيخ عبد الأمير الجمري، الشيخ حسن زين الدين. راجع الموقع الخاص:

http://alolmaa.wordpress.com/29-15/.

مدراس العلم الشيعية في النجف وكربلاء بالكثير من المهاجرين البحرينيين الذين وصلوا من أجل طلب العلم. فهو شعب يميل إلى تلقي المعرفة والتزود من التأريخ.

وبانقضاء الحرب الباردة لم تعد الدول التي كانت في العهود السابقة التي تحكم بالقانون البدوي لها من موقع في العالم، فقد تبدلت الظروف وجاءت قدرات الأمم المتحدة لتقر بأن الشعوب هي حالة عددية صوت لكل شخص، وأن الأكثرية هي التي تحكم وهو قانون عام مطبق في كل بلدان العالم إسلامية كانت أم غربية. فقد حاولت الحكومة بشتى الوسائل ومن خلال تبديل الديموغرافية أن تضخ في البحرين الكثير من الشعوب التي تنتمي تاريخياً إلى التسنن المذهبي وتمنحهم الجنسية لكي تبقى القبيلة ذاتها تتحكم في ثروات الجزيرة الصغيرة المهمة. فالأجنبي من المتجنسين الأجانب مهما تطور فكره في الوطنية فإن وطنيته تبقى مستعارة وكما يقول المثل ليس المستأجرة كالثكلى.

السكان البحرينيون كانوا على علم بأن الواقع البحريني هو أسير الواقع السعودي الذي يعشش في عقول قادته ضيق أفق الأفكار الطائفية التي تحرك السلطة في المملكة، هذه السلطة تخشى ثقافة الانفتاح، وثقافة السلم لأنها الثقافة التي تطالب بأن يُعطى لكل مواطن حقه في الدولة وفي الحياة. الثقافة السنية لا تعيش هم التعددية الإنسانية باعتبار أن التسنن مذهباً يؤكد في أدبياته على أن الشرعية الحاكمية تتأتى من القوة، فلا شرعية بدون قوة، ومن يملك

بالسيف حتى وإن كان فاسقاً فيجب طاعته، وهذه الثقافة بالتأكيد ليست إسلامية، بل هي بدوية قرشية سارت عليها معظم الدول العربية التي تسمى إسلامية، ولازال حكامها يحكمون الشعوب تحت هذا العنوان.

السعودية في زمن العولمة كان عليها أن تجد مخرج لواقع الحكم الذي تقوده، فقد انتقد السعودية معظم القادة الأمريكان والمثقفين وأساتذة الجامعات[1] معتبرين السعودية دولة ديكتاتورية دينية بدوية تحكم بعقلية ثيوقراطية بائسة قد عفا عليها الزمن وهو ما يوجب تبديل النظام. وقد تطور رفض الفكر السعودي الثقافي وطريقة قيادة دفة الحكم من قبل الشعوب كلها ومن ضمنهم الأكثرية السنية العربية المتنورة بالإضافة إلى التشيع باعتبار أن تلك الثقافة الوهابية السعودية ما هي إلّا عبارة عن مؤشر خطير لنشوء ثقافات عنف كثيرة تنتشر في الوسط الإسلامي. وفعلاً فقد نشأ ـ معظم الحركات المتطرفة من الفكر الوهابي السلفي الذي تتبناه السعودية رسمياً كتوجه ثقافي فكري.

فالسعودية اليوم في مآزق كثيرة أهمها هو الخاصرة اليمنية التي تكلمنا عنها. أما ما هو أشد من ذلك فهو الوضع البحريني الذي لا يختلف كثيراً عن الواقع اليمني، مع تباين الحدثين. فالبحرين تتميز

---

(1) Saudi Arabia: Background and U.S. Relations. Christopher M. Blanchard. Specialist in Middle Eastern Affairs. Congressional Research Service 7-5700. www.crs.gov, RL33533 February 12, 2014.

بالكثير من المزايا التي تحرج السعودية أمام الغرب وأمام المؤسسات الدولية التي تستند عليها في علاقاتها التجارية والسياسية. فأهم ما يميز البحرين هو:

- **أكثرية مهمشة لا غبار عليها.**
- **تطهير عرقي للطائفة المنافسة.**
- **سيطرة قبلية على موارد الدولة.**
- **نظام قمعي بوليسي موثق في طبيعة سلوكه من قبل المنظمات الدولية.**
- **البرلمان شكلي لا يمثل التركيبة العددية الحقيقية للشعب.**
- **وقوف بريطانيا والولايات المتحدة بوجه السعودية في إدارتها لأزمة البحرين.**

فليس من الصعب أن ندرك، أو أن يدرك المتابع السياسي بأن انتفاضة الربيع العربي في البحرين كانت موجهة بالأساس ضد السعودية، وسياستها في احتواء وتقوية السلطة الملكية الخليفية على حساب الشعب. فكل الانتفاضات التي انطلقت في البحرين على مدى عقود من الزمن هي من أجل تخليص القطر من سيطرة الجارة الغربية السعودية التي فرضت قوتها على البحرين بكل ما أوتيت من قوة فتركتها أسيرة توجهاتها السياسية والاجتماعية.

أحداث الربيع العربي البحريني (ثورة الورود):

- 14 شباط 2011 بدأت الاحتجاجات السلمية لكنها واجهت رد فعل فوري من قوات الأمن. أصيب أكثر من ثلاثين من المتظاهرين وقتل واحد كما استخدمت قوات الحكومة البحرينية الغاز المسيل للدموع والرصاص، واستمرت الاحتجاجات إلى المساء.
- 15 فبراير: قتل شخص واحد من الذين حضروا جنازة متظاهر قتل في 14 شباط، ووقع عدد من القتلى وأصيب أكثر من 25 مواطن عندما فتحت قوات الأمن النار على المشيعين. وفي اليوم نفسه، سار الآلاف من المتظاهرين إلى دوار اللؤلؤة في المنامة لإعلان احتجاجهم، وإقامة خيام فيها.
- 16 شباط: اعتقال الناشط الوطني السني محمد البو فلاسا من قبل قوات الأمن مما جعله السجين السياسي الأول للانتفاضة.
- 17 شباط: استعادت قوات الأمن السيطرة على الدوار، مما أسفر عن مقتل أربعة متظاهرين وجرح أكثر من 300 بعد أن استعمل البوليس المكون من المرتزقة والقوات الخاصة الأفريقية وهم مسلحون بمدرعات وأسلحة متطورة.
- 18 شباط: قدم نواب الوفاق، الكتلة الأكبر، استقالاتهم من مجلس النواب في الجمعية الوطنية في البحرين.
- 19 فبراير: شيع 50 ألف متظاهر جثامين الشهداء. وفي فترة

بعد الظهر، وعند اقترابهم من دوار اللؤلؤة فتحت قوات الأمن من المرتزقة النار الحي مما أسفر عن إصابة العشرات واستشهاد متظاهر.

- 21 شباط: نظمت الحكومة مظاهرة مكونة من مرتزقة أجانب ومن كل الموظفين في الدولة بما يصل إلى عدد لا يزيد عن خمسة آلاف متظاهر تحت اسم (تجمع الوحدة الوطنية) وقد ألبست الكثير منهم العقال العربي.

- 22 فبراير: أكثر من مائة وخمسين ألف بحريني شارك في (مسيرة الولاء للشهداء)، وتكريم المعارضين السياسيين الذين قتلوا على يد قوات الأمن.

- 23 فبراير: أفرج جهاز المخابرات عن مجموعة من السجناء كانوا قد سجنوا سابقاً، كما أمر بوقف كل القضايا التي تنظرها المحكمة فيما يتعلق بما سمته الحكومة سابقاً (الشيعة الضالعون بمحاولة قلب نظام الحكم) عددهم كان 308 شخصاً، الشيء الغريب بأن هنالك فقط 23 شيعي من بين ذلك العدد على حد قول الحكومة.

- 25 فبراير: تم الإعلان عن يوم حداد وطني ونظمت مسيرات مناهضة للحكومة وصل عددها إلى 600 ألف متظاهر وهو ما يمثل 40% من المواطنين البحرينيين. في نفس اليوم وأمام هذا العدد الضخم من المتظاهرين أقال الملك أربعة وزراء، هم وزير شؤون مجلس الوزراء أحمد بن عطية الله آل خليفة،

ووزير الصحة فيصل الحمر، ووزير الإسكان إبراهيم بن خليفة آل خليفة، وشؤون الكهرباء والماء فهمي الجودر (و هم من الصقور).

- 1 مارس: هاجم المتجنسون الأجانب (المرتزقة) من الهنود والباكستانيين والسودانيين والأردنيين والفلسطينيين شبان الثورة في مدينة حمد. وساعدتهم قوات الأمن في التضييق على الثوار باستعمال الغاز المسيل للدموع لاعتقال المتظاهرين[1].
- 5 مارس: عشرات الآلاف نظموا مسيرة احتجاج توجهت إلى التلفزيون الحكومي متهمةً إياها تعزيز الانقسامات الطائفية.
- 6 مارس: تصاعدت دعوات الثوار في استقالة رئيس الوزراء خليفة بن سلمان آل خليفة الذي يتولى السلطة منذ عام 1971 (عم الملك وهو الشخصية التي تمتلك القوة الفعلية في البحرين).
- 7 مارس: نظمت ثلاث احتجاجات أولها بالقرب من السفارة الأمريكية، والثاني خارج وزارة الداخلية، وثالث أمام مبنى البحرين المالي.

(1) تستخدم القوات البحرينية أنواعاً كثيرة من الاسلحة ضد المتظاهرين كلّها تسببت في قتل مواطنين، منها سلاح الشوزن القاتل المستخدم في صيد الطيور، والقنابل الصوتية المسببة لجروح عميقة ومؤذية، في حين تستخدم قنابل الغازات السامة كذخيرة حية. أقرا تفاصيل ذلك في:
http://bahrainrights.org/en/node/3864.

- 8 مارس، ثلاث جماعات شيعية متشددة تدعو إلى تخلي النظام الملكي وإقامة جمهورية ديمقراطية عبر الوسائل السلمية، في حين واصل أكبر مجموعة (الوفاق) في المطالبة بحكومة منتخبة ونظام ملكي دستوري.
- 9 مارس احتج الآلاف بالقرب من مكتب الهجرة في المنامة ضد تجنيس الأجانب (المرتزقة) وتجنيدهم في قوات الأمن، بسبب الوحشية الكبرى التي ارتكبوها في القتل والتعذيب.
- 11 مارس: صعد الثوار من الشباب تحركاتهم في تنظيم مظاهرة ضخمة توجهت إلى الديوان الملكي تحمل الزهور والأعلام، ولكن الشرطة واجهتهم بوحشية منقطعة النظير، خلال نفس اليوم شارك عشرات الآلاف في مسيرة في المنامة نظمته، جمعية الوفاق.
- 12 مارس: عشرات الآلاف من المحتجين حاصرت القصر الملكي، في نفس اليوم كان وزير الدفاع الأمريكي (روبرت غيتس) يقوم بزيارة للبلاد مما منع القوات البحرينية من استعمال الوحشية مع الشعب..
- 13 مارس: استعملت السلطة العنف بإطلاق قنابل الغاز المسيل للدموع والرصاص المطاطي لتفريق المتظاهرين في ساحة اللؤلؤة. ولكن شباب الثورة والمحتجين اشتبكوا مع الشرطة والمرتزقة وأجبروهم على التراجع.
- 14 مارس: هيأت الحكومة حوالي 150 مرتزق من أمن ومن

طلاب الجامعة لمهاجمة خمسة آلاف طالب بحريني جامعي كانوا يعدون إلى تجمع سلمي، فادعت الشرطة بأنها تدخلت لفض النزاع باستعمال الغاز المسيل للدموع والقنابل الصوتية والرصاص المطاطي ولكنها في الواقع كانت ترمي إلى إنهاء التجمع البحريني.

- 14 مارس: دعا الاتحاد العام لنقابات العمال في البحرين إلى إضراب عام وأعلن ولي العهد بياناً أوجز سبعة مبادئ التي ستناقش في الحوار السياسي، بما في ذلك (برلمان مع السلطة الكاملة) وحكومة تمثل إرادة الشعب.
- 14 مارس: الشرطة السرية البحرينية تشتبك مع المتظاهرين وتواجههم بعنف باستخدام أسلحة جديدة يعتقد بأنها كيماوية، وفي نفس اليوم طلبت حكومة البحرين المساعدة من دول الجوار. في نفس اليوم ومن خلال مسرحية مفبركة وافق مجلس التعاون الخليجي (GCC) على نشر قوات درع الجزيرة إلى البحرين. نشرت المملكة العربية السعودية حوالي ألفا جندي وساعدت دولة الإمارات العربية المتحدة نحو 500 من ضباط الشرطة، عبرت القوات إلى البحرين عبر جسر الملك فهد وهذه هي المرة الأولى في الربيع العربي تدخل حكومة عربية لمساعدة دولة أخرى. وكان رد فعل المعارضة شديداً واصفاً إياه بأنه الاحتلال، وإعلان الحرب، وطلبت في نفس الوقت المساعدة الدولية.

- 15 مارس: أعلن الملك حالة طوارئ لثلاثة أشهر. سار آلاف من المتظاهرين إلى السفارة السعودية في المنامة يستنكرون تدخل دول مجلس التعاون الخليجي، في حين وقعت اشتباكات بين رجال الأمن والمتظاهرين كانت الأكثر عنفاً في جزيرة (سترة) وامتدت طوال الصباح حتى بعد الظهر مما أدى إلى وفاة شخصين وإصابة أكثر من 200 متظاهر كما أشار إلى ذلك مجمع الأطباء في السلمانية، حيث قال المتحدث باسم المركز الطبي بأن معظم الإصابات كانت بأعيرة نارية حية. وقد أرسل جيفري فيلتمان، مساعد وزيرة الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأدنى إلى البحرين للتوسط بين الجانبين. والتي أعلنت المعارضة مباشرة بأنها تقبل الوساطة في حين أن الحكومة لم تستجب وأمرت بطرده فوراً.
- 16 مارس: في الصباح الباكر وبعد هجعة النوم بعد صلاة الفجر هاجم أكثر من خمسة آلاف مسلح معظمهم من المرتزقة وقوات الأمن التي تدعمها الدبابات وطائرات الهليكوبتر دوار اللؤلؤة، حيث كان المتظاهرون في فترة النوم داخل الخيم، وكان عدد من المتظاهرين قليل عما هو في الأيام السابقة بسبب عودتهم إلى قراهم لحماية منازلهم وخوفاً من مذبحة كبرى يرتكبها المرتزقة. تراجع معظم المحتجين من الموقع، في حين قرر آخرون البقاء. تم المعاملة مع فئة الرفض بعنف كبير. بعدها قامت قوات الأمن بتطهير وإغلاق الطرق والمركز المالي، وانتقلت إلى السيطرة على مستشفى السلمانية.

- دخل مسلحون مبنى المستشفى بالهراوات والدروع والمسدسات وبنادق هجومية بعد تأمين منطقة وقوف السيارات وتعاملوا مع الكل بشكل خال من القيم معتبرين الجميع داخل المستشفى بأنهم في مسرح جريمة. وقال شهود عيان أن سواق سيارات الإسعاف قد تم القبض عليهم داخل المستشفى وتعرضوا للضرب. كما اقتحمت قوات الأمن العيادات الصغيرة الأخرى التي قامت بتطبيب الجرحى الذين لم تستوعبهم مستشفى السلمانية مما دفع المحتجين لاستخدام المساجد كعيادات ميدانية.

- ثم انتقل الجيش إلى معاقل المعارضة حيث أقامت عدداً من نقاط التفتيش وآلاف من شرطة مكافحة الشغب، مما اضطر الناس إلى التراجع إلى منازلهم قبل حلول الظلام. نصحت جمعية الوفاق الناس في البقاء بعيداً عن الشوارع وتجنب المواجهات مع قوات الأمن والبقاء في الموقع السلمي. ثمانية أشخاص لقوا حتفهم في ذلك اليوم، وأصيب خمسة بطلقات نارية.

- 17 مارس: تم القبض على أكثر من ألف متظاهر، بينهم سبعة شخصيات معارضة بارزة، من بينهم عبد الجليل السنكيس، عبد الوهاب حسين، إبراهيم شريف، وحسن مشيمع، وعلى إثر ذلك تقدم عدد من المسؤولين الشيعة استقالاتهم. من بينهم اثنان من الوزراء وأربعة نواب وعشرات من القضاة. تجاهل

المتظاهرون في عدة قرى حظر التجول، وتجمعوا في الشوارع إلّا أن قوات الأمن اعتقلت 45 من المحتجين حيث تعرضوا لتعذيب وإهانات لفظية. في هذا اليوم اعتقلت قوات الأمن الجراح علي العبد العكري، من مستشفى السلمانية، كما اعتقل 47 من العاملين الصحيين. وقالت إفادات المعتقلين المرضى في الردهات 62، 63 بأنهم يتعرضون للضرب والشتائم من قبل قوات الأمن، وقد تم الاحتفاظ بالمرضى الذين يعانون من إصابات حيث احتجزوا الرهائن، وهم يتعرضون للضرب بشكل يومي لانتزاع اعترافات منهم. واتهم 42 طبيباً الحكومة أمام منظمات حقوق الإنسان بانتهاك الحياد الطبي، وقالت أطباء بلا حدود بأنهم منعوا المتظاهرين المصابين من الرعاية الطبية في المستشفيات التي تم استخدامها كما الطعوم لكمين لهم. رفضت حكومة البحرين هذه التقارير وقالت بأنها تفتقر إلى أي دليل. وقالت بأنها قامت بنشر القوات فقط في المستشفى للحفاظ على النظام.

- 18 مارس: تم هدم نصب اللؤلؤة في وسط دوار اللؤلؤة بناء على أوامر من الحكومة بعد أن قالت بأن الهدم هو من أجل محو (ذكريات سيئة).

- وفي 22 مارس: النقابة العامة بدعم من الوفاق علقت الإضراب العام بعد أن كان قد أعلن امتداده إلى أجل غير مسمى.

- شيع آلاف جثمان امرأة قتلت في حملة القمع في المنامة. وقد أعلن الناشطين في مجال حقوق الإنسان أن الغارات الليلية على نشطاء المعارضة تواصلت.

- 25 مارس شارك الآلاف في تشييع جنازة رجل قتل على يد الشرطة، وقد قام مئات من الناس بالهتاف الله أكبر من أسطح منازلهم في فترة ما بعد الظهر والليل. المرتزقة من الباكستانيين والجنسيات الأفريقية العاملين في قوات الأمن قالوا أنهم يعيشون في خوف لأنهم تعرضوا لهجوم من المواطنين.

- 28 مارس قاطعت حكومة البحرين عرض الوساطة الكويتية التي تم قبولها من قبل الوفاق، وقالت هيئة الإذاعة البريطانية أن الشرطة والمرتزقة تتعامل مع المواطنين بشكل وحشي بحيث تحوّلت البحرين إلى ما سمته (جزيرة الخوف). أرتفع عدد الوفيات في مارس لوحده إلى تسعة عشر.

- تلفزيون البحرين أعلن بأنه اعتقل 200 رياضياً بعد أن كال لهم تهم لا تتناسب مع مواطنين بحرينيين، منهم فتيات ومنهم شعراء، كما استهدف التسقيط قطاعات من الطبقة المتوسطة بما في ذلك الأكاديميين ورجال الأعمال والأطباء والمهندسين والصحفيين والمعلمين والشعراء.

- في الأول من نيسان، هدمت الحكومة خمسة وثلاثين مسجداً. وكان مسجد الأمير محمد البريغي الذي بني منذ أكثر من 400 سنة أحدهم.

- 2 أبريل: بدأت الحرب الإعلامية المكثفة في تسفيه وتسقيط الشخصيات الوطنية من خلال نشر أخبار كاذبة وملفقة، ثم أوقفت جريدة الوسط، لفترة وجيزة وتم استبدال رئيس تحريرها منصور الجمري.
- 3 أبريل: تظاهر أكثر من ألفي مواطن في موكب لجنازة في سترة ورددوا شعارات مناهضة للحكومة، ونواب المعارضة في المنامة نظموا احتجاجاً أمام مبنى الأمم المتحدة.
- 9 أبريل: اعتقال الناشط بحقوق الإنسان عبد الهادي بعد أن تم ضربه من قبل قوات الأمن فأصيب بنزيف في الدماغ مما حدا بنسيبه وابنته زينب وجموع غفيرة في إعلان الإضراب عن الطعام. كما مات أربعة أشخاص أيضاً من جراء الضرب وهو ما أكدته تقارير محطة الإذاعة البريطانية (BBC)[1]. كما نشرت (هيومن رايتس ووتش) ومنظمات حقوق الإنسان بأنهم اطلعوا على أربعة متظاهرين لقوا حتفهم بسبب التعذيب أثناء الاحتجاز بما في ذلك الصحفيين كريم فخراوي وزكريا راشد حسن.
- في 14 أبريل: تحركت وزارة العدل لحظر جماعات المعارضة الوفاق وجمعية العمل الإسلامي بتهمة انتهاك القوانين

(1) http://www.hrw.org/en/news/2011/04/18/bahrain-attack-rights-defender-s-home.
AND: http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-13088600.

والإضرار (بالسلم الاجتماعي والوحدة الوطنية)، وبعد انتقادات الولايات المتحدة، تراجعت حكومة البحرين قرارها.

- 16 أبريل: أعتقل محامي حقوق الإنسان محمد التاجر.
- 28 أبريل: حكمت محكمة عسكرية خاصة (محكمة الثورة) تعرف باسم (محكمة السلامة الوطنية) على أربعة متظاهرين بالإعدام وثلاثة آخرين بالسجن مدى الحياة.
- 29 أبريل: طردت الحكومة مئات من العمال من وظائفهم وفي شركة الطيران البحرينية (Gulf Air) بما في ذلك قادة اتحاد العمال لاتهامهم بمعارضة الحكومة.
- 2 مايو: اعتقلت السلطات اثنين من النواب المستقيلين الوفاق، مطر مطر وجواد فيروز.
- 3 مايو: خطابات الكراهية بدأت تملأ صحف النظام استعداداً لمذابح مماثلة للإبادة الجماعية في رواندا (قتل فيها 800 ألف مواطن) بعد وصف الشيعة بأنهم مثل النمل الأبيض (الذي ينبغي إبادتهم).
- 8 مايو: أحضر أمام محكمة عسكرية 13 من زعماء المعارضة بعد أسابيع من الحبس الانفرادي والتعذيب. كما قدم في اليوم التالي صحفيون يعملون لصحف اجنبية.
- 31 مايو: ملك البحرين يدعو إلى حوار وطني لتبدأ في يوليو تموز من أجل حل التوترات المستمرة.
- 1 يونيو: اندلعت احتجاجات في أنحاء المناطق الشيعية في

البحرين للمطالبة في إنهاء الأحكام العرفية وحالة الطوارئ ورفعها رسمياً.

- 11 يونيو: تظاهر عشرات الآلاف في مناطق مختلفة من العاصمة والحكومة تستعمل الطائرات في قمع المتظاهرين.
- 13 يونيو: قدم 48 من المهن الطبية، بما في ذلك بعض من كبار الجراحين في البلاد، في خطوة ينظر إليها على أنها مطاردة هؤلاء الذين عالجوا المحتجين الجرحى خلال الانتفاضة الشعبية التي سحقت من قبل التدخل العسكري من المملكة العربية السعودية.
- وفي 18 يونيو قررت الحكومة البحرينية رفع الحظر على أكبر أحزاب المعارضة.
- 22 يونيو: قدمت الحكومة البحرينية 21 شخصية من المعارضة إلى محاكم أمنية خاصة الذي حكم عليهم بالسجن كذلك ناشطون مؤيدون للديمقراطية لدورهم في الانتفاضة. وحكم على مجموعة من المتهمين بمدد تتراوح بين عامين وخمسة عشر عاماً في السجن.
- في 9 آب: أعلنت اللجنة البحرينية المستقلة لتقصي الحقائق أن 137 من المعتقلين قد أفرج عنهم، بما في ذلك مطر مطر وجواد فيروز والنواب الشيعة من حزب المعارضة الوفاق.
- 1 فبراير 2012: وفقاً لصحيفة ديلي نيوز الخليج كشفت

وسائل الإعلام بأن مستشار الملك حمد نبيل الحمر خطط لإجراء محادثات جديدة بين المعارضة والحكومة.

- في 9 مارس، احتج مئات الآلاف في واحدة من أكبر المسيرات المناهضة للحكومة حتى الآن. وفقا لشبكة CNN، مسيرة (تملأ الطريق السريع من أربع حارات بين الدراز والمكشة، مصور لرويترز يقدر عددها أكثر من مائة ألف، في حين يقدر نشطاء المعارضة الرقم إلى ما بين مائة إلى مائة وخمسين ألف. وسماها نبيل رجب، رئيس مركز البحرين لحقوق الإنسان مسيرة (الأكبر في تاريخنا). وكانت دعوة التظاهر قد تمت من قبل رجل الدين الشيخ عيسى قاسم، انتهت المظاهرة سلمياً، كما حاول مئات من الشبان تنظيم مسيرة إلى الموقع المهدم دوار اللؤلؤة الرمزي، وقد فرقت قوات الأمن المتظاهرين باستعمال الغاز المسيل للدموع.
- 10 نيسان: جرح سبعة من رجال الشرطة عندما انفجرت قنبلة محلية الصنع في عاقر. اتهمت الوزارة المحتجين بالهجوم.
- 30 تشرين الأول: حظرت الحكومة جميع المظاهرات، مهددة باتخاذ إجراءات قانونية ضد الذين المتظاهرين.
- 14 أغسطس 2013: دعا نشطاء المعارضة البحرينية إلى احتجاجات واسعة اعتباراً من يوم الذكرى الثانية والأربعين لعيد الاستقلال البحريني، وفي هذا اليوم أيضاً شهد سنتين

ونصف على الذكرى السنوية للانتفاضة البحرينية[1].

- وفقا لتقرير صادر عن هيئة حقوق الإنسان في البحرين، شهدت البلاد 745 مظاهرة احتجاجية في ديسمبر 2013 لوحده.
- 3 مارس 2014: انفجار قنبلة خلال احتجاجات في قرية الديه بالقرب من المنامة قتل فيها 3 من رجال الشرطة وجرح آخر كما قتل ضابط إماراتي من القوة التي دخلت البحرين، وقد تم إلقاء القبض على 25 من المشتبه بهم.
- مايو: بدأت الحكومة التوجه إلى اعتقال الفتيات في المدارس وذلك كحرب نفسية ضد المعارضة، وقد سمتها الجزيرة بأنها (غارات دورية)[2].
- بحلول منتصف مايو، دمرت الحكومة 28 من المساجد والمباني الدينية الشيعية رداً على احتجاجات مناهضة للحكومة[3]، وذكرت وزارة العدل أن المساجد دمرت لأنها كانت غير مرخصة، أنظر روبرت فيسك صاحب جريدة

(1) Toothless Parliament, Powerless Courts, and Omnipotent Incumbents? The Case of Bahrain. Michael Schmidmay. European University Institute, Florence Robert Schuman Center for Advance Studies. Medirerranean Program.

(2) (http://cadmus.eui.eu/bitstream/handle/1814/12681/RSCAS_2009_51.pdf?sequence=1).20 http://jtÙiq.com/suspended.html.

(3) Religion in a Political Context: The Case of the Kingdom of Bahrain. Magdalena Karolak. New York Institute of Technology, Bahrain. Asia Journal of Global Studies. Vol 4, No 1 (2010-11), 04-20. (http://ajgs.org/index.php/AJGS/article/view/77).

(الاندبيندنت) المسيحي الدين، البروتستانتي المذهب، الشيعي الثقافة فيما كتبه عن البحرين[1].

المقتل في الثورة:

البحرين هي الثورة الوحيدة في مسلسل الربيع العربي لم تكن وليدة التأثر بواقع رياح الربيع، فقد كانت الأحداث البحرينية أصيلة، أي أنها ليست ثورة جاءت بعامل (الحث) أو عامل الهبّة الوقتية الانفعالية. فقد كانت الثورة السلمية البحرينية مستمرة منذ عام 1994 ووصلت ذروتها في عام 2001 بعد الإعدامات والقتلى في صفوف المتظاهرين.

ولكن أين يكمن مقتل الثورة البحرينية في أن لا تنال حظها من المساندة من قبل الدول العربية...؟... يكمن في نقطتين مهمتين ولعلهما نقطة واحدة:

- *صدفة أن الشعب البحريني هو شيعي المذهب ذو ثقافة سلمية.*
- *وأن البحرين هي حديقة خلفية إلى دولة تتبنى ثقافة عنف سلفية.*

فبقي حظها متعثراً في الإعلام والمساندة كحظ حجم مساحة الجزيرة في الواقع العربي، فقد تمكن الإعلام العربي من أن يقتل كل

(1) http://www.independent.co.uk/voices/commentators/fisk/robert-fisk-why-no-outcry-over-these-torturing-tyrants-2283907.html.

خبر صادر من البحرين إلى أن ظهر عالم الانترنيت فتوسعت المصادر الخبرية حتى بات أمر البحرين معروفاً لدى العالم الشرقي والغربي.

ليس من الصعب في أن ندرك حالة العنف المميزة في المواجهة البحرينية ضد شعب هو في الواقع أعزل لا يمتلك من وسائل المواجهة كما هو الأمر المحتمل في بقيّة دول انتفاضات الربيع العربي، فقد كان للليبيين والتونسيين والمصريين واليمنيين من الخيارات في مواجهة السلطة بالسلاح، بينما هذا الخيار كان مفقوداً في الثورة البحرينية، فهي جزيرة صغيرة يعرف كل مواطن منهم الآخر، فوسائل السيطرة على السلاح ليس بالأمر الصعب، ولذلك لم تظهر أية قطعة سلاح من قبل المعارضة حتى في أشد ساعات المحنة.

خطوط التماس البحرينية:

وعندما تتواجه ثقافتان في مساحة جغرافية صغيرة وفي خطوط تماس مباشرة، تتمحور الثقافتين على شكل دائرة تتداخل أحياناً في أكثر من نقطة وهو ما يؤدي غالباً إلى تبني عامل العنف والقوة، كما هي أحداث راوندا عندما تم ذبح (800) ألف مواطن بالمنجل بسبب أن التوتسي الضحايا والهوتو الجناة كانوا متداخلين في حلقات جغرافية متقاربة وهذا ما أدى إلى حدوث ذلك النوع من العنف اللاأنساني. في حالة البحرين كان الدور السعودي غير موفق في التعامل مع الواقع الثقافي للتشيع، مع أننا لا ننكر حق السعودية التي تعتنق جانب الثقافة المغايرة وهي ثقافة العنف وإلغاء الآخر على

حسب الأدبيات الدينية التي تلتزم بها الدولة. ولا ننكر حقها فيما يتعلق بمحاولتها مواجهة الثقافة أو الفكر المذهبي الشيعي الذي يبدو لهم بأنه غريب على محيط السعودية كما يقول بذلك الكثير من المحللين البحرينيين والسعوديين[1].

مع أن التشيع (المذهبي) هو حالة تنتشر ربما في كل المناطق الخليجية، أي كل الدول من الكويت وإلى عمان، ويتكثف في الدمام ومكة ونجران والرياض والمدينة وكذلك في مناطق متنوعة داخل السعودية. ففي البحرين يتجذر التشيع منذ قرون من الزمن، فهو فكرة ليست بطارئة على المنطقة بأي حال من الأحوال. نعم قد نتفق مع أولئك في اعتبار (الثقافة) الشيعية غريبة على الوسط الحاكم سواء في

---

(1) السعودية أرض مهمة جداً ليس للعالم الإسلامي فحسب، وانما لكل الأديان شأنها كشأن أهمية الفاتيكان بالنسبة لأديان العالم. فقبل وصول العثمانيين إلى الحكم كانت الأرض تلك أي الجزيرة هي أرض وكأنها ملك آل النبي الرسول باعتبارها المنطلق للوحي ولمسيرة الإسلام. وقد تعاقبت على حكم هذه الأرض الكثير من سلالات آل البيت كان آخرهم هو الملك الشريف حسين (الجد الثالث لملك الأردن الحالي). وكان الأشراف كما هم في العالم اليوم هم سنيوا المذهب بثقافة شيعية وذلك تجنباً للمواجهة مع الدول الكبرى التي حكمت باسم التسنن في المنطقة العربية والإسلامية وخصوصاً العثمانيين الذين كانوا حساسين من ظهور طرف عربي ينتمي إلى آل البيت لأنه عندئذ سيكون البديل الشرعي لحكم العثمانيين. وقد سرى ذات الأمر إلى البريطانيين عند دخولهم الجزيرة العربية، وبذلك تعاون الطرفين واستنادا على مقولات موهومة في إلغاء فكرة دولة الأشراف الهاشمية ونفي الشريف حسين إلى قبرص ثم موته في عام 1931. أقرأ المزيد في: http://en.wikipedia.org/wiki/Hussein_bin_Ali,_Sharif_of_Mecca.

البحرين أو في السعودية، وهو أمر يتفق الكل على واقعيته باعتبار أن الثقافة الحاكمة البحرينية هي ثقافة عصبية بدوية تؤمن بالغزو والغنائم والاستلاب والتسري وما إلى ذلك مما تلتزم به البداوة التي تقرها الثقافة السعودية في طبيعة تعاملهم مع المفردات من هذا القبيل.

فالثقافة البحرينية الحكومية شيء تشاركها في ذلك الحكومة السعودية، وثقافة المجتمع البحريني شيء آخر، فمن الطبيعي أن يستعر الخلاف والصدام ما بينهما، كما تستعر أي صدامات بين مجموعة حضارية ذات توجه بنائي مع مجموعة بدوية لا تؤمن بإبداعات الإنسان، وإنما تؤمن فقط بما تدر عليه أمطار السماء من خيراتها، ومن ماكينة السلب والغنائم والقوة والحرب. وهذا في الواقع هو أصل الصراع، والاختلاف الحضاري ما بين البداوة العربية وبين مثقفي الجيل الجديد الذي ضاق ذرعاً بمقولات تلك الثقافة البائسة فتوجه إلى انتهال ثقافة أخرى كانت تسير بصورة متوازية وفي صراع مع ذلك المنطق.

الكارتيل السعودي الديني:

فقد لانكون قد أذعنا سراً إذا قلنا بأن السعودية بثقافتها البدوية القرشية بدأت هذه الأيام بالانحسار حتى بين منتمي التسنن المذهبي المشاركين لها في التوجه المذهبي الفرعي بعد أن انفتح العالم عن واقع تأريخي جديد، وبعد أن بدأت الأمم تتابع الماضي التاريخي الذي بنيت عليه مفاهيم الدولة السعودية، أو أصحاب الثقافة القرشية

البدوية. فأسلوب القتل الوحشي للشباب الثائر بتلك الصورة التي روتها المنظمات المحايدة أمر لا يمكن للمواطن العربي أن يتفهمه، نعم الاختلاف على السلطة هو أمر يحوّل الناس إلى وحوش كاسرة، ولكن في الحالة البحرينية فإن المعارضة لا تطالب بالسلطة وتلزم آل خليفة في التنازل عنها كما هو الأمر مع نظام جنوب أفريقيا ونلسون مانديلا (ت 2013)، بل أن المعارضة تؤمن بنظام ملكية دستورية كما في بريطانيا أو هولندا أو أسبانيا أو غيرها من الكثير من دول العالم، وتطالب السلطة في أن تقدم لهم أنموذجا عالمياً يحترم المواطن، وهي الدول القائمة فعلاً في أوروبا. . . . ولكن الثقافة البدوية هي ثقافة كاسحة لا تعترف في المشاركة لأنها تستند في أدبياتها ومفاهيمها على عدم الأمان أي (obscurity)، بمعناه في أن الغريم يجب أن ينهي غريمه تماماً، لأنه ربما آتته القوة باجتياحه ثانية، ولذلك فإن العقلية السعودية والحاكمية في البحرين لا تعترف بمقولة المشاركة في السلطة أو المشاركة بأي أمر آخر في الحياة سواء أكان تجارياً أم ثقافياً أم وطنياً.

* *

وعندما نلحظ هذا المفهوم نرى مصاديقه جلية في التركيبة السعودية وفي التركيبة الحكومية البحرينية وهو السيطرة على المال وعلى الثقافة وعلى السلطة وعلى العقل وعلى كل ما من شأنه أن يخلق فكراً مثقفاً أو تركيبة ربما تكون مخالفة لعقلية الدولة المسيطرة. ويحسبني في أن السعودية قد بدأت تدرك بأن المفاهيم التي أقيمت

عليها دولتهم لم تعد مقبولة عالمياً ولم تعد هي المفاهيم التي تقرها المنظمات والحكومات العالمية، فبدأت تشعر بصعوبة نشر تلك الأفكار ما بين الشعوب المسلمة لنقل السنيّة لأنّ الشيعة يتحسسون من مفاهيم التأزم الفكري منذ زمن بعيد، بل هو من أسس الثقافة الدينية المذهبية للتشيع.

تستقرىء السعودية من خلال أساطينها ومفكريها بأن العالم السني سيثأر يوماً ما وينطلق في ثورة كبرى ضد مفاهيم الثقافة التي نشرتها السعودية، ويحطم ما بنته جهود تلك المفاهيم، والتي في الحقيقة ليس لها من علاقة بحقائق الإسلام لأنها مفاهيم ضيقة والدين السماوي من المستحيل أن يظلم إنسان على حساب إنسان.

فمن البديهي أن يتحرر العالم الإسلامي ليوم من الأيام ليزيح عنه غطاء التخدير المالي والطائفي والسلفي ويتوجه لمعرفة الإسلام الحقيقي بثقافته السلمية الإنسانية. . . . . والسعودية تعلم بأنها هي المعنيّة في أي تغيير يحدث في البلدان الإسلامية سواء أكانت البحرين أو تونس أو مصر أو الجزائر أو عمان أو غيرها، فما تلك الانتفاضات إلّا عبارة عن ثورة على واقع خاطئ لم يتمكن المواطن المسلم أو العربي من معرفة أين خطأه ومن أين جاء الخطأ، ومثله كما هو المصاب بمرض عضال لازمه لعقود من الزمن بعد أن مرت عليه مرحلة متعددة من العلاجات والأمراض فلم يعد له القدرة في الاهتداء إلى السبب المرضي أو المسبب، بل جل همه الآن هو التخلص من المرض. هكذا تعيش الشعوب العربية والإسلامية، فهي

مضللة لخلال أكثر من قرن من الزمن بسبب الواقع الذي تعيشه من الأمية والفقر والتخلف، كل ذلك أدى بهذه الأمة أن تخطىء في تقدير مسببات تخلفها.

السعودية تخشى بشكل كبير من نهضة أمة ما، لأنّ النهضة هو داء (كما تعتبره)[1] ممكن أن يستشري إلى الجميع، فمشاهد الربيع العربي هو المسار الأول في نعش الثقافة السعودية التي تخطط لاحتواء العالم العربي والإسلامي، فأحداث البحرين واليمن لا يمكن لنا أن نعتبرها أحداث عادية في تقدير الثقافة السعودية، بل أنها كانت خطيرة جداً ولازالت، وكلما تفاقمت ثورات الانتفاضات الشعبية وأحداث الربيع العربي كلما توجهت السعودية إلى ضخ عاملين هامين، وهما الإرهاب والسلفية وهذان العاملان بالرغم من أنهما يعملان على النطاق الفكري النظري ولكنهما في الواقع هما عاملان مغيّران من الناحية السيكولوجية والثقافية. وهما من أخطر ما يمكن أن تواجهه المجتمعات في العالم في تشويه تأريخها ومستقبلها.

---

(1) تنعت السعودية والكارتيل الديني مصطلحات التنوير والتجديد والبحث بمسمى (البدعة) وهو لقب مسبة للفكر المتجدد، ولقد قام علماء الدين المتسيسين بتحويل مفهوم البدعة إلى مصطلح شرعي أي يترتب على متبعه عقوبات شرعية، وهذا شيء لا يختلف عن المسار التي كانت الكنيسة تتبعه في القرون الوسطى مع العلماء والمتنورين ودعاة الاصلاح. وقد تلازم المفهوم (البدعة) لا شرطياً مع (الشيعة) بشكل تلازم ذهني، فاذا قيل بدعة تبادر إلى ذهن السامع التشيع، وإن قيل شيعة تبادر إلى الذهن البدعة.. وهكذا.

ولذلك ليس من الصعب أن تلاحظ بأن الإرهاب السعودي يتناسب طردياً مع الوعي العربي والإسلامي، فكلما ازداد الوعي والثقافة والحرية الفكرية والسياسية والدينية كلما تعملق الإرهاب الفكري والسلفي من الطرف المحرك. فقد نعتقد خطأً بأن السلفية هي حركة متمثلة بشخصيات أو بمؤسسات دينية كما هي الأفكار الأخرى التي تظهر على واقع الدول أو واقع الفكر، سنخطىء ألف مرة في اعتقادنا ذلك، بل أن السلفية والإرهاب وثقافة البداوة والثقافة الاشعرية السنية السياسية هي ذات مصدر (ديني مسيس). ويا حبذا لو كانت الأشعرية أو التسنن السياسي ذو توجه فكري ديني، فهو أمر طبيعي جداً في العرف العالمي كما هم البروتستانت والانكليكان أو الكاثوليك أو غيرها من المذاهب الكبرى على وجه الأرض الآن، وإنما كل ما ذكرته هو مجيّر لحساب السياسة ولحساب ثقافة فكرية بدوية قرشية أموية تؤمن بحيازة الكل من خلال استعمال الدين في تزويق ألفاظ تلك المقولات.

فلم تكن البحرين لتتحرك طائفياً، مع أن الثوار كانوا شيعيّي الانتماء فهم يعيشون منذ بداية القرن الماضي مع ذات الوضع، وذات الحكم ولكن ما أختلف فيه هو أن العصر اليوم هو عصر حضارات لا عصر مذاهب، وعصر الثقافات يستوجب أن تدخل الثقافات المتناحرة في مواجهة مع الأخرى تبعاً لطبيعة الشعوب التي ستتواجه فيما بينها، فقد دخلت المذاهب المسيحية في حرب فكرية واقتصادية ومعرفية كما هم طوائف الانكليكان مع الكنيسة الأسقفية

(Episcopal)[1]، فالحرب الثقافية في الشعوب المتقدمة تتصارع على المعرفة وعلى التكنولوجيا وعلى الاقتصاد، وهي صراعات طبيعية تنتج بالتالي ما يغني عقل وراحة الإنسان. وعندما تعجز الشعوب المتأخرة عن فهم واقع الصراع الثقافي فإنه عندئذ يتخذ أشكالاً أخرى من خلال استعمال سلاح القتل والإقصاء والإلغاء وهو تماماً ما تمارسه السعودية مع شعوب العالم الإسلامي والعربي، لأنّ الفهم الوحيد الذي يمكن لعقولهم إدراكه في مسيرة الصراع الثقافي هو الإزاحة والتهميش ثم القتل لا غير.

ثوار البحرين كانوا ذو ثقافة حضارية لا تتأخر في تبني ثقافة الحوار، ولذلك فعندما وصل توم مالينوسكى مبعوث مساعد وزير الخارجية الأمريكية للشؤون الديمقراطية وحقوق الإنسان والعمل فإن ثقافة المبعوث التقت مباشرة مع ثقافة المنتفضين بينما رفضته وبدون

(1) الآباء المؤسسون للولايات المتحدة كان أغلبهم من أبناء الكنيسة الأسقفية (Episcopal) مثل جورج واشنطن وبنجامين فرانكلين وغيرهم. واشتهرت هذه الطائفة بكثرة رؤساء الأمريكيين ومشاهير المؤمنين بها، كما اشتهرت بكثرة العلمانيين والليبراليين وقلة محافظين منهم. كما ويعتبر أتباع الكنيسة الأسقفية الطائفة المسيحية الأكثر تعلماً وثراءاً في الولايات المتحدة، ولدى الأسقفيين أعلى نسبة من الحاصلين على شهادة جامعية (76%) فضلًا عن 35% من الأسقفيين لديهم شهادات في دراسات عليا، ويشكلون أيضاً جزءاً من النخبة الثرية والمتعلمة والسياسية في الولايات المتحدة. راجع مادة الكنيسة الأسقفية الأمريكية على الموقع:
http://ar.wikipedia.org/wiki/ الكنيسة - الاسقفية - الأمريكي

أي نقاش ثقافة السلطة وطردته من البلاد بحجج واهية[1]. كذلك رفضت السلطة وساطة من قبل الحكومة الكويتية التي تفهمت الظرف بسبب تعاملها مع ملف ثقافة التشيع منذ فترة طويلة.

بقي الثوار البحرينيون يواجهون لوحدهم عنف السلطة بشكل فيه الكثير من الإجحاف لحقوق المواطنة، فقد تمكن النظام من أن يمتلك قدرات تسليحية كبرى متطورة في إجهاض الانتفاضات مع مواصلة السجون والتعذيب تساعدها في ذلك القوات السعودية التي تساندها آليات متطورة، فكان من الصعب على شعب أعزل أن يواجه الذبح والقتل بتلك الصورة من الوحشية التي لا تقارن بما واجهه الشعبان اليمني والتونسي.

أين تكمن قوة ثقافة الشعب البحريني. .؟ تكمن في أربعة منطلقات:

- *من خلفيته الدينية الإسلامية (المذهبية) السلمية.*
- *من رموز الصبر التاريخيين الذين يعيشهم الشعب البحريني وأعني به هو الحسين بن علي المقتول في 61 هجرية.*
- *من اتساع ثقافته العلمية وضخامة عدد العلماء نسبة إلى حجم نفوس الجزيرة.*
- *من خلفية الحضارات التي توالت على البحرين.*

(1) http://arabic.cnn.com/middleeast/2014/07/07/bahrain-us-thomas-persona-non-grata.

ومع أن لكل من تلك المنطلقات من حديث ومن مسيرة فإننا نحاول أن لا ندخل في أي منها خشية من أن تخرجنا من صلب الموضوع، مع أن التركيز على الثقافة التي ترتكز على هذه المنطلقات هي ثقافة غالباً ما يكون استقرارها ثابتاً أي أنها تحمل مقومات ثقافة مستمرة، لها القدرة على أن تبقى حية متطورة تنتقل من حالة إلى حالة أخرى تبعاً للظرف والتفاعلات الداخلية.

فالعمر الواقعي للثقافة البحرينية الشيعية قديم، جاء القسم الأقل منه من فترة ما قبل دخول الإسلام، وهو الجزء الخاص بحضارة الأمم، وتميّز بالعمق التاريخي. . . . . بعد الإسلام كانت السياسة البحرينية للشعب هو رفض مبدأ القرشية القبلية العصبية والالتجاء إلى تعاليم الإسلام بدلاً من الانسياق وراء مفاهيم الحكم التي أقرتها الحكومات المتعاقبة بعد الرسول، والتي كانت عبارة عن اجتهادات مرتبطة بفكرة القبيلة لا بفكرة النص الإلهي[1]، وبذلك بقيت هذه الجزيرة في مأمن من الاضطهادات التي تمارس من قبل السلطات، وهو ما وفر ملجأً للهاربين والمضطهدين حتى جاء القرن الثامن عشر

---

(1) ترى الثقافة الشيعية وتشاركها المدرسة الدينية الشيعية بأن الوحي لا بد وأن يكون له دور في رسم الثقافة والفكر وهو ما تسميه كلا الثقافتين إما (النص) في لغة الدين، أو (السنة) في لغة الثقافة. الفكر الديني يرى باستحالة ترك الأمة بدون نص تعييني من الله كما هو استحالة ترك الإنسان بدون نبي، يسمون شخص النص ذلك (إمام)، وهو أمر متعلق بمفهوم قرآني في الآية: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124]. في اللغة الثقافية هنالك فرز عقلائي لواقع الشخصيات المغيرة الاجتماعية على شرط عدم تدخل عامل القوة وعامل الغرائز في ذلك الترشيح.

ودخول البرتغاليين الذين فتحوا أمام الشعب مجالاً خصباً في الربط مع ثقافات أخرى، في الوقت الذي كانت الصراعات في السيطرة عليها على أوجها بين القوى الكبرى في المنطقة حتى دخل حكام المنطقة في مذابح أخرى مع الثقافة المناوئة لهم وهي ثقافة الوهابيين السلفيين ثانية، ثم صوتت البحرين للحرية بأكملها في رفض الالتحاق بقومية أخرى وهم الإيرانيون مع اشتراكهم معهم في التمذهب وذلك بعد استفتاء طلبت إيران إجراءات عام 1970 على شرط أن يعترف الطرفان بالنتيجة.

وهكذا كانت الجزيرة من نصيب العرب ليواجهوا وضعاً بدوياً شرساً منذ ذلك التأريخ وإلى الزمن الحاضر. وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على قدرات البحرينيين المتميزين في الحفاظ على ثقافتهم وعلى أسس المبادئ التي استورثوها من ثقافات الأمم التي مرت بهم. أخيراً كان القرار هو تبني التشيع ثقافة مع الاعتزاز بعروبة وسلمية تلك الثقافة لكي تكون هذه الجزيرة الصغيرة نموذجاً فريداً من نماذج الثقافات الشيعية السلمية في العالم.

وماذا بعد...؟:

إنه لمخالف لسنن التأريخ أن تموت ثقافة، نعم قد يموت دين أو يموت مذهب أو تموت قومية، أو يموت مجتمع[1]، ولكن من الصعب جداً أن تموت ثقافة، قد تتأخر الثقافة لقرون وقد تصل إلى

(1) ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: 49].

مرحلة متدنية من الضعف ولكن ليس هنالك من خيار في موت ثقافة أمة، ما لم يموت الإنسان ذاته بيولوجياً عندها تموت تلك الثقافة.

فلا أعرف هل أن الخطة البحرينية في اختيار الطريق الأخير من قبل السلطة هو التخلص من شعب بأكمله..؟ أنا شخصياً لا أعتقد بذلك، ولا أرى من مبرر لحاكم البحرين في أن يقتل مليون إنسان، إن من يفكر بهذا الاتجاه فهو غير عاقل. ولكن المعتقد هو أن حاكم البحرين الشاب المتنور الذي اطلع على الغرب وعرف مسيرة الأمم كيف تعيش في ظل ديمقراطية متعاقبة لا يمتلك كل القرار، وإنما معظم قرارات البحرين بيد العائلة التي تستقي قوتها من الأم الحنون السعودية التي ترى في البحرين خاصرة موجعة جداً لها فيما لو تغيرت الظروف تحت الضغط الدولي كما حدث في أفريقيا الجنوبية وانتقلت السلطة إلى المواطنين الأصليين السود بعد أن حكم البيض أكثر من أربعمائة سنة.

الصراع المستمر ما بين الثقافتين الشيعية السلمية والوهابية السلفية المستمدة من التسنن السياسي لن تكون نتيجته من صالح أي من الطرفين حتى وإن تمكنت الثقافة الأخيرة من أن تمتلك مقومات النصر المادي في الوقت الحالي وفي خلال القرنين الماضيين، فثقافات الأمم لا تقاس بالسنين بل أن مسيرتها تابعة إلى سنن ثابتة كما هي قوانين الميكانيك والحرارة والضغط الجوي، فبالقدر الذي تتقارب الثقافات في نقاط الاشتراك بنفس القدر تزخر كلاهما بالعطاء على شعبيهما باتجاه سعادة الإنسان لأخيه الإنسان، وبالعكس كلما

تعمقت نقاط الخلاف وتنافرت جبهات التماس كلما كان المردود سلبياً على المجموع، ولا يعتقدن البعض بأن السنة التاريخية ستستثني قوم دون آخرين في انطباق القانون[1].

إنه لمن العقل في أن تتوجه السلطة إلى فتح حوار واقعي وليس حوار تكذيبي في اتجاه التمثيل الحقيقي للسلطة مبتعدة بقدر الإمكان عن الأزمات التي تعيشها السعودية والتي فرضت نفسها على الواقع البحريني في هذا الوقت. فليس من قبيل الواقع أن تعتقد الحكومة البحرينية بأن انتصارها في تهديم مجسم اللؤلؤة أو السيطرة على الشعب بقوة سلاح أو سجون أو إعلام سيعيد ساعة التأريخ إلى الوراء، فالثقافة دوماً في مسيرة وإلى الأمام حتى وإن كانت تلك المسيرة أسيرة لثقافة أخرى.

فلو حدث أي تخلخل في شكل النظام السعودي وهو الشيء الذي يتوقعه الجميع من المحللين السياسيين فإن رد الفعل الشعبي سيكون عنيفاً بشكل لا مثيل له وهو أمر ليس من مصلحة إنسان البحرين أن يصل إلى تلك النقطة من الخروج عن منطق البشر.

(1) ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: 25].

المصادر

المصادر العربية

1 - القرآن الكريم.

2 - سناء المصري، حكايات الدخول: هوامش الفتح العربى لمصر. دار سينا 1990.

3 - الاستيلاء على السلطة بالقوة بين النظرية والواقع، للكاتب د. ستار الفهداوي، المنشور في مجلة كلية الشريعة، الجامعة العراقية، بغداد العدد الخامس (ب) السنة الثالثة، 2013.

4 - الانتفاضات العربية على ضوء فلسفة التأريخ، هاشم صالح، دار الساقي 2013.

5 - البحث عن الذات، أنور السادات قصة حياتي. المكتب المصري الحديث 1979.

6 - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي ج1ص268.

7 - التأثيرات التركية في المشروع القومي العربي، حسن العلوي.

8 - التغيير الآمن. عمار علي حسن مسارات المقاومة السلمية من التذمر إلى الثورة. دار الشروق. 2012

9 - التقية، نزيه محي الدين. دار القلم، بيروت. 2006.

10 - الثورة الليبية بعد ثلاث سنوات: تحديات في سبيل المستقبل. د. سدي أحمد ولد أحمد سالم. مركز الجزيزة للدراسات. 2014.

11 - الحركات السرية في الاسلام، د. محمود اسماعيل، ص 31.

12 - الحركة الاباضية في المشرق العربي، نشأتها وتطورها حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مهدي طالب هاشم. دار الاسلام، جامعة الامام الصادق، بغداد 2009.

13 - الحركة الشيعية السرية فى القرنين السادس والسابع قبل البدوى، أحمد صبحي منصور.

14 - الشيعة والدولة القومية، حسن العلوي، مطبوعات CEDI، فرنسا 1989.

15 - العالم فكر وسجن. صلاح شبر، دار العارف، بيروت 2014.

16 - الكامل في التأريخ، عز الدين أبن الأثير، 12 جزءاً، دار صادر بيروت 1979.

17 - المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، 1998م. الجزء الخامس كتاب الملاحم والفتن.

18 - المفصل في تأريخ العرب قبل الاسلام، د. جواد علي. جامعة بغداد 1993.

19 - النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة. ج 6 ص 24.

20 - اليمين واليسار في الإسلام، أحمد عباس صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1973).

21 - تأريخ الأمم والملوك، ، محمد ين جرير الطبري، تحقيق المهنا عبد علي 10 أجزاء، مؤسسة لأعلمي للمطبوعات، بيروت 1998.

22 - توينبي ارنولد، مختصر دراسة التأريخ. المركز القومي للترجمة. القاهرة، ثلاث أجزاء 2006.

23 - سر المعبد، الأسرار الخفية لجماعة الاخوان المسلمين، ثروت الخرباوي، دار نهضة مصر للنشر، القاهرة.

24 - طبقات الرفاعية، ابو الهدى الصيادي.

25 - فتوح البلدان للبلاذري ص 225.

26 - كتاب الحركة الشيعية السرية فى القرنين السادس والسابع قبل البدوى، أولاً: بذور الحركة الشيعية فى المغرب. ظروف المشرق السياسية فى القرنين السادس والسابع.

27 - تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، سرحان بن سعيد الأزكوي العماني، تحقيق: عبد المجيد حسيب القيسي، وزارة التراث القومي والثقافة، الطبعة الرابعة، 2005.

28 - كنت طبيباً للرئيس، علاء بشير.

29 - لماذا لا يثور المصريون..؟ علاء الأسواني، دار الشروق، مصر، 2010.

30 - مقدمة بن خلدون. على الوردي. دار كوفان للنشر، بيروت لبنان 1994.

31 - نظام الحكم في الإسلام للشيخ شمس الدين، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية 1991.

32 - رحلتي الطويلة من أجل الحرية، نلسون مانديلا، ترجمة عاشور الشامس، مطبعة جمعية نشر اللغة العربية، افريقيا الجنوبية، 1998

33 - شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، الكتب العلمية بيروت 2003.

المصادر الالكترونية

1. http://adabmag.com/node/506. البحرين
2. http://adenlivetv.tv/articles-14783.html. التأثير السعودي في اليمن
3. http://alburhan.com/main/articles.aspx?article_no=4836#.U8ABPPmSxr0. الوهابية في ليبيا

4. http://alolmaa.wordpress.com/29-15/. علماء البحرين
5. http://alshirazi.com/world/article/2012/344.htm. تهديم الاضرحة في تونس
6. http://alwatan.kuwait.tt/ArticleDetails.aspx?Id = 129884. الدمرداش العقالي
7. http://ar.wikipedia.org/wiki/الكنيسة الاسقفية الامريكي
8. http://ar.wikipedia.org/wiki/سيد_عويس
9. http://ar.wikisource.org/wiki/ /البداية - والنهاية/ الجزء - الثامن/ وهذه -/ ترجمة - ابن - زياد
10. http://arabi.assafir.com/article.asp?aid = 1511& refsite = arabi&reftype = articles&refzone = articles. ثقافة القبائل
11. http://arabic.cnn.com/middleeast/2014/07/07/bahrain-us-thomas-persona-non-grata. طرد الممثل الامريكي من البحرين
12. http://arabic.rt.com/news_all_news/news/593176/ الادريسي الحسني
13. http://bahrainrights.org/en/node/3864. عنف السلطة في البحرين
14. http://classic.aawsat.com/details.asp?section = 4&article = 613210&issueno = 11799#.U7-tAfmSxr0. تصريحات القرضاوي
15. http://egypthistory.net/ عمر مكرم
16. http://en.wikipedia.org/wiki/1986_Egyptian_Conscription_Riot. تظاهرات القاهرة
17. http://en.wikipedia.org/wiki/1990s_uprising_in_Bahrain. انتفاضة البحرين
18. http://en.wikipedia.org/wiki/2008_Egyptian_general_strike. الاضراب العام في القاهرة
19. http://en.wikipedia.org/wiki/Abdullah_ibn_Saad. عبد الله بن ابي سرح
20. http://en.wikipedia.org/wiki/Ahmed_%E2%80%98Urabi. أحمد عرابي

21. http://en.wikipedia.org/wiki/Ahmed_%E2%80%98Urabi.
تأريخ ثورة عرابي
22. http://en.wikipedia.org/wiki/Al-%27%C4%80%E1%B8%8Did.
طلايع بن رزيك
23. http://en.wikipedia.org/wiki/Alfred_Rosenberg.نـظـريـة الاعـراق للباحث الفريد رونبورغ
24. http://en.wikipedia.org/wiki/Ancient_Arabs. الـعـرب الـبـائـدة.
http://countrystudies.us/saudi-arabia/58.htm. الــعــلاقــات السعودية الامريكية.
25. http://en.wikipedia.org/wiki/Anwar_al-Awlaki أنور العولقي
26. http://en.wikipedia.org/wiki/Battle_of_al-Harrah. ثورة المدينة
27. http://en.wikipedia.org/wiki/Blasphemous_libel. احترام الاديان في الغرب
28. http://en.wikipedia.org/wiki/Culture.تعريق مصطلح الثقافة
29. http://en.wikipedia.org/wiki/Demographics_of_Iraq. طوبوغرافية العراق
30. http://en.wikipedia.org/wiki/Demographics_of_Libya.
طوبوغرافية ليبيا
31. http://en.wikipedia.org/wiki/Desmond_Tutu. ديزموند توتو
32. http://en.wikipedia.org/wiki/Ethnic_cleansing تـعـريـف الـتـطـهـيـر العرقي
33. http://en.wikipedia.org/wiki/Hassan_al-Banna اغتيال البنا
34. http://en.wikipedia.org/wiki/Hassan_Mohamed_Shehata_Moussa.
محمد ذو النفس الزكية
35. http://en.wikipedia.org/wiki/Heresy. الهرطقة
36. http://en.wikipedia.org/wiki/Hussein_bin_Ali,_Sharif_of_Mecca.
الشريف حسين
37. http://en.wikipedia.org/wiki/Islamism. الاسلام السياسي
38. http://en.wikipedia.org/wiki/Jonas_Salk. د. سولك

39. http://en.wikipedia.org/wiki/Khawarij فرق الخوارج
40. http://en.wikipedia.org/wiki/Kosovo. كوسوفو
41. http://en.wikipedia.org/wiki/Mu%27tazila. مذهب الاعتزال
42. http://en.wikipedia.org/wiki/Mubahala. آية المباهلة
43. http://en.wikipedia.org/wiki/Muhammad_al-Tijani. التيجاني السماوي
44. http://en.wikipedia.org/wiki/Muhammad_Fadhel_al-Jamali. فاضل الجمالي
45. http://en.wikipedia.org/wiki/No-fly_zone. الحضر الجوي
46. http://en.wikipedia.org/wiki/Radical_(chemistry). الجذور الكيمياوية
47. http://en.wikipedia.org/wiki/Robert_Neelly_Bellah. نظرية الدين المدني
48. http://en.wikipedia.org/wiki/Sa%27id_ibn_Jubayr. ابن جبير
49. http://en.wikipedia.org/wiki/Shia_Crescent. الهلال الشيعي
50. http://en.wikipedia.org/wiki/State_terrorism إرهاب الدولة
51. http://en.wikipedia.org/wiki/Tahia_Kazem. زوجة ناصر
52. http://en.wikipedia.org/wiki/Umar_Makram. عمر مكرم
53. http://en.wikipedia.org/wiki/Washington_Institute for_Near_East_Policy.معهد إيباك
54. http://en.wikipedia.org/wiki/Yemeni_Revolution الثورة اليمنية ويومياتها
55. http://istiqama.net/nafusa /إسماعيل-بن-درار/ http://en.wikipedia.org/wiki/Dissolution_of_the_Soviet_Union. تفكيك الاتحاد السوفيتي
56. http://jt-iq.com/suspended.html. تقرير الاندبيندنت عن البحرين
57. http://lequotidienalgerie.org. عمر خليقة

58. http://photoblog.nbcnews.com/_news/2013/06/11/18886161-b-urning-monk-photo-how-a-moment-became-breaking-news-in-15-hours. حرق المونك أنفسهم في فيتنام
59. http://today.almasryalyoum.com/article2.aspx?ArticleID = 213833. زيارة نكسون إلى القاهرة
60. http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid = 357453. خطبة الزهراء
61. http://www.ahl-alquran.com/arabic/printpage.php?doc_type = 1&doc_id = 1399. تصريحات سعد الدين إبراهيم
62. http://www.ahl-alquran.com/arabic/printpage.php?doc_type = 1&doc_id = 1399.جمعية آل البيت المصرية
63. http://www.ahl-alquran.com/arabic/print-page.php?doc_type = 1&doc_id = 7986
64. http://www.ahl-alquran.com/arabic/print-page.php?doc_type = 1&doc_id = 7986.
65. http://www.ahl-alquran.com/arabic/show - article.php¢main - id11094. اغتيال البنا
66. http://www.almesbar.net/19_اليمنية – الإسلامية/.
67. http://www.alwasatnews.com/3873/news/read/764204/1.html إيان هندرسون
68. http://www.alwatannews.net/default.aspx. الطائفية في البحرين
69. http://www.amnesty.org/ar/news-and-updates/report/women-raped-during-bosnia-herzegovina-conflict-waiting-justice-20090930. مذبحة سربنستا
70. http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-13088600. الاضطهاد في البحرين
71. http://www.democracynow.org/2011/10/7/yemeni_activist_tawakkul_karman_first_female. توكل كرمان

72. http://www.digitalegypt.ucl.ac.uk/chronology/index.html. تأريخ مصر
73. http://www.elaph.com/Web/ElaphWriter/2009/11/50-1910.htm#sthash.4v8ZzcFX.dpuf الاسكندر الاكبر
74. http://www.freerepublic.com/focus/f-news/933748/posts. تصريحات ساندي بيرغر
75. http://www.hrw.org/ar/news/2013/06/27-1. تصريحات مرسي ضد الشيعة
76. http://www.hrw.org/en. حقوق الإنسان في العراق
77. http://www.hrw.org/en/news/2011/04/18/bahrain-attack-right-s-defender-s-home. تقارير التعذيب في البحرين
78. http://www.ikhwanwiki.com/index.php?title = البيعة.
79. http://www.ikhwanwiki.com/index.php?title– السعودية – والإخوان المسلمون =
80. http://www.independent.co.uk/voices/commentators/fisk/robert-fisk-why-no-outcry-over-these-torturing-tyrants-2283907.html. البحرين
81. http://www.isn.ethz.ch/Digital-Library/Publications/Detail/?id = 91731. ثورة بولونيا
82. http://www.kuwait.tt/ArticleDetails....rQuarter = 20113. الدمرداش العقالي
83. http://www.libya-watanona.com/letters/v2007a/v24mar72.htm. الوضع الليبي والفقر
84. http://www.pbs.org/wnet/wideangle/episodes/pilgrimage-to-karbala/sunni-and-shia-the-worlds-of-islam/1737/. التنوع المذهبي في البحرين
85. http://www.raialyoum.com/?p = 66320. مضايقة الاباضية في الجزائر
86. http://www.sahafaty.net/news691612.htm. ناتج النفط السعودي

87. http://www.sunni-news.net/ar/articles.aspx?article_no = 25849. الشيعة في ليبيا

88. http://www.tourath.org/ar/content/view/1285/41/ عاصم السدارتي

89. https://archive.org/details/tarikh_3oman تأريخ عمان والخوارج.

90. https://wikileaks.org/plusd/cables/1977SANA04534_c.html الوثائق السرية

91. https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/geos/ba.html. سكان البحرين

92. http://www.albainah.net/Index.aspx?function = Item&id = 7269&lang = الاردن

93. http://en.wikipedia.org/wiki/Farag_Foda. فرج فودة واغتياله

94. http://en.wikipedia.org/wiki/Tiananmen_Square_protests_of_1989 تظاهرات تيانيامين في الصين

95. http://en.wikipedia.org/wiki/Buyid_dynasty البويهيون

96. http://en.wikipedia.org/wiki/Hamdanid_dynasty الحمدانيون

97. http://en.wikipedia.org/wiki/Qarmatians القرامطة

98. http://ejabat.google.com/ejabat/thread?tid = 32de831cdbf5d964 الفرقة الناجية

99. http://en.wikipedia.org/wiki/Nelson_Mandela نلسون مانديلا

100. http://en.wikipedia.org/wiki/Winston_Churchill ونستون تشرشل

101. http://www.al-shia.org/html/ara/ahl/?mod = ashabhm&id = 42 رشيد الهجري

102. http://en.wikipedia.org/wiki/Pharaoh الفرعون

الكتب والدوريات الاجنبية

1. Congressional record. Proceeding and debates of the 106th congress first session. Volume 145-part 2. Feb 2, 1999 To Feb 24, 199 (PP 1497-3104.

2. Analyzing the Relationship Between Democracy and Development: Defining Basic Cocepts and Assessing Key Linkages. Alina Rocha Menocal. Background note (1) prepared for the Wilton Park Conference on Democracy and Development, 23-25 October 2007. (http://www.isn.ethz.ch/Digital-Library/Publications/Detail/?id=91731).
3. Library of Congress - Federal Research Division Country Profile: Yemen, August 2008 (http://lcweb2.loc.gov/frd/cs/profiles/Yemen.pdf).
4. Regionalism and Rebellion in Yemen: A Troubled National Union. Stephen W. Day. Cambridge University Press. صفحة 191. ISBN 9781107379909.
5. Completing the Count: Civilian firearms - Annexe online. Karp, Aaron.2007. Small Arms Survey 2007: Guns and the City. Cambridge: Cambridge University Press,27 August. (Q5)Full Citation. (http://www.gunpolicy.org/firearms/region/yemen).
6. Returning to political parties?: partisan logic and political transformations in the Arab world: The Yemeni Congregation for Reform (al-Islâh): The Difficult Process of Building a Project for Change. Laurent Bonnefoy. The Lebanese Center for policy Studies. 99-61 صفحة. ISBN 9781886604759.
7. Regime and Periphery in Northern Yemen: The Huthi Phenomenon Salmoni ،Barak A (2010) ،Rand Corporation ،ISBN 0833049747.
8. Yemen's Democracy Experiment in Regional Perspective. Sarah Phillips. Palgrave Macmillan. 143 صفحة. ISBN 9780230616486.
9. World Affairs Council Resource Packet: Special Focus on Libya - Understanding the Arab Spring from the Inside February 29, 2012.

10. Toothless Parliament, Powerless Courts, and Omnipotent Incumbents? The Case of Bahrain. Michael Schmidmay. European University Institute, Florence Robert Schuman Center for Advance Studies. Mediterranean Program.
11. Religion in a Political Context: The Case of the Kingdom of Bahrain. Magdalena Karolak. New York Institute of Technology, Bahrain. Asia Journal of Global Studies. Vol 4, No 1 (2010-11), 04-20. (http://ajgs.org/index.php/AJGS/article/view/77).
12. Saudi Arabia: Background and U.S. Relations. Christopher M. Blanchard. Specialist in Middle Eastern Affairs. Congressional Research Service 7-5700. www.crs.gov, RL33533 February 12, 2014

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الفصل الثالث: ماهيّة الثقافات

الفصل الرابع: صراع الثقافات في العصور الإسلامية

الفصل الخامس: انتشار الثقافات

الفصل السادس: انعكاس الثقافة السلمية الحسينية

الفصل السابع: حيز الثقافتين أو خطوط التماس